شرح

المولد النبوي

المسمّى

بالكوكب الأنور على عقد الجوهر

في مولد النبي الأزهر صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة جعفر بن البرزنجي

١٢٥٠هـ - ١٣١٧هـ / ١٨٣٤ - ١٨٩٩م

تقديم

شرح

المولد النبوي

المسمى

بالكوكب الأنور على عقد الجوهر في مولد النبي الأزهر صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة جعفر بن البرزنجي

١٢٥٠ - ١٣١٧ هـ - ١٨٣٤ - ١٨٩٩ م

تحقيق

نادي فرج درويش

الناشر: مركز بن العطار للتراث

ت: ٤٠٥٢٦٠٠

کتابخانه
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی
شماره ثبت: ۰۱۵۹۳۷
تاریخ ثبت :

نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر الشريف
مجمع البحـوث الاسـلامية
الادارة العـامة
للبحـوث والتاليف والترجمـة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

٢١٥٢

السـيد / نادي فرج درويش

السـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ــ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : شرح المولد النبوي المسمى بالكوكب الأنور على عقد الجوهر تاليف : جعفر بن حسن البرزنجي تحقيق / نادي فرج درويش

نفيد بان الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـه ونشره على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـاكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والاحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـع .

واللـــه المـــوفق ،،،

والســلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

مـدير عـام
ادارة البحوث والتـاليف والترجمـة

تحريرا فى / / ١٤ هـ
الموافق ١٨ / ٨ / ٢٠٠١ م

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
مقدمة التحقيق	٧
ترجمة الشارح	١٠
مقدمة المؤلف	١٥
مقدمة فى أصل عمل المولد	١٧
فضائل بسم الله الرحمن الرحيم	٣٠
نسبه الشريف ﷺ	٦٣
الإشارة إلى قصة الذبيح	٩٨
خاتمة	١١٨
تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله امرأة من بنى زهرة وحمل آمنة برسول الله ﷺ	١٢١
ما وقع فى حمله ﷺ من الآيات	١٢٩
تسميته ﷺ محمداً	١٤٤
أسمائه الشريفة	١٤٦
وفاة والده عبد الله بن عبد المطلب	١٤٨
أسماء المدينة النبوية	١٤٩
مولد النبى ﷺ عام الفيل	١٧٣
فى تكلمه ﷺ فى المهد	١٧٩
فى حزن إبليس لما ولد رسول الله ﷺ	١٨٠
فرح جده عبد المطلب به ﷺ وتسميته له محمداً	١٨٤
انفلاق البرمة حين وضع ﷺ تحتها	١٨٥
ولادته ﷺ مختونًا مسروراً	١٨٧
الخوارق التى ظهرت بمولده ﷺ	١٩٦
إجابة دعائه ﷺ	٢٢٧
محل مولده ﷺ	٢٢٩
تعظيم مكة وحرمها	٢٣٠
أسماء مكة	٢٣٣
تاريخ مولده ﷺ	٢٣٤
قصة إهلاك أصحاب الفيل	٢٤٢
رضاعه ﷺ	٢٤٨
شق صدر النبى ﷺ مرة ثانية	٢٦٢
إسلام السيدة حليمة وزوجها رضى الله تعالى عنهما	٢٨١

وفاة أمه آمنة بنت وهب ٢٨٤
حضانة أم أيمن له ٢٨٧
كفالة عبد المطلب رسول الله ﷺ ومعرفته بشأنه ٢٩٠
وفاة جده عبد المطلب وحضانة عمه أبو طالب ٢٩٦
ما ظهر من الآيات وهو فى كفالة عمه أبو طالب ٢٩٨
استسقاء أبى طالب برسول الله ﷺ ٢٩٩
سفر النبى ﷺ مع عمه أبى طالب إلى الشام وما ظهر فيه من الآيات ٣٠١
معنى النبى والرسول والنبوة والرسالة ٣٠٣
سفره ﷺ مرة ثانية إلى الشام ٣١٢
زواجه ﷺ من السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ٣٢٢
أولاده ﷺ ٣٣٠
أزواج رسول الله ﷺ ٣٣١
سراريه ﷺ ٣٣٣
قصة بناء الكعبة ٣٣٥
خاتمة نسأل الله حسنها ٣٥١
البعثة ٣٥٥
سن رسول الله ﷺ حين بعث نبيًا ٣٥٥
فى ابتدائه ﷺ بالرؤيا الصادقة ٣٦٢
ذكر ما كان يتعبد به النبى ﷺ قبل النبوة ٣٦٨
فترة الوحى وذكر الخلاف فيمن قرن برسول الله ﷺ من الملائكة فى نبوته ٣٨٤
خاتمة فى أحوال إتيان جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ، وكيفية رؤية النبى ﷺ له ٣٩٢
أول من أسلم من الرجال ٣٩٦
أول من أسلم من الفتيان ٤٠١
أول من أسلم من النساء ٤٠٥
أول من أسلم من الموالى ٤٠٧
أول من أسلم من العبيد ٤٠٩
إسلام عثمان بن عفان ٤١٢
إسلام سعد بن أبى وقاص ٤١٦
إسلام سعيد بن زيد ٤١٨
إسلام طلحة بن عبيد الله ٤١٩
إسلام عبد الرحمن بن عوف ٤٢١
إسلام الزبير بن العوام ٤٢٥
الهجرة الأولى إلى الحبشة ٤٣٢
أمر الصحيفة ٤٣٥
رجوع القادمين من الحبشة والهجرة الثانية ٤٣٦
ما جرى لرسول الله ﷺ مع أبى طالب عند موته ٤٣٩

وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها ٤٤١
بعض ما لاقاه رسول الله ﷺ من قريش بعد موت أبى طالب ٤٤٢
سفره ﷺ إلى الطائف ٤٤٤
الإسراء والمعراج ٤٥١
اختلاف العلماء فى رؤية النبى ﷺ لربه ليلة المعراج ٤٩٢
تعليم جبريل رسول الله ﷺ الصلاة ٥٠٥
عرض النبى ﷺ نفسه على القبائل ٥٠٦
العقبة الأولى ٥١٢
العقبة الثانية ٥١٤
إذن النبى ﷺ للمسلمين فى الهجرة إلى المدينة ٥٢٣
سبب هجرة النبى ﷺ بنفسه الكريمة ٥٢٦
هجرته ﷺ وما وقع فى ذلك من الآيات ٥٣٠
صفة خروج رسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه إلى الغار ٥٣٢
ذكر إقامتهما فى الغار وما جرى لهما فيه ٥٣٤
قصة سراقة رضى الله عنه ٥٤٣
قصة الراعى ٥٤٦
قصة أم معبد رضى الله عنها ٥٤٨
لقاء رسول الله ﷺ فى طريق المدينة بُريدة الأسلمى وتفاؤله باسمه ٥٥٥
قدومه ﷺ المدينة وفرح أهل المدينة برسول الله ﷺ ٥٥٦
بناء مسجد قباء ٥٦١
دخوله ﷺ المدينة ونزوله بيت أبى أيوب الأنصارى ٥٦٤
بناء المسجد النبوى فى المدينة ٥٦٥
السنة الأولى من الهجرة ٥٦٧
السنة الثانية ٥٦٧
السنة الثالثة ٥٦٧
السنة الرابعة ٥٦٧
السنة الخامسة ٥٦٨
السنة السادسة ٥٦٨
السنة السابعة ٥٦٨
السنة الثامنة ٥٦٨
السنة التاسعة ٥٦٩
السنة العاشرة ٥٦٩
وفاة رسول الله ﷺ ٥٧٠
كمال خلقته وجمال صورته ﷺ ٥٧١
صفة لونه ﷺ ٥٧٦
صفة عينيه وحاجبيه ﷺ ٥٧٧

صفة فمه ﷺ وأسنانه ٥٧٩
صفة جبينه ووجهه ﷺ ٥٨١
صفة أنفه الشريف ﷺ ٥٨٣
بعد ما بين منكبيه ﷺ ٥٨٤
صفة يديه ﷺ ٥٨٤
ضخامة كراديسه ﷺ ٥٨٥
صفة عقبه ﷺ ٥٨٦
صفة لحيته ﷺ ٥٨٦
صفة رأسه ﷺ ٥٨٦
صفة شعره ﷺ ٥٨٧
صفة خاتم النبوة ٥٨٩
عرقه وطيب ريحه ﷺ ٥٩٠
صفة مشيه ﷺ ٥٩٢
صفة وجهه ﷺ ٥٩٦
صفاته المعنوية عليه الصلاة والسلام ٥٩٧
حياؤه ﷺ ٥٩٧
تواضعه ﷺ ٥٩٩
حبه ﷺ للمساكين ٦٠٣
عطفه ﷺ على المساكين ٦٠٥
سماحته ﷺ ٦٠٦
شفقته ورحمته ﷺ ٦٠٨
غضبه ﷺ لله ٦٠٩
آدابه في مشيه ﷺ ٦١٠
سيرته ﷺ في ركوبه ٦١٢
خيله ودوابه ﷺ ٦١٣
صبره ﷺ على الجوع ٦١٥
آدابه ﷺ في كلامه ٦٢٠
آدابه ﷺ في السلام ٦٢١
سيرته ﷺ في صلاته ٦٢٢
سيرته ﷺ في خطبته ٦٢٣
تأليفه ﷺ للقلوب ٦٢٥
مزاحه ومداعبته ﷺ ٦٢٧
خاتمة ٦٣٠
عقد الجوهر في مولد النبي الأزهر ٦٥٧
ثبت بأهم مراجع التحقيق ٦٧٥
فهرس الموضوعات ٦٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

نحمد الله تعالى على آلائه التى أصبحت القلوب بصفائها مشرقة، وأضحت الأسرار ببهائها رياضًا مونقة، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل قلوب العافين بعروة كرمه الوثقى متعلقة، ويحب رسوله مشرفة متشوقة، ونشهد أن نبينا ورسولنا محمدًا عبده ورسوله أرسله بحقٍ شرعه، وشرعٍ حققه، وأخمد بنور برهانه لهب الباطل وأزهقه. اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن آمن به وصدقه.

وبعد:

فسيرة رسول الله ﷺ خير سيرة، وعترته خير عترة، وشجرته خير شجرة نبتت فى حرم، وبسقت فى كرم، واستوت فى عظم، فهو جملة الجمال، وكل الكمال، فضائله أكثر من أن تحصى، ومناقبه لا تستقصى.

فبالغ وأكثر لن تحيط بوصفه ... فأين الثريا من يد المتناول؟

نعم.. ذكر سيرة المصطفى تزيد فى الإيمان، وتضىء القلوب بأنوار العرفان؛ لأن الله تعالى جعل محبة رسول الله مشروطة بمحبته **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾** (١)، وطاعته منوطة بطاعته **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾** (٢)، وبيعته مقرونة ببيعته **﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾** (٣)، وذكره مقرونًا بذكره، فما ذكر أحدٌ محمدًا بالرسالة إلا

(١) سورة آل عمران: ٣١.

(٢) سورة النساء: ٨٠.

(٣) سورة الفتح: ١٠.

وذكر الله بالربوبية ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ (١).

ضمَّ الإله اسم النبى إلى اسمه | إذ قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشقَّ له من اسمه ليجلّه | فذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ

ولقد احتفى كون الله ـ تعالى ـ كله برحمته للعالمين وإبراز ما حلاَّه الله به من حسن أخلاقه وكريم شمائله وصفاته، وما خصه به من المكارم والمحاسن، تجد ذلك واضحًا فى أصدق كتاب وأعظم بيان: ﴿**يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا * وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا**﴾ (٢).

فهو ﷺ الشاهد لمن آمن به واهتدى، وعلى من جحد واعتدى، البشير بالثواب لمن أطاع مولاه، النذير بالعقاب لمن آثر هواه، الداعى إلى الله بإذنه إظهارًا للحجة، السراج المنير لمن آمن به واستضاء بنوه فأبصر المحجَّة.

من زمن آدم عليه السلام ورسول الله مستور الصورة منشور الذكر، أخذ الله الميثاق له من الأنبياء على تصديقه، وضمن نصره وتوفيقه ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَمَا آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**﴾ (٣).

فمن ثَمَّ فقد أخذ رسولنا صفوة آدم، ونوْح نوح، فى بعض درسه علم إدريس فى ضمن وجده حزن يعقوب، شطر حسنه كل حسن يوسف، فى سرّ وجده صبر أيوب، فى طىّ جوفه بكاء داود، بعض غنى نفسه يزيد على ملك سليمان، حاز خلة الخليل، ونال تكليم الكليم، وزاد رفعة على الملأ الأعلى، فكان برهانه أوضح وأحلى.. هو بين الأنبياء والمرسلين: واسطة العقد، وزينة الدهر، يزيد عليهم زيادة الشمس على البدر، والبحر على القطر، فهو

(١) سورة الشرح: ٤.
(٢) سورة الأحزاب: ٤٥، ٤٦.
(٣) سورة آل عمران: ٨١.

صدرهم وبدرهم، قطب ولايتهم، عين كتيبتهم، واسطة قلادتهم، بيت قصيدتهم، نقطة دائرتهم، شمس ضحاهم، هلال ليلهم، نوره أنور، وبرهانه ازهر، وسره أظهر، وفضله أعلى، وذكره أحلى، صورته أجمل، ودينه أكمل، ولسانه أفصح، ودعاؤه أنجح، وعلمه أنفع، ونداؤه أسمع، حوائجه أقضى، وشفاعته أمضى، نصره مؤيد، واسمه محمد، جسمه لله أعبد، ورسمه بين الخلائق أوحد، واسمه فى الإنجيل أحمد، هو حبيب المولى، وهو بالمؤمنين من أنفسهم أولى.

من هذا النبع الصافى الدفاق، هفا قلب المحب المشتاق ليعبر عن حبه فى ساحة رحمة الخلاق، وحب رسول الله ﷺ ينبع من عقيدة صادقة صافية، ويقين راسخ، وعاطفة نبيلة، عاقلة رشيدة، لا يشوبها الغلو، ولا يمسخها الهوى، ولا يعبث بها التعصب المقيت ولكن:

فمبلغ العلم فيـه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

ولكن ماذا يقول المادحون:

إذا كـان رب العرش جل جلاله
أثنى عليك فما مقدار ما يمدح الورى
ونادى جميع الرسل كلاً باسمـه
وخصَّك أنت بالرسـول وبالنبى

أنقول: جمَّلك الله يا رسول الله؟! فأنت جملة الجمال، وكل الكمال، نور الحق، وقدوة الخلق، مجتبى الله ومصطفاه، وخيرته من خلقه ومرتضاه.

يا مصطفى من قبل نشأة آدم والكون فى طور من الإغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعـد ما أثنى على أخلاقك الخلاَّق

أمام هذا الكون الإنسانى المحشود بالفضائل، الموصول بالله انطلقت عاطفة الحب الإيمانى تمدح دينها فى رسولها، وتشيد بفضائل رسولها، منطلقة من تمسكها بدينها، وستظل هذه العاطفة صداحة مغردة تهفوها القلوب، وتلهج

بها الألسنة، وتتلألأ بها المآذن، حتى سماع المنادى من مكان قريب.

وهذا المولد الذى بين أيدينا للشيخ الجليل جعفر بن حسن البرزنجى طيب الله ثراه، وأثابه خير الجزاء - من قبيل هذا الحب العاقل الرشيد، ولقد كان لهذا المولد مع العارفين المحبين رحلة طويلة، ومدة مديدة، وتناقله الناس ينبئ عن صدق لهجة مؤلفه وعظيم وفائه.. ثم يأتى نبته الصالح ليواصل مسيرة الحب والصدق، فأضاف إلى التقى زهداً، والشهد زبداً، وقلد لنا جواهر سلفه بلآلئ البيان بشرح مستفيض وتبيان، مقتنصاً الشوارد، ومقيداً الأوابد، عازياً الفروع إلى أصولها، والروايات إلى مصادر نقولها، حتى تعم الفائدة، ويعظم النفع، فجزى الله الجميع الخير والسعادة، وأنالنا بحب رسوله الحسنى وزيادة..

اللهم اجمعنا تحت لوائه وفى زمرته، واسقنا من حوضه، واجعلنا من أهل شفاعته ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

القاهرة فى منتصف شهر شوال سنة ١٤١٧ هـ

الموافق ٢٢ فبراير ١٩٩٧ م

من المحبين لله ورسوله
أ. د. على محمد عبد الوهاب
وكيل كلية الدعوة الإسلامية
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذى وهب لنا العقول والأذهان، ومنحنا فصاحة اللسان، وألهمنا التبيان، وحثنا على التحلى بالحلى الأدبية، والتخلق بالمكارم العلية، ورغبنا فى الاقتداء بالسنن السنية، والاهتداء بالأقوال المرضية، وأرشدنا إلى الطريق الأسنى، وأمرنا بالإحسان والأفعال الحسنى، ونهانا عن الأخلاق الدنيئة اللئيمة، والأفعال الرديئة الذميمة، وأنعم علينا بالبلاغة والبيان فقال جلَّ وعلا فى محكم القرآن:

﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً﴾.

فبالبيان تستخرج الحقائق، وتنمق الحكم الرقائق، ويتوصل إلى معرفة الخالق، ويستعان على شرح العلوم، ويتفنن فى الكلام المنثور والمنظوم، وبمكارم الأخلاق يستدل على فضل الطبع وكرم النحر وطيب الأعراق، وبالاستمساك بحبل المروءة والآداب تظهر نتيجة العقل وثمرة الألباب.

فهدانا سبحانه وما كنا لنهتدى لولا عونه وفضله، ووفقنا ولم نكن نتوفق لولا امتنانه وطوله. نحمده تعالى والحمد من إحسانه الجسيم، ونشكره والشكر من إنعامه العميم.

ونصلى ونسلم على سيدنا ومولانا محمد النبى الأمى الكريم، المخصوص فى الأنبياء بمزية التفضيل والتقديم، المحفوف بالعصمة، المؤيد بالحكمة، الذى أوتى من البيان الحظ الأوفى، والقسم الأفضل الأعلى، فلا كلام يعدل كلامه ولا بيان كبيانه، فهو أفصح الناطقين، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، صلى الله عليه وعلى آله وعلى جميع النبيين والمرسلين وسلم تسليمًا كثيراً.

وبعد:

فإن التأليف غير موقوف على زمان، والتصنيف ليس بمقصور على أوان، لكنها صناعة ربما قصرت فيها سوابق الأفهام، وسبيل ربما حادت عنها أقدام الأوهام.

قال بعض الحكماء: لكل شيء صناعة، وصناعة التأليف صناعة العقل.

وقال أبو عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ: لولا تفسير العلماء ونقلهم آثار الأوائل فى الصحف لبطل أول العلم وضاع آخره.

ولذلك قيل: لا يزال الناس بخير ما بقى الأول حتى يتعلم الآخر.

وقال ابن فارس ـ صاحب «مجمل اللغة» ـ: لو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام ثاقبة، وللفظت القلوب كل مرجع.

والذى عليه فى التأليف المدار: هو حسن الانتقاء والاختيار مع الترتيب والتبويب والتهذيب والتقريب.

هذا ما حدث لكتاب «**الكوكب الأنور على عقد الجوهر فى مولد النبى الأزهر**» فقد تناوله الشارح وهو حفيد المؤلف بالشرح والتحليل وبيَّن فى هذا الكتاب كل ما هو جميل من نبينا عليه الصلاة والسلام، وشرح كل غامض وأزال كل إشكال بالتفحيص والتمحيص، وبدأ بميلاد النبى ﷺ، وتعرض لأقوال العلماء والفقهاء، ثم شرح الإشكالات حول هذا الموضوع، ثم انتقل من حدث إلى حدث حتى وصل إلى نهاية الكلام عن هذا الأمر، ولم يكن ابن البرزنجى بدعًا من المؤلفين حين ألف هذ المُؤلف، ولكن سبقه علماء فى هذا الأمر، وعلى رأسهم العلامة جلال الدين السيوطى فقد ألف: «حسن المقصد فى عمل المولد».

ونتعرض فى هذا الكتاب لكثير من أقوال العلماء حول هذا الموضوع، وذكر أول من ألف فى هذا الموضوع.

ولقد ذكر الكتاب فى كثير من المصادر والمراجع العربية، والمؤلف علم من أعلام الإسلام.

نسأل الله تعالى التوفيق والسداد، إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين.

نادى فرج درويش

ترجمة الشارح

هو العالم الفاضل السيد «جعفر البرزنجى ـ مفتى الشافعية بالمدينة المنورة ـ ابن العلامة السيد إسماعيل ابن العلامة السيد زين العابدين ابن العلامة السيد محمد الهادى ابن العلامة السيد زين ابن العلامة السيد جعفر ـ مؤلف المولد المذكور ـ ابن العلامة الإمام السيد حسن ابن العلامة السيد عبد الكريم الشهير بالمظلوم ـ المدفون بجدة ـ ابن الإمام العلامة السيد محمد المدنى ابن السيد رسول البرزنجى» رحمهم الله تعالى.

ولد ونشأ فى «السليمانية» من أعمال شهرزور بالعراق عام ١٢٥٠ هـ ـ الموافق سنة ١٨٤٣ م.

سافر «جعفر» إلى مصر، فدخل الأزهر، وعاد مع أبيه إلى المدينة المنورة عام ١٢٧١ هـ، واستكمل فيها دراسته.

تصدر للفتوى والتدريس ـ بعد وفاة أبيه ـ عام ١٢٧٧ هـ.

سافر إلى استانبول، فعين قاضيًا لـ «صنعاء»، فأقام فيها ست سنوات.. ثم عاد إلى المدينة مستعفيًا.

دعى للقضاء بـ «سيواس» فى تركيا سنة ١٣٠٧ هـ، فأقام عامين.

عاد إلى المدينة مفتيًا ومدرسًا إلى أن توفى عام ١٣١٧ هـ الموافق سنة ١٨٩٩ ميلادية.

كان ـ رحمه الله تعالى ـ يحسن ـ مع العربية ـ اللغة التركية، والفارسية، والكروية..

وكان له اشتغال بالتاريخ والأدب.

فمن أعماله:

ـ «نزهة الناظرين ـ ط»: فى تاريخ المسجد النبوى.

- «الشجرة الأترجية فى سلالة السادة البرزنجية - خ»: أوراق منه.

- «تاج الابتهاج على النور الوهاج فى الإسراء والمعراج - ط».

- «شواهد الغفران - خ»: بخطه، فى الرباط (٤٣٥ ك)، فى فضائل رمضان.

- «الكوكب الأنور على عقد الجوهر فى مولد النبى الأزهر - ط»: شرح لقصة (المولد النبوى)، من تأليف «جعفر بن حسن البرزنجى» المتوفى عام ١١٧٧ هـ - سنة ١٧٦٤ م.

كما أن له نظم أيضًا[١].

***

(١) الأعلام - خير الدين الزركلى - الجزء الثانى - دار العلم للملايين - بيروت، نوفمبر سنة ١٩٨٤م.
- محمد سعيد دفتر دار - فى جريدة (المدينة المنورة) ١٤، ٢١، ٢٨ ذى القعدة عام ١٣٧٩هـ.
- المعجم الشامل للتراث المطبوع - جزء أول - معهد المخطوطات العربية - بالقاهرة سنة ١٩٩٢ م.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الكوكب الأنور
على
عقد الجوهر

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلف]

سبحان من أطلع فى سماء الأزل شمس الحقيقة المحمدية وأنار الوجود بإظهار بدره المنير واصطفاه، وأينع فى رياض ربيع أوصافه الملكية أزاهير أفنان حضرته واجتباه، أحمده أن أنشأ هذا النظام البديع من ذلك النور الذى هو معدن أسراره الإلهية واختاره محطًا لنظره ومظهراً لجوده وقامعًا لمن عبد سواه وأشكره أن شرح بحقائق دقائق مولد الذات الأحمدية صدور أوليائه الذين أرشدهم بفضله وهداه، وسرَّح ضياء قلوب المخلصين فى مراتع محاسنه البهية ووشَّح بعقد الجوهر أعناق أفهامهم فنشروا وجمعوا فرائد وصفه وثناه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهًا تنزَّه فى ذاته الوحدانية وصفاته الأحدية عن أن يتخذ ولدًا أو شريكًا وتقدَّس عن النظائر والأشباه، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله الذى أضاء الكون شموس محاسنه النورانية وشخصت نواظر الحور العين لبديع محيَّاه، وقطعت صوارم بروق هيبته النبوية حجاب قلوب الجاحدين لدين الله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه كنوز المعارف الإلهية الذين بذلوا أنفسهم فى نصرة الحق يبتغون فضله ورضاه.

(وبعد):

فيقول المفتقر إلى ربه الجليل جعفر بن إسماعيل إن الكتاب المسمى: «**عقد الجوهر فى مولد النبى الأزهر**» للسيد الفاضل، والهمام الواصل، العلامة الإمام، والجهبذ الخِرِّيت[1] القمقام[2]، مفيد الطالبين، مفتى المسلمين، الجدّ المرحوم السيد جعفر بن السيد حسن البرزنجى، لا برح فى مقعد صدق عند

(١) الخِرِّيت: الحاذق والماهر بالشىء.

(٢) القمقام: البحر.

الكريم المنجي.. كتابٌ قدره جليل، وهو على جلالته أدل دليل، وفاق فى بلاغته جميع المؤلفات فى هذا الشان،وطربت بادراً لمقاصده العقول والأذهان، كيف لا وهو الحاوى للمعجزات العظيمة، والحاكى للشمائل الكريمة.

ولعمرى لقد أظهر فيه من كنوز الفصاحة وأسرار البلاغة، وأجرى جواد السبق فأحرز قصباته في ميدان البراعة، وأتى بمنوال لم يُسْبَق إليه، وجزم بعذوبة موارده الواردون عليه.

وهو ـ وإن شُرِحَ ـ يحتاج إلى شرح يحرر مقاصده وينقح فرائده ويوضح ما فيه من مطويات الرموز ومخبآت الأسرار، ويكشف عن وجوه عرائس فوائده الأستار، ويُعْرِب عن عجائب تدقيقه ومحاسن تحقيقه، ويفصح عن جواهر تنميقه وبدائع تأنيقه، فاستخرت الله تعالى فى شرح ذلك، وإن كنت بمعزل عما هنالك، موشحًا ذلك بما وقفت عليه من الأحاديث المرضية عند العلماء، وما ظفرت به من الأقوال المستحسنة لدى الفضلاء، فوضعت عليه هذا الشرح اللطيف والأنموذج الشريف من غير أن يطلبه منى طالب، أو يرغب إلىَّ فى تصنيفه راغب؛ لكن تطلبت نفسى فيه مدح الأمين المأمون، زكى المنابت طيب الأغراس، الذى ظهرت عند حمله وولادته ورضاعه آيات حيرت عقول ذوى الأنفاس، فأودعته نفائس كأنهن الياقوت والمرجان، وعرائس لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان.

وسميته «**الكوكب الأنور على عقد الجوهر**» راجيا من الله أن يهدينى إلى الصراط المستقيم، ويقلدنى قلادة العبودية من خزائن إنعامه الجسيم، ويتوجنى بتاج القبول، ويبلغنى كل مقصود ومأمول، وأن يغفر لى ولمشايخى ولوالدى، ولمن أحسن إليهما وإليهم وإلىَّ، وأن يحشرنا والمسلمين يوم القيامة تحت لواء سيد الأنام، وأسأله أن يجعله بفضله العميم خالصًا لوجهه الكريم، وذخرًا لى يوم الحساب، وخيرًا جاريًا بعدى إذا صرت رميمًا تحت التراب، إنه هو البر التواب الكريم الوهاب، وأسأله أن يعيننى على التكميل، فهو حسبى ونعم الوكيل.

مقدمة فى أصل عمل المولد [1]

اعلم أنه بدعة لأنه لم ينقل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة الفاضلة التى شهد النبى ﷺ بخيريتها، لكنها بدعة حسنة لما اشتملت عليه من الإحسان الكثير للفقراء، ومن قراءة القرآن وإكثار الذكر والصلاة على النبى، وإظهار الفرح والسرور به ﷺ، ولأجل ذلك لما ظهرت بعد تلك القرون الثلاثة لم يزل أهل الإسلام فى سائر الأقطار يحتفلون فى شهر مولده ـ خصوصا فى ليلته ـ بعمل المولد، فى ولائم مشتملة على كثرة المطاعم والإحسان والصدقات والمبرات، مع الإكثار من قراءة القرآن والذكر، وقراءة مولده وما ورد فيه من الخبر الثابت وما اشتمل عليه من كراماته ومعجزاته.

على أنه ليس قيدا فى استحباب عمل المولد المذكور وإنما هو لزيادة الأجور، ولقد قال الإمام الجليل الشمس ابن الجوزى[2]: إن مما جرب أن من فعل ذلك كان له أمانا فى ذلك العام.

وأول من أحدث ذلك الملك المظفر صاحب إربل، وكان يحتفل فيه احتفالاً هائلاً.

قال سبط ابن الجوزى فى «مرآة الزمان» حكى لى بعض من حضر سماط المظفر فى بعض الموالد أنه عدّ فيه خمسة آلاف رأس غنم شوى، وعشرة آلاف دجاجة، ومائة فرس، ومائة ألف صحن حلوى. وكان يحضر عنده فى المولد أعيان العلماء والصوفية، فيخلع عليهم ويطلق لهم العطية، وكان يصرف على

---

(١) أفردها بالتأليف ـ بين مؤيد ومعارض ـ: الحافظ السيوطى «حسن المقصد فى عمل المولد»، وابن حجر الهيثمى «أصل عمل المولد النبوى». وانظر آراء الفريقين فى السيرة النبوية (١/ ٤٥٩).

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن على بن يوسف، أبو الخير، شمس الدين العمرى الدمشقى، الشافعى، الشهير بابن الجزرى (٧٥١ ـ ٨٣٣ هـ) حافظ، مقرئ، توفى فى شيراز. انظر: الأعلام (٧/ ٤٥)، شذرات الذهب (٧/ ٢٠٤).

المولد ثلاثمائة ألف دينار.

واستدل شيخ الإسلام والحافظ أبو الفضل ابن حجر العسقلانى لكونه بدعة حسنة بخبر الصحيحين: أنه ﷺ لما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم، فقالوا: هذا يوم أغرق الله فيه فرعون ونجّى موسى فنحن نصومه شكرا لله تعالى. فقال ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم»، فصامه وأمر بصيامه، وقال: «إن عشت إلى قابل...» الحديث[1].

قال - أعنى شيخ الإسلام -: فيستفاد منه فضل الشكر لله تعالى بأنواع العبادات على ما منّ به فى يوم معين من إسداء نعمة أو دفع نقمة ويعاد ذلك فى نظير ذلك اليوم من كل سنة، وأى نعمة أعظم من نعمة بروز هذا النبى ﷺ نبى الرحمة فى ذلك اليوم.

وسبقه لنحو هذا الحافظ ابن رجب الحنبلى[2] رحمه الله تعالى.

واستدل الحافظ السيوطى - رحمه الله تعالى - بما أخرجه البيهقى عن أنس - رضى الله عنه -: أن النبى ﷺ عقّ عن نفسه بعد النبوّة. مع أنه قد ورد أن جده عبد المطلب عقّ عنه فى سابع ولادته، والعقيقة لا تعاد مرة ثانية فيحمل ذلك على أن هذا الذى فعله ﷺ إظهار للشكر على إظهار الله إياه رحمة للعالمين، وتشريع، كما كان يصلى على نفسه، فلذلك يستحب لنا أيضا إظهار الشكر له تعالى بمولده بالاجتماع وإطعام الطعام ونحو ذلك من وجوه القربات وإظهار المسرّات.. انتهى.

وتعقبه النجم الغيطى[3] بأمور منها: أن ما ورد من أنه ﷺ عقّ عن نفسه بعد النبوة حديث منكر، بل قال الإمام النووى - رحمه الله - إنه باطل لا أصل له.

(١) أخرجه البخارى (٢٠٠٢)، مسلم (١١٣٠).

(٢) هو عبد الرحمن بن احمد بن رجب السّلامى البغدادى، أحد حفاظ الحديث، ولد ببغداد سنة (٧٣٦ هـ) ونشأ بها، وتوفى فى دمشق سنة (٧٩٥ هـ) وله تصانيف عديدة منها: شرح جامع الترمذى، وجامع العلوم والحكم. وغيرها. انظر: الأعلام (٣/ ٢٩٥)، وشذرات الذهب (٦/ ٣٣٩).

(٣) هو نجم الدين محمد بن أحمد الغيطى، توفى سنة (٩٨١ هـ)، ولعل المؤلف يشير إلى كتابه: «بهجة السامعين والناظرين بمولد سيد الأولين والآخرين».

أقول: أما القول ببطلانه فغير صواب فقد رواه أحمد والبزار والطبرانى من طرق، قال ابن حجر العسقلانى ـ رحمه الله ـ فى أحدها: أن رجاله رجال الصحيح إلا واحداً وهو ثقة، وقال العلامة ابن حجر الهيثمى: قال فى «المجموع»: باطل، وكأنه قلَّد فى ذلك إنكار البيهقى وغيره، وليس الأمر كما قالوه.. انتهى.

وقال الحلبى فى «سيرته»: قال الإمام أحمد: هذا منكر، أى حديث منكر، والحديث المنكر من أقسام الضعيف لا أنه باطل كما قد يتوهم، والحافظ السيوطى لم يتعرض لذلك وجعله أصلاً لعمل المولد. انتهى. فلا يسقط التخريج المذكور[1].

واستدل العلامة المحدث محمد بن مسعود الكازرونى[2] بما رواه فى كتابه «المنتقى فى مولد النبى المصطفى» من أن عبد المطلب كان حال ولادته ﷺ فى فناء البيت الحرام فرآه يتمايل على مقام إبراهيم، وسمع هاتفا يُكبِّر فى جوفه ويهتف بمقال منه: «هذا محمد نبيى وصفيى» إلى أن قال: «اشهدوا ملائكتى أنى قد فتحت له خزائنى، فاتخذوا يومه هذا الذى ولد فيه عيداً إلى يوم القيامة»[3].. انتهى.

وفى الحقيقة أن مولده ﷺ عيد للإسلام وأى عيد يشمل القريب من أمته والبعيد، وأى نعمة أعظم من ظهور هذا النبى الكريم فى هذا الوقت العظيم الذى حصل فيه التفضيل على سائر الموجودات إذ هو الذى جعله الله رحمة للعالمين، فعمت به النعمة على جميع الخلائق.

وينبغى أن يتحرى اليوم بعينه؛ فإن كان ولد ليلاً فليقع الشكر بما يناسب الليل، وإن كان ولد نهاراً ـ وهو الأصح ـ كما يأتى؛ فبما يناسبه كالصيام

---

(١) إنسان العيون (١/ ١٣٠).

(٢) هو محمد بن مسعود بن محمد، سعد الدين الكازرونى، أحد المحدثين، أجاز له المزى وجماعة من أهل الحديث، وله عديد من المؤلفات، توفى سنة (٧٥٨ هـ). انظر: الأعلام (٧/ ٩٦)، وكشف الظنون (١٨٥١).

(٣) لم أعثر على من أخرجه فيما تحت يدى من مصادر.

والصدقة، ولابد أن يكون ذلك اليوم بعينه من أيام ذلك الشهر بعينه حتى يطابق قصة موسى عليه السلام فى يوم عاشوراء، ومن لم يلاحظ ذلك لا يبالى بعمل المولد فى أى يوم من الشهر، بل توسع قومٌ فنقلوه الى أى يوم كان من السنة، وفيه ما فيه.

وينبغى أن يقتصر فيه على ما يفهم الشكر لله تعالى من نحو ما ذُكِر، وأما السماع واللهو وغيرهما فما كان مباحًا لعين السرور بذلك اليوم فلا بأس به، وما كان حرامًا أو مكروهًا فيمنع، وكذا خلاف الأولى.

وبالجملة فلا بأس بفعل الخير فى سائر الأيام والليالى التى وقع الاختلاف فى تعيينها للمولد ـ حسبما يأتى ـ على حسب الاستطاعة، بل يحسن فى أيام الشهر كلها ولياليه، وقد جاء عن الإمام الزاهد القدوة المعمر أبى إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن جماعة ـ رحمة الله عليهم ـ أنه لما كان بطيبة ـ على مُشَرِّفها أفضل الصلاة والسلام ـ كان يعمل بها طعاما فى المولد النبوى ويطعم الناس ويقول: لو تمكنت لعملت بطول الشهر كل يوم مولدًا.

ورؤى أبو لهب عمه ﷺ فى المنام، والرائى له بعض أهله ـ وقيل: هو أخوه العباس ـ بعد سنة من وفاته، فقيل له: ما حالك؟ قال: فى النار إلا أنه يخفف عنى فى كل ليلة إثنين، وأمصّ من بين أصبعى هاتين ماء، وإن ذلك عن إعتاقى لثُوَيْبَة عندما بشَّرتنى بولادة النبى ﷺ وبإرضاعها له[1].

قال ابن الجوزى: فإذا كان هذا أبو لهب الكافر الذى نزل القرآن بذمه ـ الذى لا ذم فوقه ـ جوزى فى النار بفرحة ليلة مولده ﷺ، فما حال المسلم الموحد الذى يُسَرُّ بمولده، ويبذل ما يقدر عليه فى محبته ﷺ، لعمرى أن يكون جزاؤه من الرب الكريم أن يدخله بفضله العميم جنات النعيم.

(1) أخرجه البخارى: كتاب النكاح، باب (٢١)، رقم الحديث (٥١٠١).

وما أحسن ما قاله الحافظ الشمس محمد بن ناصر الدين الدمشقى[1] فى ذلك:

إذا كان هـذا كافراً جاء ذمُّه ... وتبَّتْ يداهُ فى الجحيمِ مُخَلَّدا
أتى أنه فى يوم الإثنين دائمًا ... يُخَفَّف عنه للسُّرورِ بأحْمَدَا
فما الظنُّ بالعبدِ الذى عاش عُمره ... بأحمـد مسروراً ومات مُوَحِّدا

نسأل الله أن يميتنا على محبته، ويحشرنا تحت لوائه، ويثيبنا الجنة، ووالدينا ومشايخنا وأحبابنا وكافة المسلمين آمين يا رب العالمين.

تتمة

اختلف العلماء فى تفضيل ليلة مولده الشريف على ليله القدر، فقال بعضهم: إن ليلة مولده أفضل من ليلة القدر، ذكره فى «المواهب» وأقره.

وتعقبه العلامة ابن حَجَر رحمه الله فى «النعمة الكبرى» وقال: «وقد نص الشارع على أفضلية ليلة القدر ولم يتعرض لليلة مولده ولا لأمثالها بتفضيل أصلا، فوجب علينا أن نقتصر على ما جاء عنه ولا نبتدع شيئا من عند أنفسنا القاصرة عن إدراكه إلا بتوقيف منه ﷺ».

قال الزرقانى[2] فى «شرح المواهب»: وهو وجيه، ثم قال: وإذا قلنا بأفضلية ليلة مولده وقلنا إن الولادة نهاراً فهل الأفضل يوم المولد أو يوم البعث؟ والأقرب كما قال شيخنا إن يوم المولد أفضل لـمَنِّ الله به فيه على العالمين، ووجوده يترتب عليه بعثه، فالوجود أصل والبعثة طارئة عليه، وذلك قد يقتضى تفضيل المولد لأصالته.. انتهى.

وأما ليلة الإسراء: فقد قال بعض المفسرين: إنها أفضل من ليلة القدر لكن

---

(١) هو الحافظ محمد بن أبى بكر بن ناصر الدين الدمشقى، توفى سنة (٨٤٢ هـ)، ومن مؤلفاته «اللفظ الرائق فى مولد خير الخلائق».

(٢) هو محمد بن عبد الباقى بن يوسف بن أحمد بن علوان الزرقانى المصرى، ولد سنة (١٠٥٥ هـ) بالقاهرة، وتوفى بها فى سنة (١١٢٢ هـ). انظر الأعلام (٦/ ١٨٤).

بالنسبة له ﷺ لأنه أوتى فيها ما لا يحيط به الحدّ، ولذا كان الإسراء بالجسم يقظة من خصائص نبينا ﷺ، قال الحافظ ابن حجر: وهذا إنما يصح إن قام دليل على أن إنعام الله على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وهذا لا يعلم إلا بوحى، ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيه بلا علم. . انتهى.

وظاهره أن الخلاف بين الليلة المعينة التى أسرى فيها بالنبى ﷺ وبين ليلة القدر التى أنزل فيها القرآن، وأما الليلة المعينة التى أسرى به فيها فأفضل من ليلة القدر فى كل عام، كما أن ليلة القدر فى كل عام أفضل من نظائر الليلة التى أسرى به فيها فى كل عام لما ورد فى أرجحية العمل فيها بخلاف ليلة الإسراء فإنه لم يأت فيها حديث صحيح ولا ضعيف، والله اعلم.

* * *

واعلم أن المصنف رحمه الله تعالى افتتح كتابه بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز وعملاً بالحديث المشهور، ولأنه أحق بالبداءة بالبسملة من كثير من التصانيف لاشتماله على أفضل العلوم والمعلومات، ولا ينافيه قوله: بعد إبتدىء الإملاء. . . إلخ؛ لأن ذلك بمعنى الإخبار عما قبله كما يأتى، فقال:

(بسم الله) الباء يحتمل أن تكون زائدة وأن تكون أصلية، فعلى الأوّل لا تحتاج إلى متعلق، وعلى الثانى فلابد لها من متعلق. واختلفوا فى هذا المتعلق فقيل: إنه فعل. وقيل: إنه اسم. وكل منهما خاص أو عام، مقدّم أو مؤخر فالجملة ثمانية، والأولى أن يكون فعلا خاصًا مؤخرًا. أما كونه فعلا فلأن الأصل فى العمل للإفعال، وأما كونه خاصًا فلأن كل شارع فى فعل إذا أتى بالبسملة يضمر فى نفسه ما جعل التسمية مبدأ له، كما أن المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال: بسم الله كان المعنى. بسم الله أحل أو أرتحل. وأما كونه مؤخرا فلإفادة الحصر، ولأن تقديم بسم الله تعالى على القراءة أهم وأدل على الاختصاص، وأدخل فى التعظيم وأوفق فى الوجود، كيف وقد جعل آلة لها

من حيث أن الفعل لا يعتد به شرعا ما لم يصدّر باسمه تعالى لحديث: «كل أمرٍ ذى بال...»[1] إلخ.

واختلف هل الاسم عين المسمى أو غيره؟ واستدل القائلون بالأول بنحو: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[2] فأمر بتسبيح اسم الله تعالى، والمسبح هو البارى، فاقتضى أن اسم الله تعالى هو هو.

وأجيب بأنه ضَمَّنَ سبح معنى اذكر اسم ربك، فإن قيل: لم قال سبحانه: بسم الله. ولم يقل: بالله؟ قلت: قال الأخفش: لأمرين؛ لأن التبرك والاستعانة المطلوبين من العبد لسانا فى ابتداء كل أمر ذى بال إنما يحصل بذكر اسم الله تعالى، أو للفرق بين اليمين والتيمن، فلو قيل: بالله: لظن يمينا، فأزيل الاشتباه بذكر الاسم.

وقال قطرب: لإجلال الله تعالى ليقع به الفرق بين ذكره وبين الخلق.

قال الإمام المحقق الجدّ محمد بن رسول البرزنجى[3] فى «أنهار السلسبيل على البيضاوى»: أقول: وفيه إشارة دقيقة إلى أن حقيقة ذاته تعالى وكنهه لا يمكن أن يدرك، وما لا يدرك كيف يذكر، وإنما المدرك أسماؤه تعالى وصفاته، أو أن لسان الخلق ليس له أن يذكر الذات المقدس مع كمال تقدسه، فلولا التوسل بذكر اسمه ليكون شفيعًا له فى ذكره لكان مظنة أن لا يقبل منه وأن يعاقب.. انتهى.

والاسم مشتق من السمو وهو العلو، وقيل: من الوسم وهى العلامة. والله أصله: إله المُنكَّر، واختار صاحب «الكشاف» أن أصله: الإله المُعَرَّف، والأوّل

---

(١) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (١٦٦٣٤) للرُّهاوى فى الأربعين البلدانية. وضعفه فى الجامع الصغير (٦٢٨٤). وحسنه النووى فى الأذكار.

(٢) سورة الواقعة: ٧٤.

(٣) هو محمد بن رسول بن محمد بن محمد بن رسول، الشافعى الأشعرى، ولد فى أحد نواحى «السلمانية» وتوفى مطعونًا فى «صاد قبلاق»، وله مؤلف مطبوع اسمه: «تعليق على تعليقات السيالكوتى». انظر الأعلام (٦/ ١٢٥)، سلك الدرر (٣/ ٦٥).

أولى؛ لأن تعبير «الكشاف»[1] إن لم يكن مراده أصله القريب يوهم أن الألف واللام معتبران فى الأصل وليس كذلك للوفاق على زيادتهما على الأصل، ثم حذفت الهمزة منه حذفًا اعتباطيًا غير قياسى، وعوض عنها الألف واللام وجوبًا، ولذلك قيل: يا ألله بالقطع وحذفت الألف الأخيرة من الله خطا، وقيل: تخفيفًا، وقيل: لغة، فاستعمل فى الخط ثم فخمت تعظيما، ولئلا يلتبس باللات عند من يقف عليها بالهاء.

والله والإله كلاهما مختصان به تعالى إلا أن الفرق بينهما أن الأول مختص بالمعبود بحق، والثانى يطلق على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق، كما أن النجم اسمٌ لكل كوكب ثم غلب على الثريا.

وقال الأكثرون: ليس بمختص بالمعبود بحق بل هو علمٌ على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد لم يتسم به سواه، تسمى به قبل أن يسمى، وأنزله على آدم من جملة الأسماء، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[2] أى هل تعلم أحدًا سمى الله غير الله.

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

وقال ابن الخازن: وهو الصحيح المختار. ودليله ما ذكر، يعنى: لا يقال لغير الله، فهو خاص لا مختص به سبحانه وتعالى إذ لا يسمى به غيره، فهو أخص الأسماء وهو أعرف المعارف وأعظم الأسماء، لأنه دل على الذات الموصوف بصفات الألهية كلها، فهو اسمٌ جامعٌ لمعانى سائر الأسماء الحسنى كلها وما سواه خاص بمعنى فلذا يضاف إليه جميع الأسماء ولا يضاف هو إلى شىء.

---

(١) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمى الزمخشرى، معتزلى مجاهر، من أئمة العلم بالدين، والتفسير، والأدب، ولد فى زمخشر (من قرى خوارزم) سنة (٤٦٧ هـ) وانتقل إلى مكة ومنها إلى عديد من البلدان ثم إلى خوارزم، وتوفى بها سنة (٥٣٨ هـ) وله مؤلفات عديدة منها: «الكشاف فى تفسير القرآن» و «أساس البلاغة» و «المفصل» وغيرها. انظر: الأعلام (١١٨/٧)، وفيات الأعيان (٨١/٢)، سير أعلام النبلاء (١٥١/٢٠)، طبقات المفسرين (٣١٤/٢)، مرآة الجنان (٢٦٩/٢)، المنتظم (٣٧/١٨).

(٢) سورة مريم: ٦٥.

وهو عربيٌّ عند الأكثرين، وعند المحققين أنه الاسم الأعظم، وقد ذكر فى القرآن العظيم فى ألفين وثلاثمائة وستين موضعا، وعدم الاستجابة لكثيرين لعدم استجماعهم لشرائط الدعاء التى من جملتها أكل الحلال، وقد نظمها البدر بن جمَاعة[1] فى قوله:

قالوا شروط للدعاء المستجـــاب لنا
عشرٌ بهـا يُبشر الداعى بإفــلاحِ
طهـارةٌ وصــلاحٌ معهمـا ندمٌ
وقت خشوع وحسن الظنِ يا صـاحِ
وحِلٌّ قوتٍ ولا يدعــو بمعصيةٍ
واسمٌ يناسب مقرونا بإلحـاحِ

واختار النووى ـ رحمه الله ـ أنه الحى القيوم. وقيل: هو لفَظة هو. وقيل: الله الرحمن الرحيم. وقيل: الرحمن الرحيم الحى القيوم. وقيل: الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام، رآه رجل مكتوبا فى الكواكب فى السماء. وقيل: ذو الجلال والإكرام. وقيل: الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وقيل: رب رب. وقيل: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. وقيل هو: الله الله الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم. وقيل: هو مخفى فى الأسماء الحسنى. وقيل: كل اسم دعا العبد ربه به مستغرقا بحيث لا يكون فى فكره حالتئذ غير الله. وقيل: كلمة التوحيد. وقيل: الاسم الأعظم مما استأثر الله به.

---

(١) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنانى الحموى الشافعى، بدر الدين أبو عبد الله، قاضى، من العلماء بالحديث، وسائر علوم الدين، ولد فى حماة سنة (٦٣٩ هـ) وولى الحكم والخطابة فى القدس، ثم القضاء بمصر، ثم الشام، ثم مصر التى توفى بها سنة (٧٣٣ هـ) وله مؤلفات عديدة. انظر: الاعلام (٥/ ٢٩٧)، فوات الوفيات (٢/ ١٧٤).

تنبيه

قال القسطلاَّنى نقلاً عن «الفتح»: وهل يجوز تفضيل بعض أسماء الله على بعض؟ فمنع من ذلك أبو جعفر الطبرى[1] وأبو الحسن الأشعرى[2] والقاضى أبو بكر الباقلانى[3] لما يؤدى ذلك إلى اعتقاد نقصان المفضول على الأفضل، وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم، وأن أسماء الله تعالى عظيمة. وقال ابن حبان: الأعظمية الواردة المراد بها مزيد ثواب الداعى بها.. انتهى.

(الرحمن الرحيم) هما صفتان بنيتا للمبالغة من الرحمة، فالرحمن البالغ فى الرحمة والإنعام، ومن ثم لم يسم به غيره تعالى، وتسمية أهل اليمامة مسيلمة ـ لعنه الله ـ به من التعنت فى الكفر.

ويجوز صرفه وعدمه.

والرحيم: ذى الرحمة الكثيرة، فالرحمن أبلغ من الرحيم، وإن صح فى الحديث: «يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما». لزيادة بنائه فإن رحمن خمسة أحرف ورحيم أربعة أحرف، وهى تدل غالبًا على زيادة المعنى، وإنما قلنا غالبًا ليخرج مثل: حذر، وحاذر؛ فإن الأول أبلغ مع أن الثانى فيه زيادة البناء، والاستدلال على الأغلبية بقولهم: «يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الآخرة»

---

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبرى، أبو جعفر، المؤرخ والمفسر، ولد فى آمل طبرستا، واستوطن بغداد، وتوفى بها سنة (٣١٠ هـ) له مؤلفات عديدة منها: «أخبار الرسل والملوك» المعروف بتاريخ الطبرى، و «جامع البيان فى تفسير القرآن» المعروف بتفسير الطبرى، وغيرها. انظر: الأعلام (٦/ ٦٩)، وفيات الأعيان (١/ ٤٥٦)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧).

(٢) هو على بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابى أبو موسى الأشعرى، وهو مؤسس مذهب الأشاعرة، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، ولد فى البصرة، وتلقى مذهب المعتزلة ثم رجع عنه وجاهر بخلافهم، وتوفى ببغداد سنة (٣٢٤ هـ)، وقيل أن مؤلفاته بلغت ٣٠٠ مصنف. انظر: الأعلام (٢/ ٢٦٣)، وفيات الأعيان (٤/ ٣٢٦)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥).

(٣) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر، من كبار علماء الكلام، ولد بالبصرة وسكن بغداد وتوفى بها سنة (٤٠٣ هـ)، وله مؤلفات عديدة منها: «إعجاز القرآن» و «الملل والنحل» وغيرها. انظر: الأعلام (٦/ ١٧٦)، وفيات الأعيان (١/ ٤٨١)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٩٠).

فيه نظر لهذا الحديث الدال على استوائهما فى ذلك، وأتى به تتميما لوصفه تعالى بالرحمة.

والرحمة: رقة فى القلب، وانعطاف وميل روحانى غايته الإنعام، فهى مستحيلة فى حقه تعالى باعتبار مبدئها.

وهى: الرقة فى القلب والانعطاف جائزة باعتبار غايتها.

وهى الإنعام؛ وحينئذ تكون مجازا مرسلاً أصليًا من إطلاق اسم السبب وإرادة المسبب، ويكون الرحمن الرحيم مجازا مرسلا تبعيًا كذلك، ويصح أن يكون فى الكلام كناية اصطلاحية وهى لفظ أطلق وأريد لازم معناه.

وما ذكرناه من اعتبار الغاية هو أحد القولين فيه للخلف، وإنما قالوا باعتبار غايتها لأن أسماء الله تعالى المشتقة من المعانى الإنفعالية إنما تؤخذ باعتبار الغايات التى هى أفعال كالتفضل والإحسان والمغفرة دون المبادى التى تكون انفعالات، فالرحمة المشتق منها الاسمان فى اللغة معناها: رقة القلب والانعطاف، والرقة والانعطاف: انفعال يتنزه عنه، واجب الوجود؛ فلا يُسَوِّغ اشتقاق الاسمين منها إلا باعتبار غايتها.

وهى: التفضل والإحسان فتكون من صفات الأفعال، فالرحمن بمنزلة الخالق والرازق.

وقيل: باعتبار مبدأ تلك الأفعال الذى هو إرادة ذلك، فتكون من قبيل صفات الذات، فالرحمن والرحيم بمنزلة المريد.

قال بعضهم: منشأ الاختلاف أن من رحم شخصا أراد به الخير ثم فعله به، فالشيخ الأشعرى أخذ المجاز الأقرب وهو الإرادة، والقاضى أبو بكر أخذ المجاز المقصود وهو الفعل.. انتهى. قال جدنا محمد بن رسول فى «أنهاره»: وعلى القولين يتعين التأويل.. انتهى.

وقد علمت أن هذين القولين هما مذهب الخلف، وأما مذهب السلف فالإيمان بذلك والتسليم، فإنه كما جاز أن يكون سمع الله وبصره صفتين

حقيقيتين، وإطلاق السميع والبصير عليه حقيقة مع عدم لزوم التجسيم لعدم استلزامها ثبوت الجارحة له تعالى، كذلك جاز أن تكون الرحمة صفة حقيقية لله تعالى، ويكون إطلاق الرحمن الرحيم عليه حقيقة ولا يستلزم ثبوت الانفعال، وإنما اختير هذان الوصفان فى الابتداء للإشارة الواضحة التامة إلى غلبة جانب الرحمة وسعتها وسبقها لطفًا بالعباد. قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1].

وفى الحديث: «إن الله كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى سبقت غضبى»[2].

وقدم الرحمن على الرحيم لما مر؛ ولأنه خاص إذ لا يقال لغير الله تعالى بخلاف الرحيم.

وهما من أذكار المضطرين لأنه بهما يسرع لهم تنفيس الكرب، وفتح أبواب الفرج.

. وجملة البسملة تحتمل الخبرية مطلقا والإنشائية مطلقًا، وقد قيل بكل منهما. ووجَّه الأول بعضهم وتلقاه من بعده بالقبول، وتعقبه الخفاجى[3] فى «نسيم الرياض»، وقد أجابوا عنه.

واستظهر بعض المحققين أنها خبرية الصدر لصدق تعريف الخبر عليه؛ أعنى عدم توقف ثبوت مدلوله خارجًا على النطق، إنشائية العجز؛ أعنى الجار والمجرور لتوقف الاستعانة والمصاحبة التبركية على النطق بذلك، ويوضحه ما ذكره العلامة المحقق الصبَّان[4] فى «بسملته» ونصه: وهل هى ـ أى الجملة ـ

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٦.

(٢) أخرجه البخارى (٦٨٧٢).

(٣) هو أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجى، صاحب التصانيف فى الادب واللغة، ولد ونشأ بمصر سنة (٩٧٧ هـ) ورحل إلى بلاد الروم واتصل بالسلطان العثمانى «مراد» فولاه قضاء سلانيك، وعاد إلى مصر وتوفى بها، وله مؤلفات عديدة منها: «نسيم الرياض فى شرح شفاء القاضى عياض» و «شرح درة الغواص وأوهام الخواص للحريرى» وغيرها. انظر: الأعلام (١/ ٢٣٨)، وخلاصة الأثر (١/ ٣٣١).

(٤) هو محمد بن على الصبان، أبو العرفان، عالم بالعربية والأدب، ولد وتوفى بمصر، وله مؤلفات عديدة منها: =

إنشاء أو خبر؟ لنا في ذلك تفصيلٌ حسنٌ حاصله: الباء إن كانت للاستعانة أو المصاحبة فالجملة المقدرة - أعني أؤلف مثلا - خبر لصدق حد الخبر عليه، وهو الكلام الذي يتحقق مدلوله خارجا بدون ذكره لتحقق التأليف مثلا بدون ذكر أؤلف، ومتعلقها - أعني الجار والمجرور - إنشاء لصدق حد الإنشاء عليه، وهو الكلام الذي لا يتحقق مدلوله خارجا بدون ذكره لعدم تحقق الاستعانة باسمه تعالى والمصاحبة له بدون ذكر بسم الله.

فإن قلت: الجار والمجرور ليس بكلام، فكيف جعل إنشاء؟ قلت: هو في معنى الكلام؛ لأنه في معنى أستعين باسم الله أو أصاحب اسم الله، فبان أن مجموع أؤلف بسم الله الرحمن الرحيم على تقديرى الباء المذكورين خبراً صدراً إنشاء عجزاً. انتهى المقصود منه.

ثم الأصح أن بسم الله الرحمن الرحيم بهذه الألفاظ العربية على هذا الترتيب من خصائص المصطفى ﷺ وأمته المحمدية، وما في سورة النمل جاء على جهة الترجمة عما في ذلك الكتاب، فإنه لم يكن عربيّا كما أتقنه بعض المحققين، وعند الطبراني عن بريدة - رفعه -: «أنزل عليَّ آية لم تنزل على نبيٍّ بعد سليمان غيري: بسم الله الرحمن الرحيم»(1).

وأما حديث: «بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب». رواه الخطيب في الجامع معضلاً فلا يرد، وعلى فرض صحته فلا ينافي الخصوصية لأنها لم تكن بالألفاظ العربية.

= «الكافية الشافية في علمي العروض والقافية» و «إتحاف أهل الإسلام بما يتعلق بالمصطفى وأهل بيته الكرام» و«إسعاف الراغبين» في السيرة، توفي سنة (١٢٠٦ هـ). انظر: الأعلام (٦/ ٢٩٧)، الجبرتي (٢/ ٢٢٧).

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٦) لأبي عبيد وابن مردويه والبيهقي في الشعب.

[فضائل بسم الله الرحمن الرحيم]

وهى آية عظيمة فضائلها كثيرة، وفوائدها شهيرة، أفردها العلماء بالتصانيف، فلنذكر شيئًا منها إذ لا بأس به باعتبار الفن الذى نحن فيه ـ وهو فن الحديث ـ لتعود بركتها علينا إن شاء الله تعالى.

فمما ورد فى فضلها من الأخبار والآثار:

أنه لما نزلت حلف الله بعزته وجلاله أن لا يُسَمَّى على شىء إلا بارك فيه[1].

وأنه من أراد الله أن ينجيه من الزبانية التسعة عشرة فليقرأها ليجعل الله له بكل حرف منها جُنَّة ـ أى وقاية ـ من كل واحد منهم[2].

وأنه من قرأها موقنًا سبَّحت معه الجبال، إلا أنه لا يُسمع ذلك منها[3].

وأنه من قرأها كتب الله له بكل حرف أربعة آلاف حسنة، ومحا عنه أربعة آلاف سيئة، ورفع له أربعة آلاف درجة[4].

ومن خُتِمَ له باسم الله مات سعيداً أو من وُضِعَ فى قبره فقيل: بسم الله وعلى ملة رسول الله لُقِّن الجواب.

وقال علىٌّ ـ كرم الله وجهه ـ: كلمة بسم الله مسهلة للوعور، مجنبة للشرور، شفاء لما فى الصدور، وأمان يوم النشور.

وقال أبو بكر الوراق ـ رحمه الله تعالى ـ: إن بسم الله الرحمن الرحيم روضةٌ من رياض الجنة، لكل حرف منها تفسير على حِدَتِه فى الأخبار عن النبى ﷺ قال: «ليلة أسرى بى إلى السماء عرض علىَّ جميع الجنان، فرأيت فيها أربعة أنهار: نهر من ماء غير آسن، ونهر من لبن لم يتغير طعمه، ونهر

---

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٣٠) لابن مردويه والثعلبى.

(٢) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٣٠) لوكيع والثعلبى.

(٣) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٣١) لأبى نعيم والديلمى.

(٤) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٣١) للديلمى.

من خمر، ونهر من عسل، كما قال الله تعالى فى القرآن: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [1] الآية فقلت لجبريل عليه السلام: من أين تجىء، وإلى أين تذهب؟ قال: تذهب إلى حوض الكوثر، ولا أدرى من أين تجىء، فاسأل الله أن يريك. فدعوت ربى، فجاءنى ملك فسلَّم علىّ، ثم قال: يا محمد غَمِّض عينيك، فغمضت عينى، ثم قال: افتحهما، فإذا أنا عند شجرة ورأيت قبة من زمردة بيضاء ولها باب من ذهب أحمر - وقيل: زمرد أخضر - لو أن جميع ما فى الدنيا من الجن والإنس وقفوا على تلك القبة لكانوا مثل طائر جالس على جبل أو كرة ألقيت فى البحر، فرأيت هذه الأنهار الأربعة تجرى من تحتها، فلما أردت أن أرجع قال لى الملك: لم لا تدخل القبة؟ قلت: كيف أدخل وعلى بابها قفلٌ، وكيف أفتحه؟! قال: فى يدك مفتاحه. فقلت: أين هو؟ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما دنوت من القفل قلت: بسم الله الرحمن الرحيم، فانفتح القفل، فدخلت القبة، فرأيت هذه الأنهار تخرج من أربعة أركان القبة، فلما أردت الخروج من القبة قال ذلك الملك: هل رأيت يا محمد؟ قلت: رأيت. قال: فانظر ثانيًا. فلما نظرت رأيت مكتوبًا على أربعة أركان القبة: بسم الله الرحمن الرحيم، ورأيت نهر الماء يخرج من ميم بسم الله، ونهر اللبن يخرج من هاء الله، ونهر الخمر يخرج من ميم الرحمن، ونهر العسل يخرج من ميم الرحيم، فقلت: إن أصل هذه الأنهار الأربعة من التسمية، فقال الله: يا محمد من ذكرنى بهذه الأسماء من أمتك، وقال بقلب خالص: بسم الله الرحمن الرحيم سقيته من هذه الأنهار الأربعة»[2]. هذا وفضائلها أكثر من أن تحصى وفى هذا القدر كفاية.

وقد علمت أن البسملة من كلام المصنف - رحمه الله - ولا ينافيه قوله: (**أبتدىءُ الإملاءَ...**) إلخ مع التصريح بذكر متعلق الجار لأن هذا إخبار عما

---

(١) سورة محمد: ١٥.

(٢) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مراجع.

حصل منه أولا، وحينئذ يكون المضارع فى قوله: أبتدىء بمعنى الماضى، أى ابتدأ.

والغرض من هذا الإخبار التوصل إلى التعليل المأخوذ من قوله الآتى، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا ما ظهر فى توجيه عبارة المصنف ـ رحمه الله ـ وتعليل بعضهم بأن غرضه إدراج الابتداء بالتسمية فى سلك التسبيح ليكون ذلك أعون له على ما قصده من هذا الصنيع البديع لا يخفى ما فيه.

والإملاء مصدر أملى إذا ألقى الكلام على من يكتبه، ويقال: أملل فمصدره الإملال، وقد جاء القرآن بهما، قال تعالى: ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾[2] فيحتمل أن يكون باقيا على مصدريته وأن يكون بمعنى الكلام المملى، وفيه إشارة إلى سهولته وعدم تكلفه فى ذلك.

(باسم الذَّات) الإضافة على معنى اللام أى باسم للذات خاص بها وهو لفظ الجلالة كما تقدم (العَلِيَّة) التاء فيه للمبالغة، وقد منع أبو على الفارسى[3] دخولها فى صفات الله تعالى تنزيها له تعالى لأنها من خصائص المؤنث، ولقوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِه إِلاَّ إِنَاثًا﴾[4] وهو قول حسن، لكن الذى يظهر جوازه كما يقال لمن كثر علمه: علاَّمة، ولمن تبحر فى علم النسب: نسَّابة، واستعملها بعض المتبحرين فى بعض خطبه، وتبعه المصنف، ثم العلو هنا معنوى لا مكانى لاستحالته عليه تعالى.

والذَّات: أصلها مؤنث ذو المقتضية لموصوف، والملازمة للإضافة كرجل ذى مال ثم استعملوها استعمال الأسماء المستقلة فقالوا: ذات قديمة، ونسبوا

---

(١) سورة الفرقان: ٥.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٢.

(٣) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، الفارسى الأصل، أبو على، أحد الأئمة فى علم العربية، ولد فى «فسا» من بلاد فارس سنة (٢٨٨ هـ) وتجول فى كثير من البلدان ثم عاد إلى بلاد فارس وتوفى بها سنة (٣٧٧ هـ)، وله مؤلفات عديدة. انظر: الأعلام (٣/ ١٧٩)، وفيات الأعيان (١/ ١٣١).

(٤) سورة النساء: ١١٧.

للفظها فقالوا: ذاتى، وقد تستعمل بمعنى نفس الشىء وحقيقته كما هنا، ففى كلامه ـ كما قال بعضهم ـ إشارة إلى جواز إطلاق الذات عليه تعالى، وهو الصحيح لقوله ﷺ: «تفكروا فى كل شىء ولا تفكروا فى ذات الله تعالى»[1].

ومنع العلامة ابن حجر فى «شرح الأربعين» جواز إطلاق النفس عليه تعالى، قال: لأنها تشعر بالتنفيس والحدوث فامتنع إطلاقه عليه ـ سبحانه وتعالى ـ إلا فى حيز المقابلة إذ هى قرينة ظاهرة على أن المراد بها فى حقه سبحانه وتعالى غير حقيقتها وما يتبادر منها.

وأيضا ففى إطلاقها عليه تعالى إيهام شمول قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[2] لذلك تعالى الله عنه علوًا كبيرًا. قال: ولقد بالغ بعض العلماء فجعل ﴿وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[3] راجعًا لعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والأصل: ولا أعلم ما فيها ثم أوقع الظاهر موضع المضمر فصار معناه: ولا أعلم ما فى مخلوقتك. قال: وهو وإن كان فيه تكلف إلا أنه مؤيد لما ذكرته، فتأمل ذلك فإنه مهم وإن لم أر من عرج عليه.. انتهى ببعض حذف.

لكن صرح اللقانى[4] ـ رحمه الله تعالى ـ بجواز إطلاقها عليه تعالى بدون مقابلة لأن النفس تطلق بمعنى الذات، ويدل له قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[5] فألحق جواز إطلاقها عليه تعالى من غير مشاكلة.

(مُسْتَدِرًّا) حال من فاعل أبتدئ اسم فاعل استدر إذا طلب الدر، والدَّر بالفتح اللَّبن، ومنه لله درّه. قال فى «المختار»: يقال لله دره أى علمه، ولله

(١) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (١٢٧٢٦) لأبى الشيخ فى العظمة، وابن مردويه، وابن نصر السجزى فى الإبانة، والبيهقى فى الأسماء والصفات، وانظر كشف الخفا (١/ ٣٧١).

(٢) سورة الأنبياء: ٣٥.

(٣) سورة المائدة: ١١٦.

(٤) هو إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقانى، برهان الدين، فاضل متصوف، مصرى مالكى، ولد بمصر بقرية لقانه إحدى قرى البحير، وتوفى بقرب العقبة سنة (١٠٤١ هـ)، وله مؤلفات عديدة منها: «جوهرة التوحيد» وهو منظومة فى العقائد، وغيرها. انظر: الأعلام (١/ ٢٨)، سلك الدرر (٢/ ٨١).

(٥) سورة الأنعام: ٥٤.

درّه من رجل ويقال فى الذم: لا درّه أى لا كثر خيره.. انتهى.

قال العلامة الحفنى[1] فى «حاشية المنح» واستعمال الدرّ فى الخير ونفيه فى الشر مجاز وإلا فحقيقة الدرّ اللبن وإنما استعمل ما ذكر فى المدح تعظيمًا، ومعنى لله درّه أن اللبن الذى نبت اللحم بسببه وربى به لا ينتسب لغير الله لخروج كمال الممدوح به عن العادة فلم يضف لغيره سبحانه وتعالى.. انتهى. وأصله مصدر درَّ، إذا نزل، فالمعنى: طالبًا منه سبحانه وتعالى أن يدر أى يصب.

(**فَيْضَ البَرَكَاتِ**) الفائضة الكثيرة الزائدة فى الكثرة من فاض الماء إذا كثر حتى سال، فإضافته للبركات من إضافة الصفة للموصوف. والبركات جمع بركة، وهى لغة: النمو والزيادة، وعرفًا: ثبوت الخير الإلهى فى الأشياء، والظاهر صحة إرادة كل منهما (**على ما**) يحتمل أن تكون ما موصولة أى الذى (**أناله**) أى أعطاه لنا من النعم التى لا يمكن عدّها وحصرها (**و**) على ما (**أولاه**) كذلك فهو من عطف الرديف، وأخرّه عما قبله مراعاة للسجع، ويحتمل أن تكون (**ما**) نكرة موصوفة فيكون ما بعدها صفة لها، ثم أردف الابتداء باسم الله بالثناء عليه بما هو أهله من أنواع الحمد عملاً برواية: «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله وبالحمد لله...» الحديث[2]. فقال:

(**وأُثَنِّى**) بضم الهمزة وفتح المثلثة وتشديد النون أى آتى ثانيا بصيغة الاستقلال إظهارًا لتعظيم الله سبحانه وتعالى بتأهيله للعلم تحدثًا بنعمة الله تعالى عملاً بقوله عز وجل: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾[3] وهذا لا ينافى الخضوع والتواضع للمولى.

---

(١) هو محمد بن سالم بن أحمد الحفنى، ولد بمصر وتعلم فى الأزهر وعمل بالتدريس فيه، وله مؤلفات عديدة منها: «حاشية على شرح العضد للسعد» و «حاشية على الجامع الصغير للسيوطى» وحاشية على شرح الهمزية لابن حجر الهيثمى المعروفة بـ «المنح المكية»، توفى سنة (١١٨١ هـ) انظر: الأعلام (٦/ ١٣٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٩٨٤)، البيهقى فى السنن (٣/ ٢٠٩)، مجمع الزوائد (٢/ ١٨٨).

(٣) سورة الضحى: ١١.

(بحمد) لا يقال أن البداءة المطلوبة بالحمد فاتت لتقدم البداءة بالبسملة لأنا نقول الابتداء قسمان: حقيقى وإضافى؛ فالحقيقى حصل بالبسملة، والإضافى بالحمدلة.

والحمد لغة: الثناء بالكلام على الجميل الاختيارى على جهة التبجيل والتعظيم سواء كان فى مقابلة نعمة أم لا، وإنما عبرنا بالكلام ـ كما عبر به بعض المحققين ـ ليشمل التعريف حينئذ: الحمد القديم وهو حمد الله نفسه بنفسه وحمده لأنبيائه وأوليائه وأصفيائه، والحمد الحادث وهو حمدنا لله تعالى وحمد بعضنا لبعض.

وأما تعبير بعضهم باللسان فيلزم عليه أن لا يكون التعريف شاملاً للقديم إلا أن يراد باللسان الكلام على سبيل المجاز المرسل من إطلاق السبب ـ وهو اللسان ـ وإرادة المسبب ـ وهو الكلام ـ، ولا يرد بأن التعاريف تصان عن المجاز لأن محمل ذلك ما لم يكن المجاز مشهورا كما هنا.

واصطلاحًا: فعلٌ ينبىء عن تعظيم المُنْعِم من حيث كونه مُنْعِمًا على الحامد أو غيره، سواء كان ذلك قولا باللسان أو اعتقادا بالجنان أو عملاً بالأركان التى هى الأعضاء.

وأتى بصيغة التنكير للتكثير والتعظيم، إذ المراد به الثناء بجميع صفاته، قال بعضهم: والمراد الإيجاد، وفيه نظر لأنه لا مانع من كونه للإخبار أيضًا؛ لأن الإخبار بالحمد حمد كما هو معلوم.

وَعَدَلَ عن الحمد لله بالصيغة المعروفة الشائعة للحمد، وإن كان الثناء بها من حيث تفضيلها أوقع فى النفس من الثناء به؛ لأنه ثناء بجميع الصفات برعاية الأبلغية، فالثناء به أبلغ من الثناء بها فى الجملة.

(مَوَارِدُهُ) جمع مورد وهو المحل الذى يؤخذ منه الماء من نحو بحر **(سائغةٌ)** اسم فاعل ساغ الشراب إذا سهل ابتلاعه **(هنيَّة)** أى محمودة العاقبة وأصلها ـ وإن كان مختار قول «القاموس» عدمه ـ هنيئة بالهمز قلبت الهمزة ياء ثم

أدغمت فيها الأولى فصارت هنيَّة بالتشديد لأجل التسجيع، ففى قول بعضهم: خففها لأجل التسجيع بدليل مقابلتها بسائغة نُظِرَ، إلا أن يكون مراده: خففها بتسهيلها ياء ثم أدغمت الياء فيها.

وفى كلامه استعارة تصريحية حيث شبه الصيغ الدالة على الحمد بموارد للمشابهة فى مطلق الإيصال.

ومع هذا فيصح أن تكون قرينة لاستعارة البحر فى النفس للحمد لشبهه له فى عموم النفع على مختار صاحب «الكشاف» على سبيل الاستعارة المكنية.

وكل من قوله: «سائغة هنية» سهلة التناول لفصاحتها واختصارها، مع اشتمالها على جميع أنواع المحامد، وكونها موفية بجميع أنواع النعم، فالمراد بذلك الصيغة الواردة عن الشارع نحو : «لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك». و: «الحمد لله حمدا موافيًا لنعمه مكافئًا لمزيده».

ولا ريب فى أنها لذيذة محمودة العاقبة. قال بعضهم: وربما كان ذلك دليلاً على أن يضبط قوله: وأُثْنِى بضم الهمزة وسكون المثلثة على معنى أن أحمده بأحسن المحامد وأفضلها، فلو حلف ليثنين على الله أحسن الثناء فطريق البر أن يقول: لا أحصى ثناء... إلخ؛ لأن أحسن الثناء ثناء الله على نفسه، وكذا لو حلف ليحمدن الله بمجامع الحمد أو بأجل التحاميد فطريقه أن يقول: الحمد لله حمداً... إلخ. والحاصل أن العبد لا يطيق الثناء على الله كما ينبغى ولو فى مقابلة نعمة واحدة فكيف يحصى نعمته وإحسانه والثناء بها عليها وإن اجتهد فى ذلك فالكل معترف بالعجز عن تفصيل الثناء وأنه لا يقدر على بلوغ حقيقته، فنوكل ذلك إلى الله سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء علمًا جملة وتفصيلاً.

وكما أنه لا نهاية للثناء عليه لأن الثناء تابع للمثنى عليه، فكل ثناء أثنى به عليه وإن كثر وطال وبولغ فيه فقدر الله أعظم، وسلطانه أعز، وصفاته أكبر وأكثر، وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ.

(مُمْتطيًا) بضم الميم الأولى وسكون الثانية اسم فاعل امتطى إذا ركب المطية، وهي الدابة تمط أى تمد فى سيرها، حال من فاعل أثنى.

(مِنَ الشُّكْرِ) هو الحمد عرفًا لكن بإبدال الحامد بالشاكر، وعرفًا: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع وغيره إلى ما خلق لأجله و (من) يجوز أن تكون بيانية وتبعيضية، والأصح هو الوجه الثانى؛ إذ لا غاية للنعم حتى يتوقف بالشكر عليها. قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾(1) لأن العقول قاصرة عن تعديد ما فى أقل الأشياء من المنافع والحكم، فكيف يمكن الإحاطة بكل ما فى العالم من المنافع والحكم؟!.

فإن قيل: فإذا كانت النعم غير متناهية وما لا يتناهى لا يحصل العلم به فكيف أمر بتذكرها فى قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾(2)؟ فالجواب: أنها وإن كانت غير متناهية بحسب الأشخاص والأنواع إلا أنها متناهية بحسب الأجناس وذلك يكفى فى التذكير الذى يفيد العلم بوجود الصانع الحكيم، وقد جعل سبحانه وتعالى العجز عن شكره شكرًا، كما جعل الاعتراف بالعجز عن معرفته معرفة، ولذلك قال الصديق: العجز عن درك الإدراك إدراك.

(الجميلِ) أى الحسن صفة كاشفة أو مخصصة لأنه قد يصحبه فى بعض الأحيان ما يحبط ثوابه كالرياء ونحوه، فالمراد ما كان بإخلاص وحضور قلب.

(مَطَايَاه) جمع مطية فعيلة بمعنى مفعولة أى ممطية بمعنى مركوبة وهو هنا مستعار لصيغ الشكر لشبهها لها فى مطلق الإيصال على سبيل الاستعارة التصريحية، ومع هذا فيصح أن تكون قرينة لاستعارة بالكناية، فيكون قد شبه الشكر بجهة شاقة صعبة بعيدة لا يمكن الوصول إليها إلا بالمطايا، وطوى ذكر

---

(1) سورة إبراهيم: ٣٤.

(2) سورة البقرة: ٤٧.

المشبه به - وهو الجهة المذكورة - ورمز له بشيء من لوازمه - وهو المطايا - على سبيل التخييل، فهو القرينة كما تقدم، وإنما كان الشكر لا يمكن الوصول إليه إلا بمشقة لما مر ولأنه يؤذن بازدياد النعم على الشاكر. قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (١) فينبغي زيادة الاعتناء بشأنه، وبالجملة فمقام الشكر لا يمكن من كل أحد القيام به كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (٢).

(وأُصَلِّى) من الصلاة، وهى من الله الرحمة المقرونة بالتعظيم، ومما سواه - تعالى - من الملائكة وغيرهم الدعاء، وهو أحسن مما اشتهر من أنه بالنسبة للملائكة الاستغفار، وبالنسبة لغيرهم الدعاء؛ لأن الاستغفار من جملة الدعاء. والتحقيق أن الصلاة معناها العطف، فإن أضيف إلى الله كان بمعنى الرحمة، وإن أضيف إلى غيره كان بمعنى الدعاء كما ذهب إليه ابن هشام فى «مغنيه» ونقله عنه شيخنا الباجورى فى «حواشيه على السمرقندية»، وإنما كان هذا هو التحقيق لأن الأصل عدم تعدد الوضع.

وخص الأنبياء بلفظها فلا تستعمل فى غيرهم إلا تبعًا؛ تمييزًا لمراتبهم الرفيعة، وألحق بهم الملائكة لمشاركتهم لهم فى العصمة وإن كان الأنبياء أفضل من جميعهم، ومن عداهم من الصلحاء أفضل من غير خواصهم.

(وأُسَلِّم) من السلام وهو التسليم من الآفات المنافية لغاية الكمالات، وجمع بينهما لنقلهم عن العلماء كراهة إفراد أحدهما عن الآخر - أى لفظا لا خطًا - خلافا لمن عمم، وللآية (٣) ولحديث: «إن جبريل قال: ألا أبشرك إن الله تعالى قال: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلَّمتُ عليه». وجملة الصلاة والسلام خبرية لفظًا إنشائية معنى لقصده بها الإنشاء فلا تفيد الإنشاء إلا بالقصد؛ لأن الجملة المضارعية موضوعة للإخبار فتتوقف إفادتها الإنشاء على القصد، وبهذا تعلم ما فى قول البرماوى تبعا للقليوبى من أن

(١) سورة إبراهيم: ٧.
(٢) سورة سبأ: ١٣.
(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى﴾ (سورة الأحزاب: ٥٦).

الجملة المضارعية تفيد الإنشاء من غير قصد، ولا يصح أن تكون خبرية لفظا ومعنى؛ لأن الإخبار بالصلاة ليس بصلاة وإن تكلَّف بعضهم صحة ذلك، بخلاف جملة الحمدلة لما مر، والمراد أتضرع إلى الله وأطلب منه الصلاة والسلام.

(على النُّور) المراد به النبى ﷺ مقتبسٌ من قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [1] وأصله من نار ينور إذا نفر، ومنه نوار للظبية، وبه سميت المرآة، فوضع لانتشاره أو لإزالته الظلام، فكأنه ينفر منه، ثم أطلق على الله وعلى النبى ﷺ وعلى القرآن.

وإنما أحلنا ذلك إلى الله؛ لأنه ﷺ طاهرٌ لا عيب فيه، ونحن فينا المعائب والنقائص، فكيف يُثنى من فيه معائبٌ ونقائصٌ على طاهرٍ كامل، ولأن المصلى والمسلم فى الحقيقة هو الله تعالى ونسبتهما للعبد مجازى بمعنى السؤال، ولأننا لم ندرك مراد الله تعالى فأحلنا ذلك إليه لأنه أعلم بما يليق به وأعرف بما أراده له ﷺ.

(الموصوف بالتَّقدُّمِ والأوليَّةِ) أى بالنسبة إلى سائر المخلوقات ولا يردّ عليه بما فى رواية السدّى[2]: أن الله لم يخلق شيئا مما خلق قبل الماء، وبما فى رواية عبادة بن الصامت: أول ما خلق الله القلم[3]، لما عليه المحققون أن نوره ﷺ خلق قبل الأشياء، ولحديث جابر بن عبد الله قال: قلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، أخبرنى عن أى شىء خلقه الله تعالى قبل الأشياء؟ قال ﷺ: «يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره» الحديث[4].

وقد جُمع بين هذا الحديث وما قبله بأن أول خلقه القلم بالنسبة إلى ما عدا

---

(١) سورة المائدة: ١٥.

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدى، تابعى، حجازى الأصل، توفى سنة (١٢٨ هـ)، انظر: الأعلام (١/ ٣١٧).

(٣) مستدرك الحاكم (٢/ ٤٥٤)، ميزان الاعتدال (٨٢٩٨)، حلية الأولياء (٧/ ٣١٨).

(٤) انظر: كشف الخفا للعجلونى (١/ ١٣٠) وقال المحدث الغمارى فى «المغير على الجامع الصغير»: هذا الحديث موضوع.

النور النبوى المحمدى والماء والعرش، فالأولية فيه حقيقية وفى غيره نسبية(١).

واختلفوا فى الإضافة فى قوله: «من نوره» والذى صفا لنا من كلامهم أنها يحتمل أن تكون حقيقية على معنى اللام نظير ما قاله البيضاوى فى قوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ (٢)؛ فالمراد خلقه من نور مخلوق له تعالى قبل خلق نور المصطفى، فخلقه منه لا من نور قائم بذاته تعالى، وأضافه إليه لتوليه خلقه وإيجاده، وفيه نظر؛ لأنه يقتضى عدم أولية خلق نور نبينا ﷺ مع أنه متفق على أولية خلقه، كذا قال بعضهم، ويجاب عن ذلك: بأن النور المخلوق له هو نور المصطفى ﷺ لا غيره.

ومعنى خلقه منه تكوينه إلى حالة أخرى غير الحالة الأولى كما يقال: اتخذت الخبز من الدقيق والماء، ونحو ذلك؛ فإن ذلك لا يقتضى أن الخبز غير الدقيق والماء وإنما التغاير فى الأحوال والصفات، أو تكون الإضافة بيانية أى من نور هو ذاته تعالى، وقد عهد إطلاق النور عليه تعالى فى القرآن كما مر لا بمعنى أنها مادة خلق منها، وفيه نظر لأن الإضافة البيانية لا تأتى فى الإضافة للضمير كما نص عليه اللقانى، وعلى تقدير صحة كون الإضافة بيانية فلتكن «من» فى قوله: «من نوره» بمعنى الباء، فالمراد خلقه بذاته بمعنى تعلق الإرادة به قبل كل شىء من غير واسطة شىء فى وجوده، وبهذا التوجيه علم أن مآل كون الإضافة حقيقية أو بيانية واحد، وهذا هو الصواب عندى لأن ذات الله تبارك وتعالى منزهة عن أن تكون نورا؛ لأنه عرض، وقد تعالى عن الجوهر والعرض لسلامته من هذه التكلفات، ولا تستشكل الأولية بأن النور عرض لا يقوم بنفسه لأن هذا من خرق العوائد بالنسبة لنا.

أقول: ولا يبعد أن يجاب بمثل هذا عن القول بأن النور المحمدى جوهر لا عرض، والجوهر لابد له من حيز سابق فى الوجود على المتحيز، والله سبحانه

---

(١) قال السيوطى فى «قوت المغتذى على سنن الترمذى»: وأما حديث أولية النور المحمدى فلم يثبت.

(٢) سورة السجدة: ٩.

وتعالى على كل شيء قدير، ثم ليس المراد بالنور الذى هو الحقيقة المحمدية مقابل الظلمة كما توهم، بل المراد أنها شيء يسمى نورًا ولا يعلم كنهه إلا الله تعالى، فتلك الحقيقة من مواقف العقول. ثم قوله ﷺ: «كنت نورًا بين يدى ربى قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام»(١) لا ينافى ما مر أن نوره مخلوق قبل الأشياء، وأن الله قدر مقادير الخلق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، لأن نوره مخلوق قبل الأشياء، وجعل يدور بالقدرة حيث شاء الله، ثم كتب فى اللوح المحفوظ، ثم جسَّم صورته على شكل أخص من ذلك النور، ولأن فى التعبير ببين اليدين مرتبة أظهرت له لم تكن قبله.

ويروى أنه لما خلق الله آدم ألهمه أن قال: يا رب لم كنيتنى أبا محمد؟ قال الله تعالى: يا آدم ارفع رأسك، فرفع رأسه فرأى نور محمد فى سرادق العرش، فقال: يا رب ما هذا النور؟ فقال: هذا نور نبى من ذريتك اسمه فى السماء أحمد وفى الأرض محمود، لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا أرضًا»(٢).

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

ويشهد لهذا ما رواه الحاكم فى صحيحه أن آدم ـ عليه السلام ـ رأى اسم محمد مكتوب على العرش، وأن الله تعالى قال: «لولا محمد ما خلقتك»(٣) ولله در صالح بن الحسين الشاعر:

وكان لدى الفردوس فى زمن الصبا
وأثواب شمل الأنس محكمة السُّدَى
يشاهد فى عدن ضياء مشعشعا
يزيد على الأنوار فى الضوء والهُدَى
فقال: إلهى ما الضياء الذى أرى
جنود السماء تعشوا إليه ترددا

(١) عزاه الحافظ الشامى فى سيرته (١/ ٩٠) لابن القطان فى كتاب الأحكام، وسكت عنه !.
(٢) عزاه القسطلانى فى «المواهب اللدنية» لابن طغربك فى «المولد الشريف» ولم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.
(٣) انظر: اللآلئ المصنوعة (١/ ٢٩٧)، مجمع الزوائد (٩/ ٤١).

فقال : نبىٌ خير من وطأ الثَّرى
وأفضل من فى الخير راح أو اغتدا
تخيَّرته من قبل خلقك سيدا
وألبستـه قبل النبيين سـؤددا
وأعددته يوم القيامـةِ شافعا
مُطَاعًا إذا ما الغير حَـادَ فحيَّدا
فيشفعُ فى إنقـاذ كل موحـد
ويُدْخِـله جنـاتِ عـدنٍ مُخَـلَّدا
وإن لـه أسمـاء سمَّيته بهـا
ولكننى أحببتُ منهـا مُحَمَّـدا
فقـال إلهى امنن علىَّ بتوبة
تكونُ على غسلِ الخطيئةِ مُسعـدا
بحرمة هـذا الاسم والزلفة التى
خُصِصْتَ بها دون الخليقةِ أحمـدا
أقلنى عِثارى يا إلهى فإن لى
عدوًا لعينًا جارَ فى القصدِ واعتـدا
فتـاب عليـه ربّه وحمـاه من
جنـايةِ مـا أخطأه لا مُتَعَمَّدا

وقوله: ضياء مشعشا. . . إلخ لا ينافى ما تقدم من أنه ليس المراد بالنور ما قابل الظلمة وإنما هو عبارة عن حقيقة لا يعلمها إلا هو عز وجل؛ لاحتمال أن تكون تلك الحقيقة لها نور يقابل الظلمة.

وصح خبر: متى كنت نبيّا؟ قال: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد»[1]،

---

(١) مستدرك الحاكم (٢/ ٦٠٩) وصححه ووافقه الذهبى، وأحمد فى مسنده (٥/ ٥٩)، طبقات ابن سعد (١/ ٩٥)، البخارى فى التاريخ الكبير (٧/ ٣٨٤)، الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٠/ ٣٥٣)، مجمع الزوائد (٨/ ٣٢٣).

ولفظ: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» لم يوجد مرويا، وكذلك حديث: «كنت نبيا ولا آدم ولا ماء ولا طين»[1] لا أصل له.

قال الخفاجى فى «شرح الشفاء»: ليس معناه أنه موضوع كما توهم فإنه رواية بالمعنى وهى جائزة لأنه بمعنى الحديث الذى قبله، وليس المراد من ذلك التقدير بل الإشارة إلى كون روحه العلية ثبت لها ذلك الوصف دون غيرها فى عالم الأرواح، وكل ما له من جهة الله تعالى ومن جهة تأهل ذاته الشريفة وحقيقته معجل لا تأخر فيه، وإنما المتأخر تكونه وتنقله إلى أن ظهر ﷺ، وقد علم من هذا: أن فسره بعلم الله بأنه سيصير نبيًا لم يصل إلى هذا المعنى؛ لأن علم الله تعالى محيط بجميع الأنبياء، ووصف النبى ﷺ فى ذلك الوقت ينبغى أن يفهم منه أمر ثابت له فى ذلك الوقت خاص به، ولو كان المراد بذلك مجرد العلم بما سيصير فى المستقبل لم يكن له خصوصية بأنه نبى وآدم بين الروح والجسد، لأن جميع الأنبياء يعلم الله نبوتهم فى ذلك الوقت وقبله، فلابد من خصوصية للنبى، ولأجلها أخبر بهذا الخبر ليعرفوا قدره عند الله.

وروى أنه تعالى لما خلق نور نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمره أن ينظر إلى نور الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فغشيهم من نوره ما أنطقهم الله به، وقالوا: يا ربنا من غشينا نوره؟ فقال: هذا نور محمد بن عبد الله، إن آمنتم به جعلتكم أنبياء. قالوا: آمنا به وبنبوته، فقال: أشهد عليكم؟ قالوا: نعم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ إلى: ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[2] وفى هذه الآية كما قال التقى السبكى من التنويه بقدره العلى ما لا يخفى[3]، وفيها مع ذلك أنه على تقدير مجيئه يكون مرسلاً إليهم وإلى أممهم، فتكون رسالته عامة لجميع الخلق، فهو نبى الأنبياء

(1) انظر: تذكرة الموضوعات للفتنى (٨٦)، الأسرار المرفوعة (٢٧١)، تنزيه الشريعة (٣٤١/٢)، كشف الخفاء (١٩١/٢)، الدر المنتثرة (١٢٦).

(2) سورة آل عمران: ٨١.

(3) يشير المؤلف إلى كتاب: «التعظيم والمنة فى: ﴿لتؤمنن به ولتنصرنه﴾» للإمام السبكى.

عليهم الصلاة والسلام، ولذا يكونون كلهم يوم القيامة تحت لوائه ﷺ.

(الْمُنْتَقِلُ) بضم الميم وتقديم النون على التاء وكسر القاف اسم فاعل انتقل، من أب سابق إلى لاحق، من آدم عليه السلام إلى عبد الله، وضبطها بعضهم بتقديم التاء على النون وكسر القاف المشددة من تنقل بمعنى كثر انتقاله، وهو أولى لاستفادة الكثرة منها صراحة، ولله در الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي حيث قال:

تنقَّلَ أحمد نورا مبينا تلألأ في جباه الساجدينْ
تقلَّب فيهم قرنًا فقرنا إلى أن جاءَ خير المرسلينْ

(في الغُرَرِ) بضم الغين المعجمة جمع غُرة وهي بياض فوق الدرهم في جبهة الفرس والمراد بها هنا الجباه لعلاقة الحالية **(الكريمة)** التي كرمت وشرفت على غيرها لكونها غرر أصوله ﷺ **(والجِبَاهْ)** عطفها على الغرر تفسيري لما مر، جمع جبهة وهي أعلا الوجه، ثم انتقال النور في الجباه إنما هو بالتبعية لانتقال مادة جسمه الشريف ﷺ في الأصلاب، فالنور تابع لتلك المادة، وأصل ذلك ما جاء في الخبر: إن الله تعالى لما خلق آدم جعل ذلك النور في ظهره، فكان يلمع في جبينه فيغلب على سائر نوره، ثم رفعه على سرير مملكته، وحمله على أكتاف ملائكته، فطافوا به في السموات والأرض ليرى عجائب ملكوته، ثم لما أهبط آدم وحوّاء إلى الأرض ولدت له أربعين ولدًا في عشرين بطنًا، في كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج ذكر هذا البطن لأنثى تلك البطن، وبالعكس، تنزيلاً لاختلاف البطون منزلة اختلاف القبائل، فكان اختلاف البطون في شرعه بمنزلة اختلاف الأنساب لضرورة التوالد والتناسل، وبارك الله في نسله في حياته حتى بلغوا أربعين ألفًا، ووضعت شيئًا وحده إشارة إلى أنه أفضل أولاده وأن النور المحمدي انتقل فيه دون غيره، ولذا جعله وصيًا عليه، ثم أوصى شيث ولده يانَش بتحتية ونون مفتوحة بما أوصاه به آدم أن لا يضع هذا النور إلا في المُطَهَّرات من النساء، ولم تزل هذه

الوصية محفوظة معمولا بها من لدن آدم ـ عليه السلام ـ إلى عبد الله بن عبد المُطَّلب، ولله در العارف سيدى على الوفائى الشاذلى(١) حيث أشار إلى بعض هذه المعارف بقوله:

لو أبصرَ الشيطانُ طلعةَ نُورهِ ... فى وجه آدمَ كان أوَّلَ مَنْ سَجَدْ
أو لَوْ رأى النُّمروذُ نورَ جمالهِ ... عَبَدَ الجليلَ مع الخليلِ وما عَنَدْ
لكِنْ جمالُ الله جلَّ فلا يُرى ... إلاَّ بتخصيصٍ من الله الصَّمَدْ(٢)

وروى أن الله تعالى جعل نور محمد ﷺ فى ظهر آدم عليه الصلاة والسلام، فكانت الملائكة تقف خلفه صفوفًا ينظرون تلألأ نوره، فقال آدم: يا رب اجعل هذا النور فى مقدّمى كى تستقبلنى الملائكة، فجعله فى وجهه، فقال آدم: يا رب اجعله فى موضع أراه، فجعله فى سبابته، فكان ينظر إلى حسنه فيزداد حسنًا وبهاءً، ثم إن آدم قال: يا رب لعله بقى من هذا النور شىء فى ظهرى، فقال له: نعم نور خواص أصحابه. فقال: يا رب اجعله فى بقية أصابعى، فجعل نور أبى بكر فى الوسطى، ونور عمر فى البنصر، ونور عثمان فى الخنصر، ونور على فى الإبهام، فكانت هذه الأنوار تتلألأ فى أصابع آدم ـ عليه السلام ـ ما دام فى الجنة، فلما هبط إلى الأرض ومارس أعمال الدنيا زالت هذه الأنوار من أصابعه ورجعت إلى ظهره.

(وأَسْتَمْنِحُ الله تعالى) أى أطلب من الله تعالى أن يمنح؛ أى يعطى إذ المَنْحُ العطاء **(رِضُوانًا)** بكسر الراء وضمها ضد السخط، والمراد هنا لازمه وهو الإنعام، وقد يراد به الثواب والجنة **(يَخُصُّ العِتْرَةَ)** فيه زيادة الاعتناء بتمييزهم عن غيرهم برضوان كثير عظيم وهم أهل بيته؛ لقوله ﷺ: «عترتى أهل بيتى»(٣) وهم على الأصح مؤمنو بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف

---

(١) هو على بن محمد بن محمد بن وفا، أبو الحسن القرشى الأنصارى الشاذلى (٧٥٩ ـ ٨٠٧ هـ) متصوف، شاعر، توفى بالقاهرة. انظر: الاعلام (٥/ ٧)، الضوء اللامع (٧/ ٢١ رقم الترجمة ٤٦).
(٢) المجموعة النبهانية (٢/ ٥٥).
(٣) مسند أحمد (٥/ ١٨٢)، السنة لابن أبى عاصم (٢/ ٦٤٤)، الترمذى (٣٧١٨).

(الطَّاهِرَة) ذاتًا وصفاتًا (النَّبويَّة) أى المنسوبة للنبى ﷺ، والطهارة النظافة والخلوص من الأدناس والمعائب، وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [(1)] ولله در من قال:

وآله أمناء الله مَنْ شَهِدَتْ لقدرهم سورةُ الأحزابِ فى العِظَمِ

يشير إلى هذه الآية الكريمة المنوهة بقدرهم العلى، وقد اشتملت على غرر من مآثرهم والاعتناء بشأنهم حيث ابتدأت بإنما المفيدة لحصر إرادته تعالى إذهاب الرجس عنهم، وهو الإثم والشك فيما يجب الإيمان به، وتطهيرهم من سائر الأخلاق والأحوال المذمومة، وقد جاء فى أحاديث كثيرة تحريمهم على النار كحديث: «إن فاطمة أحصنت فرجها فحرَّمها الله وذريتها على النار»[(2)] وحديث أنه ﷺ قال: «يا فاطمة، لم سميت فاطمة؟» قال على: لم سميت فاطمة يا رسول الله ﷺ؟ قال: «إن الله فطمها وذريتها من النار»[(3)]. وحديث: «إن الله غير معذبك ولا أحد من ولدك»[(4)]. وورد أيضا: «يا عباس إن الله غير معذبك ولا أحد من ولدك»[(5)]. وصح: «يا بنى عبد المطلب - وفى رواية: يا بنى هاشم - إنى قد سألت الله عز وجل أن يجعلكم رحماء نجباء، وسألته أن يهدى ضالكم، ويؤمن خائفكم، ويشبع جائعكم»[(6)]. وحديث قال لعلى: «أما ترضى أن تكون رابع أربعة: أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين، وأزواجنا من أيماننا وشمائلنا، وذريتنا خلف أزواجنا»[(7)].

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٢) مستدرك الحاكم (٣/١٥٢)، الأحاديث الصحيحة للألبانى (٢/٤٤١)، مجمع الزوائد (٩/٢٠٢) كنز العمال (٣٤٢٢٠)، تاريخ دمشق (٤/٣٢٣)، المطالب العالية لابن حجر (٣٩٨٧).

(٣) جمع الجوامع للسيوطى (٧٧٨٠)، اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة (١/٢٠٨)، الموضوعات لابن الجوزى (١/٤٢١).

(٤) المعجم الكبير للطبرانى (١١/٢٦٣)، مجمع الزوائد (٩/٢٢)، جمع الجوامع (٤٨٨٣)، كنز العمال (٣٤٢٣٦)، اللآلئ المصنوعة (١/٢٠٨)، الأحاديث الضعيفة للألبانى (٤٥٧).

(٥) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

(٦) مجمع البحرين (٣٧٩٨).

(٧) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

وهذا هو فائدة ذلك التطهير وغايته إذ منه إلهام الإنابة إلى الله تعالى وإدامة الأعمال الصالحة، ولذا اختصوا بمشاركته ﷺ فى تحريم صدقة الفرض والزكاة والنذر والكفارة وغيرها، وخالف بعض المتأخرين فبحث أن النذر كالنفل، وليس كما قال.

وحكمة ختم الآية بـ ﴿تَطْهِيرًا﴾: للمبالغة فى وصولهم لأعلاه ورفع التجوّز عنه، ثم تنوينه تنوين التعظيم والتكثير والإعجاب المفيد أنه تطهير بديع ليس من جنس ما يتعارف ويؤلف، ثم أكد ﷺ ذلك كله بتكرير طلب ما فى الآية لهم بقوله: «اللهم هؤلاء أهل بيتى...»[1] الحديث، وبإدخاله نفسه معهم فى العد لتعود عليهم بركة اندراجهم فى سلكه.

وقال بعد ذلك: «ألا من آذى قرابتى فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله تعالى»[2] وفى رواية: «والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد بى حتى يحبنى، ولا يحبنى حتى يحب ذوى» فأقامهم مقام نفسه.

وصح حديث: «إن لكل بنى أب عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وعصبتهم، وهم عترتى، خلقوا من طينتى، ويل للمكذبين بفضلهم، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[3]. وحديث: «والذى نفسى بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا كبَّه الله فى النار»[4].

وإذا تقرر ذلك فنقول: قال الشيخ الإمام العارف بالله الولى الكبير الشيخ أحمد زروق المغربى البرنسى فى «قواعده» ما نصه: قاعدة أحكام الصفات الربانية لا تتبدل، وآثارها لا تنتقل، فمن ثم قال الحاتمى قدَّس سرَّه: نعتقد فى أهل البيت أن الله تعالى تجاوز عنهم جميع سيئاتهم لا بعمل عملوه ولا

---

(١) الترمذى (٣٩٩٢)، أحمد (٤/ ١٠٧)، البيهقى (٢/ ١٥٢)، المستدرك (٢/ ٤١٦)، الطبرانى فى الكبير (٣/ ٤٧)، التاريخ الكبير للبخارى (٢/ ٧٠)، الدر المنثور (٥/ ١٩٨)، موارد الظمآن للهيثمى (١١٤٥).

(٢) كنز العمال (٣٤١٩٧).

(٣) أخرجه البخارى (٣٤٩٩)، مسلم (١١٠).

(٤) البخارى (٦٦٠٦)، مسلم (٢١٤)، مستدرك الحاكم (٣/ ١٥٠).

بصالح قدموه، بل بسابق عناية الله تعالى لهم، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (١) فعلق الحكم بالإرادة التى لا تتبدل أحكامها، فلا يحل لمسلم أن يتنقص ولا أن يشنأ عرض من شهد الله بتطهيرهم وذهاب الرِّجس عنهم، والعقوق لا يخرج من النسب ما لم تذهب أصل النسبة، وهو الإيمان وما تعين عليهم من الحقوق، فأيدينا فيها نائبة عن الشريعة، وما نحن فى ذلك إلا كالعبد يؤدّب أولاد سيده بإذنه، فيقوم بأمر السيد ولا يهمل فضل الولد، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (٢) قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: «إلا أن تودوا قرابتى» وما نزل بنا من قِبَلهم من الظلم ننزله منزلة القضاء الذى لا سبب له إذ قال عليه الصلاة والسلام: «فاطمة بضعة منى يريبنى ما يريبها»(٣) وللجزء من الحُرمة ما للكل. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ (٤) فأثنى بصلاح الأب، فما بالك بنبوته، فبان أن لهم من الفضل ما لا يقدر قدره غير من خصصهم به فافهم. ذكر هذا العلامة الشيخ محمد بن عنقاء الحسينى المكّى ـ رحمه الله تعالى ـ عن الشيخ أحمد زروق، عن الشيخ محيى الدين قدّس سرّه.

قال ابن عنقاء: وهو كلام نفيس نفيس، ثم ذكر عن أجلاَّء مشايخه ومشايخهم أنهم كانوا يسلكون هذا المسلك الحسن، ويرون هذا الرأى الصائب المستحسن، ثم قال ـ رحمه الله ـ عقب ذلك: إذا علمت ذلك فإيضاح وجه الاستدلال: أن إرادة الله تعالى أزلية لأنها من صفات الذات، وكانت شهادته سبحانه وتعالى لهم بالتطهير وإذهاب الرجس فى الأزل مع أنا نراهم لا

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٢) سورة الشورى: ٢٣.

(٣) البخارى: فضائل الصحابة (٣٧١٤)، البيهقى (٧/٦٤)، مستدرك الحاكم (٣/١٥٨)، مشكاة المصابيح (٦١٣٠)، كنز العمال (٣٤٢٢٢ ـ ٣٤٢٢٣).

(٤) سورة الكهف: ٨٢.

يخلون من الذنوب الملوثة البتة، كيف لا والعصمة إنما هى للأنبياء، ونعلم من كثير منهم الانهماك فى الكبائر فضلاً عن الصغائر ولا سيما من كان من أرباب الدولة منهم، ونرى منهم الغلاة والمبتدعة، وقد علم سبحانه وتعالى ذلك منهم فى الأزل ومع ذلك فقد شهد لهم بما ذكر، إذ المؤاخذة بالمعصية منافية للشهادة المذكورة، ويؤخذ مما تقرر: امتناع وقوع الردة المتصلة بالموت منهم البتة؛ لأنه لو مات أحد منهم عليه لزم التناقض فى كلامه تعالى، وهو محال، فقول الشيخ ابن عربى قدَّس سرَّه: «ما لم تذهب أصل النسبة» وهو الإيمان إنما أتى به لمجرد تتميم المسئلة فلا يخالف ما ذكرناه.

فإن قلت: يلزم على ما تقرر أن لا تقام عليهم الحدود الشرعية لأنهم غير مؤاخذين بذنوبهم وهو مخالف لقوله ﷺ: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ»[1] الحديث رواه الشيخان وغيرهما، قلت: لا يلزم ذلك؛ لأن المراد عدم المؤاخذة بالنسبة إلى الآخرة لا إلى أحكام الدنيا، فتقام عليهم الحدود ولا تقال عثراتهم فيها، وذلك لا يحط من قدرهم وسموّ فخرهم.

قال خاتمة المحققين الشيخ أحمد بن حجر الهيثمى ـ رحمه الله تعالى ـ فى فتوى له: من عُلمت نسبته إلى البيت النبوى، والسر العلوى، لا يُخرجه عن ذلك عظم جناية، ولا عدم ديانة وصيانة، ومن ثم قال بعض المحققين: ما مثال الشريف الزانى والسكران والسارق مثلاً إذا أقمنا عليه الحدّ؛ إلا كأمير أو سلطان تلطخت رجلاه بقذر فغسله عنهما بعض خدمه، ولقد بَرَّ فى المثال وحقق، وليتأمل قول الناس فى أمثالهم: الولد العاق لا يحرم الميراث.. انتهى.

ونقل السيد العلامة ابن عنقاء ـ رحمه الله تعالى ـ عن جمع سماهم من

---

(١) أخرجه البخاري (٤/٢١٣)، الترمذى (١٤٣٠)، النسائى: كتاب قطع السارق باب (٦)، البيهقى فى السنن (٨/٣٣٢)، والدارمى (٢٢٠٠)، البغوى فى شرح السنة (١٠/٣٢٨).

أكابر الأئمة الحنفية وغيرهم: أنه مما ينبغى اعتقاده أن من الممنوع فى حق أهل البيت النبوى أن يموت أحد منهم مُصِرّاً على معصية من بدعة أو غيرها، بل لابد أن يمنَّ الله عليهم بتوبة صحيحة، ولا يقبضهم إلا بعدها، ثم قال: والظاهر أن مأخذهم هو الآية والأحاديث المذكورة. قال: وهذه منقبة تحار فى أدنى أدنى منها الأفكار وتبذل نفائس الأعلاق، وفضيلة تميزوا بها على سائر الخلق على الإطلاق تدل على أن لهم من الفخر والقدر الجليل ما لا يقدر قدره سوى من منحهم ذلك من خزائن فضله الجزيل، وتشهد بالجاه العريض الطويل عند الملك الجليل، لُمشَرِّفهم هذا النبى الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. . انتهى كلام العلامة ابن عنقاء ملخصًا من «المنهج الأعدل».

(و) أطلب منه رضوانًا (يَعُمُّ أصحابه) بفتح أوله وقد يكسر، أى أصحابه ﷺ إذ هو كالعلم لهم لغلبة استعماله فيهم فلا يستعمل فى غيرهم، ولهذا جاز النسبة إليه بأن يقال صاحبى كما يقال بصرى، وهو من اجتمع به بعد بعثته ولو ساعة فى حياته مؤمنًا به ومات على ذلك ولو لم يرو عنه شيئًا أو لم يره، فيدخل فى ذلك الأعمى والصغير ولو غير مميز كمن حنَّكه ﷺ أو وضع يده على رأسه أو غير ذلك، ويخرج من آمن به ولم يجتمع كالنجاشى فلا يكون صحابيًا بل هو تابعى لأنه أسلم على يد الصحابة فى حياته ﷺ، وسيأتى أنه أسلم على يده عمرو بن العاص الصحابى، وهى لطيفة: صحابى أسلم على يد تابعى، ولا يعلم مثله.

وهم أفضل من آل لا صحبة لهم والنظر لما فيهم من البضعة الكريمة إنما يقتضى الشرف من حيث الذات وكلامنا فى وصف يقتضى أكثرية العلوم والمعارف، ولابدّ وأن يكون الاجتماع فى عالم الدنيا بالجسد والروح، فيدخل فى ذلك عيسى ـ عليه السلام ـ فإنه اجتمع به بالروح والجسد فى المسجد الأقصى ليلة الإسراء، ويخرج غيره من الأنبياء فإنهم لم يجتمعوا عليه إلا

بأرواحهم على الراجح.

قال الحافظ فى «الفتح»: وهل تختص بجميع بنى آدم أو تعم غيرهم من العقلاء؟ محل نظر؛ أما الجن: فالراجح دخولهم لأنه ﷺ بعث إليهم قطعًا، وأما الملائكة: فيتوقف عدّهم فيهم على ثبوت بعثته إليهم فإن فيه خلافًا بين الأصوليين حتى نقل بعضهم الإجماع على ثبوته، وعكس بعضهم.. انتهى ملخصًا.

لكن قال العلامة ابن حجر: إنه مرسل إلى الملائكة أيضًا، كما رجحه جمع محققون كالسبكى ومن تبعه، وردوا على من خالف ذلك. وصريح آية: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [1] إذ العالم ما سوى الله. وخبر مسلم: «وأرسلت إلى الخلق كافة»[2] يؤيد ذلك، بل قال البارزى[3]: إنه أرسل حتى للجمادات بعد جعلها مدركة.. انتهى[4].

فالحق أنه مرسل لجميع المخلوقات حتى الجمادات؛ إلا أن إرساله للجن والإنس إرسال تكليف، ويكفر منكره، ولغيرهم كالمعصوم وغير المكلف إرسال إذعان لشرفه ودخوله تحت دعوته واتباعه تشريفًا على سائر المرسلين، وهذا هو المعتمد.

وأفضل الصحابة بعد عيسى: سيدنا أبو بكر، كما أن أفضل الصحابيات سيدتنا فاطمة الزهراء، بل هى وأخوها إبراهيم أفضل من سائر الصحابة حتى الخلفاء الأربعة، قاله العلقمى.

(و) يَعُمُّ (الأَتْبَاع) أى التابعين الذين اجتمعوا بالصحابة وطال اجتماعهم على الأصح بخلاف الصحابى كما مر، والفرق أن اجتماع لحظة منه ﷺ تُعد

---

(١) سورة الفرقان: ١.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٤١٢)، البيهقى فى السنن (٢/ ٤٣٣).

(٣) هو هبة الله بن عبد الرحيم البارزى، توفى سنة (٧٣٨ هـ)، ولعل المؤلف ينقل عن كتابه «توثيق عُرى الإيمان فى تفضيل حبيب الرحمن».

(٤) انظر فتوى الإمام شهاب الدين الرملى فى جواهر البحار (٤/ ١٣٠) لمعرفة آراء العلماء فى تلك المسألة.

على من حصلت له من انشراح الصدور وحقائق القرب وغرائب العلم والحكمة ـ كما هو مشاهد فى الصحابة ـ ما لا يُعَد عُشْرَ معاشرها صحبة غيره وإن جلَّ قدره واتسع علمه سنين؛ لعظم منصب النبوة ونورها، كذا قرره بعضهم.

والذى قرره شيخنا الباجورى[1] فى «حاشية الجوهرة» عدم اشتراط طول الاجتماع كما فى الصحابى مع النبى ﷺ قال: وهذا ما صححه ابن الصلاح والنووى، وهو المعتمد، والطريقة المشهورة أنه يشترط التمييز فى التابعى دون الصحابى، والمعتمد عندنا عدم اشتراطه فى التابعى كما لا يشترط فى الصحابى.

وأفضل التابعين أويس القرنى، كما أن أفضل التابعيات: حفصة بنت سيرين على خلاف فى المسئلة.

(و) يَعُمُّ (مَنْ وَالاَه) أى اتخذ النبى ﷺ وليًا وإمامًا، وبايعه ولو فى مجرد الإيمان، وهذا يشمل جميع المؤمنين (وأستجديه) أى اطلب جدواه أى عطيته وأساله أن تكون (هدايةً) أى دلالة، وفى بعض النسخ: (استهديه) هداية (لسُلُوكِ) بضم السين المهملة مصدر سلك إذا مرَّ (السُّبُلِ) بضم الموحدة وإسكانها وبهما قرىء فى السبع قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2] بضم الباء وإسكانها جمع سبيل، وهو الطريق (الواضحة) الظاهرة (الجَلِيَّه) التى لا خفاء فيها بالكلية، والمراد بالسبل فيما تقدم أحكام الدين التى يكون العمل بها سببًا فى الوصول إلى الجنة، ففى الكلام استعارة مصرحة حيث شبه ما ذكر بالطرق الحسية الموصلة للمقصود واستعار اللفظ الدال على المشبه به للشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة حالية، وكل من الواضحة والجليلة ترشيح.

---

(١) هو إبراهيم بن محمد الباجورى له «حاشية على البردة» و «تحفة البشر على مولد ابن حجر» وغيرها. توفى سنة (١٢٧٦ هـ).

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩. والقراءة بالسكون هى قراءة أبو عمرو.

(و) أن تكون (حفظًا) أى صيانة (من الغَواية) بكسر المعجمة وفتحها وهو أفصح أى الضلالة (فى خطَط) بكسر الخاء المعجمة وطائين مهملتين الأولى منهما مفتوحة جمع خطة وبكسرها أيضًا وهى المكان المختلط للعمارة، والمراد بها طرق الضلال (الخَطَأ) بفتح الخاء المعجمة العدول عن طريق الصواب والوقوع فى الإثم والذنب. قال فى «النهاية»: ويقال لمن أراد شيئا ففعل غيره خطأ (وخُطَاه) بضم الخاء المعجمة، جمع خُطوة بالضم أيضًا، وهى بعد ما بين القدمين فى المشى، وأما الخَطوة بالفتح فهى نقل القدم وتجمع على خَطَوات مثل شَهْوة وشَهَوات، وعلى خِطاء بالكسر والمد؛ كركوة وركاء كما فى «الصحاح» وغيره، والضمير للخطأ، ففى كلامه استعارة بالكناية حيث شبه الخطأ بمفارة مهلكة لها طرق مختلفة، وطوى ذكر المشبه به وهو المفازة، ورمز إليه بشىء من لوازمه على سبيل التخييل وهو لفظ الخطط، ولفظ الخطاء ترشيح، والقرينة التخييل (وأنشُرُ) بضم الشين المعجمة أى أبسط وأوضح (مِنْ) تبعيضية (قِصَّة) بكسر القاف وشد الصاد المهملة أى حديث (المَولِد النبوى) بفتح الميم وكسر اللام مصدر ميمى بمعنى الولادة أى وما سبقه من الحمل ولحقه من نحو نشأته وبعض ما اتفق له فى صغره وكبره قبل مبعثه وبعده، وسيرته الزكية، وشمائله الشريفة، وأخلاقه الحسنة، وغير ذلك، وهذا كله غير داخل فى كلامه لكنه لما كان من المعلوم اشتمال لفظ المولد على ما ذكر وأنه كالترجمة لذلك، على أن نقص الترجمة غير معيب عند المصنفين وإنما المعيب عكسه وهو زيادة الترجمة على ما جعلت مبدأ له ودالة عليه إجمالاً اكتفى بذكر المولد عن غيره، فوضح أن اقتصاره على ذلك مما لا مرية فى حسنه عند المصنفين (بُرُودًا) بضم الموحدة والراء جمع بُرْد بضم فسكون أصله كساء ملفق من شقتين وفى «القاموس»: البُرْد ثوب مخطط، والمراد هنا حمل الكلام (حِسَانًا) بكسر الحاء المهملة جمع حسن أى رائقة الألفاظ والمعانى (عَبْقَرِيَّة) بفتح العين المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح القاف نسبة

لعَبْقَر موضع بالبادية، والعرب تزعم أنه بلد الجن، فينسبون إليه كل شيء عجيب، وفي «القاموس»: عَبْقَر موضع كثير الجن، بلدة ثيابها في غاية الحسن، وعليه فالمعنى أنشر من خبر المولد الشريف النبوي أحاديث في النفع والرغبة، أكسية حسانًا تشبه الأكسية المنسوبة إلى تلك البلدة في الحسن والظرافة الكاملة التي لا خلل فيها ولا قصور، ففي الكلام استعارة مصرحة حيث شبه ما يتعلق بالمولد الشريف من الأخبار بالبرود المذكورة بجامع أن كلاً تُسر به النفوس، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، وذكر المولد قرينة على ذلك، وقوله: عبقرية ترشيح.

(ناظمًا) حال من فاعل أنشر، والنظم: إدخال اللآلئ في السلك أي جامعًا على وجه الترتيب في مؤلفي هذا البديع المعاني الرائق الألفاظ والمباني **(من)** فرائد اللآليء أسماء آبائه الشُّم العرانين الواقعين في عمود **(النَّسَبِ الشَّرِيفِ عِقْدًا)** بكسر العين المهملة وسكون القاف، وهو القلادة، والمراد بها هنا: اللآليء لأنها من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء، إذ هي التي تنظم دون العقد فهو تشبيه بليغ **(تَحَلَّى)** بحذف إحدى التائين مبنيًا للفاعل جريًا على القاعدة من أن الفعل المضارع إذا ابتدىء بتائين جاز حذف إحديهما كما قال في «الخلاصة»:

وما بتائين ابتدى قد يقتصر ... فيه على تا كتبين العبر

من الحلية أي تزين **(المَسَامِعُ)** الأسماع **(بحُلاَه)** بضم الحاء المهملة وكسرها، وهو أفصح وقد تفتح، وعلى أنها بضم الحاء وكسرها فجمع حِلية بالكسر كما يأتي، وعلى أنها بفتحها فمن الحُلى بالضم جمع حَلى بالفتح كثدى وثدى، أو هو جمع الواحد حلية كظبية، وعلى كل فيطلق على التحلية بمعنى لبس الحلى بما يتزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة، والمراد بها إما الصفات من غير تشبيه أو بعد تشبيهها بالحلى، وقد يطلق مفتوحها على ما يحلو في الفم والعين والقلب، ولا يناسب هنا؛ إذ الأسماء لا تتحلى بالذوق وإنما

تتزين بسماع زينة الأخبار الواردة فى مدح نسبه الشريف المشبه بعقد الجوهر الذى هو ﷺ واسطته العظمى، وفى كلامه استعارة بالكناية: حيث شبه أسماء آبائه ﷺ بلؤلؤ نفيس، وطوى ذكر المشبه به ـ وهو اللؤلؤ النفيس ـ ورمز إليه بشيء من لوازمه ـ وهو النظم ـ على سبيل التخييل، فهو قرينة المكنية، وذكر العقد ترشيح.

وفى تحلى المسامع أيضًا استعارة تصريحية تبعية حيث شبه سرور المسامع عند سماع ذلك النسب الشريف بالتحلى بالحى المحسوس بجامع انشراح النفس لكلٍّ، واستعار التحلى للسرور، واشتق منه تحلى بمعنى تسر؛ فهى استعارة تصريحية تبعية لجريانها فى الفعل بعد جريانها فى المصدر، وشاهد ذلك: حديث مسلم: «إن الله اصطفى كِنَانَة من ولد إسماعيل، واصطفى من كِنَانَة قريشًا»[1] الحديث، وحديث الترمذى: «إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير فرقهم، ثم تخير القبائل فجعلنى فى خير قبيلة»[2] الحديث، وغير ذلك من الأحاديث كما يأتى إن شاء الله تعالى.

(وأستعينُ) أى أطلب العون فى إتمام ما أنا بصدده وهو هذا التأليف **(بحولِ الله)** أى قدرته **(وقوّته)** كذلك **(القوية)** العظيمة التامة التعلق بكل ممكن **(فإنه)** أى الأمر والشأن **(لا حول)** لا قدرة لأحد على فعل شيء ما **(ولا قوّة)** له كذلك **(إلا بـ)** إعانة **(الله)** العلى العظيم، وفى الحديث: «لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوّة على طاعة الله إلا بإعانة الله»[3]. وجاء فى الحديث أنها: كنز من كنوز الجنة. أى لقائلها ثواب نفيس مُدَّخر فى الجنة، فهو كالكنز فى كونه نفيسًا مدخرًا؛ لاحتوائها على التوحيد الخفى، وأنها تدفع سبعين بابًا من البلاء أدناها الهَمُّ. وجاء: «والذى نفسى بيده إنَّ لا

(١) مسلم: كتاب الفضائل (١)، الترمذى (٣٦٠٦)، أحمد (٤/ ١٠٧)، دلائل النبوة (١/ ١٣٠)، جمع الجوامع (٤٦٨١)، التاريخ الكبير (١/ ٤)، ابن حبان (٦٢٠٤).

(٢) الترمذى (٣٦٠٧)، الشفا (١/ ٨٢)، مناهل الصفا (١٢٥).

(٣) مجمع الزوائد (١/ ٩٩)، كنز العمال (٣٩٤٧)، تاريخ بغداد (١٢/ ٣٦٢)، أمالى الشجرى (١/ ٣٠).

حول ولا قوّة إلا بالله شفاء من سبعين داء أدناها الهم والغم والحزن»[1] وفرق بين الهم والغم: أن الغم يعرض منه السهر، والهم يعرض منه النوم.

قيل: ومعنى كونها من كنوز الجنة أنها بساط الرضا والتسليم الذى هو جنة الدنيا، فقد قال عبد الواحد بن زيد ـ رضى الله عنه ـ: الرضا باب الله الأعظم، ومستراح العابدين، وجنة الدنيا.. انتهى.

ومعنى كونها بساط الرضا والتسليم أنها كلمة استسلام وتفويض، وأن العبد لا يملك من أمره شيئًا، وليس له حيلة فى دفع شر ولا قوة فى جلب خير إلا بإرادة الله.

وفى الخبر: أن رسول الله ﷺ ليلة الإسراء مرَّ على إبراهيم ـ عليه الصلاة السلام ـ فقال إبراهيم: يا محمد، مُرْ أمتك أن يكثروا من غراس الجنة. قال: «وما غراس الجنة؟» قال: لا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

ولما أراد المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ أن يشرع فى المقصود فصلَّ كلامه بتعطيرة من الصلاة والسلام على ضريح صاحب المقام المحمود عليه الصلاة والسلام، وهكذا كلما أراد الانتقال من أسلوب إلى أسلوب لما هو عادة أهل المدينة المنورة عند عمل المولد الشريف يجتمعون أولا على قراءة القرآن العظيم، وعند الفراغ والتختيم يشرع قارىء المولد فى إملاء كيفية المولد الشريف، والحاضرون منصتون بخشوع وخضوع، فعند وصول القارىء إلى تعطيرة من تلك التعطيرات يرفعون بها أصواتهم، ويصلّون ويسلّمون على سيد أهل الأرض والسموات، فقال ـ رحمه الله تعالى الملك المتعال ـ:

[عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ]

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ) يا الله، وهو بفتح العين وكسر الطاء المهملة، دعاء بتطييب

(١) مجمع البحرين (٤٥٤٧).
(٢) سيأتى تخريجه فى أحاديث الإسراء والمعراج.

قبره الشريف ﷺ وإنزال الرحمة عليه أى أدم ذلك أو زده فإنه لا شك أنه عليه الصلاة والسلام لم يزل يترقى فى درجات الكمال وهكذا إلى ما لا نهاية.

(قَبْرُهُ الكريمِ) أى المكرّم بتكريم الله تعالى والمشرّف بتشريفه، وقد انعقد الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة على سائر الأماكن، واختلفوا فى هل هو أفضل من العرش؟ فقال جمع من المتأخرين: إنه أفضل من العرش، وهو الذى مال إليه المحققون كالسبكى، والسمهودى[1]، وابن حجر وأمثالهم، وخالفهم بعض محققى المتأخرين وقال: إن العرش أفضل وصنف فى ذلك رسالة ساق فيها أدلة كثيرة ونذكر بعضها هنا ليتنبه له؛ فقال: وأما قول التاج السبكى نقلاً عن ابن عقيل الحنبلى[2]: إن القبر الشريف أفضل من العرش فلم يقم عليه دليل ولم يرد فى ذلك نص عن رسول الله ﷺ ولا عن الخلفاء الراشدين ولا عن أحد من فقهاء الصحابة والتابعين ولا عن أحد من الأئمة المجتهدين؛ بل هو قول محدث بعد الثمانمائة، فالحق أن عرش الرحمن أفضل من قبر النبى ﷺ، كيف لا وقد ذكره الله تعالى فى كتابه العزيز فى مواضع كثيرة، ووصفه بأوصاف جليلة، فسماه عظيمًا وكريمًا ومجيداً فقال: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[3]. وقال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[4]. وقال: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ﴾[5]. وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[6]. فى عدة

(١) هو على بن عبد الله بن أحمد الحسنى، نور الدين أبو الحسن (٨٤٤ ـ ٩١١هـ) مؤرخ المدينة المنورة ومفتيها، ولد بسمهود إحدى قرى صعيد مصر، واستوطن المدينة وتوفى بها، له تصانيف عديدة منها: «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» و «خلاصة الوفا» وغيرهما. انظر: الأعلام (٤/ ٣٧).

(٢) هو على بن عقيل بن محمد بن عقيل، أبو الوفاء، عالم العراق، وشيخ الحنابلة فى بغداد فى وقته، له تصانيف عديدة منها: «الجدل على طريقة الفقهاء» و «الفصول فى فقه الحنابلة». انظر: الأعلام (٤/ ٣١٣)، سير اعلام النبلاء (١٩/ ٤٤٣).

(٣) سورة التوبة: ١٢٩.

(٤) سورة المؤمنون: ١١٦.

(٥) سورة البروج: ١٥.

(٦) سورة الأعراف: ٥٤.

آيات؛ فأضافه سبحانه إلى نفسه وجعله محل استوائه مع تنزهه عن الاستقرار والمماسة وما يوجب الجسمية، ويكفى فى تشريفه تلك الإضافة والاختصاص، ولا يرد أن الكعبة بيت الله لأن السرير أخص من البيت، ولأن الكعبة شرفت بيمين الله، والعرش باستواء الرحمن بالمعنى الذى أراده مع التنزيه، ثم إن شرف العرش سابق منذ خلق الله العرش، وشرف القبر الشريف حدث بدفنه فيه، وشرف العرش أبدى باق ببقاء الله، وشرف القبر يزول ببعثه ﷺ منه.

وأما حديث الإعداد لدفنه فيرد عليه أن الوسيلة فى الفردوس الأعلى معدة له ﷺ، ومكثه فيها أطول من مكثه فى القبر الشريف، فيلزم أن تكون أفضل من القبر الشريف، مع أنهم لم يقولوا إن الفردوس الأعلى أفضل من العرش.

قال ابن قاسم: هل البقعة المذكورة هذه أفضل من منزلته فى الجنة أو منزلته فيها أفضل كما هو المتبادر إلى الفهم؟ قال: وقد يقال هذه أفضل ما دام فيها، فإذا صار فى الجنة صارت منزلته أفضل. وقد يقال: يحتمل أن تكون هذه منقولة من منزلته فى الجنة أو تنقل إليها فلها حكمها.. انتهى.

قال: وهو إنما يدل على مساواة القبر الشريف للمنزلة الشريفة فغايته أنه فى فضلها، فهل قال أحدٌ أن منزلته فى الجنة أفضل من العرش؟ لم نره لأحد، ولا نفضل الجنة على العرش.

قال: وأما قول ابن حجر فى «حاشية الإيضاح»: قال جمع إنها أفضل من العرش وهو ظاهر، يدل له أن مدفن الشخص هو الذى خلق منه، فقد يرد عليه أن الكلام فى مدفنه ﷺ، والطينة إنما هى التى صارت جزءاً من جسده الشريف ﷺ، ولا نزاع فيه، فهو استدلال على غير المدعى، ومن ثم قال بعضهم: الاستشكال فى مكان الطينة لا فى الطينة.

وأما حديث: أن المرء يدفن فى البقعة التى أخذ منها ترابه عندما خلق. فرواه عبد الرزاق موقوفا، والموقوف يحتج به فى الفضائل لا فى التفضيل.

وأما استدلال بعضهم بأن القبر الشريف تنزل عليه من الكمالات ما يقصر العقول عنه، فكيف لا يكون أفضل الأمكنة؟ فأقول: القبر الشريف تنزل عليه الكمالات، والعرش الكريم تنزل عنه الكمالات، وفرق بين المقامين.

فإن قلت: إن نزول ذلك من الله لا من العرش، قلت: فعلى النبى ﷺ لا على القبر الشريف.

وأما عبادة النبى ﷺ فى القبر ـ الذى مال إليه السبكى والسمهودى ـ فمعارض بعبادته فى مكانه فى الجنة؛ فإن ترقياته ﷺ فى الجنة دائمة ـ كما قال السمهودى نفسه ـ والجنة لا تفنى وهى أبدية سرمدية، فترقياته فى الجنة غير متناهية بخلاف ترقياته فى القبر الشريف لأن مكثه به متناه، فكذا ترقياته التى فيه؛ لأن ما كان فى مُتَنَاهٍ فهو مُتَنَاه، فيلزم أن يكون مكانه فى الجنة أفضل من قبره بعين هذا الدليل.

وقد قال ﷺ: «لقاب قوس أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها»[1] فهذا صريح فى تفضيل الجنة، ومعلوم أن العرش أفضل من الجنة، ولم يقل أحد أن الجنة أفضل من العرش، فيلزم تفضيل العرش على القبر الشريف بدرجتين.

ولنا أدلة على تفضيل العرش سنوردها هنا، فاستمع وأنصف:

الأول: أن العرش مخلوق قبل السموات والأرض بمدة مديدة، لا يعلمها إلا الله، بل هو أول مخلوق بعد القلم واللوح، كما قاله إمام المحققين الشيخ محيى الدين بن عربى[2] قدَّس الله سره، وهو باق أبدى، وهو مُذْ خُلِقَ تشرَّف بشرف الاستواء عليه، كما أراد الله ورسوله من غير تكييف ولا تجسيم، والقبر الشريف إنما تشرف بدفنه ﷺ فيه سنة عشر من الهجرة.

(١) أخرجه البخارى (٤/ ٢٠، ١٤٤)، أحمد فى مسنده (٣/ ١٥٣)، الترمذى (١٦٥١)، أبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٣٧).

(٢) هو محمد بن على بن محمد بن أحمد، أبو بكر الطائى الحاتمى الدمشقى، الصوفى، صاحب «الفتوحات المكية» وغيرها من الكتب، توفى سنة (٦٣٨ هـ).

الثاني: أن العرش لم يصعد إليه مخلوق قط، وهو من محض النور، وهو من محض الرحمة باق لا يفنى، والقبر الشريف من أجزاء الأرض التى داس عليها - قبل أن يكون بيتًا له ﷺ - الناس حتى الكفار، وعُصى الله تعالى عليها، وإنما ظهر شرفه بسكناه ﷺ فيه ودفنه فيه، وليس من محض النور ولا من محض الرحمة، وأيضًا فهو يفنى.

الثالث: أن العرش أول ما تشرَّف بشرف الانتساب إلى الله واختصاصه به تعالى، ومذهب أهل السنة: وجوب الإيمان بصفة الاستواء لله تعالى، والتسليم، من غير إثبات كيفية وجسمية وجهة، كما قال الإمام مالك - رضى الله عنه -: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، فهذا الاختصاص لا يفارق العرش، وأيضًا فشرف القبر بواسطة، وشرف العرش بغير واسطة.

الرابع: أن الأنبياء والشهداء والصالحين يوم القيامة يكونون فى ظل العرش، وأرواح الشهداء تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش، وأن موسى عند البعث يأخذ بقائمة من قوائم العرش، وأن النبى ﷺ يكون تحت العرش ساجدًا مرة، وقائمًا أخرى، وأن خُلْعَتُه التى يكساها قبل الأنبياء - التى لا يقوم لها البشر - تُرمى على ساق العرش، فهذه غاية قربه ﷺ من العرش، وأن القبر الشريف كان يُمشى عليه ويُنام عليه قبل وفاته، وهو الآن فيه بعد وفاته، فإن كان هذا العرش - وهو عرش الفصل والقضاء - غير العرش المحيط، فذاك أجل وأعظم، إذ لم يرد ليلة المعراج أنه وقف تحته. وإن كان هو هو، فهذا غاية قربه ﷺ من العرش فى أفخر أحواله، ووقت تميز فضله على جميع أولاد آدم، وما هو إلا لعظمة العرش، ومزيد شرفه، وكمال علوه، وغاية رفعة قدره، فأين هذا من ذاك؟!.

الخامس: قال النووى رحمه الله: الجمهور على أن العرش أفضل من السموات، وأن البيت المعمور الذى فى السماء أفضل من الكعبة التى فى الأرض، وبالاتفاق أن العرش أفضل من السموات ومن البيت المعمور فهو

أفضل من الكعبة بمراتب، وقد جعل بعضهم شرف القبر من شرف الكعبة؛ لأنه منها، فيكون على هذا الوجه العرش أشرف من القبر الشريف بمراتب.

السادس: إذا كان شرف ما ضَمَّ الأعضاء الشريفة بالمجاورة والملامسة؛ فيجب أن يقال: إن كل مكان غزاه النبى ﷺ أو مشى عليه أو بات فيه أو لبسه ـ كعمامته وقميصه ـ أفضل من العرش، ولا أظن أحداً يقول بذلك.

السابع: أن كمالاته ﷺ فى التزايد أبد الآبدين، فكل ما جاوره آخراً كان خيراً من الذى جاوره أولاً، ومعلوم أنه فى الجنة أكمل حالاً وأكثر ترقيًا منه فى الدنيا وفى البرزخ، وأن مدة إقامته فى الجنة أكثر منها فيهما؛ لأنها فى الجنة أبدى، فيلزم أن يكون منزلته فيها أفضل من العرش، بل يلزم كون الوسيلة ـ وهى مقامه فى الجنة ـ أفضل من قبره الشريف بعين عِلَّة المجاورة.

الثامن: تقدم أن الله سبحانه وتعالى ذكر العرش فى كتابه العزيز فى مواضع إظهار عظمته، ووصفه بأوصاف جليلة: أنه رب العرش العظيم، وأنه رب العرش الكريم، وأنه ذو العرش المجيد؛ على من قرأ بجر المجيد أنه نعت العرش(1)، وأنه ذو العرش يُلْقِى الروح من أمره على من يشاء من عباده.

وفى الأدعية النبوية: «يا ذا العرش المجيد، يا فعالاً لما يريد». وورد: «أسألك بنور وجهك الذى ملأ أركان عرشك»، ومعلوم أنه تعالى ذو كل شىء، وخالق كل شىء، فلولا أن للعرش مزية وفضلاً على بقية الأماكن لما اختص بذلك وتلك الإضافة، ثم إنه قد ورد فى فضل العرش وعظمه أحاديث كثيرة، بخلاف القبر الشريف فإنه لم يرد فيه شىء.

وقد قال العلامة ابن حجر نفسه فيما تعقب به من قال بأفضلية مولده ﷺ على ليلة القدر ـ أى كما تقدم فى المقدمة فى أول الكتاب ـ: أن الشارع إذا نص على أفضلية شىء وجب علينا أن نقتصر عليه ولا نبتدع شيئًا من عند أنفسنا القاصرة عن إدراكه إلا بتوقيف منه ﷺ، ثم تجرؤ بعضهم على هذا

(1) هى قراءة حمزة والكسائى والمفضل عن عاصم (زاد المسير ١٩/٧٨، السبعة لابن مجاهد ٦٧٨).

الكلام ونسبته إلى سيد الأنام مما يوجب عليه الوبال وغضب الملك المتعال؛ وما ألجأه لذلك إلا التساهل والاسترواح لما غلبه من التقليد المحض والجمود على الأخذ بكل ما قيل من غير محص إذ لم نر فى ذلك حديثًا ضعيفًا فضلاً عن الأحاديث الصحيحة، وهكذا كل من مال إلى الإجماع أو إلى غير ذلك.. انتهى كلامه ملخصًا مع بعض زيادات.

(**بعَرْف**) بفتح العين وسكون الراء المهملتين آخره فاء، أى ريح طيبة (**شَذِىٍّ**) بفتح الشين وكسر الذال المعجمتين وتشديد الياء، صفة مشبهة بمعنى قوى الرائحة من الشذا والياء نسبية (**من صلاةٍ**) أى رحمة عظيمة تغشاه فى كل وقت وحين (**وتسليم**) أى سلامة من كل نقْص وشين، وفى بعض النسخ زيادة (**اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْه**) ومعنى بارك عليه: أعطه بركة كثيرة وخيرًا زائدًا على ما هو حاصل له ﷺ؛ إذ الكامل يقبل الكمال، وما من كمال إلا وعند الله أكمل منه.

***

[نسبه الشريف ﷺ]

تمهيد:

قال الحافظ ابن حجر: قال ابن حزم وكذا ابن عبد البر: من زعم أن ما ورد من أن علم النسب علم لا ينفع وجهل لا يضر على إطلاقه فليس بمنصف، بل ذلك محمول على التعمق فيه، وفى علم النسب ما هو فرض عين وما هو فرض على الكفاية وما هو مستحب؛ فمن ذلك أن يعلم أن سيدنا محمداً رسول الله هو ابن عبد الله الهاشمى، فمن زعم أنه لم يكن هاشميًا فهو كافر، وأن يعلم أن الخليفة من قريش، وأن يعرف من يلقاه بنسب فى رحم محرمة ليجتنب ما يحرم عليه منهم، وأن يعرف من يتصل به ممن يرثه أو يجب عليه بره من صلة أو نفقة أو معاونة، وأن يعرف أمهات المؤمنين وأنَّ نكاحهن حرام، وأن يعرف الصحابة وأنَّ حبهم مطلوب، وأنَّ يعرف الأنصار ليحسن إليهم لثبوت الوصية بذلك وأنَّ حبهم إيمان وبغضهم نفاق. . اهـ ملخصًا.

وقد نحا المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ هذا القصد فى الإهتمام بشأن هذا النسب الشريف ذى القدر المنيف فقال رحمه الله تعالى: **(فأقول هو)** سيد الأولين والآخرين والملائكة المقربين والخلائق أجمعين سيدنا ومولانا وذخرنا وملاذنا أبو القاسم **(محمد)** ﷺ بحذف تنوينه لوصفه بابن الآتى، قال بعض المحققين: وهذا الإسم أفضل الأسماء عند جماعة مطلقًا، وهو اسم منقول من الصفة إذ أصله اسم مفعول من حمد المضعف عينه لقصد المبالغة؛ فكان الأصل محموداً من حمد مبنيًا للمفعول ثم ضعف فصار الفعل حمد من التضعيف والمفعول محمد كذلك، وذلك للمبالغة لتكرار الحمد له مرة بعد المرة. قال فى «الفتح»: المحمد الذى حمد مرة بعد أخرى والذى تكاملت فيه الخصال المحمودة.

وسمى بذلك: تفاؤلاً بأن يكثر حمده، وقد تحقق له ذلك فهو ﷺ أجلّ

المحمودين، وأفضل الحامدين من المخلوقين، كيف لا وقد سماه الله تعالى بهذا الاسم قبل الخلق بألفى عام كما ورد فى حديث ابن مالك من طريق أبى نعيم فى مناجاة موسى.

وروى ابن عساكر عن كعب الأحبار قال: أنزل الله على آدم عصيًا بعدد الأنبياء والمرسلين، ثم أقبل على ابنه شيث، فقال: أى بُنى أنت خليفتى من بعدى فخذها بعمارة التقوى والعروة الوثقى، فكلما ذَكَرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد فإنى رأيت اسمه مكتوبًا على ساق العرش وأنا بين الروح والطين، ثم إنى طفت السموات فلم أر فيها قصرًا ولا غرفة إلا اسم محمد مكتوبًا عليه، ولقد رأيت اسم محمد مكتوبًا على نحور الحور العين، وعلى ورق قصب آجام الجنة، وعلى ورق شجرة طوبى، وعلى ورق سدرة المنتهى، وعلى أطراف الحجب، وبين أعين الملائكة، فأكثر ذكره فإن الملائكة - من قبل - تذكره فى كل ساعاتها[1].

وقال ﷺ: «لما عرج بى إلى السماء ما مررت بسماء إلا وجدت - أى علمت - اسمى فيها مكتوبا: محمد رسول الله و أبو بكر من خلفى»[2].

ووجد على الحجارة القديمة مكتوب: محمد تقى مصلح أمين، ذكره فى «الشفا».

وقال أبو عبد الله بن مالك: دخلت بلاد الهند فسرت إلى مدينة يقال لها: نميلة أو ثميلة فرأيت شجرة كبيرة تحمل ثمرًا كاللوز له قشر، فإذا كسرت ثمرتها خرج منها ورقة خضراء مطوية مكتوب عليها بالحمرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأهل الهند يتبركون بها ويستسقون بها إذا منعوا الغيث، حكاه القاضى أبو البقاء فى «منسكه».

وفى كتاب «روض الرياحين» عن بعضهم مثله وأنه قال: فحدّث بذلك أبو

---

(١) عزاه السيوطى فى الخصائص (١/ ١٢) لابن عساكر.

(٢) مختصر ابن عساكر (٤/ ٣٢٢)، والحديث حوله كلام. انظر: الفوائد المجموعة ص (٣٣٣).

يعقوب الصياد، فقال: ما أستعظم هذا، كنت اصطاد على نهر إيلة فاصطدت سمكة على جناحها الأيمن لا إله إلا الله، وعلى جناحها الأيسر محمد رسول الله ﷺ، فلما رأيتها قذفتها فى الماء احترامًا لها.

ثم إن فى هذا الاسم خصائص، منها: كونه على أربعة أحرف ليوافق اسمه تعالى اسم محمد فإن عدد الجلالة أربعة أحرف كمحمد، ومنها: أنه قيل إنما أكرم به الآدمى؛ أنه كان صورته على شكل كتب هذا اللفظ محمد، فالميم رأسه، والحاء جناحاه، والميم سرته، والدال رجلاه.

قيل: ولا يدخل النار ممن يستحقها ـ أعاذنا الله منها ـ إلا ممسوخ الصورة إكرامًا لصورة اللفظ كما حكاهما ابن مرزوق، والأول ابن العماد.

ومنها: أنه ﷺ قال: «قال الله تعالى عزَّ وجلَّ: وعزتى وجلالى لا أعذب أحدا سمى باسمك فى النار» أى باسمك المشهور وهو محمد أو أحمد.

ومنها قال ﷺ: «يوقف عبدان ـ أى اسم أحدهما أحمد والآخر محمد ـ بين يدى الله عز وجل، فيؤمر بهما إلى الجنة، فيقولان: ربنا بما استأهلتنا الجنة ولم نعمل عملا تجازينا به الجنة؟ فيقول الله تعالى: ادخلا الجنة فإنى آليت على نفسى أن لا أدخل النار من اسمه أحمد أو محمد»(١).

ومنها ما روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقم من اسمه محمد فيدخل الجنة كرامة لنبيه ﷺ»(٢).

ومنها: «من ولد له مولود فسماه محمدا حبًّا لى وتبركًا باسمى كان هو ومولوده فى الجنة»(٣).

قال بعض الحفاظ: وهذا أصح الأحاديث الواردة فى فضل التسمية بمحمد ﷺ.

ومنها: «من أراد أن يكون حمل زوجته ذكرا فليضع يده على بطنها وليقل:

(١) مسند الفردوس للديلمى (٨٨٣٧، ٩٠٠٦).
(٢) مجمع البحرين (٣٣٧٦).
(٣) انظر الموضوعات لابن الجوزى (١/ ١٥٤)، الأسرار المرفوعة ص (٤١٥).

إن كان هذا الحمل ذكرًا فقد سميته محمدًا فإنه يكون ذكرًا»[1].

ومنها عن عطاء قال: ما سمى مولود فى بطن أمه محمدًا إلا كان ذكرًا.

قال ابن الجوزى فى «الموضوعات»: وقد رفع هذا بعضهم[2].

وإلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة والأخبار الشهيرة الواردة فى خصائص هذا الاسم الشريف وفضل التسمية به.

وقد حمى الله هذا الاسم الكريم أن يُسمى به أحد من العرب إلا حين شاع قبيل مولده ﷺ أن نبيًا يبعث اسمه محمد، فسمى جماعة أبناءهم رجاء أن يكون أحدهم هو، والله أعلم حيث يجعل رسالته. وسيأتى إن شاء الله تعالى عدَّهم عند قول المصنف: «وسمّيه إذا وضعتيه محمدًا».

* * *

(ابن) لفظ مختص بالذكر إجماعًا، حكاه الفاكهانى، (عبد الله) ومعنى عبد الله: الخاضع الذليل له تعالى، وقد جاء: «أحب أسمائكم» وفى رواية: «أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن»[3] وجاء: «أحب الأسماء ما تعبد به»[4].

وسمى ﷺ بعبد الله فى القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[5] لأن وصف العبودية أشرف الأوصاف ومن ثم ذكر فى أفخر مقاماته: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾[6]، ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾[7]، ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ﴾[8].

---

(١) انظر الموضوعات لابن الجوزى (١/ ١٥٤)، الأسرار المرفوعة ص (٤١٥).

(٢) انظر الموضوعات لابن الجوزى (١/ ١٥٤)، الأسرار المرفوعة ص (٤١٥).

(٣) أخرجه الترمذى (٢٨٣٣)، النسائى (٦/ ٢١٨).

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٤٥)، البيهقى فى السنن (٩/ ٣٠٦)، الدارمى (٢/ ٢٩٤)، مجمع الزوائد (٨/ ٤٩).

(٥) سورة الجن: ١٩.

(٦) سورة الإسراء: ١.

(٧) سورة الفرقان: ١.

(٨) سورة النجم: ١٠.

ولم يختلف فى اسمه، وكنيته أبو قُثَم بقاف فمثلثة، وهو من أسمائه ﷺ مأخوذ من القُثم بقاف مضمومة فمثلثة، وهو الإعطاء، أو من الجمع، يقال للرجل الجموع للخير: قَثُوم وقُثَم. وقيل: أبو محمد، وقيل: أبو أحمد، فإن قلنا بالمشهور من وفاته والمصطفى ﷺ حمل فلعله كُنّى بإلهام، وإن قلنا بعد ولادته فظاهر.

قال أهل السير: كان عبد الله والد النبى ﷺ أنهد فتى فى قريش وأصبحهم خلقًا وأحسنهم أخلاقًا، وكان نور النبى ﷺ فى وجهه، وكان يقال له الذبيح، فقد روى عن النبى ﷺ: «أنا ابن الذبيحين»[1] يعنى بهما عبد الله وإسماعيل، وبهذا الحديث استدل من يقول الذبيح اسماعيل لكن رُدَّ بأن الحديث لم يثبت، نعم ثبت فى حديث الحاكم فى «مستدركه» عن معاوية أن رجلاً قال له: يا ابن الذبيحين، فتبسم ﷺ ولم ينكر عليه، فقيل لمعاوية: وما الذبيحان؟ فقال: الذبيح الأول إسماعيل، وأما الثانى فعبد الله بن عبد المطلب[2].

وسبب تسميته ذبيحًا ما رواه الطبرانى بسنده المتصل إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: كان عبد المطلب نذر إن أكمل له عشرة من الولد نحر أحدهم تقربًا إلى الله تعالى، فلما كملوا نام عبد المطلب عند الكعبة فرأى قائلا يقول: أوف بنذرك لرب هذا البيت، فاستيقظ فزعًا مرعوبًا، وأمر بذبح كبش وتصدق به، ثم نام فرأى أنْ قَرِّبْ ما هو أكبر من ذلك، فقرَّبَ ثوراً، ثم نام فرأى أن قَرِّبْ ما هو أكبر من ذلك، فقرَّبَ جملاً، ثم نام فرأى أن قَرِّبْ ما هو أكبر من ذلك، فقال: وما أكبر من ذلك؟ قال أحد أولادك الذى نذرته، فاغتم غمّا شديدًا، فجمع أولاده فأخبرهم، فاتفقوا على القرعة،

(١) الدر المنثور (٥/ ٢٨١)، تفسير القرطبى (١٥/ ١١٣)، الضعفاء للعقيلى (٣/ ٩٤)، كشف الخفا (١/ ٢٣٠)، الأحاديث الضعيفة للألبانى (٣٣١)، مستدرك الحاكم (٢/ ٥٥٩)، الشذرة (١٢)، وانظر: المواهب اللدنية (١/ ٥٦).

(٢) مستدرك الحاكم (٢/ ٥٥٩)، الشذرة (١٢) وعزاه للثعلبى وابن مردويه فى تفسيرهما، وابن جرير فى تاريخه، والخلفى فى فوائده.

فأقرع بينهم أيهم ينحر، فصارت القرعة على عبد الله، وكان أحب الناس إلى عبد المطلب، فقال: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع فصارت القرعة على الإبل، فنحرها، كذا ساقه الشهاب أحمد بن حجر فى «النعمة الكبرى».

وروى ابن اسحاق القصة مطولة وحاصلها: أن عبد المُطَّلب لما لقى من قريش عند حفر زمزم ما لقى نذر إن كمل له عشرة من الولد ثم بلغوا معه حتى يعينوه لينحرن أحدهم عند الكعبة غير مستور تقربًا إلى الله تعالى، فلما بلغوا ذلك ووافقوه على الوفاء بنذره وأقرع بينهم، فخرجت القرعة على عبد الله، وهو أصغرهم وأحبهم إليه، فبادر لذبحه، فمنعته قريش، ثم اتفقوا على تحكيم بعض الكهنة، فأشار أن يقرع بين عبد الله وعشرة من الإبل، فإن خرجت القرعة عليها نحرها وإلا فعشرة أخرى، وهكذا حتى تخرج على الإبل، ففعل حتى خرجت القرعة فى العاشرة على الإبل وقد كملت مائة، فكرر ذلك ثلاث مرات وهى تخرج على الإبل المائة، فذبحها وخلاً بينها وبين الناس.

تنبيه

يؤخذ مما ذكرناه وأمثاله أن عبد المُطَّلب كان مؤمنًا موحدًا معظمًا لحرم الله، وأنه اقتدى بإبراهيم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ فى الإقدام على ذبح ولده لله تعالى، وثباته على ذلك لأمره بذلك من الله تعالى كما تقدم حيث قيل له: أوف بنذرك، وفى وقوع الأمر بفداء ولده، وفى إجابة أولاده بنظير ما أجاب به إسماعيل أباه إبراهيم بقوله: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [1] حيث قالوا له: أوف بنذرك وافعل ما شئت، وفى انقياد عبد الله له فى ذلك حيث ذهب به وهو يقوده إلى المذبح فكان عبد الله الذبيح الثانى، وأنه أول من سَنَّ دية النفس مائة من الإبل، وأقر ذلك رسول الله ﷺ وصار شرعًا إلى يوم القيامة.

(١) سورة الصافات: ١٠٢.

تنبيه آخر

حمزة أصغر من عبد الله، والعباس أصغر من حمزة، فأولاد عبد المطلب جملتهم اثنا عشر كما قيل. وأما على أنهم لا يزيدون على عشرة فعدهم عشرة قبل وجود هذين لعله بحساب بعض أولاد أولاده معهم، وما قيل من أن عبد الله أصغر أولاد أبيه المراد أنه أصغرهم عند إرادة الذبح كما جزم به العلامة الشيخ أحمد بن حجر فى «النعمة الكبرى».

* * *

(ابن عبد المُطَّلب) قيل له عبد المُطَّلب لأن عمه المُطَّلب لما جاء به من المدينة إلى مكة صغيرًا أردفه خلفه وهو بهيئة بذّة أى رثة؛ أى ثيابه خلقة، فكان يُسأل عنه فيقول: هو عبدى، حياء أن يقول ابن أخى، فلما أدخله مكة وأحسن من حاله أظهر أنه ابن أخيه، فلذلك قيل له: عبد المطلب، وبهذا القول جزم فى شرح البخارى.

وقيل: قيل له عبد المُطَّلب: لأن أباه هاشمًا قال لأخيه وهو بمكة حين أدركته الوفاة: أدرك عبدك بيثرب، فمن ثم تسمى عبد المُطَّلب، قاله فى «المواهب» وقدمه على ما تقدم.

ولا شك أن هذا القول غير القول بأنه مات بغزة فلا وجه فى إيراد من قال.

وفيه أنه حكى غير واحد أن هاشمًا خرج تاجرًا إلى الشام فنزل على شخص من بنى النجار بالمدينة، وتزوّج بنته على شرط أن لا تلد ولدًا إلا فى أهلها، ثم مضى لوجهه قبل أن يدخل بها، ثم انصرف راجعًا فبنى بها فى أهلها، ثم ارتحل بها إلى مكة، فلّما أثقلت بالحمل خرج بها فوضعها عند أهلها بالمدينة، ومضى إلى الشام، فمات بغزة، وولدت شيبة الحمد، فمكث بالمدينة سبع سنين، وقيل: ثمان، فمر رجلٌ على غلمان يلعبون بالسهام وإذا

غلامٌ فيهم إذا أصاب قال: أنا ابن سيد البطحاء. فقال له الرجل: ممن أنت يا غلام؟ فقال: أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف. فلما قدم الرجل مكة ووجد المُطَّلب جالسا فى الحِجْر قصّ عليه ما رأى، فذهب المُطَّلب إلى المدينة، فلما رآه عرف شبه أبيه، ففاضت عيناه، وضمه إليه ـ وفى لفظ: أنه عرفه بالشيبة ـ وقال لمن كان يلعب معه: أهذا ابن هاشم؟ قالوا: نعم، فعرَّفهم أنه عمه، فقالوا له: إن كنت تريد أخذه فالساعة قبل أن تعلم بك أمه فإنها إن علمت بك لم تدعك وحالت بينك وبينه، فدعاه المُطَّلب وقال: يا ابن أخى أنا عمك، وقد أردت الذهاب بك إلى قومك، وأناخ راحلته فأجلسه على عجز الناقة، فانطلق به، ولم تعلم به أمه حتى كان الليل فقامت تدعوه، فأخبرت أن عمه قد ذهب به. وكساه حلة يمانية، ثم قدم به مكة فقالت قريش: هذا عبد المُطَّلب.

قال الحلبى[1] فى «إنسان العيون»: وهذا السياق يدل على أن عبد المُطَّلب إنما ولد بعد موت أبيه هاشم بغزة، وكون عمه المُطَّلب كساه حُلَّة لا ينافى ما سبق أنه دخل به مكة وثيابه رثة خلقة لأنه يجوز أن تكون ألبست له عند أخذه ثم نزعت عنه فى السفر.

وقيل: إنما أخذه بعلمها، فلعله استعجل لئلا تمنعه أمه بعد.

وقيل: سمى به على عادة العرب فى قولهم لليتيم المُربى فى حِجْر إنسان: عبده.

وهو أول من خضب بالسواد من العرب؛ وذلك لما ورد فى عظيم من حِمْيَر فقال: هل لك من تغيير هذا البياض فتعود شابًا؟ فقال: ذلك إليك، فأمره فخضَّب لحيته بحناء، ثم علا بالوسمة[2]، ثم رجع إلى مكة فخرج عليهم

(١) هو إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسى، ثم الحلبى. حياته (٧٥٣ ـ ٨٤١ هـ) عالم بالحديث ورجاله، ولد وتوفى بحلب، من كتبه: «نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس» و «إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون» الشهير بالسيرة الحلبية. انظر: الأعلام (١/ ٦٥).

(٢) الوسمة: نبت من اليمن، يصبغ به الشعر.

بالغد كأن شعره حلك الغراب، فقالت له زوجته نُتيلة: لو دام لك هذا لكان حسنًا، فقال:

لو دام لى هـذا السـواد حمدْته ... وكان بديلاً من شباب قَدْ انصرمْ
تمتعتُ منه والحيـاةُ قصيرةٌ ... ولا بُدّ من موت نُتَيْلة أو هَرَمْ
وماذا الذى يُجْدى عن المرء خَفْضه ... ونِعْمته يومًا إذا عَرْشُه انْهَدَمْ؟!
فموت جهير عاجلاً لا سوى له ... أحب إلىّ من مقالهم حكمْ

فخضب أهل مكة بالسواد.

ونُتيلة بنت جَنَاب بن كليب بن مالك بن عمرو بن عامر إحدى زوجاته؛ فإنه كان له خمس: صفية، ونُتيلة، وهالة، وآمنة بنت هاجر الخزاعى، وفاطمة بنت عمرو.

[وهو] أول من تحنَّثَ بحِراَء؛ كان إذا دخل شهر رمضان صعده؛ وأطعم المساكين؛ وكان يرفع مائدته للطير والوحوش فى رؤوس الجبال، فكان يقال له الفيَّاض لجوده، ومُطْعِم طير السماء.

وكان مجاب الدعوة قد حرَّم الخمر على نفسه.

(واسمه) الأصلى **(شيبة الحمد)** وقيل: عامر، والصحيح الأول، وهو مركب إضافى قال الشاعر:

على شيبة الحمد الذى كان وجهه ... يضىء ظلام الليل كالقمر البدر

وكنيته أبو الحارث، وقيل: أبو البطحاء.

وسبب تسميته بشيبة الحمد قيل: إنه ولد وفى رأسه شيبة، فى رواية: كانت ظاهرة فى ذوائبه، وأخرى: كان وسط رأسه أبيض. وقيل: إن أباه أوصى أمه بذلك، وجزم بالأول فى «إرشاد السارى» وسوّى بينهما الشامى(1).

ولعل وجه إضافته إلى الحمد رجاء أن يكبر ويشيخ ويكثر حمد الناس له،

(1) هو الحافظ محمد بن يوسف الصالحى الشامى صاحب «سبل الهدى والرشاد» المعروفة بالسيرة الشامية فى اثنى عشر مجلدًا. توفى سنة (٩٤٢ هـ).

وقد حقق الله ذلك، فكثر حمدهم له، لأنه كان مفزع قريش فى النوائب، وملجأهم فى الأمور، وشريفهم وسيدهم كمالاً وفعالاً.

وكان يفوح منه رائحة المسك الإذفر، ونور رسول الله ﷺ يضيء فى غُرَّته، وكانت قريش إذا أصابها قحطٌ تأخذ بيده وتخرج إلى ثَبِير فيستسقون به، فَيُغيثهم الله ويسقيهم غيثًا عظيمًا ببركة نور محمد ﷺ، وفى ذلك قالت رقيقة:

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا وقد فقدنا الحيا واستبطأ المطرُ

ورفض فى آخر عمره عبادة الأصنام، ووحد الله تعالى، وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السنة بها، منها: الوفاء بالنذر ـ كما تقدم ـ، ومنع نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهى عن قتل الموءودة، وتحريم الخمر والزنا، وأن لا يطوف بالبيت وهو عُرْيان، كذا فى كلام سبط ابن الجوزى رحمه الله.

ومن مآثره أيضًا قصته مع صاحب الفيل وسيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى.

وعاش مائة وأربعين سنة، وقيل: مائة وعشرين سنة.

* * *

(ابن هَاشِم) وإنما قيل له هاشمًا؛ لأنه كان يهشم الثريد، بمثلثة، ما اتخذ من لحم وخبز فى الجدب، قال الشاعر:

إذا ما الخبز تأدمه بلحمٍ فذاك أمانة الله الثَّريد

والجَدْب: بجيم مفتوحة ودال مهملة ساكنة خلاف الخصب.

أو لأنه أول من هَشَم الثَّريد بمكة لأهل الموسم ولقومه أوّلاً فى سنة المجاعة، ففى «السبل»: لما أصاب أهل مكة جَهْد وشدة رحل إلى فلسطين، وقيل: بلغه ذلك وهو بغزة ـ من الشام ـ فاشترى منها دقيقًا كثيراً وكعكًا وقدم به مكة، فأمر به فخبز، ثم نحر جزوراً وجعلها ثريدًا عمَّ به أهل مكة، ولا يزال يفعل ذلك حتى استقلوا.. انتهى.

وفى «المنتقى»: كان هاشم أفخر قومه وأعلاهم، وكانت مائدته لا ترفع لا فى السراء ولا فى الضراء، وكان يحمل ابن السبيل، ويؤدى الحقائق، وكان نور رسول الله ﷺ فى وجهه يتوقد شعاعه ويتلألأ ضياؤه، ولا يراه أحدٌ إلا قبَّل يده، ولا يَمر بشىء إلا سجد له، تغدو إليه قبائل العرب ووفود الأحبار يحملون بناتهم يعرضون عليه أن يتزوّج بها، حتى بعث إليه هرقل ملك الروم وقال: لى ابنة لم تلد النساء أجمل منها ولا أبهى وجها فأقدم إلىَّ حتى أزوجكها، فقد بلغنى جودك وكرمك؛ وإنما أراد بذلك نور المصطفى ﷺ الموصوف عندهم فى الإنجيل، فأبى هاشم.. انتهى.

(واسمه) كما قال الشافعى ومالك ـ رحمهما الله ـ: **(عَمْروٌ)** منقول من العَمْر بالفتح، الذى هو العُمر بالضم أو العمر الذى هو من عمور الأسنان، أو العمر الذى هو طرف الكم، يقال: سجد على عمريه أى كمَّيه، أو العمر الذى هو القِرْط كما قال:

وعمرو هند كأنَّ الله صوَّره ... عمرو بن هندٍ يسوم النَّاس تعنيتا

وزاد أبو حنيفة وجهًا خامسًا فقال: من العمر الذى هو اسم لمحل الشكر. ويقال فيه: عمر.. انتهى من «الروض».

وهو أول من مات من بنى عبد مناف. واختلف فى سنه فقيل: عشرون. وقيل: خمس وعشرون سنة.

وإخوته: عبد شمس، والمُطَّلب، ونوفل.

وكان يقال لهاشم وإخوتة: قداح النضار أى الذهب، ويقال لهم: المجيرون؛ لكرمهم وفخرهم وسيادتهم على سائر العرب.

قال بعضهم: لا يعرف بنو أب تباينوا فى محال موتهم مثلهم؛ فإن هاشمًا مات بغزة ـ كما تقدم فى قول ـ وعبد شمس مات بمكة وقبره بأجياد، ونوفل مات بالعراق، والمُطَّلب مات برُعَاء أرض باليمن.. انتهى.

وروى عن بعض الصحابة قال: رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر ـ رضى الله

عنه - على باب بنى شيبة فمر رجلٌ وهو يقول:

يا أيها الرجل المحوّل رحله ... هـلاَّ نزلت بآلِ عبـد الدارِ
ثكلتك أمُّك لو نزلت برحْلِهمْ ... منعوكَ من عَدَمٍ ومِنْ إقْتَارِ

فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبى بكر فقال: أهكذا قال الشاعر؟ قال: لا والذى بعثك بالحق لكنه قال:

يا أيها الرجـلُ المحوّل رَحْله ... هلاَّ نَزلت بآلِ عبـد منـافِ
ثكلتك أمّك لو نزلت برحْلِهمْ ... منعوك من عَدَمٍ ومن إقْرافِ
الخالطيـن غنيَّهـم بفقيرهـم ... حتى يعود فقيرهم كالكافى

فتبسم ﷺ وقال: هكذا سمعت الرواة ينشدونها[١].

وكان هاشم بعد أبيه عبد مناف على السِّقاية: وهى حياض من أَدَم، كانت توضع بفناء الكعبة وينقل إليها الماء العذب من الآبار على الإبل فى المزاود والقرب قبل حفر زمزم، وربما قُذِفَ فيها التمر والزبيب فى غالب الأحوال ليسقى الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا.

والرِّفادة: وهى إطعام الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا، فكان يعمل الطعام للحاج يأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد.

وقد ذكر أنه إذا أهل هلال ذى الحجة قام صَبِيْحةً، وأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ويخطب ويقول فى خطبته: «يا معشر قريش إنكم سادة العرب وأحسنها وجوهًا وأعظمها أحلامًا - أى عقولاً - و أوسط العرب - أى أشرفها - أنسابًا، وأقرب العرب بالعرب أرحامًا. يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله أكرمكم الله بولايته، وخصكم بجواره دون بنى إسماعيل، وإنه يأتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه، وأحق من أكرم أضياف الله أنتم، فأكرموا ضيفه وزواره؛ فإنهم يأتونه شُعثًا غُبرًا من كل بلد، ضوامر كالقداح فأكرموا ضيفه وزوار بيته، فورب هذه البُنية لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكموه،

(١) إنسان العيون (١/ ٨).

وأنا مخرج من طيب مالي وحلاله: ما لم يُقطع فيه رحم، ولم يُؤخذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله ـ لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم ـ إلا طيبًا لم يؤخذ ظلمًا ولم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ غصبًا».

فكانوا يجتهدون في ذلك ويخرجونه من أموالهم فيضعونه في دار النَّدوة، وهي أول دار بنيت بمكة، وكانت قريش تجتمع للمشاورة في أمورها فيها، ولا يدخلها إلا من بلغ الأربعين، وكانت الجارية إذا حاضت تدخلها وتحجب فيها، ولا ينكح رجل امرأة من قريش إلا فيها، هذه كانت سُنَّة قُصَىّ.

ولما مات قُصَىّ استمرت قريش على ما كان عليه في حياته كالدين المتبع، فلا زالت تلك الدار إلى أن صارت إلى حكيم بن حزام فباعها في الإسلام بمائة ألف درهم فلامه عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ وقال: أتبيع مكرمة آبائك وشرفهم؟! فقال حكيم ـ رضي الله عنه ـ: ذهبت المكارم إلا التقوى، والله لقد اشتريتها في الجاهلية بزق خمر، وقد بعتها بمائة ألف، وأشهدكم أن ثمنها في سبيل الله فأينا المغبون؟!.

وكانت جهة الحجْر ـ عند المقام الحنفي الآن ـ وكان بها باب للمسجد.

وقيل لها دار النَّدوة لاجتماع النَّدوة وهي الجماعة فيها.

* * *

(ابن عبد مَنَاف) بميم مفتوحة ونون خفيفة بعدها ألف ثم فاء، من أناف يُنيف إنافة إذا ارتفع، وقيل: الإنافة: الإشراف والزيادة؛ وإنما لقب بذلك: لأن أمه حُبَّى ـ بضم الحاء المهملة وموحدة مشددة ـ أخدمته صنمًا عظيمًا لهم يسمى مناة، وقيل: وهبته له لأنه أول ولد قُصَىّ، ثم نظر أبوه فرآه يوافق عبد مناة بن كِنَانَة فحوّله عبد مناف.

وما تقدم من ضبط حُبَّى هو الذي ضبطه الزرقاني وغيره، وكذلك هو في «القاموس» غير أنه قال: اسم امرأة ولم يقل أم عبد مناف.

وهو الجد الثالث لرسول الله ﷺ والجد الرابع لعثمان - رضى الله عنه - والجد التاسع لإمامنا الشافعى رضى الله عنه.

(واسمه) كما قال إمامنا الشافعى رضى الله عنه: **(المُغيْرَةُ)** منقول من الوصف، والهاء للمبالغة، سمى به تفاؤلاً لأنه يغير على الأعداء. وساد فى حياة أبيه، وكان مطاعًا فى قريش، ويدعى القمر لجماله.

قال الواقدى: وكان فيه نور رسول الله ﷺ، وفى يده لواء نزار وقوس إسماعيل. وذكر ابن الزُّبير عن موسى بن عقبة: أنه وجد كتابًا فى حَجَر: «أنا المغيرة بن قُصَىّ آمر بتقوى الله وصلة الرحم». وإياه عنى القائل:

وكانت قُريشٌ بيضةً فتفلَّقتْ ... فالمُحُّ[1] خالِصُه لعبد منافِ

قال ابن هشام: ومات بغزة.

* * *

(ابن قُصَىّ) بضم القاف، تصغير قَصِىٍّ بفتح فكسر فياء ساكنة، من قصا يَقْصُو إذا بعد **(واسمه مُجَمِّعٌ)** بتشديد الميم، اسم فاعل من جمَّع مشددًا، إما لأنه جمع قومه وأدخلهم مكة بعد تفرقهم فى البلاد، وإليه يشير قول شاعرهم:

أبوكم قُصَىّ كان يُدْعى مُجَمِّعا ... به جمَعَ الله القبائلَ من فِهْر

أو لأنه كان يجمع قومه يوم العروبة فيذكرهم ويأمرهم بتعظيم الحرم ويخبرهم أنه سَيُبْعَثُ فيه نبى. ولا مانع من تعدد السبب، ولا يخالف ما يأتى أن كعبًا كان يفعل ذلك ويخبرهم أنه سيبعث فيه نبى.

وقيل: اسمه زيد، حكاه أحمد بن حنبل عن إمامنا الشافعى - رضى الله عنهما - وبه جزم فى «السبل» و «التوشيح» و «العيون» و «العراقى»[2].

وقيل: يزيد بزيادة ياء أوله حكاه الحاكم عنه أيضًا لكنه لا يساوى ما حكاه

---

(١) المُح: هو الخالص من كل شىء، أصفر البيضة.

(٢) أى فى: «الدرة السنية فى نظم السيرة النبوية» للحافظ زين الدين عبد الرحيم بن حسين العراقى.

أحمد عنه؛ لأنه أجل تلامذته، ولذا اقتصر عليه فى «الفتح».

تنبيه

جزمهم بزيد واقتصار البعض عليه يفيد أنه الأصح، فإن قلت على هذا كان حق المؤلف أن يأتى به لأنه اسمه الأصلى وأنه الأصح فلأى شىء أتى بغيره وهو مُجَمِّع؟ قلت: إنما أتى به لما فيه من الإشارة إلى أوصافه الحميدة، وأفعاله المرضية كما مر من جمعه قريشًا بعد تفرقها، وتذكيره وأمره لهم بتعظيم الحرم، وإخباره بمبعث النبى ﷺ، كيف لا وقد سماه النبى ﷺ بذلك لذلك كما فى كلام بعضهم. والله أعلم.

وكان قُصَىّ أول بنى كعب أصاب ملكًا أطاع له به قومه، وكانت إليه الحجَابة، والسِّقاية، والرِّفادة، والنَّدوة، واللواء، والقيادة؛ أما السِّقاية والرِّفادة والنَّدوة فقد تقدم تفسيرها؛ وأما الحِجَابة: فهى فتح باب الكعبة، وأما اللواء: فهو اللواء الذى يُعقد للحرب، وأما القيادة: فهى قيادة القوم للحرب.

وحاز شرفاء مكة جميعًا، وكان رجلاً جلدًا جميلاً، وعالم قريش وأقومها بالحق.

قيل: وهو جماع قريش فلا يقال لأحد من أولاد من فوقه قرشى. ونُسِبَ هذا القول لبعض الرافضة، وهو قول باطل ظاهر الفساد لأنه يتوصل به إلى أن سيدنا أبا بكر وسيدنا عمر - رضى الله عنهما - ليسا من قريش فلا حق لهما فى الإمامة العظمى التى هى الخلافة لقوله ﷺ: «الأئمة من قريش»(1). ولقوله ﷺ: «أنتم أولى الناس بهذا الأمر ما كنتم على الحق إلا أن تعدلوا عنه»(2) لأنهما لم يلتقيا مع النبى ﷺ إلا فيما بعد قُصَىّ؛ لأن أبا بكر يجتمع مع النبى ﷺ فى مُرة وبينهما خمسة آباء وبين عمر وبين كعب سبعة آباء كما

---

(1) مستدرك الحاكم (٤/ ٧٦)، مسند أحمد (٣/ ١٨٣)، البيهقى (٣/ ١٢١)، الطبرانى فى الكبير (١/ ٢٢٤)، فتح البارى (٧/ ٣٢)، مجمع الزوائد (٥/ ١٩٢) وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

(2) فتح البارى (١٣/ ١١٦)، كنز العمال (٣٣٨٢٦)، مسند الشافعى (٢٧٨)، بدائع المنن للساعاتى (١٨٤٤).

سيأتى إن شاء الله تعالى.

(سُمِّىَ) أى لُقِّب **(بقُصَىّ: لتقاصيه)** أى تباعده عن عشيرته كما فى «المواهب» **(فى بلاد قُضَاعَة)** بضم القاف وضاد معجمة وعين مهملة، احتملته أمه فاطمة بنت سعد العذرى إليها كما قاله الزرقانى عن ابن إسحاق. قال الحلبى فى «إنسان العيون»: ولعلها جهة الشام فلا يخالف ما قيل.

قيل له قُصَىّ: لأنه بعد مع أمه إلى الشام؛ لأن أمه تزوّجت بعد موت أبيه ـ وهو فطيم ـ بشخص يقال له: ربيعة بن خزام العذرى، وقيل بالعكس، فرحل بها إلى الشام.

لكن يُعكِّر عليه ما فى «القاموس» أنها جهة اليمن. وقال الزرقانى فى «شرح المواهب»: شعب من معد أو من اليمن.. انتهى. **(القَصِيَّة)** بفتح القاف، أى البعيدة عن مكة **(إلى أن أعاده)** أرجعه **(الله)** سبحانه و **(تعالى)** وذلك أن قُصيًا كان لا يعرف له أبًا إلا زوج أمه، فلما كبر وقع بينه وبين زوج أمه شر، ونَاضَلَ[1] رجلاً منهم بنضلة وغلبه، فغضب ذلك الرجل وعيَّر قُصيًا بالغربة، وقال له: ألا تلحق بقومك وبلدك فإنك لست منا. فقال: ممن أنا؟ قيل له: سل أمك، فشكا إلى أمه فقالت: بلدك خير من بلادهم، وقومك خير من قومهم، أنت أكرم أبًا منهم، أنت ابن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤى بن غَالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضر بن كِنَانة القُرشى، وقومك بمكة عند البيت الحرام تغدو إليه العرب، وقد قالت لى كاهنة رأتك صغيرًا أنك تلى أمرًا جليلاً.

فلما أراد الخروج إلى مكة صبَّرته أمه إلى أن خرج مع حُجَّاج قُضَاعَة **(إلى)** وطنه الأصلى ووطن أصوله من ولد إسماعيل ـ عليه السلام ـ فمن بعده **(الحَرَمِ)** أى حرم مكة وما حولها مما يحرم فيه الاصطياد وغيره.

قال بعضهم: وسمى حرمًا لتحريم الله تعالى فيه كثيرًا مما ليس بمحرم فى

---

(١) نَاضَلَ: حامى ودافع.

غيره، ومسافته ستة عشر مثلاً فى مثلها.. انتهى.

قيل: وإنما صار الحرم حرمًا؛ لأن الله تعالى لما قال للسموات والارض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (1) كان المجيب له بذلك من الأرض موضع الكعبة ومن السماء ما قابله.. انتهى.

والأصل فى تحديد الحرم أن آدم ـ عليه السلام ـ خاف على نفسه من الشياطين فاستعاذ بالله تعالى، فأرسل الله تعالى ملائكة حفُّوا بمكة من كل جانب، فكان الحرم من حيث وقفت الملائكة.

ونقل العلامة المُناوى فى «شرح الجامع الصغير» عن أمالى ابن دُرَيْد عن الحبر: أن آدم أهبط ومعه الحَجَر الأسود فكان أشد بياضًا من الثلج، فوضعه على أبى قُبَيْس فكان يضىء بالليل كأنه القمر، فحيث بلغ ضوؤه كان من الحرم(2).. انتهى.

قال بعضهم: وعلامة الحرم أن سيل الحِل إذا أتى وقف دونه.

(المُحْتَرَم) بضم الميم وفتح الراء، أى المعظم بتعظيم الله تعالى (فَحَمَى حِمَاه) بفتح الحاء المهملة فى الأولى وكسرها فى الثانية، أى منع ممنوعاته أى حفظه مما يضره فالإضافة بيانية.

وعرفت قريش فضله وشرفه وأكرموه وقدموه عليهم فساد فيهم وهو الذى شرع لقريش السِّقاية والرِّفادة والحياض، وعمَّر دار النَّدوة. ودفن قُصَىّ بالحَجُون(3).

* * *

(ابن كِلاَب) بكسر الكاف وفتح اللام مخففة، قال الحافظ لُقِّب به لمحبته كِلاب الصيد.

---

(1) سورة فصلت: 11.

(2) إعلام الساجد للزركشى ص (65).

(3) الحَجُون: بأعلى مكة، عندها مقبرة أهلها. (مراصد الاطلاع 1/ 383).

وهو إما منقول من المصدر الذى فى معنى المكالبة نحو كَالَبْتُ العدوّ مُكَالبة وكِلابًا، وإما من كِلاب جمع كَلْب - الحيوان المعروف - كما هو عادة العرب فإنهم يسمون أبناءهم بشر الأسماء وعبيدهم بأحسنها، وسئل أعرابى عن ذلك فقال: إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا، يريد أن الأبناء عدة للأعداء وسهام فى نحورهم فاختاروا لهم هذه الأسماء نحو: كلب وكِلاب، وذئب وذئاب، بخلاف العبيد فإنهم لا يقصدون منهم قتالاً بل كان عارًا عندهم.

(واسمه) الأصلى **(حكِيمُ)** بفتح الحاء المهملة وكسر الكاف، ويقال: الحكيم بزيادة الألف واللام، وقيل: عُروة، وقيل: المهذَّب، وزعم من قال اسمه الحكيم، وهو غير صحيح بل الصحيح أنه اسمه حكيم كما صححه المحب ابن شهاب بن الهائم[1] وقدمه مُغْلَطاى[2] فى «الإشارة».

* * *

(ابن مُرَّة) بضم الميم وتشديد الراء، إما منقول من وصف الرجل بالمرارة والتاء للمبالغة أو من وصف الحنظلة والعلقمة والتاء للتأنيث، وبهذا جزم بعضهم تبعًا لما فى «السبل».

وله ثلاثة أولاد: كلاب، وتيم - ومن نسله الصديق وطلحة رضى الله عنهما -، ويقظَة وبه كنى.

وهو الجد السادس لأبى بكر رضى الله عنه، والإمام مالك يجتمع معه ﷺ فيه، كذا قاله الحلبى فى «إنسان العيون»[3] وفيه ما فيه.

* * *

(١) محمد بن أحمد بن محمد بن عماد، أبو الفتح، محب الدين بن الهائم، فاضل، مصرى الأصل، مقدس الإقامة والوفاة، اشتغل بالفقه والحديث، وكان من آيات الله فى سرعة الحفظ، ومن مؤلفاته: «الغرر المضيَّة فى شرح نظم الدرر السنيَّة» وهو شرح لألفية العراقى فى السيرة لنبوية، توفى سنة (٨١٥ هـ). انظر: الأعلام (٥/ ٣٢٩).

(٢) هو مُغْلَطاى بن قليج بن عبد الله البكجرى المصرى، أبو عبد الله، علاء الدين، مؤرخ من حفاظ الحديث، من مصنفاته: «الإشارة» فى السيرة النبوية الذى اختصر به «الزهر الباسم» و «الخصائص النبوية» وغيرها، توفى سنة (٧٦٢ هـ). انظر: الأعلام (٧/ ٢٧٥)، الدرر الكامنة (٤/ ٣٥٢)، شذرات الذهب (٦/ ١٩٧).

(٣) إنسان العيون (١/ ٢٥).

(ابن كَعْبٍ) بفتح الكاف وسكون العين المهملة، سمى بذلك لستره على قومه ولين جانبه لهم، منقول من كعب القدم أو القناة لارتفاعه وشرفه فيهم.

وكانوا يخضعون له، وهو أول من جمع الناس بمجرد الوعظ يوم العَرُوبة بفتح العين وضم الراء المهملتين وبالموحدة، وهو اسم يوم الجمعة فى الجاهلية اتفاقًا.

واختلف فى أول من سماه الجمعة، فقال المحقق ابن حجر تبعا لما جزم به الفرَّاء وثعلب وغيرهما: أول من سمى يوم العَرُوبة يوم الجمعة كعب، وهو أول من قال: أما بعد.

وقيل: أول من سماه به أهل المدينة، لصلاتهم الجمعة قبل قدومه ﷺ مع أسعد بن زُرَارة[1]، وقيل بعد الإسلام، وصححه ابن حزم. وقيل غير ذلك.

وكانت قريش تجتمع إليه فيه فيخطبهم، وكان فصيحًا خطيبًا، وكان يأمرهم بتعظيم الحرم ويخبرهم أنه سيبعث فيه نبى، ويُعْلِمهم بأنه من ولده ـ وعلمه ذاك من الوصية المستمرة من آدم أن من كان فيه ذلك النور لا يضعه إلا فى المطهرات لأن ختام الأنبياء منه، وقد علمه ظاهرًا فيه قائمًا به أو من الكتب القديمة أن من كان بصفة كذا كان محمد من ولده، ووجد تلك الصفة فيه، والأول أظهر ـ ويأمرهم باتباعه والإيمان به، وأنشد فى ذلك أبياتًا منها:

على غفلةٍ يأتى النبى محمد ... يخبرُ أخبارًا صدوق خبيرها

ومنها قوله:

يا ليتنى شاهد فحواء دعوته ... إذا قريش تبقى الحق خذلانا

ولله در القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ـ رحمه الله تعالى ـ حيث يشير إلى ذلك بقوله:

لقد قال كعبٌ فى النَّبى قصيدة ... وقلنا عسى فى مدحه نتشاركُ

(١) هو أسعد بن زرارة بن عدس البخارى، من الخزرج، أحد الشجعان الأشراف فى الجاهلية والإسلام، قدم مكة فى عصر النبوة فأسلم وعاد إلى المدينة، وهو أحد النقباء الاثنى عشر، كان نقيب بنى النجار، ومات قبل موقعة بدر، ودفن بالبقيع. انظر: الأعلام (١/ ٣٠٠)، الإصابة (١/ ٥٤).

فإن شملتنا بالجوائز رحمة كرحمةِ كعبٍ فهو كعبٌ مباركُ

وكان بين موته ومبعث النبى ﷺ خمسمائة وستون سنة، وهو الجد السابع لسيدنا أبى بكر، والجد الثامن لسيدنا عمر رضى الله عنهما.

* * *

(ابن لُؤَىّ) بضم اللام وفتح الهمزة ويسهل بإبدال همزته وواو، والهمزة أكثر من عدمها، تصغير اللأى: وهو الثور الوحشى، وقال الأصمعى: هو تصغير لواء الجيش زيدت فيه الهمزة.. انتهى. وقيل غير ذلك.

وكنيته أبو كعب، وكان له سبعة ذكور.

* * *

(ابن غَالِبِ) بغين معجمة وكسر اللام، اسم فاعل من الغَلَب بفتحات أو فتح فسكون، ولد تَيْمًا وبه يكنى وبلؤى.

* * *

(ابن فِهْرِ) بكسر الفاء وسكون الهاء آخره راء، منقول من الفِهْر: الحجر. وفى هل هو: الحجر الطويل، أو الطويل الأملس، أو ملأ الكف، أو الصغير أقوال.

(واسمه قُرَيْشٌ) نقل عن الزهرى أن أمه سمته به وسماه أبوه فِهرًا. وقيل: اسمه فِهر ولقبه قريش، وهو المناسب لقولهم إنما سمى قريشًا لأنه كان يقرش أى يفتش عن خلة الناس وحاجاتهم فيسدّها بماله، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن حوائجهم فيسدّونها بمالهم فسموا بذلك قريشًا.

وهو إما منقول من التقريش وهو التفتيش كما مر، أو من القرش وهو دابة عظيمة من أقوى دواب البحر سميت به لقوّتها لأنها تأكُل ولا تُؤْكَل، وتَعْلو ولا تُعْلا، وكذلك قريش، وإليه يشير الشرخ بن عمرو الحميرى بقوله:

وقريش هى التى تَسكن البحر بها سُمِّيت قريش قُرَيْشَا
تأكل الغَثَّ والسَّمين ولا تَتْـ ـرك فيه لذى جناحين رِيشَا

هكذا فى البلاد حتى قريش ... يأكلون البلادَ أكلا كَميشَا
ولهم آخر الزمـان نبىٌّ ... يُكْثر القتـلَ فيهم والخُمُوشَا
يملأ الأرض خيلُه ورجاله ... يَحْشرون المطىَّ حَشْرا كَشِيشا

وفى سبب تسمية قُريش قريشًا أقوال غير ذلك.

(وإليه) أى قريش (تنسبُ البُطونُ) جمع بطن بمعنى جماعة أى القبائل (القُرَشيَّة) أى المتولدة من قريش فيما قاله جماعة (وما فوقه كِنَانىٌّ) نسبة إلى كِنَانة بن مُدْرَكة (كما جَنَح) أى مال (إليه الكثيرُ) بل الأكثر من علماء النسب (وارتضاه) وصححه الدمياطى[1] والقرافى[2] وغيرهما، والحجة لهم حديث مسلم والترمذى مرفوعا: «إن الله اصطفى كِنَانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كِنَانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار»[3].

وذهب آخرون إلى أن أصل قريش النَّضْر.. وبه قال الشافعى، وعزاه القرافى للأكثرين فقال:

أمَّا قُريشٌ فالأصح فِهْر ... جماعها والأكثرون النَّضْر

قال النووى: وهو الصحيح المشهور، وصححه الحافظ الصلاح العلائى وعزاه للمحققين، واحتجوا بحديث الأشعث بن قيس: «قدمت على رسول الله ﷺ فى وفد كِنْدة فقلت: ألستم منا يا رسول الله؟ قال: «لا نحن بنو النَّضْر ابن كِنَانة»[4] رواه ابن ماجه وابن عبد البر وأبو نعيم فى «الرياضة» وزاد: قال

(١) هو عبد المؤمن بن خلف، شرف الدين، حافظ للحديث، من أكابر الشافعية، ولد بدمياط، وتنقل فى البلاد، وتوفى بالقاهرة سنة (٧٠٥ هـ)، ومن مصنفاته: «المختصر فى سيرة سيد البشر». انظر: الأعلام (٤/ ١٦٩)، فوات الوفيات (٢/ ٤٠٩)، شذرات الذهبية (٦/ ١٢).

(٢) هو أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس شهاب الدين الصنهاجى العراقى، من علماء المالكية، توفى بمصر سنة (٦٨٤ هـ). انظر: الأعلام (١/ ٩٥)، الديباج المذهب (٦٢)، شجرة النور (١٨٨).

(٣) الترمذى (٣٦٠٧)، الشفا (١/ ٨٢)، مناهل الصفا (١٢٥).

(٤) ابن ماجه (٢٦١٢)، مسند أحمد (٥/ ٢١١)، الطبرانى فى الكبير (٢/ ٧٢١)، تاريخ بغداد (٧/ ١٢٨)، دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١٧٣)، طبقات ابن سعد (١/ ١، ٣، ٤).

أشعث: والله لا أسمع أحدًا نفى قريشًا من النَّضْر بن كِنَانة إلا جلدته.

قال الزرقاني فى «شرح المواهب»: والاحتجاج بهذا ظاهر لا خفاء فيه.

وأما احتجاج الأولين بحديث مسلم والترمذى المار: «إن الله اصطفى كِنَانة...» الحديث، فليس فيه دليل على أن فِهْرًا هو القريش، فلعلهم كما قال المحقق ابن حجر اعتمدوا على تسميته فِهْرًا وتلقيبه بقريش، ولا حجة لهم فى ذلك بل كثيرًا ما يسمى الإنسان باسم أحد من آبائه، فعليه هو دليل الثانى.

قال الحافظ فى «سيرته»: وعندى أنه لا خلاف فى ذلك لأن فِهْرًا جماع قريش، ثم أن أباه مالكًا ما أعقب غيره، فقريش ينتهى نسبها كلها إلى مالك ابن النَّضْر، وكذلك النَّضْر ليس له عقب إلا من مالك، فاتفق القولان بحمد الله. ولا يخفى ما فى هذا الجمع من التكلف.

وقيل: إن قريشًا هو إلياس، وقيل: مُضَر، وحكى الماوردى وغيره أنه قُصَىّ، ونسب هذا القول لبعض الرافضة، وتقدم بما فيه، قبَّحهم الله وقبَّح اعتقادهم الخبيث.

* * *

(ابن مَالك) اسم فاعل ملك، قال الخميس: سمى مالك لأنه ملك العرب. ويَكنَى أبا الحارث.

* * *

(ابن النَّضْرِ) بفتح النون وإسكان الضاد المعجمة فراء، لقب به لنضارته وحسنه وجماله، منقول من النَّضْر اسم للذهب الأحمر، واسمه قيس، وهو جماع قريش عند الفقهاء فلا يقال لأحد من أولاد من فوقه قرشى فقد سئل ﷺ عن قريش فقال: «من ولد النَّضْر؛ أى وعلى أن جماع قريش: فِهْر، فمالكٌ وأولاده، والنَّضْر جده، وأولاده ليسوا من قريش، وتقدم احتجاج الفريقين وتوفيق الحافظ بينهما بما فيه.

وله من الذكور: مالك، والصَّلْت، ويَخْلُد؛ بفتح التحتية وسكون المعجمة وضم اللام فدال مهملة، وبه يكنى أبوه، ولم يعقب إلا من مالك كما تقدم.

تنبيه

وقع لبعضهم أن كِنَانة تزوّج زوجة أبيه برة بنت أدّ بن طابخة بعد موت أبيه خُزَيمة على ما كانت الجاهلية تفعله إذا مات الرجل خلف على زوجته أكبر أولاده من غيرها فولدت له النَّضْر، وتبعه السهيلى[1] وقال: ولذلك قال تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[2] أى من تحليل ذلك قبل الإسلام، قال: وفائدة الاستثناء هنا لئلا يُعاب نسب النبى ﷺ وليُعلم أنه لم يكن فى أجداده سفاح، ألا ترى أنه لم يقل فى شىء نهى عنه فى القرآن: ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إلا فى هذه الآية وفى الجمع بين الأختين وأن الجمع بينهما كان فى شرع من قبلنا، وقد جمع يعقوب بين أختين وهما راجيل - بجيم كما فى «السبل» أو حاء مهملة كما فى «القاموس» - وليًا، فقوله: ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ التفات إلى هذا المعنى.

وتعقبه الحافظ القطب عبد الكريم الحلبى[3] ثم المصرى فى «شرح السيرة لعبد الغنى» بما حاصله أن هذا غلط نشأ من اشتباه، وذلك أن أبا عثمان الجاحظ قال: إن كِنَانة خلف على زوجة أبيه بعد وفاته وهى: برة بنت أدّ بن طابخة، فماتت ولم تلد لا ذكرًا ولا أنثى فنكح بنت أخيها وهى: برة بنت مر ابن أدّ بن طابخة فولدت له النَّضْر. قال: وإنما غلط كثير لما سمعوا أن كِنَانة خلف على زوجة أبيه لاتفاق اسمهما. قال: وهذا الذى عليه مشايخنا من

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمى السهيلى، أبو القاسم، حافظ لغوى عالم بالتفسير، توفى بمراكش (٥٨١ هـ). لنظر: الاعلام ٣/ ٣١٣، وفيات الاعيان (١/ ٢٨٠)، شذرات الذهب (٤/ ٢٧١).

(٢) سورة النساء: ٢٢.

(٣) هو عبد الكريم بن عبد النور بن منير الحلبى، ثم المصرى، الحنبلى، محدث، حافظ مؤرخ، حكيم، ولد بحلب سنة (٦٦٤ هـ)، وتوفى بمصر سنة (٧٣٥ هـ)، ومن مؤلفاته: «شرح السيرة النبوية لعبد الغنى المقدسى» والمسمى «المورد العذب الهنى فى الكلام على سيرة عبد الغنى». انظر: معجم المؤلفين (٥/ ٣١٨).

أهل العلم بالنسب، ومعاذ الله أن يكون أصاب نسبه ﷺ نكاح مقت، وقد قال: «ما زلت أخرج من نكاح الإسلام» ومن قال غير هذا فقد أخطأ وشك في هذا الخبر، والحمد لله الذى طهره من كل وصم تطهيراً.

وتلقاه العلماء بالقبول، قال الزرقانى فى «شرح المواهب»: وكذا ما قيل إن هاشمًا خلف على واقدة زوجة أبيه، وبفرض صحته فليست جدة للنبى ﷺ؛ فإن أم عبد المُطَّلب أنصارية ولذا كان الأنصار أخوال المصطفى ﷺ.

(ابن كِنَانَةَ) بكسر الكاف ونونين مفتوحتين بينهما ألف ثم هاء، منقول من الكِنَانَة التى هى الجَعْبة بفتح الجيم وسكون العين المهملة؛ سمى بذلك تفاؤلاً بأنه يصير كالكِنَانَة الساترة للسهام، فكان ستراً على قومه. وقيل: إنما سمى كِنَانَة لأنه لم يزل فى كِن من قومه. قال فى «المختار»: الكِن السترة. والجمع أكْنَان، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ (١).

وكان شيخًا حسنًا عظيم القدر تحج إليه العرب لعلمه وفضله، وكان يقول: «قد آن خروج نبى من مكة يدعى أحمد، يدعو إلى الله وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق، فاتبعوه تزدادوا شرفًا وعزًا إلى عزكم، وما جاء به فهو الحق فلا تكذبوه».

قال ابن دِحْيَة(٢): كان كِنَانَة يأنف أن يأكل وحده فإذا لم يجد أحداً أكل لقمة ورمى لقمة إلى صخرة نصبها بين يديه أنفة من أن يأكل وحده.

* * *

(ابن خُزَيْمَةَ) بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى وسكون الياء المثناة التحتية، منقول من مصغر خَزْمة ـ بمعجمتين مفتوحتين ـ وهى مرة واحدة من الخَزْم

---

(١) سورة النحل: ٨١.

(٢) هو عمر بن الحسن بن على بن محمد، أبو الخطاب، ابن دحية الكلبى، أديب، مؤرخ، حافظ للحديث، من أهل سبتة بالأندلس، ولد سنة (٥٤٤ هـ) ورحل إلى مراكش والشام، والعراق، وخراسان، واستقر بمصر وتوفى بالقاهرة سنة (٦٣٣ هـ)، ومن تصانيفه: «الآيات البينات» و«التنوير فى مولد السراج المنير». انظر: الأعلام (٥/ ٤٤)، سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٨٩)، شذرات الذهب (٥/ ١٦٠)، وفيات الأعيان (١/ ٣٨١).

وهو شد الشيء وإصلاحه أو من غير ذلك.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: مات خُزَيْمة على ملة إبراهيم، على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

* * *

(ابن مُدْرِكَةَ) بضم الميم وسكون الدال المهملة فراء مكسورة فكاف فهاء، مبالغة، منقول من اسم فاعل من الإدراك، لقب به لإدراكه كل عز وفخر كان فى آبائه، وكان فيه نور رسول الله ﷺ، ولعل المراد ظاهرٌ فيه بيّن.

واسمه عمرو عند الجمهور، وهو الصحيح. وقال ابن اسحاق: عامر، وضُعِّف.

* * *

(ابن إلياسِ) بهمزة قطع مكسورة، وقيل: مفتوحة، وقيل: وصل، ونسب للجمهور. منقول من مصدر يئس ضد الرجاء وقطع الأمل، وذلك أن أباه كبر ولم يولد له ولد فولد له هذا الولد على الكبر واليأس فسماه إلياس.

قال فى «المواهب»: واللام فيه للتعريف. وسكت عنه الشارح، وفيه نظر لأن تعريفه بالعلمية وما كان كذلك فاللام فيه زائدة.

وكنيته أبو عمر. وقيل: كان له أخ يقال له إلناس بنون، ذكره الجوهرى وغيره.

وعظم أمره عند العرب حتى كانت تدعوه بكبير قومه وسيد عشيرته، وكانت لا تقضى أمرًا دونه، ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة، وقد جاء فى الحديث: «لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمنا» وقيل: إنه جماع قريش كما مر.

(وهو) أى إلياس (أوَّلُ) أصله وول بالواوين أدغمت الأولى فى الثانية بعد سلب حركتها ثم زيدت الهمزة فى أونه لتعذر الابتداء بالساكن فصار أول، كذا قيل. والصحيح أن أصله أوأل بواو بين همزتين بدليل جمعه على أوائل

البدنة مأخوذ من البدانة وهي الضخامة، والضخامة توجد فيهما جميعًا، وأيضًا أن البقرة في التقرب إلى الله تعالى بإراقة الدم بمنزلة الإبل حتى تجزىء البقرة في الضحايا عن سبعة كالإبل، وهذا حجة لأبي حنيفة حيث وافقه الشافعي على ذلك، وليس ذلك في مذهبنا. . انتهى ملخصًا.

أقول: ولا يلزم من مشاركة البقرة لها في كونها مأخوذة من البدانة كما هو دليل مالك، وفي إجزائها عن سبعة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة» كما هو دليل أبي حنيفة تناول اسم البدنة لها شرعا بل الحديثان يمنعان ذلك وبالله التوفيق.

(إلى الرِّحَاب) بكسر الراء، جمع رحْبَة بسكون الحاء المهملة، ويجمع مفتوحها على رَحَبَات مثل قصبة وقصبات وهي البقعة المتسعة بين أفنية القوم.

(الحَرَمِيَّة) أي المنسوبة إلى الحرم نسبة الجزء لكله **(وسُمِعَ)** بالبناء للمفعول **(في صُلْبه)** أي ظهره أي إلياس **(النبي)** نائب الفاعل، وقوله **(صَلَّى الله عليه وسلم)** جملة دعائية خبرية لفظًا إنشائية معنى **(ذكر الله تعالى ولَبَّاه)** بتشديد الباء الموحدة، روى أنه كان يسمع من ظهره أحيانًا دوى تلبيته ﷺ بالحج.

* * *

(ابن مُضَر) بضم الميم وفتح الضاد المعجمة غير مصروف للعلمية، والعدل سمى به لبياضه، قال ابن دِحْيَة: سمى به لأنه مَضَرَ القلوب بحسنه وجماله، وقيل غير ذلك.

وفي «السبل»: اسمه عمرو وكنيته أبو إلياس.

وكانت له فراسة وقيافة وكلمات حكيمة منها: «من يزرع شرًا يحصد ندامة» و«خير الخير أعجله، فاحملوا أنفسكم على مكروهها [فيما يصلحها] واصرفوها عن هواها فيما يُفسدها، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فُواق» ـ بضم الفاء وقد تفتح ـ ما بين الحلبتين كما في «القاموس».

وكان أحسن الناس صوتًا، وهو أول من سنَّ الحُدَاء ـ بضم الحاء وفتح

قلبت الهمزة الثانية واوا وأدغم. وقيل: أصله ووأل بهمزة بعد واوين قلبت الهمزة واواً، والواو الأولى همزة، وكان حقه حينئذ أن يجمع على ووائل، لكنهم استثقلوا واوين أول الكلمة فقلبوا الواو الأولى همزة فقالوا أوائل، وله استعمالات؛ فتارة يرد اسمًا بمعنى مبدأ الشيء نحو: ماله أول ولا آخر، وتارة يرد بمعنى سابق نحو: لقيته عامًا أولاً بالتنوين لأنه قد يؤنث بالتاء، ووزن أفعل لا يمنع من الصرف إلا إذا لم يلحقه التاء.

وتارة بمعنى أسبق فتليه من، ويمنع من الصرف للوصفية ووزن الفعل لتجرده من التاء كهذا أول من هذين.

وتارة يرد ظرفا كرأيت الهلال أول الناس أى قبلهم، وهذا هو الذى يُبنى على الضم لقطعه عن الإضافة.

(مَنْ أَهْدَى) أى ساق **(الْبُدْنَ)** تقربا إلى الله تعالى - بضم الموحدة وسكون الدال المهملة - جمع بدنة وهى البعير ذكرا كان أو أنثى والهاء فيها للوحدة لا للتأنيث. قال القرطبى: اختلف العلماء فى البُدن هل تطلق على غير الإبل من البقر أو لا؟ فقال ابن مسعود، وعطاء، والشافعى: لا. وقال مالك، وأبو حنيفة: نعم. وفائدة الخلاف فيمن نذر بدنة فقرب بقرة فهل تجزئه أو لا؟ فعلى مذهب الشافعى وعطاء لا يجزئه، وعلى مذهب مالك وأبى حنيفة يجزئه، والصحيح ما ذهب إليه الشافعى وعطاء؛ لقوله ﷺ فى الحديث الصحيح فى يوم الجمعة: «من راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة»[1] الحديث، فتفريقه عليه الصلاة والسلام بين البدنة والبقرة يدل على أن البقرة لا يقال لها بدنة.. والله أعلم.

قال القرطبى: ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾[2] فإن هذا الوصف خاص بالإبل، والبقر تضجع وتذبح كالغنم، ثم قال: ودليلنا أن

(١) أخرجه الترمذى (٤٩٩)، النسائى (٣/٩٩)، الشافعى فى مسنده (٦٢)، مالك (٢٢٧).

(٢) سورة الحج: ٣٦.

الدال المهملتين ممدودًا - الغناء للإبل؛ وذلك أنه لما سقط عن بعيره وهو شاب فانكسرت يده فقال: يا يداه يا يداه، فأتت إليه الإبل من المرعى، فلما صح وركب حَدَا.

وقيل: عبد له ضربه ضربًا وجيعًا، فصار يقول: يا يداه يا يداه، فجاءت إليه الإبل من مرعاها، فوضع الحُدَاء وزاد الناس فيه. وذلك لأن الحُدَاء مما ينشط الإبل لا سيما إن كان بصوت حسن فإنها عند سماعه تمد أعناقها وتصغى إلى الحادى، وتسرع فى سيرها، وتستخف الأحمال الثقيلة فربما قطعت المسافة البعيدة فى زمن قصير، فربما أخذت ثلاثة أيام فى يوم واحد.

ولأجل ما ذُكِرَ ذَكَرَ أئمتنا أنه مستحب وفيه أحاديث كثيرة ذكرها النووى - رحمه الله تعالى - فى «الأذكار».

وكان له أخ يسمى ربيعة، وفى الحديث: «لا تسبوا ربيعة ولا مُضَر فإنهما كانا مؤمنين»[1] وفى رواية: «لا تسبوا مُضَر فإنه كان على ملة إبراهيم» وفى رواية: «كان قد أسلم»[2].

قيل: هو جماع قريش. ففى جماع قريش خمسة أقوال: قيل: قُصَىّ، وقيل: فِهْر، وقيل: النَّضْر، وقيل: إلياس، وقيل: مُضَر، كما علم مما تقدم.

وقبره بالرَّوحاء يُزار، والرَّوحاء على ليلتين من المدينة قاله أبو عبيد البكرى[3].

وفيه تجتمع حليمة السعدية مع النبى ﷺ كما يأتى فى قول.

* * *

(ابن نِزَار) بكسر النون فزاى فألف فراء، مأخوذ من النَّزْر وهو القليل،

---

(١) مسند الفردوس للديلمى (٧٣٠٣).

(٢) عزاه السيوطى فى جامع الأحاديث لابن سعد مرسلاً (٢٥/٥٤).

(٣) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى الأندلسى، مؤرخ جغرافى، ثقة، علامة بالأدب، له كتب جليلة منها: «المسالك والممالك» و «معجم ما استعجم» و «أعلام النبوة». توفى فى قرطبة سنة (٤٨٧ هـ). انظر: الأعلام (٩٨/٤).

سمى به لأنه كان فريد عصره، وقيل: لأن أباه لما وُلِدَ نظر إلى نور محمد ﷺ بين عينيه - وهو نور النبوة الذى كان ينتقل فى الأصلاب - ففرح فرحًا شديدًا، ونحر وأطعم، وقال: إن هذا كله نَزْرٌ - أى قليل - لحق هذا المولود.

وقيل: لقب به لنحافته. واسمه خلدان.

وكان أجمل أهل زمانه وأكثرهم عقلا، ولذا قيل كان نور النبى ﷺ بين عينيه، وهو أول من كتب الكتاب العربى على الصحيح، والإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - يجتمع معه ﷺ فى هذا الجد الذى هو نِزَار. وكنيته أبو إياد، وقيل: أبو ربيعة.

وقبره بذات الجيش قرب المدينة؛ قاله فى «الوفا».

* * *

(ابن مَعَدّ) بفتح الميم والمهملة وتشديد الدال المهملة، مشتق من العدّ أو من مَعَدَ فى الأرض إذا أفسد.

وكان صاحب حروب وغارات على بنى إسرائيل، ولم يحارب أحدًا إلا رجع بالنصر والظفر. وكنيته أبو قضاعة، وقيل: أبو نِزَار.

وحكى أنه لما سلط الله بُخْتنصر على العرب أمر الله تعالى أرمياء - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - أن يحمل معه مَعَدّ بن عدنان على البراق كى لا يصيبه النقمة، وقال: فإنى سأخرج من صلبه نبيًا أختم به الرسل، ففعل أرمياء ذلك، فاحتمله معه إلى أرض الشام، فنشأ مع بنى إسرائيل، ثم عاد بعد أن هدأت الفتنة بموت بُخْتنصر.

* * *

(ابن عَدْنَان) بزنة مروان من العَدن أى الإقامة، سمى به لأن أعين الجن والإنس كانت إليه ناظرة وأرادوا قتله، وقالوا: لئن تركنا هذا الغلام حتى يدرك مدرك الرجال ليخرجن من ظهره من يسود الناس، فوكل الله به من يحفظه.

وهو أول من وضع علامات الحرم، وأول من كسا الكعبة أو كسى فى زمنه، ففى أول من كساها خلاف ليس هذا موضع بسطه[1].

وقيل: كان فى زمن عيسى عليه السلام، وقيل: فى زمن موسى عليه السلام. قال الحافظ ابن حجر: وهو أولى. وضعف الأول بعضهم لما فى الطبرانى عن أبى أمامة الباهلى - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لما بلغ ولد مَعَدّ بن عدنان أربعين رجلا وقعوا فى عسكر موسى عليه السلام فانتهبوه، فدعا عليهم موسى عليه السلام، فأوحى الله إليه: «لا تدع عليهم فإن منهم النبى الأمى النذير البشير...» الحديث[2].

وهذه الأمور التى تقدمت والتى تأتى كلها تدلك على أن آباءه ﷺ كلهم كانوا على التوحيد ولم يصدر عن أحد منهم إشراك ولا شىء من أمور الجاهلية البتة، والحمد لله على ذلك، ولقد أحسن القائل فى مدحهم حيث يقول:

فأولئك الساداتُ لَمْ تَرَ مثلهم ... عينٌ على متتابعِ الأحقابِ
زهر الوجوه كريمة أحسابهم ... يُعطونَ سائلهمْ بغيرِ حسابِ
حلموا إلى أن لا تكاد تراهُمُ ... يومًا على ذى هَفْوةٍ بغضابِ
وتكرَّموا حتى أبوا أن يجعلوا ... بين العفاة وبابهم من بابِ
كانت تعيشُ الطيرُ فى أكْنَافهمْ ... والوحشُ حين يشح كل سحابِ
وكفاهـمُ أنَّ النَّبى مُحَمَّـدا ... منهم فمدحهم بكلِّ كتابِ

ومما يدلك على شرفهم وارتفاع شأنهم وفخامتهم وعلو مكانهم ما جاء عن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - قال: قيل: يا رسول الله: قُتِلَ فلان - لرجلٍ من ثقيف - فقال ﷺ: «أبعده الله، إنه كان يبغض قريشًا»[3].

(١) انظر: مثير الغرام ص (٢٥٥)، اخبار مكة للأزرقى (١/ ٢٤٩).
(٢) الطبرانى فى الكبير (٨/ ١٦٥)، الخصائص الكبرى (١/ ١٨).
(٣) مصنف ابن أبى شيبة (١٢/ ١٧١)، مسند أحمد (١/ ١٧١)، البخارى فى التاريخ الكبير (٨/ ٣٧٦).

وفى «الجامع الصغير» للسيوطى ـ رحمه الله تعالى ـ: «قريش صلاح الناس، ولا يصلح الناس إلا بهم كما أن الطعام لا يصلح إلا بالملح، قريش خالصة الله فمن نصب لها حربًا سلب، ومن أرادها بسوء خزى فى الدنيا والآخرة»(١).

وفيه عن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «من يُرِدْ هوانَ قريش أهانه الله»(٢).. انتهى.

وعَدْنَان هذا هو النسب المجمع عليه فى نسبه ﷺ، ومن فوقه لا يصح فيه شىء، ولا يمكن حفظ النسب فيه منه إلى إسماعيل عليه السلام كما سيأتى.

ثم اعلم أن الترتيب فى ذكر الأنساب هو المألوف؛ وهو الابتداء بالأب ثم الجد ثم أب الجد وهكذا، وقد جاء فى القرآن على خلافه فى قوله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾(٣) قال بعضهم: والحكمة أنه لم يرد مجرد ذكر الآباء وإنما ذكرهم ليذكر ملتهم التى اتبعها، فبدأ بصاحب الملة ثم بمن أخذها عنه أولاً فأولاً على الترتيب.. انتهى.

وقد ذكر المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ نسبه الشريف كذلك ثم أشار إلى صحته محتجًا بالأحاديث الصحيحة فقال:

(وهذا) أى النسب الشريف النبوى المحمدى الذى لا خلاف فيه بالإجماع، السابق سرد أسماء رجاله بهذا الترتيب **(سِلْكٌ)** بكسر السين المهملة وسكون اللام وآخره كاف، جمع سِلْكة بالكسر وجمع الجمع أسلاك وسُلوك كما فى «القاموس»، وهى الخيوط قبل النظم فيها، أما بعد النظم فيها فتسمى سُمُوطًا جمع سُمْط ـ بضم السين المهملة وسكون الميم آخره طاء مهملة ـ فعلى كل

---

(١) تاريخ ابن عساكر (٤/٤٥٩)، (٦/٢٣٥).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٩٠٥) وقال: حسن غريب. وروى نحوه أحمد فى مسنده (١/٤٦)، والحاكم (٤/١٧٤).

(٣) سورة يوسف: ٣٨.

من الحالتين لا تسمى الخيوط وحدها عقداً بل مع المنظوم فيها، فالعقد مجموع المنظوم والمنظوم فيه، إذا علمت ذلك علمت أن لفظ السلك مراد به هنا العقد من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الكلية والجزئية كما يعلم من قوله (نَظَّمَتْ) بفتح النون وتشديد الظاء المعجمة مبنيا للفاعل، من التنظيم وهو التأليف وضم الشىء إلى آخر، يقال: نظم اللؤلؤ جمعه فى السلك أى واحد فواحد، ففيه إشارة إلى ذلك الترتيب، ولا يقال كان على المؤلف أن يأتى بما يشار به إلى الجمع كأولئك لأنا نقول أن قوله: «وهذا» مشار به إلى المتقدم أو المذكور مثلا (فرائده) جمع فريدة وهى الجوهرة النفيسة الثمينة، وفى «المختار»: وقيل: فرائد الدر كبارها، والكل مناسب هنا لكن الثانى أنسب (بَنَانُ) أى أصابع (السُّنَّةِ) بضم السين وشد النون الطريقة والمراد بها هنا الأحاديث الصحيحة الدالة على صحة هذا النسب الشريف شبهها بإنسان فى الشرف والنفع على سبيل المكنية وأثبت لها البنان تخييلا (السَنِيَّةِ) بفتح السين المهملة وكسر النون أى النيرة المضيئة يعنى أن هذا النسب الشريف ورد سرده هكذا فى خبر مرفوع ودلت عليه أخبار صحيحة.

(وَرَفْعُهُ) أى إيصاله (إلى الخليل إبراهيم) عليه الصلاة والسلام، فعيل بمعنى مفعول من الخَلة بالفتح وهى الحاجة، وُصِفَ به لما قصر حاجته على ربه حين جاءه جبريل عليه السلام أو بالضم وهو تخلل مودة فى القلب لا تدع فيه خلاء إلا امتلأته، وهو أرقى من مقام المحبة إلا فى حق نبينا ﷺ كما سيأتى، وذلك لما كسر إبراهيم آلهتهم جاءوا به واختاروا له أهول المعاقبات وهى الإحراق بالنار.

والمشهور أن الذى أشار بإحراقه نَمروذ، وهو أول من تجبر وادَّعى الربوبية، وقيل: رجل اسمه حيدر فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

قال الزمخشرى: قيل: رجل من أعراب العجم ـ يريد الأكراد ـ.

فهموا بإحراقه، وحبسوه، ثم بنوا له بنيانًا كالحظيرة بكَوْثَى وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ﴾ (١) وجمعوا شهرًا أصناف الخشب الصلاب وتكلفوا فى تشهير أمرها وتفخيم شأنها، ولم يألوا جهدًا فى ذلك حتى أن المرأة إذا مرضت كانت تقول: إن عافانى الله لأجمعن حطبًا لإبراهيم، ثم اشتعلوا نارًا عظيمة حتى كادت الطير تحترق فى الهواء من وهجها، فلما وضعوه بإشارة من إبليس لعنه الله حيث لم يتمكنوا من إلقائه فى النار لشدة حرها فى المنجنيق مقيدًا مغلولاً، قال: «لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك، اللهم أنت فى السماء واحد، وأنا فى الأرض واحد» فصاحت السموات والأرض ومن فيهن إلا الثقلين صيحة واحدة: «يا ربنا ليس فى أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم، وإنه يحرق فى النار فأذن لنا فى نصرته» فقال سبحانه وتعالى: «إن استغاث بكم فأغيثوه، وإن لم يتمسك إلا بى فأنا وليه وكافيه» فلما أرادوا إلقاءه فى النار أتاه خازن الرياح فقال: إن شئت طيرت النار فى الهواء. وجاء ملك البحار فقال: إن شئت سلطت البحار على هذه النار. وجاء ملك السحاب فقال: إن شئت مطرت على هذه النار بحيث لا أترك منها أثرًا. فقال عليه الصلاة والسلام: لا حاجة لى إليكم. ثم جاءه جبريل عليه السلام فقال له: هل لك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. قال: فسل ربك. قال: حسبى من سؤالى علمه بحالى. فلما رموه به فيها قال: حسبى الله ونعم الوكيل. فقال الله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (٢) فكانت. ويحكى أن ما أحرقت منه إلا وثاقه، وعن ابن عباس رضى الله عنهما: «لو لم يقل ذلك - أى سلامًا - لأهلكته ببردها».

وأطلَّ عليه نمروذ من الصرح فإذا هو فى روضة ومعه جليس من الملائكة،

---

(١) سورة الصافات: ٩٧.

(٢) سورة الأنبياء: ٦٩.

فقال: إنى مقرب إلى إلهك فذبح أربعة آلاف بقرة، وكفّ عن إبراهيم، وكان إبراهيم إذ ذاك ابن ست عشرة سنة.

وهو لفظ سريانى معناه بالعربية: أب رحيم.

قيل: وكان مولده ـ عليه السلام ـ بالسماسرة من أرض الأهْوَاز[1]، وقيل بكَوْثَى بالمثلثة كطوبى، قرية بالعراق، وهو الصحيح كما يأتى.

وقيل: كَسْكَر[2] بوزن جعفر كورة قصبتها واسط، وقيل: حَرَّان[3] بوزن شداد بلد بالشام، ولكن أبوه نقله إلى بابل أرض نمروذ بن كنعان.

وهو أفضل الأنبياء وأكرم الرسل بعد نبينا ﷺ.

(أَمْسَكَ) أى امتنع **(عَنْهُ)** أى الرفع **(الشَّارِعُ)** ﷺ **(وأَبَاه)** أى امتنع منه بمعنى أنه لم يقله.

قال ابن دِحْيَة: أجمع العلماء ـ والإجماع حجة ـ على أن رسول الله ﷺ إنما انتسب إلى عَدْنان ولم يجاوزه.

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز مَعدّ بن عدنان ثم يمسك ويقول: «كذب النسابون» مرتين أو ثلاثًا. رواه فى مسند الفردوس[4]، لكن قال السهيلى: الأصح فى هذا الحديث أنه من قول ابن مسعود.

وقال غيره: كان ابن مسعود إذا قرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ﴾[5] قال: كذب النسابون يعنى أنهم يدعون علم الأنساب ونفى الله علمها عن العباد[6].

---

(١) الاهواز: بلدة كبيرة كانت تقع بين البصرة وبلاد فارس، وكان اسمها أيام الفرس «خوزستان». (مراصد الاطلاع ١/ ١٣٥).

(٢) كَسْكَر: مدينة كبيرة بين البصرة والكوفة. (مراصد الاطلاع ٣/ ١١٦٥).

(٣) حران: مدينة قديمة فى الشام (سوريا) وقيل إنها أول مدينة بنيت بعد الطوفان. (مراصد الاطلاع ١/ ٣٨٩).

(٤) عزاه السيوطى ى الدر المنثور (٥/ ١٣١) للحاكم فى «الكنى»، وأخرجه ابن عساكر (مختصر تاريخ دمشق ٢. ١٦).

(٥) سورة إبراهيم: ٩.

(٦) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ١٣٤) لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم.

وروى عن ابن عمر أنه قال: إنما يتسب إلى عَدْنان، وما فوق ذلك لا يدرى ما هو.

وعن ابن عباس أيضًا: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبًا لا يعرفون(١)، وقيل: أربعون، وقيل: سبعة وثلاثون، وفيه أقوال غير ذلك.

وعنه أيضًا: مدة الدنيا أى من آدم عليه السلام سبعة آلاف سنة، وقد مضى منها قبل وجود النبى ﷺ خمسة آلاف سنة وسبعمائة وأربعون سنة، وفى رواية: وثمانمائة سنة.

وجاء: كان بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ عشرة قرون، وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون، وقال الله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ (٢).

وعنه أيضا: لو شاء رسول الله ﷺ أن يعلمه لعلمه، أى لو أراد أن يعلم ذلك الناس لعلمهم، فرواياته كلها دالة على أنه ﷺ كره ذلك وأعرض عنه، فالذى ينبغى لنا الإعراض لإعراضه ﷺ ولما فيه من التخليط والتغيير للألفاظ وعواصة تلك الأسماء مع قلة الفائدة.

(وعَدْنَانُ بلا رَيْب) أى شك **(عِنْدَ ذَوِى)** جمع ذى بمعنى صاحب أى أصحاب **(العُلوم النَّسَبِيَّة)** بفتح النون والسين المهملة أى التى يبحث فيها عن تحقيق الأنساب **(إلى الذبيح)** فعيل بمعنى مفعول ـ أى المذبوح ـ أمرًا لا فعلاً **(إسماعيل)** نبى الله، على نبينا وعليه الصلاة والسلام **(نسْبتُه ومُنْتَمَاه)** هما بمعنى يقال: انتمى إلى فلان أى انتسب إليه يعنى أن عَدْنَان ينتمى فى النسب إلى الذبيح إسماعيل باتفاق النسَّابين وإنما الخلاف فى عدد من بين عَدْنان وإسماعيل من الآباء ومنه إلى آدم عليهما السلام.

* * *

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ١٣٥) لابن المنذر.

(٢) سورة الفرقان: ٣٨. والأثر عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ١٣٠) لابن مردويه.

[الإشارة إلى قصة الذبيح][1]

وما ذكره المصنف - رحمه الله تعالى - من أن الذبيح هو إسماعيل - عليه السلام - هو أحد الأقوال فيه، وبه قال جماعة من الصحابة: كابن عباس، وعمر، ومعاوية، وأبى هريرة، وأبى الطفيل، وعامر بن واثلة، ومن التابعين: سعيد بن المسيب، والشعبى، ويوسف بن مهران، ومجاهد، والربيع ابن أنس، ومحمد بن كعب القرظى، والكلبى، وعلقمة، وغيرهم، وإليه ذهب الشافعى ومالك، ورجَّحه جماعة، وقال أبو حاتم: إنه الصحيح، و[قال] البيضاوى: إنه الأظهر، وانتصر له فى «المواهب».

وورد أن النبى ﷺ قال: «إن الذبيح إسماعيل» واحتجوا لهذا القول بأمور منها: أن سارة زوجة إبراهيم - عليه السلام - كانت لا ولد لها وهاجر جاريته ولدت إسماعيل، فغارت منها وكرهت مقامها معها، فنقلها إلى مكة ومعها إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وكان يؤنسها، فلما كبرت سارة وشاخ إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بشرتها الملائكة بإسحاق فقالت: ﴿يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾[2] الآية.

فلو كان الذبيح إسحاق نافى ذلك إخبار الله بأنه سيولد له يعقوب للإجماع على أنه فى صغره، ولقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾[3] الآية ذكرت مبشرة بإسحاق بعد قصة الذبح، وبهذا احتج مالك وغيره، وتقدم ما يؤيد ذلك فى حديث الحاكم، وفى تفسير الزهرى عن ابن عباس: تزعم اليهود أن إسحاق هو الذبيح وكذبوا.

وعن عمر بن عبد العزيز أنه سأل رجلاً أسلم من علماء اليهود: أى ابنى

---

(١) ينظر: «القول الفصيح فى تعيين الذبيح» للسيوطى ضمن «الحاوى للفتاوى»، وتفسير القرطبى (١٥/ ١٠٠).

(٢) سورة هود: ٧٢.

(٣) سورة الصافات: ١٠٢.

إبراهيم أُمِرَ بذبحه؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين إن اليهود ليعلمون أنه إسماعيل ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن يكون أباكم للفضل الذى ذكر الله عنه، فهم لا يجحدون، ولكن زعموا أنه إسحاق لأنه أبوهم.

قال الأصمعى: سألت أبا عمرو عن الذبيح، فقال: أغرب عنك عقلك؟! ألم تر أن الموضع الذى أضجع فيه الذبيح بمكة وبمنى ومتى دخل إسحاق مكة؟

وقيل: إن الذبيح إسحاق واحتج بقوله ﷺ: «الذبيح إسحاق»(1) وبهذا القول قال جماعة من الصحابة كالعباس، وعلى بن أبى طالب، وأبى هريرة أيضًا، وجابر بن عبد الله، وعمر أيضًا، وابنه عبد الله، وعن ابن مسعود وابن عباس أيضًا أنه الصحيح. ومن التابعين جماعة، وذهب إليه مالك أيضًا، وعزاه ابن عطية، والمحب الطبرى، والقرطبى - فى تفسيره - للأكثرين، وقال القرطبى: وهذا القول أقوى فى النقل عن النبى ﷺ، وأجمع عليه أهل الكتابين اليهود والنصارى، واختاره ابن جرير، وجزم به عياض والسهيلى، ومال إليه السيوطى فى «علم التفسير».

لكن نقل بعضهم عن «القول الفصيح فى تعيين الذبيح» للجلال السيوطى أنه قال: وقد كنت ملت إليه فى التفسير وأنا الآن متوقف فى ذلك.

قلت: وقد نقل القرطبى عن الزجاج القول بالوقف وهو الأسلم فإن هذه المسألة ليست من العقائد التى كلفنا بمعرفتها فلا نُسأل عنها يوم القيامة، فهى مما ينفع علمه ولا يضر جهله، فتكون الأقوال ثلاثة.

وهناك قول رابع نقله مُغْلطاى وهو أنهما - أى الذبيحين - فى قوله ﷺ: «أنا ابن الذبيحين عبد الله وهابيل»، وهو مع غرابته بعيد ولا يصح إلا بجعل الأب عمّا؛ فإن المصطفى من ولد شيث.

---

(1) أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير (٢/ ١٩٢)، مسند الفردوس (٣١٧٣)، الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٥٩)، مجمع الزوائد (٨/ ٢٠٢).

هذا والقول الأول هو الذى رجحه جماعة من محققى المتأخرين، وقال ابن الجوزى: هو الصواب[1]، والقول بأنه إسحاق باطل من عشرين وجهًا، وأطال فيه ابن القيم فى «الهدى».

وإذا تقرر ذلك فنقول: وقد بسط القصة المفسرون والإخباريون فقال بعضهم: روى كعب الأحبار عن رجال قالوا: لما رأى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى المنام أنه يذبح ابنه وتحقق أنه أَمْر ربه، قال لابنه: يا بنى خذ الحبل والمُدية وانطلق بنا إلى هذا الشِّعْب لنحتطب لأهلنا، فأخذ المُدية والحبل وتبع والده. فقال الشيطان: لئن لم أفتن عند هذا إبراهيم لا أفتن أحدا منهم أبدًا. فتمثل الشيطان رجلاً فأتى أم الغلام فقال لها: أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ فقالت: ذهب به ليحتطب لنا من هذا الشِعْب، فقال: والله ما ذهب به إلا ليذبحه. قالت: كلا هو أشفق به وأشد حبًا له منى، فقال لها: إنه يزعم أنه أُمِرَ بذلك، قالت: إن كان الله أمره بذلك فليطع أمره. فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشى إثر أبيه، فقال له: يا غلام هل تدرى أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشِعْب، فقال: والله ما يريد إلا ذبحك، فقال: لأى شىء؟ قال: يزعم أن الله أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره الله به، وسمعا وطاعة لأمر الله تعالى. فأقبل الشيطان إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال له الشيطان: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشِعْب لحاجة لى فيه، فقال: إنى أرى الشيطان خدعك بهذا المنام الذى تريده، إنك تريد أن تذبح ابنك وفلذة كبدك فتندم بعد ذلك حيث لا ينفعك الندم. فعرفه إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال: إليك عنى يا ملعون فوالله لأمضين لأمر ربى. فنكص إبليس على عقبه ورجع بخزيه وغيظه، ولم ينل من إبراهيم وآله شيئا. فلما خلى إبراهيم فى الشعْب ويقال فى ثَبير، فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي

(١) زاد المسير (٧/ ٧٣).

إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [1].

قال ـ يعنى كعب الأحبار ـ فحُدِّثت أن إسماعيل قال له عند ذلك: يا أبت إذا أردت ذبحي فاشدد وثاقى لئلا يصيبك من دمى فينقص من أجرى فإن الموت شديد، ولا آمن أن أضطرب عنده إذا وجدت مسّه، واشحذ شفرتك حتى تجهز علىّ فتذبحنى، فإذا أنت أضجعتنى لتذبحنى فاكبّنى على وجهى، ولا تضجعنى بشقى فإنى أخشى إن أنت نظرت إلى وجهى أن تدركك الرحمة فتحول بينك وبين أمر ربك فىَّ، وإن تر أن ترد قميصى إلى أمى فإنه عسى أن يكون أسلى لها فافعل. فقال: نعم العون أنت يا بنى على أمر الله، ويقال: أنه ربطه كما أمر بالحبل، فأوثقه ثم شحذ شفرته، ثم تلّه للجبين، واتقى النظر إلى وجهه، ثم أدخل الشفرة حلقه فقلبها جبريل ـ عليه السلام ـ لقفائها فى يده، ثم اجتذبها إليه ونودى أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا فهذه ذبيحتك فداء لابنك، فاذبحها دونه، وأتاه بكبش من الجنة.

قال ابن إسحاق حدثنى: الحكم بن عتيبة، عن مجاهد، عن مقسم، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: أخرج الله الكبش من الجنة.

قيل: وهو الذى قرّبه هابيل، جاء به جبريل فذبحه السيد إبراهيم مُكبِّرًا.

وقيل: إنه رعى قبل ذلك فى الجنة أربعين خريفًا.

وقيل: كان وَعْلاً أهدى إليه من ثَبِير، قاله البيضاوى، والوعل: التيس الجبلى.

قال الفاكهى: ذكر أهل الكتاب وكثير من العلماء أن الكبش الذى فُدى به إسماعيل عليه السلام كبشٌ أملحٌ أقرنٌ أعين، وقد بقى قرناه معلقين على الكعبة إلى أن احترق البيت فى زمن ابن الزُّبير.

قال الشعبى: رأيت قرنى الكبش منوطين بالكعبة. وقال ابن عباس: والذى نفسى بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه فى ميزاب

(1) سورة الصافات: ١٠٢.

الكعبة وقد يبس.. انتهى.

وقال الشيخ الجمل فى حواشيه على «الجلالين»: ومن المعلوم المقرر أن كل ما هو من الجنة لا تؤثر فيه النار، فلم يطبخ لحم الكبش بل أكلته السباع والطيور، تأمل.. انتهى.

وهو - أعنى إسماعيل - أول من سمى بهذا الاسم من بنى آدم، ومعناه بالعبرانية مطيع الله، أرسله الله تعالى إلى العماليق وإلى قبائل اليمن فى زمن أبيه إبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - وكذا بعث أخاه إسحاق إلى أهل الشام، وبعث يعقوب إلى الكنعانيين فى حياة إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وكان إسماعيل بكر أبيه، جاء له وقد بلغ من العمر سبعين سنة أو ستًا وثمانين سنة، وهو أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، وقيل: بأربع عشرة سنة.

وأم إسحاق سارة حملت بإسحاق فى الليلة التى خسف الله بقوم لوط فيها، ولها من العمر تسعون سنة.

وكل الأنبياء من بعد إبراهيم من ولده إسحاق، وأما إسماعيل فلم يكن من نسله نبى إلا نبينا ﷺ.

قال محمد بن أبى بكر الرازى: ولعل الحكمة فى ذلك انفراده ﷺ بالفضيلة فهو ﷺ أفضل الجميع.

وعاش إسماعيل بعد أبيه ما عاش، وتوفى بمكة، ودفن داخل الحِجْر مما يلى باب الكعبة، وهنالك قبر أمه هاجر وكانت توفيت قبله.

ثم أخذ المصنف رحمه الله يمدح نسبه الشريف ﷺ فقال: **(فَأَعْظِمْ)** بقطع الهمزة وكسر الظاء المعجمة (به) أى بهذا السلك النَّسَبى النبوى المحمدى، وهذه إحدى صيغتى التعجب أى ما أعظمه، فهو وإن كان على صورة الأمر ماض وفاعله يلزم الباء الزائدة، فالباء فى به زائدة **(من عِقْد)** بكسر العين المهملة وسكون القاف، وهو القلادة من الجوهر **(تَأَلَّقَتْ)** بمثناة فوقية وهمزة

مفتوحة ولام مشددة فقاف مفتوحة تليها تاء تأنيث، بمعنى استنارت وأضاءت **(كَوَاكِبُهُ)** جمع كوكب وهو الجرم المضيء بنفسه أو بغيره، فشمل الشمس والقمر وغيرهما من سائر الكواكب **(الدُّرِّيَّة)** بتشديد الدال والراء والتحتية مع ضم أوله وكسر ثانيه، أى المنسوبة للدُّر الذى هو كبار اللؤلؤ، فالمراد بالكواكب اللآلىء لما بينها من التشابه فى البرق واللمعان.

(وكيف لا) يتعجب من عظمه أو لا يكون العقد متألق الكواكب **(والسيِّدُ)** الكامل فى السيادة على من سواه من خلق الله **(الأكرمُ)** ذاتًا وصفاتًا من غيره حتى عظماء الملائكة المكرمين وخواص رسله الأكرمين (ﷺ **واسطته**) أى الدُّرة العظيمة المتوسطة فيه **(المُنْتَقَاة)** بضم الميم وإسكان النون ومثناة فوقية، المصطفاة المختارة، والجملة حالية، وسيأتى دلائل اصطفائه ﷺ.

ثم أنشد المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ لما هو بصدده من بيان عظم هذا النسب الشريف العالى المنيف بيتين من القصيدة الهمزية للإمام العارف الكامل، والهمام الواصل، إمام الشعراء، وأشعر العلماء، الشيخ شرف الدين البوصيرى(1) ـ رحمه الله تعالى ـ وهى قصيدة بليغة عزَّ أن يوجد لها نظير فى القصائد التى مُدح بها البشير النذير ﷺ، وشرَّف ومجَّد وكرَّم فقال:

[نَسَبٌ تَحْسَبُ الْعُلاَ بِحُلاَهُ ... قَلَّدَتْهَا نُجُومَهَا الْجَوْزَاءُ

حَبَّذَا عِقْدُ سُؤْدَدٍ وَفَخَارٍ ... أَنْتَ فِيهِ الْيَتِيمَةُ الْعَصْمَاءُ](2)

(نَسَبٌ) أى هذا نسبٌ عظيمٌ كما دل عليه التنوين، بل لا أطهر ولا أجل منه فى الأنساب، وهو اسم لعمود القرابة التى يجمع متفرقها **(تَحْسَبُ)** بكسر السين وفتحها أى تظن أيها المخاطب **(العُلاَ)** بضم العين وفتح اللام مقصور جمع عليا، تأنيث الأعلى من عَلا بالفتح يعلو عُلُوًّا فى المكان، وعَلِى بفتح العين وكسر اللام يعلى، وعَلَى بالفتح يعلى علا فى الشرف **(بِحُلاَهُ)** بضم

(1) هو إمام المديح النبوى، الإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيرى، توفى سنة (٦٩٦ هـ).
(2) المجموعة النبهانية (١/ ٧٧).

أوله وكسره، وهو أفصح، جمع حِلية بكسر أوله، وهى ما يتزين به وتسمى حُليّا أيضًا، والباء سببية، والضمير للنسب (**قَلَّدَتْهَا**) أى العلا فى محل نصب مفعول تحسب الثانى والأول العلا (**نُجُومَهَا**) أى بنجومها فهو منصوب على نزع الخافض (**الْجَوْزَاءُ**) اسم لبرج فى السماء كما فى «القاموس»، وعليه فنجومه هى الآتية. وتطلق عرفا على النجوم المجتمعة المعروفة، قيل: وهى تشبه المرأة فلذا نسب التقليد إليها، أى من كمال هذا النسب وشرفه أن من تأمل فيه حسب ـ بسبب ما تحلى به من الكمالات ـ أن معاليه قلدتها الجوزاء بنجومها، أى جعلت نجومها قلادة لها.

فعلم أن كلامه يفيد أن كل واحد من أولئك الآباء الكرام قد ارتفع فى زمانه حتى صار كأنه النجم فى الشرف وعلو المرتبة والإضاءة والاهتداء به فى ظلمات البر والبحر حتى يظن الظان أنه نجم من نجوم الجوزاء، وأن مجموع هذا النسب كالعقد الثمين جداً الذى تقلده جيد تلك المراتب العلية قاله فى «المنح».

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وفى قوله: «قلدتها. . . إلخ» ثلاث استعارات كلها تصريحية:

الأولى: فى النجوم: حيث شبه أفراد النسب من حيث ارتفاع كل واحد منها فى زمانه حتى صار كأنه النجم فى علو المرتبة والإضاءة والاهتداء به بنجوم الجوزاء، واستعار لفظ النجوم لتلك الأفراد.

الثانية: فى الجوزاء: حيث شبه مجموع تلك الأفراد المسمى بالنسب ـ فإن النسب كما مر اسم لمجموع أفراد الأصول ـ بالجوزاء من حيث التناسب بين أفراد كل والشهرة والإضاءة والاهتداء به إلى آخر ما تقدم، واستعار لفظ الجوزاء لهذا النسب.

الثالثة: فى قوله: «قلدتها» حيث شبه إعطاء النسب أفراده المراتب العلية لتتزين تلك المراتب بالإفراد على خلاف المتعارف بإلباس القلادة لمن يتزين بها، واستعار إلباس القلادة لإعطاء الأفراد واشتق منه قلَّدتها بمعنى أعطتها

فيكون استعارة تصريحية تبعية.

والمعنى: تحسب أيها المتأمل فيه بسبب الزينة القائمة به أن مراتبه العالية القائمة بأفراده قد تقلدت بتلك الأفراد لتتزين بها، على خلاف المعتاد من أن الشخص يتزين ويتقلد بالمراتب العالية، فيكون قد جعل هنا مراتب النسب هى التى تتزين وتتقلد بالأفراد، فأفراد النسب تكسب المراتب العالية الزينة والشرف، فكأنه قال: تحسب العلا تقلدت بأفراد النسب. لكن على هذا فى الكلام إظهار فى مقام الإضمار حيث قال: قلدتها نجومها الجوزاء فإن الجوزاء المراد بها ههنا النسب، وهو مذكور سابقًا، وارتكبه للتوصل إلى تشبيهه بالجوزاء وادعاء أنه هى.

ثم أخذ فى مدح هذا النسب فقال: **(حَبَّذَا)** هى كنعم عملاً ومعنى مع زيادتها عليها بإشعارها بأن الممدوح بها محبوب للقلب **(عِقْدُ)** بكسر أوله وهو القلادة كما تقدم **(سُؤْدَدٍ)** أى سيادة **(وفَخَارٍ)** بفتح الفاء والخاء المعجمة كسلام على ما هو المسموع وإن كان القياس الكسر لقول ابن مالك:

لفاعـل الفعـال والمفاعـله وغير ما مر السماع عادله

وهو التمدح بالخصال الجليلة **(أنتَ فيه)** أى فى ذلك العقد **(اليتيمةُ)** أى الدُّرة التى لا شبيه لها فى حسنها **(العَصْمَاءُ)** من العصمة أى الحفظ أو المنع لأن من شأن هذه الدُّرة أن يبالغ فى حفظها أو منعها أن تصل إليها يد الأغيار، وجملة أنت وما بعده صفة لعقد أو حال منه لتخصيصه بالإضافة، وهذا فيه غاية المدح له ﷺ، ولنسبه أى حبذا نسبك الذى إذا ذكر وعُدَّت معك آباؤك كانوا قلادة منتظمة من جواهر ثمينة لها السيادة بحيث تكون أنت واسطتها، العديمة النظير، والمخصوصة من الرعاية والحفظ والمنع بما لم يوجد لغيرها، لتمييزها ببلوغها من صفات الجمال ونعوت الجلال ما يُبهر العقل ويفوق الوصف.

(وأكْرِمْ به) معطوف على قوله: **(أعْظِمْ به)** أى ما أكرمه وأشرفه، ويجرى

فيه ما مر فى قول المصنف فأعظم به **(من نسبٍ)** عظيمٍ شريف **(طَهَّرَهُ الله)** سبحانه وتعالى ونزَّهه **(من سِفَاحِ)** بكسر السين وبالمهملة آخره: الزنا، والمراد به المرأة تسافح الرجل مدة ثم يتزوجها أو ما لم يوافق شريعة. وأصل السفح صبّ الماء ونحوه كما قال ابن الأثير فى «النهاية» ومثله فى «المصباح». قال الزرقانى: والأولى كما قال شيخنا أن يراد به ما هو أعم من الزنا؛ فإن جملة الأحاديث دلت على نفى جميع نكاح الجاهلية عن نسبه من نكاح زوجة الأب لأكبر بنيه، والجمع بين الأختين، ومن نكاح البغايا، ومن نكاح الاستبضاع، ومن نكاح الجمع.. انتهى. وما قيل من أن كِنَانة تزوج بزوجة أبيه برة بنت أدّ ابن طابخة بعد موت أبيه فولدت له النَّضر، وكذا ما قيل فى هاشم فقد تقدم رده.

(الجاهلية) أى أهلها سمّوا بذلك لكثرة جهالاتهم. قال بعضهم: وكان النكاح فيما بينهم على أربعة أنواع لم يكن فيها نكاحٌ محمودٌ صحيحٌ غير واحد منها وهو الذى أقره الإسلام وشرعه النبى ﷺ بولى وصداق وشهود.

وقال الإمام السبكى ـ رحمه الله تعالى ـ: الأنكحة التى فى نسبه ﷺ كلها مستجمعة لشروط الصحة كأنكحة الإسلام الموجودة اليوم، قال: فاعتقد هذا بقلبك وتمسك به ولا تزّل عنه فتخسر الدنيا والآخرة.. انتهى.

وهذا من أعظم العناية به ﷺ من آدم ـ عليه السلام ـ إلى أن خرج من بين أبويه ﷺ على نمط واحد وفق شريعته ﷺ ولم يكن كما كان يقع فى الجاهلية إذا أراد الرجل أن يتزوج قال: خطب، ويقول أهل الزوجة: نكح، ويكون ذلك قائمًا مقام الإيجاب والقبول.

والمراد بنكاح الإسلام ما يفيد الحِل حتى يشمل التَّسرى بناء على أن أم إسماعيل ـ عليه السلام ـ كانت مملوكة لإبراهيم حين حملت بإسماعيل ـ عليه السلام ـ ولم يعتقها ولم يعقد عليها. قاله بعض المحققين.

(أوردَ) أى ذكر فى هذا المعنى السابق الحافظ أبو الفضل **(الزَّيْنُ)** أى زين

الدين ابن عبد الرحمن بن الحسين بن أبى بكر بن إبراهيم الكردى الأصل ثم المصرى، ولد بمصر فى جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وسبعمائة، ونشأ بها، وحصَّل حظًا وافرًا من العلوم المتداولة، وعُنى بفن الحديث فبرع فيه وتقدم بحيث كان شيوخ عصره يبالغون فى الثناء عليه بالمعرفة: كالسبكى، وابن كثير، والعلائى، وغيرهم، ونَقَلَ عنه فى «المهمات» ووصفه بحافظ عصره، وله تصانيف كثيرة.

قال تلميذه الحافظ ابن حجر: وشرع فى إملاء الحديث من سنة ست وتسعين فأحيا الله به السنة بعد أن كانت داثرة وأملى أكثر من أربعمائة مجلس غالبها من حفظه، متقنة مهذبة محررة، كثيرة الفوائد الحديثية، وولى قضاء المدينة المنورة، ثم عاد إلى مصر وصدع بالحق إلى أن مات سنة ست وثمانمائة رحمه الله تعالى[1].

(العِرَاقِىُّ) نسبة إلى عراق العرب **(وَارِدَهُ)** أى ما ورد من الأحاديث الصريحة فى ذلك **(فى مَوْرِدِهِ الهَنِىّ)** أى كتابه المسمى بـ «المورد الهنى فى المولد السنى» **(ورواه)** أى حكاه فيه. ولم أقف على هذا التأليف المشار إليه، لكنى رأيت فى غيره كثيراً من الأحاديث الواردة فى ذلك، فمنها: ما رواه الطبرانى فى معجمه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدنى من سفاح الجاهلية شىءٌ، ما ولدنى إلا نكاحٌ [كنكاحِ] الإسلام»[2] ومنها: ما أخرجه الجلال السيوطى فى «الخصائص الكبرى» من تخريج ابن عساكر عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدتنى بَغِىٌّ قَط منذ خرجتُ من صلب آدم، ولم تزل تنازعنى الأمم كابرًا عن كابر حتى خرجت من أفضل حيَّين من العرب: هاشم

(١) انظر ترجمته فى: طبقات الحفاظ للسيوطى (ص ٥٣٨ برقم ١١٧٧)، أنباء الغمر (٢/ ٢٧٥)، حسن المحاضرة (٣٦٠/٨)، شذرات الذهب (٧/ ٥٥)، الضوء اللامع (٤/ ١٧١).

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن (٧/ ٩٠)، الطبرانى فى الكبير (١٠/ ٣٩٩)، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢١٤): لا أعرف المدينى ولا شيخه وبقية رجاله وثقوا.

وزُهْرة»[1] وما رواه أبو نعيم عن ابن عباس مرفوعًا: «لم يلتق أبواى قط على سفاح، لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفّى مهذبًا، ما تشعبت شعبتان إلا كنت فى خيرهما»[2].

وعنه فى قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [3] قال: «من نبى إلى نبى حتى أخرجت نبيًا» رواه البزار[4].

وعنه فى الآية قال: «ما زال النبى ﷺ يتقلب فى أصلاب الرجال حتى ولدته أمه» رواه أبو نعيم[5].

وعن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ [6] بفتح الفاء، قال: لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية[7].

وعن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ بفتح الفاء. وقال: «أنا أنفسكم نسبًا وصهرًا وحسبًا، ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح، كلنا نكاح» رواه ابن مردويه[8].

وفى «الدلائل» لأبى نعيم عن عائشة عنه ﷺ عن جبريل - عليه السلام - قال: «قلّبت مشارق الأرض ومغاربها قال فلم أجد رجلاً أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام، ولم أر بنى أب أفضل من بنى هاشم»[9]. قال الحافظ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢/ ٢٧)، الدر المنثور (٣/ ٢٩٤)، (٥/ ٩٨)، الحاوى للفتاوى (٢/ ٣٦٨)، الخصائص الكبرى (١/ ٦٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٢٩)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٧٥)، ابن عساكر فى تاريخه (١/ ٣٤٩)، السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٢٩٤ و ٥/ ٩٨)، والخصائص الكبرى (١/ ٦٤)، وتهذيب تاريخ دمشق (١/ ٣٤٩).

(٣) سورة الشعراء: ٢١٩.

(٤) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٣٠)، مختصر تاريخ دمشق (١/ ٢٧)، البغوى فى التفسير (٣/ ٣٤٤)، البزار (٢٣٦٢) وقال فى مجمع الزوائد (٩/ ١٣٨): رجاله ثقات.

(٥) مختصر تاريخ دمشق (١/ ٢٧).

(٦) سورة التوبة: ١٢٨.

(٧) مختصر تاريخ دمشق (١/ ٢٨).

(٨) الخصائص الكبرى (١/ ٦٦).

(٩) مناهل الصفا (٣١)، دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١٧٦)، ابن أبى عاصم فى السنة (٢/ ٦٣٢)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/ ٢٥٧)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٧٢). وعزاه الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢١٧) للطبرانى فى الأوسط وقال فيه: موسى بن عبيدة الربذى ضعيف. وقال ابن حجر فى أماليه: صحيح.

ابن حجر: ولوائح الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن.

وورد أيضًا أنه ﷺ قال: «لما خلق الله آدم أهبطنى فى صلبه إلى الأرض، وجعلنى فى صلب نوح فى السفينة، وفى صلب إبراهيم حين قذف به فى النار، ولم يزل ينقلنى من الأصلاب إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجنى من بين أبوىّ، ولم يلتقيا على سفاح قط» وإلى غير ذلك من الأحاديث المرضية الواردة فى هذا المعنى.

وفيه قال شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقى رحمه الله تعالى:

تنقَّل أحمدٌ نورًا مبينا ... تلألأ فى جباه الساجدينَا
تقلَّب فيهمُ قرنًا فقرنا ... إلى أن جاء خيرَ المرسلينَا

وقال أيضًا: **(حفظ الإله)** عز وجل أى منع وعصم **(كرامة)** أى من أجل إكرامه **(لمحمد)** ﷺ **(آباءه الأمجاد)** جمع ماجد أى شريف مأخوذ من المجد وهو الشرف الواسع، وقيل: هو الكريم الفعِّال **(صونًا)** أى حفظًا **(لاسمه)** من أن تدنسه أرجاس الجاهلية التى من جملتها السفاح، فإن آباءه الكرام كانوا قد **(تركوا السفاح فلم يصبهم)** أى لم ينلهم بتوفيق الله تعالى **(عاره)** أى عيبه **(من)** الأب الأعلى **(آدمٌ)** بالتنوين لضرورة الوزن ومن الأم العلياء حواء عليهما السلام **(و)** هلم جرًا نازلاً منهما **(إلى أبيه)** الأقرب عبد الله **(وأمه)** القربى آمنة كما مر كل ذلك بدلائله.

ومن الدلائل أيضًا: ما رواه ابن سعد عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه قال: كتبتُ للنبى ﷺ مائة أمّ ـ وفى بعض النسخ خمسمائة أمّ ـ فما وجدت فيهن سفاحًا ولا شيئًا مما كان فى أمر الجاهلية[1].

واستشكل هذا بأن أمهاته لا تبلغ هذا العدد نعم إن كان المراد بالأمهات الجدات وجدة الجدات من قبل أبيه وأمه كما قاله الزرقانى فلا إشكال حينئذ، فقد قال [الخفاجى] فى «نسيم الرياض» ما محصله: إذا تأملت قولهم لم تكن

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٣١ القسم الأول)، مختصر تاريخ دمشق (٢/ ٢٧)، الخصائص الكبرى (١/ ٦٤).

قبيلة من العرب إلا ولها على رسول الله ﷺ ولادة أو قرابة عرفت المراد، فإنك إذا نظرت لقبيلة فجميع ذكورهم آباء له وجميع نسائهم جداته أو عماته فعدّ قرابتهم ولادة له.

(سَرَاةٌ) بفتح السين المهملة جمع سَرى بفتحها أيضًا على غير القياس، بمعنى الشريف، وقد تضم السين، والاسم منه السرو، ومنه الحديث: أنه ﷺ قال لأصحابه: «اليوم تَسْرَون» أى يقتل سريكم أى شريفكم، فقتل حمزة - رضى الله عنه -. ويجمع السراة على سَرَوَات بمعنى الأشراف (سَرَى) أى جرى (نُورُ النُّبوة) المحمدية (فى أسَارِيرِ) جمع أسرار الجبهة وهى خطوطها التى تجتمع وتتكسر واحدها سر وسرر كعنب كما فى «النهاية» و «المختار» (غُرَرِهِمُ) بضم الغين المعجمة جمع غُرة أى جباههم (البَهِيَّة) بالموحدة أى الجمالية، فكان النور النبوى ظاهراً بوجه آدم، ثم انتقل إلى ابنه شيث - عليهما السلام - ولما دنت وفاته وصى ابنه بوصية أبيه له أن لا يضع هذا النور إلا فى المطهرات من النساء، ولم تزل الوصية معمولاً بها محافظًا عليها فى جميع الآباء الأمجدين.

(وبَدَرَ) بموحدة فمهملة فراء أى ظهر ظهور البدر للأبصار، وفى بعض النسخ: (وبَدَا) أى ظهر والأول أبلغ (بدره) أى النور النبوى الشبيه بالقمر ليلة كماله وتمام نوره (فى جَبِينِ) أى جبهة (عبد المُطَّلب و) فى جبين (ابنه) أى ابن عبد المطلب (عَبْد الله) فقد حكى عن كعب الأحبار[1] أن نور النبى ﷺ لما صار إلى عبد المُطَّلب نام فى الحِجْر فانتبه مكحولا مدهونا قد كسى حلة البهاء والجمال متحيراً من فعل به ذلك، فذهب به أبوه - أى عمه - إلى كهنة قريش فقالوا: اعلم أن إله السموات قد أذن لهذا الغلام أن يتزوج - وسبق أنه كان نور رسول الله ﷺ يضىء فى غُرَّته - فزوَّجه قَيْلَة، فولدت له

(١) هو كعب بن مانع بن ذى هجن الحميرى، أبو إسحاق، تابعى، توفى فى حمص سنة (٣٢ هـ). انظر: الأعلام (٥/٢٢٨)، تذكرة الحفاظ (١/٥٢ رقم الترجمة ٣٣)، سير أعلام النبلاء (٣/٤٨٩).

الحارث، ثم ماتت فزوَّجه بعدها هندا، وحملت منه بابنه عبد الله فانتقل نور نبينا ﷺ منه إليه.

وسبق أيضًا: أن عبد الله كان أنهد فتى فى قريش وأصبحهم خُلقًا وأحسنهم أخلاقًا وما ذاك إلا ببركة النور المحمدى والشرف الذى انتقل إليه.

تنبيه

قال العلامة المحقق الشيخ أحمد بن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ فى «المنح»: أن آباء النبى ﷺ ـ غير الأنبياء ـ وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر؛ لأن الكافر لا يقال أنه مختار ولا كريم ولا طاهر بل نجس كما فى آية: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (١).

وقد صرحت الأحاديث السابقة بأنهم مختارون، وأن الآباء كرام والأمهات طاهرات، وأيضًا فهم إلى إسماعيل كانوا من أهل الفَتْرَة وهم فى حكم المسلمين بنص الآية الآتية، وكذا من بين كل رسولين، وأيضًا قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (٢) على أحد التفاسير فيه أن المراد تنقل نوره من ساجد إلى ساجد، ولذا أجمع أهل الكتابين على أن آزر عم إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ واسم أبيه تارح كآدم، أو تيرح أو غير ذلك كما سيأتى، وحملوا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ (٣) على المجاز، والعرب تسمى العم أبًا وقد جاء فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ (٤) مع أنه عم يعقوب، بل لو لم يجمعوا على ذلك وجب تأويله بهذا جمعًا بين الأحاديث. فمن أخذ بظاهر الآية كالبيضاوى وغيره فقد تساهل واستروح.

---

(١) سورة التوبة: ٢٨.

(٢) سورة الشعراء: ٢١٩.

(٣) سورة الأنعام: ٧٤.

(٤) سورة يوسف: ٦.

قال: وحينئذ فهذا صريح فى أن أبوى النبى ﷺ آمنة وعبد الله من أهل الجنة؛ لأنهما أقرب المختارين له ﷺ، وهذا هو الحق، بل فى حديث صححه غير واحد من الحفاظ ولم يلتفتوا لمن طعن فيه: أن الله تعالى أحياهما له فآمنا به خصوصية لهما وكرامة له ﷺ.

وقال خاتمة المحققين التقى الصالح الشيخ إبراهيم خليل اليمنى الزبيدى فى كتابه «المنهج الأعدل فى شرح مولد الأهدل»: أقول وقد نصر هذا القول وأيده غير واحد من الجهابذة النقاد كالتقى السبكى والجلال السيوطى وغيرهما فلا مرية فى حَقِيَّته.. انتهى.

أقول: وممن نصر هذا القول الإمام المحقق والهمام المدقق مجدد المائة الحادى عشرة جدنا المرحوم السيد محمد البرزنجى وألف فيه رسالة سماها: «سداد الدِين وسداد الدَين فى إثبات النجاة والدرجات للوالدين» وهى تزيد على نحو خمس عشرة كراسة وأتى فيها بما يشفى قلب الحبيب، ويقصم ظهر المعاند الغضيب، قال: وقد قال بنجاتهما جمع كثير وجم غفير ممن جمع بين الحديث والفقه والأصول: كابن العربى، وابن شاهين، وابن المنير، وابن ناصر الدين الدمشقى، والإمام الفخر الرازى، والسبكى، والقرطبى، والآبى، والمحب الطبرى، وابن سيد الناس، والشرف المُناوى، ونقله [سبط] ابن الجوزى فى كتابه «مرآة الزمان» عن جماعة، والحافظ ابن حجر العسقلانى، والإمام حافظ الدين الحنفى صاحب «جامع السلوك» فى شرح مناقب الإمام أبى حنيفة ـ رضى الله عنه ـ قال: وممن استهتر بهذه المسألة: خاتمة الحفاظ الإمام المجتهد مجدد المائة التاسعة أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطى؛ فإنه ألف فى المسألة خمس تأليفات(1) وبسط القول فيها، والإمام العلامة المحقق الشهاب أحمد بن حجر الهيثمى المكى فإنه بسط القول فيها

---

(1) هى: «أحاديث فى نجاة أبوى النبى ﷺ»، «التعظيم والمنة فى أن أبوى النبى ﷺ فى الجنة»، «رسالة فى والدى الرسول ﷺ»، «سبل النجاة فى والدى النبى ﷺ»، «مسالك الحنفا فى والدى المصطفى».

بعض البسط فى «النعمة الكبرى»، وفى «الفتاوى» وفى «شرح الهمزية» وأتى فيها بالعجب العجاب، ووقفت لبعض متأخرى الحنفية من أهل الروم[1] على رسالة أحسن القول فيها وأتى بالتحقيق جزاهم الله خيرًا. . انتهى.

وإذا تقرر ذلك فنقول: اعلم أنه لم يثبت لا من الكتاب ولا من السنة ولا من الإجماع ولا من القياس دليل على أن الأبوين الشريفين فى النار، ولم يذكر ذلك أحد من الأئمة المجتهدين المتبوعين من الأربعة ولا من غيرهم، وليس هذا من المسائل التى تتعلق بالاعتقاد الواجب فى الشرع، بل الذى يجب اعتماده واعتقاده ـ وهو الذى ثبتت به الأدلة ونَدين الله ونلقاه به ـ أن والدى النبى ﷺ من أهل التوحيد، وأنهما ناجيان غير معذبين، وأنهما من خيار أهل الجنة، وأما الأحاديث الدالة على كفرهما وأنهما فى النار كحديث: «ليت شعرى ما فعل أبواى، فنزلت ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [2] وحديث أنه استغفر لأمه فضرب جبريل فى صدره وقال: لا تستغفر لمن مات مشركا[3]. وحديث أنه نزل فى أمه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [4]. وحديث أنه قال لابنى مليكة: «أمكما فى النار» فشق عليهما فدعاهما فقال: «إن أمى مع أمكما» فقد أجاب الجلالى السيوطى بأن غالب ما يروى فى ذلك ضعيف ولم يصح فى أم النبى ﷺ سوى حديث: «أنه استأذن فى الاستغفار لها فلم يؤذن له» ولم يصح أيضًا فى أبيه إلا حديث مسلم خاصة، وسيأتى الجواب عنهما.

وأما الأحاديث التى ذكرت فحديث: «ليت شعرى ما فعل أبواى فنزلت الآية» لم يُخرج فى شىء من كتب الحديث المعتمدة وإنما ذكر فى بعض

(١) هو العارف بالله الشيخ عبد الله البسنوى الرومى، المتوفى سنة ١٠٥٤ هـ، وكتابه «مطالع النور السنى المنبئ عن طهارة النسب العربى» طبع ضمن «جواهر البحار» للنبهانى (٤/ ٢٧٣).

(٢) سورة البقرة: ١١٩.

(٣) مجمع الزوائد (١/ ١١٧).

(٤) سورة التوبة: ١١٣.

التفاسير بسند منقطع لا يحتج به ولا يعول عليه، ولو جئنا نحتج بالأحاديث الواهية لعارضناك بحديث رواه ابن الجوزى من حديث على مرفوعًا: «هبط جبريل علىَّ فقال: «إن الله يقرئك السلام ويقول إنى حرمت النار على صلب أنزلك وبطن حملك وحِجْر كفلك»[1] ويكون من باب معارضة الواهى بالواهى.

إلا أنا لا نرى ذلك ولا نحتج به، ثم إن هذا السبب مردود بوجوه أخر من جهة الأصل والبلاغة وأسرار البيان وذلك أن الآيات من قبل هذه الآية ومن بعدها كلها فى اليهود من قوله تعالى: ﴿يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [2] إلى قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [3] ولهذا اختتمت القصة بمثل ما صدرت به، وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ﴾ الآيتين فتبين أن المراد بأصحاب الجحيم كفار أهل الكتاب، وقد ورد ذلك مصرحًا به فى الأثر.

والجواب عن حديث الاستئذان فى الاستغفار لأمه على التسليم بصحته على أنه ليس فيه إلا النهى عن الاستغفار فقط دون الكفر أو الكون فى النار، فمن أخذ بظاهره كالبيضاوى وغيره فقد تساهل واستروح.

أما أولاً: فلأنه لا يلزم من عدم الإذن فى الاستغفار كفرهما بدليل أنه كان فى صدر الإسلام ممنوعا من الصلاة على من عليه دين وهو مُسْلِم فلعله كانت عليها تبعات غير الكفر فمنع من الاستغفار لها بسببها. قاله السيوطى.

وأما ثانيًا: فلأنه قد عارضته أدلة أرجح منه فى عدم تعذيب أهل الفَتْرَة من الآيات والأحاديث واتفق عليها علماء الأصول والكلام فوجب إلغاء هذا أو تأويله وتقديم تلك الأدلة كما هو مقرر فى الأصول ولا يمكن إلغاء تلك الأدلة لقطعيتها.

---

(١) العلل المتناهية.

(٢) سورة البقرة: ٤٠.

(٣) سورة البقرة: ١٢٤.

وأما ثالثًا: فلأن الأحاديث الواردة فى الأبوين الشريفين منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (١) وأمثاله من الآيات كما أجابوا بذلك عن الأحاديث الواردة فى أطفال المشركين أنهم فى النار مع كثرتها بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (٢).

ومن هنا علم الجواب عن حديث مسلم الوارد فى أبيه فتنبه.

ثم رأيت المحقق ابن حجر فى «النعمة الكبرى» قد جمع بين أحاديث الاستغفار والإحياء بأن الله تعالى منعه من ذلك حتى يعظم المنة عليه بإحيائهما وإيمانهما وتصديقهما، فتنقلا من حال أهل الفَتْرَة ـ الذى لا يخلو عن تفصيل ـ إلى حال الإيمان الذى هو أكمل الأحوال وأعلاها. وبكاؤه ﷺ يحتمل أنه لفوات هذه المرتبة فمنَّ الله عليه بتحصيلها لهما.

فإن قلت: قد ذكرت أنه لم يذكر ذلك ـ أى القول بكفرهما وأنهما فى النار ـ أحد من الأئمة الأربعة المجتهدين، فما جوابك عن قول الإمام أبى حنيفة فى «الفقه الأكبر» أنهما ماتا على الكفر وعمّه أبو طالب مات كافرًا.

قلت: هذا لا يغتر به، وإن اغتر به بعض الناس ـ مع أننا نعتقد جلالة قائله ـ فإن العصمة ليست إلا للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ولقد قال الإمام مالك ـ رضى الله عنه ـ وغيره، ما من أحد إلا مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر ـ يعنى النبى ﷺ.

والجواب عنه أما أولاً: فلا نسلم أن أبا حنيفة قال ذلك؛ فقد قال العلامة ابن حجر فى «الفتاوى»: وما نقل عن أبى حنيفة أنه قال فى «الفقه الأكبر» أنهما ماتا على الكفر مردود بأن النسخ المعتمدة من «الفقه الأكبر» ليس فيها شىء من ذلك، وبأن الموجود فيها ذلك لأبى حنيفة محمد بن يوسف البخارى لا لأبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى.. انتهى. فيكون قد نشأ

(١) سورة الإسراء: ١٥.
(٢) سورة الأنعام: ١٦٤.

الاشتباه من اشتراك التأليفين فى الاسم واشتراك المؤلفين فى الكنية، ولم يظفروا إلا بنسخة واحدة فظنوا أنها هى التى للإمام، ولئن سلم فنقول: لعل أصل النسخة ما ماتا كما وقع فى نسخة بعض علماء عصرنا فلما رأى النساخ تكرار ما ظن أحدهما - قبل إمعان النظر - زائدا فتركه، وانتشر النسخ فحينئذ ذكره لتعظيم حضرة الرسول ﷺ.

وأما ثانيًا: فليس فى هذا القول صريح بذلك؛ لأن قوله ماتا على الكفر المراد بالكفر الفَتْرَة، فقد يطلق الكفر على الفَتْرَة مجازًا كما هو مقرر فى محله فهو على وزان قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أى ماتا فى الفَتْرَة، وهذا قول صحيح. ألا ترى كيف غير العبارة فى أبى طالب فقال فى حقه: مات كافرًا فأطلق عليه الكافر حيث أنه بلغته الدعوة فكان كفره حقيقيًا نظرًا لظاهر الشرع، ولم يطلق ذلك عليهما فلم يقل ماتا كافرين، فتنبه لذلك فإنه مهم.

وهذه التأويلات وإن كانت بعيدة فى بادىء النظر إلا أنها أهون بكثير من نسبة الكفر إلى والدى النبى ﷺ الذى خلق العالم وما فيه لأجله.

فإن قلت: فما جوابكم عن قول الإمام النووى حيث قال فى شرح حديث مسلم: «أن أبى وأباك فى النار»[(1)]؟ فيه: إن من مات كافرًا فى النار ولا ينفعه قرابة الأقربين، وفيه: إن من مات فى الفَتْرَة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فى النار وليس هذا من التعذيب قبل بلوغ الدعوة لأنهم بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الرسل.

وقول الإمام الرازى: من مات مشركًا فهو فى النار وإن مات قبل البعثة؛ لأن المشركين كانوا قد غيروا الحنيفية دين إبراهيم واستبدلوا بها الشرك وارتكبوه وليس معهم حجة من الله به.. انتهى.

قلت الجواب: قال المحقق ابن حجر فى «المنح»: إن قول النووى هذا بعيد جدا للاتفاق على أن إبراهيم ومن بعده لم يُرسلوا للعرب، ورسالة إسماعيل

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان رقم (٢٤٧)، أبو داود (٤٧١٨).

انتهت بموته إذ لم يعلم نبينا ﷺ بعموم بعثه بعد الموت. وقد يؤوّل كلامه بحمله على عباد الأوثان الذين ورد فيهم أنهم فى النار، وبهذا يرد كلام الفخر الرازى القريب من كلام النووى. قال: ثم رأيت الآبى[1] شارح مسلم بالغ فى الرد على النووى بأن كلامه مناف لحكمه بأنهم أهل فَتْرَة، وبأن الدعوة بلغتهم، ومن بلغتهم الدعوة ليسوا أهل فَتْرَة؛ لأنهم الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول ولا أدركوا الثانى.

قال ابن حجر: ثم قال: ولما دلت القواطع على أن لا تعذيب حتى تقوم الحجة علمنا أن أهل الفَتْرَة غير معذبين. . انتهى وهو موافق لما ذكرته.

قال جدنا: وما أشار إليه ابن حجر من أن رسالة من عدا نبينا ﷺ تنتهى بموته وإن لم أره فى كلام غيره مصرحًا به لكنه موجه بأمور:

أحدها: لو لم تنته لما احتاج بعد موته إلى نبى آخر يبعث بعين ذلك الشرع مع أن كتابه محفوظ وأحكامه معلومة لهم كأنبياء بنى إسرائيل؛ فإنهم كلهم قبل عيسى بعثوا بالتوراة.

ثانيها: إن إبراهيم لم يكن مبعوثًا إلى العرب فلولا انتهت نبوّته لما انتقلت ملته ببعثة إسماعيل عن قومه إلى العرب وذلك لأن إسماعيل بعث بشرع إبراهيم إلى العرب.

ثالثها: مقتضى تحقق عموم رسالة نبينا ﷺ وتفضيله على غيره أن يكون تعميم الأزمان من خصوصياته كما أن تعميم الأشخاص من خصوصياته فيكون رسالة غيره إلى قومه ومدة عمره ورسالته ﷺ إلى الناس كافة وإلى يوم القيامة. . انتهى وهو كما تراه فى غاية التدقيق.

(١) هو محمد بن خلفة بن عمر الأبى الوشتاتى المالكى، عالم بالحديث، توفى بتونس (٨٢٧ هـ). انظر: الأعلام (٦/ ١١٥)، شجرة النور (٢٤٤)، معجم المطبوعات (٣٦٣).

خاتمة

الحذر الحذر من ذكرهما بنقص لأن ذلك قد يؤذيه ﷺ لحديث الطبرانى: «لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات»[1] وقد منع من إطلاق الكفر عليهما أو كونهما فى كذا محققو العلماء فمنهم إمام الهدى خامس الخلفاء الراشدين عُمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ حين قال له كاتبه: أصلح الله الأمير ما على من كان أبوه كافرًا كان أبو النبى ﷺ مشركًا. فقال عمر: آه، ثم سكت، ثم رفع رأسه، ثم قال: أقطع لسانه؟، أقطع يده ورجله؟، أضرب عنقه؟. ثم قال: لا تلى لى شيئا ما بقيت.

فهذا عُمر إمام هدى وقد توعد القائل بهذا الوعيد الشديد ثم عزله عن ولايته عزل الأبد، وبمثله يقتدى فى الدين.

وقال السيوطى: وجدت بخط الشيخ كمال الدين الشمنى[2] الحنفى ما نصه: سئل القاضى أبو بكر بن العربى[3] عن رجل قال: إن أبا النبى ﷺ فى النار، فأجاب بأنه ملعون لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾[4] ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبيه أنه فى النار.

وقال السُهيلى فى «الروض الأنف» بعد إيراده حديث مسلم: وليس لنا أن نقول ذلك فى أبويه ﷺ لقوله ﷺ: «لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات»..

---

(١) أورده فى كنز العمال (٣٧٤١٧)، مجمع الزوائد (٨/٧٦)، وفى الترمذى بلفظ «لا تسبوا» برقم (١٩٨٢)، ومسند أحمد (٤/ ٢٥٢)، والكامل للضعفاء (٤/١٥٦٨).

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى، أبو بكر بن العربى (٤٦٨ ـ ٥٤٣ هـ)، من حفاظ الحديث، وله مصنفات فى الفقه، والحديث، والأصول، والتفسير، والأدب، والتاريخ، ولد بالأندلس، وتوفى بالمغرب. انظر: الأعلام (٦/ ٢٣٠).

(٣) هو عبد الله بن عبد الرحمن بن على الدنوشرى، الشافعى، فقيه مصرى عالم باللغة والنحو، توفى بمصر سنة (١٠٢٥ هـ). انظر: الأعلام (٤/ ٩٧).

(٤) سورة الأحزاب: ٥٧.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ﴾ الآية.

وقال الباجى: لا يجوز أن يؤذى النبى ﷺ بمباح ولا غيره.

وقال العلامة ابن حجر فى «النعمة الكبرى»: إحذر أن تروغ عن القول بنجاتهما؛ فإنه ﷺ حذرك من ذلك بقوله لما اشتكى إليه عكرمة ـ رضى الله عنه ـ أن الناس يسبون أبا جهل: «لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات» رواه الطبرانى فى الصغير، قال: فالخوض فى ذلك على خلاف ما قلناه ـ يعنى القول بالنجاة ـ ربما يؤذيه ﷺ وايذاؤه كفر يُراق به دم قائله، فعلى العاقل أن يصرف نفسه عن هذه الورطة الصعبة التى قد تفضى إلى الكفر والعياذ بالله.

وقال فى «الفتاوى»: وإياك أن يسبق لسانك إلى غير ما قلنا ـ يعنى من النجاة ـ فتكون ممن آذى رسول الله ﷺ لتستحق اللعنة بنص القرآن كما قدمناه عن ابن العربى.

وإذا كان رسول الله ﷺ قال لما اشتكى إليه عكرمة بن أبى جهل قول الناس هذا ابن أبى جهل: «لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات» هذا مع كونه أبا جهل فما ظنك بمن يتكلم فى آبائه ﷺ بما يحطهم عن غاية الشرف والرفعة، نعوذ بالله من ذلك ونسأله السلامة عن الخوض فى هذه المهالك.. انتهى.

فهذه تصريحاتهم بعدم جواز نسبتهما إلى الكفر والحكم عليهما بدخول النار، ولم يرد فى ضدّه عن أحد من الأئمة المجتهدين لا تصريح ولا إشارة، كيف وقد نص بعض العلماء بأن الطعن فى الأنساب من الكبائر؛ لأنه يؤدّى إلى هتك أعراض الناس، وهذا ذنب كبير، وفى الحديث: «عرض المؤمن كدمه»، فإذا كان الطعن فى أنساب الخلق كبيرة فما ظنك بمن يتفوّه بكلام يلتزم الطعن فى نسب سيدنا بل سيد جميع الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بأن يقول على رؤوس الأشهاد أن أبويه كافران، نعوذ بالله تعالى من هذا الكلام الذى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً.

هذا ولولا مخافة التطويل والخروج عن المرام لزدنا على ما ذكرناه من

الكلام، وفى هذا القدر كفاية لمن له أدنى دراية، وفى قلبه محبة سيد الأنام عليه من الله العظيم ألف صلاة وسلام ما تعاقبت الدوران وتلاحقت الأزمان، فلنرجع إلى ما نحن بصدده ونستمد العون من مدده ونقول: قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

[تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله امرأة من بنى زهرة وحمل آمنة برسول الله ﷺ]

ولما ذكر المؤلف رحمه الله نسبه الشريف المعظم، انتقل منه إلى ذكر بعض ما وقع عند حمله وقبله وبعده، وما بين ذلك من الغرائب والعجائب، فما بعد التعطيرة الآتية داخل فيه فقال: **(ولَمَّا أرادَ الله)** سبحانه و **(تعالى إبرازِ)** أى إظهار **(حقيقته المُحَمَّدِيَّة)** هى عبارة عند القوم عن التعيين الأول الذى يلى غيب اللاتعيين، ويسمى عندهم حقيقة الحقائق، وهو من مراتب الوجوب إجماعًا، فجعله من مراتب الإمكان غير مصوغ، وعبّروا عن الحقيقة المحمدية بحقيقة الحقائق؛ لأنها أصل كل حقيقة إلهية وكونية، وقد بسطنا الكلام فى توضيح ذلك فى رسالتنا «نجم الهداية» **(و)** أراد سبحانه وتعالى **(إظهارهُ جِسْمًا)** أى هيئة حال أو تمييز **(و)** قوله **(رُوحًا)** تابع له فى إعرابه، وهو ما به حياة الجسم، وقد يؤنث والخلاف فى تحقيقه طويل، ولفظه مشترك بين عدة معان، ومذهب أهل السنة من المتكلمين والمحدثين والفقهاء والصوفية أنها جسم لطيف مشتبك بالبدن كاشتباك الماء بالعود الأخضر، وبهذا جزم النووى، ومذهب جماعة من الصوفية والمعتزلة أنها ليست بجسم ولا عرض بل جوهر مجرد متعلق بالبدن للتدبير غير داخل فيه ولا خارج عنه، ووجد لأهل مذهب مالك أن الروح ذو جسم ويدين ورجلين وعينين ورأس تسل من الجسد سلاً.

والمختار عند جمهور المحققين عدم الخوض فى بيان حقيقتها؛ لأنه لم يرد دليل عن الشارع ببيانها، وكل ما هو كذلك فالأولى عدم الخوض فيه، وما وجد لأهل مذهب مالك من الخوض فى بيان حقيقتها فعلى غير المختار.

فإن قيل: كيف يخوضون مع أن قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ

الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [1] دالٌّ على عدم الخوض فيها؟ أجيب بأنه إنما أَمَرَ عليه الصلاة والسلام بترك الجواب تصديقًا لما فى كتب اليهود من أن الإمساك عن ذلك من علامات نبوته وأدلة رسالته.. انتهى. قال بعضهم: ويكفى النص فى الخوض ما تقدم عن أهل مذهب مالك، لكن إذا خضت فلا تخض بأكثر مما مر.

واختلفوا فى بيان مقرها من الجسد، فقيل: هى فى باطن الإنسان لا يعرف مقرها إلا من أطلعه الله على ذلك، وقيل: مقرها البطن، وقيل: القلب، وقيل: بقرب القلب. والصواب ما تقدم من أنها جسم لطيف مشتبك بالبدن كاشتباك الماء بالعود الأخضر، وبه جزم إمام الحرمين، وهذا فى حالة الحياة.

وأما بعد الموت فأرواح السعداء بأفنية القبور على الصحيح، وقيل: عند آدم ـ عليه السلام ـ فى سماء الدنيا، لكن لا دائمًا، فلا ينافى أنها تسرح حيث شاءت. وأما أرواح الكفار ففى سجين فى الأرض السابعة السفلى محبوسة، وقيل: أرواح السعداء فى الجابية بالشام، وقيل: ببئر زمزم، وأرواح الكفار ببئر برهوت فى حضرموت التى هى مدينة فى اليمن[2].

(**بصورته**) أى صورته التى صوَّره الله عليها، أو شكل بدنه، أو تناسب أعضائه ومقاديرها، ولون بشرته (**وَمَعْنَاه**) أى أصله من غير تصوير أو حاله ﷺ وهو ما استمر عليه من الآداب الكريمة والأخلاق الشريفة التى لو أفنى غيره عمره الطويل فى تحصيل بعضها لم يحصل.

وقد حصلت له ﷺ كلها على الكمال كما ثبت بالأحاديث الصحيحة التى يفيد مجموعها تواتر القدر المشترك بينها، وهو ثبوت ذلك الخلق الكريم له ﷺ مع ما وصفه الله به فى كتابه حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [3] وهذا الثانى هو المتبادر.

---

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) انظر الروح لابن القيم ص (١٧٥).

(٣) سورة القلم: ٤.

واستغرب بعضهم الأول فى كلا تفسيرى الصورة والمعنى وقال: والأقرب أن يكون المراد بصورته صورة النور التى صوَّر الله نوره عليها وبمعناه أصله من غير تصوير، واستدل على ذلك بقول الزرقانى: إن الله صوَّر نور نبينا بصورة روحانية مماثلة لصورته التي يصير عليها بعد.. انتهى. وقوله: «مماثلة لصورته» يفيد أن صورته ﷺ كانت موجودة فى علم الله قبل تصوير نوره عليها، بل قبل خلق نوره، وكان النور تابعًا لتلك الصورة كما كان تابعًا للمادة التى خلق ﷺ منها، وهو المناسب لقول المؤلف: نقله... إلخ فلا مانع من إرادة كل من المعنيين فى كل من الصورة والمعنى، ثم لم يزل نوره ﷺ تابعًا للمادة المتنقلة من صلب طيب إلى رحم طاهر إلى أن (**نَقَلَهُ**) الله تعالى بإرادته من ظهر عبد الله بن عبد المُطَّلب (**إلى مَقَرِّه**) أى موضع استقراره (**من صَدَفَة**) أى بطن، عدل عنه إليها للإشارة إلى تشبيهه ﷺ باللؤلؤة الكامنة فى صدفتها على طريقة الاستعارة التصريحية (**آمنةَ الزُّهْرِيَّة**) أى المنسوبة إلى زَهْرة جد أبيها كما تقدم.

(**و**) قد (**خَصَّها**) من بين نساء عالمها الله الملك (**القريبُ**) من عباده قربًا معنويًا (**المجيبُ**) دعاء من دعاه منهم بأن ينيله مطلوبه ويوصله مرغوبه معجلاً أو مؤجلاً لوعده الصادق بذلك كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ (١) والإجابة لابد منها ولكن ليس بلازم أن تكون بعين المطلوب بل الأمر بالإجابة موكول لله عز وجل فيمكن أن يجيبه بما هو خير مما طلبه إلا أن يوافق الدعاء ساعة إجابة فلابد من الإجابة بعين المطلوب (**بأنْ تكُونَ**) أى آمنة والباء داخلة على المقصور (**أُمًّا لمُصْطَفَاه**) ﷺ أى مختاره بين سائر خلقه وأصله مصتفاة، قلبت تاء الافتعال طاء كما هو القاعدة إذا وقعت بعد حرف من حروف الإطباق قال ابن مالك:

* طا تا افتعال رد إثر مطبق *

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

وكانت آمنة الزُّهْرية سيدة بنى زُهْرة، وكان زوجها عبد الله أجمل قريش لنور محمد ﷺ الذى فى وجهه، وكان قد شغف به كل نسوة قريش حتى لقى منهن ما لقى يوسف الصديق عليه السلام فى وقته من امرأة العزيز.

روى الحافظ العراقي من طريق ابن إسحاق بسنده قال: لما انصرف عبد المُطَّلب ـ يعنى من نحر الإبل ـ عن عبد الله أخذ بيد عبد الله فمر به ـ فيما يزعمون ـ على امرأة من بنى أسد، وهى أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قُصَىّ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبى. قالت: لك مثل الإبل التى نُحِرَتْ عنك وَقَعْ علىَّ الآن، قال: أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه[1].

وروى الخرائطى وأبو نُعيم وابن عساكر عن ابن عباس: أنه لما انطلق به أبوه ليزوجه مرَّ على فاطمة الخثعمية ـ كاهنة مشهورة قرأت الكتب، ولها جمال مفرط وعفة زائدة، وكان شباب قريش يتحدثون بها ـ فقالت له: يا فتى من أنت؟ فأخبرها، فقالت: هل لك أن تقَعَ علىَّ الآن وأعطيك مائة من الإبل؟ فنظر إليها وقال:

أما الحرامُ فالمماتُ دونهْ ... والحِلُّ لا حِلَّ فأستَبِينَهْ

فكيف بالأمرِ الذى تَبْغِينهْ ... يحمى الكريم عِرْضه ودينهْ[2]

وكأنه أراد دفعها بالأهون، فلما ألحت عليه زجرها بالأبيات المذكورة.

وفى «غرائب» ابن قتيبة أن التى عرضت نفسها عليه هى ليلى المخزومية.

فخرج به عبد المُطَّلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زُهْرة بن كِلاب وهو يؤمئذ سيد بنى زُهْرة، فزوجه آمنة بنت وهب وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبًا وموضعًا، أى وذلك بعد أن تزوج عبد المُطَّلب هالة بنت أهيب أخى وَهْب وهى أم حمزة بن عبد المُطَّلب.

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل (١/١٠٢)، والحافظ الشامى فى سيرته (١/١٩١) مطولاً، والسيرة الشامية (١/١٦٤).

(٢) الوفا ص (٨٣)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٨٢)، الخصائص الكبرى (١/٦٩).

فقالت قريش: غلب عبد الله أباه عبد المُطَّلب، فزعموا أن عبد الله دخل عليها حين أملكها، فكأنه وقع عليها فحملت برسول الله ﷺ ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت ـ أى ليستخرج ما عندها من العلم ـ فقال لها: مالك لا تعرضين علىَّ اليوم ما كنت عرضت بالأمس؟ فقالت له: فارقك النورُ الذى كان معك بالأمس، فليس لى بك اليوم حاجة.

وفى رواية قالت: كان ذلك مرة فاليوم لا فذهب مثلا.

وفى أخرى أنها قالت: والله إنى لست بصاحبة ريبة ولكن رأيت النور فى وجهك فأحببت أن تضعها عندى، وأبى الله أن يضعها إلا حيث يشاء.

وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ـ وكان قد تنصر واتبع الكُتب ـ أنه لكائن فى هذه الأمة نبىٌّ.

وفى أخرى عن ابن إسحاق عن أبيه إسحاق بن يسار أنه حدث أن أبا النبى ﷺ عبد الله دخل على امرأة كانت له مع آمنة وقد عمل فى طين له وبه آثار من الطين، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت به من آثار الطين، فخرج من عندها فتوضأ وغسل ما كان به من ذلك الطين، فلما غسل الطين دعته امرأته إلى نفسها فلم يفعل، ثم خرج عامدًا إلى آمنة فدخل عليها فأصابها، فحملت بمحمد ﷺ، ثم مر بامرأته تلك فقال لها: هل لك؟ فقالت: لا، مررت بى وبين عينيك غرّة فدعوتك فأبيت، ودخلت على آمنة فذهبت بها.

قال ابن إسحاق: فزعموا أن امرأته كانت تقول إنه مرّ بها وبين عينيه مثل غرة الفرس، قالت: فدعوته رجاء أن تكون تلك الغرّة بى فأبى، ودخل على آمنة فأصابها، فحملت برسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ أوسط قومه نسبًا وأعظمهم شرفًا من قِبَل أبيه وأمه(1).

(1) طبقات ابن سعد (1/ 81)، تاريخ الخميس (1/ 184)، مختصر تاريخ دمشق (2/ 28)، الوفا لابن الجوزى ص82 وما بعدها، دلائل النبوة للبيهقى (1/ 102)، السيرة الشامية (1/ 391)، وعلى الرغم من تناقل كتب السيرة لهذه الأخبار فإننا نجد أنهم ينقلونها على أساس التشكيك، وفيها اضطراب شديد، ويدل على ذلك قول ابن إسحاق فى سياقه للخبر: «فيما يزعمون».

قال الزبير بن بكّار: إنه وقع عليها حين أملكها فحملت برسول الله ﷺ، وذكر أيضًا: أنها حملت به فى أوسط أيام التشريق من ذى الحجة وهى ثلاثة أيام، أو يومان بعد يوم النحر.

ويأتى قريبا عن سهل التسترى[1]: أن الحمل كان فى أول ليلة من رجب، وكانت ليلة جمعة فى شِعْب[2] أبى طالب عند الجمرة الوسطى، وكان عبد الله عمره إذ ذاك ثلاثون سنة كما رجَّحه ابن عبد البر، ورجح غيره أنه ثمانى عشرة سنة، وقيل: أقام عندها ثلاثا.

قال ابن منيع[3] وغيره: عن كعب الأحبار قال: لما أراد الله تعالى أن يخلق محمدا ﷺ آمر جبريل [أن يأتيه] بالطينة التى هى قلب الأرض وبهاؤها ونورها؛ فهبط [جبريل] فى ملائكة الفردوس وملائكة الرفيق الأعلى فقبض قبضة رسول الله ﷺ من [موضع] قبره الشريف وهى بيضاء نيِّرة، فعجنت بماء التَّسنيم، ثم غُمست فى أنهار الجنة حتى صارت كالدُّرة البيضاء لها شُعاع عظيم، ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسى فى السموات والأرض والجبال والبحار، فَعَرَفَتْ الملائكة وجميع الخلق محمداً ﷺ قبل أن تَعْرِفْ آدم، أى ثم عجنت تلك الطينة بنطفة أبويه رضى الله عنهما[4].

قال العلامة السيد حسن البرزنجى ـ والد المؤلف رحمهما الله تعالى ـ فى «النجم الثاقب»: قال البوسعيدى فى «وصلة الزلفى»: لا يعدل عبد الله بن عبد المُطَّلب إنسان فى عالم جنسه إذ هو آخر من حمل النور الزكى، وكان صلبه القرار والكرسى، ولم تجتمع جوهرته العظمى فى ظهره مع ذرة بشر

(١) هو سهل بن عبد الله بن يونس التسترى، أبو محمد (٢٠٠ ـ ٢٨٣ هـ) صوفى عالم فى علوم الرياضيات والإخلاص وعيوب الأفعال، توفى بالبصرة. انظر: الأعلام (٣/١٤٣)، وفيات الأعيان (١/٢١٨)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٠).

(٢) الشِّعْب: هو الطريق فى الجبل.

(٣) هو أحمد بن منيع بن عبد الرحمن البغوى، أبو جعفر (١٦٠ ـ ٢٤٤ هـ)، حافظ ثقة، له مسند فى الحديث، كان يعد من أقران أحمد بن حنبل فى العلم. انظر: الأعلام (١/ ٢٦٠)، سير أعلام النبلاء (١١/٤٨٣).

(٤) عزاه الحافظ الشامى فى سيرته (١/ ٨٩) لأبى سعد النيسابورى فى «شرف المصطفى». وذكره ابن الجوزى فى الوفا بأحوال المصطفى» ص (٢٧)، وانظر الزرقانى على المواهب (١/ ٤٢).

وكذلك رحم صاحبته آمنة أمنت بحمله من مس نوائب الضرر إليها انتهى، مرموز السر المكنون، وختم بها انتقال النور الموعود المخزون، وجعل بيت بدنها معدن الصدف المصون فأنى يعدلهما إنسان فهما هما فالله درّهما.. انتهى.

وروى محمد بن عمر الواقدى عن عبد الله بن وهب بن زمعة عن أبيه عن عمته قالت: كنا نسمع أن آمنة كانت تقول: ما شعرتُ أنى حملتُ به ولا وجدت له ثِقلاً كما تجد النساء، إلا أنى أنكرت رفع حَيْضَتى وربما كانت ترتفع وتعود(١).

وعن الزهرى قال: قالت آمنة: علقت به فما وجدت له مشقةً حتى وضعته.

وروى الحافظ العراقى بسنده المتصل إلى حليمة السعدية مرضعة النبى ﷺ أن آمنة بنت وهب قالت لها: إن لابنى هذا شأنا، إنى حملت به فلم أحمل حملا قط كان أخف علىَّ ولا أعظم بركة منه(٢).

تنبيه

مقتضى هذا أنها حملت بغيره بل فى رواية ابن سعد التصريح بأنها حملت بأولاد قبله ﷺ لكن قال ابن الجوزى: أجمع علماء النقل أن آمنة لم تحمل بغيره ﷺ. وقد قال الإمام أبو الحسن الماوردى: إنه لم يشاركه فى نسبه أحد. وحمل غير ابن الجوزى رواية ابن سعد على أنها أسقطت من عبد الله.

قال والد المؤلف ـ رحمهما الله تعالى ـ أقول: قد يعكر عليه ما ورد: أن رجلا قال يا رسول الله ما حقيقة أمرك؟ قال: إنى دعوة أبى إبراهيم، وبشارة أخى عيسى، وإنى كنت بكر أمى، وأنها حملت بى كأثقل ما تحمل النساء،

---

(١) الوفا ص (٨٤)، الخصائص الكبرى (١/ ٧١).

(٢) الوفا ص (٨٥)، الخصائص الكبرى (١/ ٧٢).

وجعلت تشتكى إلى صواحبها ثقل ما تجد، ثم إن أمى رأت فى منامها الذى فى بطنها نوراً. . . الحديث[1]، فإن كونه بكراً مما ينافى أن يكون قبله سقط. والله أعلم.

قال: وفى هذا - أعنى وجدانها - الثقل مخالفة للأحاديث المارة أنها لم تجده، وجمع أبو نعيم الحافظ بأن الثقل كان فى ابتداء علوقها به والخفة عند استمراره، قال: فيكون فى الحالين خارقًا للعادة.

و **(نُودِيَ)** أى نادى مناد من قبل الله سبحانه وتعالى **(فى)** الملكوت الأعلى من **(السَّموات)** جمع سماء **(و)** فى العالم السفلى من **(الأرضِ)** أى الأرضين كما فى رواية وفى أخرى: فى السماء والأرض بالإفراد فيهما **(بِحمْلِهَا)** أى آمنة **(لأنواره)** ﷺ **(الذَّاتية)** التى هى عين ذاته السرية.

* * *

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٢٧)، الحاكم فى المستدرك (٢/ ٦٠)، البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٨٣)، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٣).

[ما وقع فى حمله ﷺ من الآيات]

قال فى «المواهب»: ولما حملت آمنة برسول الله ﷺ ظهر لحمله عجائب ووجد لإيجاده غرائب، فذكروا أنه لما استقرت نطفته الزكية ودُرّته المحمدية فى صدفة آمنة القريشية نودى فى الملكوت ومعالم الجبروت أن عطّروا جوامع القدس الأسنى، وبخّروا جهات الشرف الأعلى، وافرشوا سجادات العبادات فى صفف الصفا لصوفية الملائكة المقربين أهل الصدق والوفا، فقد انتقل النور المكنون إلى آمنة ذات العقل الباهر والفخر المصون، قد خصها الله تعالى القريب المجيب بهذا السيد المصطفى الحبيب لأنها أفضل قومها حسبا وأنجبهم وأزكاهم أصلا وفرعا وأطيب.

وقال سهل بن عبد الله التسترى: لما أراد الله تعالى خلق محمد ﷺ فى بطن آمنة ليلة رجب - أى ليلة أوله - وكانت ليلة جمعة أمر الله تعالى فى تلك الليلة رضوان خازن الجنان أن يفتح الفردوس، ونادى مناد فى السماء ألا إن النور المخزون المكنون الذى يكون منه النبى الهادى فى هذه الليلة يستقر فى بطن آمنة الذى يتم فيه خلقه ويخرج إلى الناس بشيراً ونذيراً.

وفى رواية كعب الأحبار: أنه نودى تلك الليلة فى السماء وصفاحها، والأرض وبقاعها، أن النور المكنون الذى منه رسول الله ﷺ انتقل فى بطن آمنة فيا طوبى لها ثم يا طوبى.

وذكر الزبير بن بكّار أنها حملت به فى أوسط أيام التشريق.

وهذان الأثران - أعنى روايتى سهل والزبير - بينهما تناف ومقتضى الثانية أنه ﷺ مكث فى البطن أكثر من تسعة أشهر، والمنقول عن الجمهور خلافه، نعم قال الحافظ العراقى أن فى رواية الزبير بن بكّار: أنه ولد فى رمضان، وعلى هذا فيكون على قوله تسعة أشهر.. والله أعلم.

(وَصَبَا) أى مال فرحًا وسرورًا (كُلُّ صَبٍّ) بفتح الصاد: العاشق (لِهُبُوبِ) من حيث الدراية يصح قراءة أوله بالضم والفتح فعلى الأول يكون مصدرًا قياسيًا لِهَبَّ إذ هو لازم مضموم العين فى المضارع، قال فى «الخلاصة»:

وفعل اللازم مثل قعدا له فعول باطراد كغدا

وعلى الثانى من أبنية المبالغة المذكورة فى قوله:

فعال أو مفعال أو فعول فى كثرة عن فاعل بديل

فإضافته تكون على الأول حقيقية على معنى اللام، وعلى الثانى بيانية، وأما الرواية فغير معلومة (صَبَاه) بفتح المهملة وهى الريح الطيبة التى تهب من شرقى الأفق. وفى كلامه استعارة بالكناية وتخييل؛ حيث شبهه ﷺ بمطلع الشمس بجامع أن كلاًّ محل لظهور الأنوار، واستعار الصبًا لإمارة الحمل به وإشاعته تخييلاً ورشحها بالهبوب، والمعنى اشتاق كل محب شديد المحبة مستنشقًا شَذا عَرْفه المِسْكىّ لظهور حمله ﷺ.

والضمير فى صَبَاه للنبى ﷺ، قال بعضهم: ولا يخفى ما فى تخصيص ريح الصبًا بالذكر من المناسبة الظاهرة من حيث أنها تصبو إلى تجاه الكعبة التى هى أعظم مكان فى مكة التى هى محل حمله وولادته ﷺ بل هى أعظم بقاع الدنيا بعد البقعة التى ضمت أعضاءه ﷺ، وفيه نظر لما سيأتى من أن مواضع أجساد الأنبياء أشرف منها.

فائدة

وهى أن الريح إذا هبت من تجاه الكعبة فالصبًا، وهى حرة يابسة تهب من المشرق، تنفع الأبدان، وتهيج الأشواق إلى الأحباب والأوطان، أو من ورائها فالدَّبور وهى باردة رطبة، أو من يمينها فالجنوب وهى حارة رطبة، أو من شمالها فالشَّمال ـ بفتح الشين ـ وهى باردة يابسة، وهى ريح الجنة التى تهب عليهم، وقد نظم ذلك بعضهم فى قوله:

صبا ودبور والجنوب وشَمأل ... هى الأربع اللاتى تهب لكعبة

وكان الناس قبل حمله فى جَدْبٍ شديد، فعند حمله اخضرت الأرض، وأخصب العيش خصبًا عظيمًا بحيث سميت تلك السنة «سنة الفتح»، وأتاهم الوفد من كل مكان بذلك، وإلى هذا أشار المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله:

(وكُسِيَتِ الأرضُ) أى ألبست **(بَعْدَ طولِ جَدْبِهَا)** بجيم مفتوحة فمهملة ساكنة فموحدة أى قحطها الذى طال عليها سنين **(من)** أنواع **(النبات)** حال من الحُلل لأنه نعت نكرة تقدم عليها، ونعت النكرة إذا تقدم عليها أعرب حالاً كما هى القاعدة، وأما قول بعضهم أنه بيان للحلل فيلزم عليه تقديم البيان على المبين وفيه ما فيه.

(حُللاً) بضم الحاء المهملة جمع حُلَّة وهى ثوبان من جنس واحد **(سُنْدُسيَّة)** بضم السين والدال المهملتين بينهما نون ساكنة أى منسوبة للسندس ضرب من رقيق الديباج ـ معربٌ بلا خلاف ـ من نسبة المشبه للمشبه به بجامع الحسن والنضارة فى كل، والمراد: أن الأرض عمها النبات وسترها ببركته ﷺ.

(وأَيْنَعَت) بفتح الهمزة وسكون المثناة تحت وفتح النون والعين المهملة من الإيناع وهو الإدراك أى أدركت **(الثِّمَارُ)** جمع ثمرة **(وأدْنَى)** أى قرَّب بتشديد الراء **(الشَّجَرُ)** الحامل للثمار وهو عرفًا يطلق على كل ذى ساق من النبات **(للجانى)** اسم فاعل جنى أى لمريد جنى ثمرته وقطعها من شجره **(جنَاه)** بفتح النون والجيم اسم ما يجتنى من الثمر.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: من دلالة حمل آمنة برسول الله ﷺ أن كل دابة لقريش نطقت تلك الليلة وقالت: حُمِلَ بمحمد ﷺ ورب الكعبة، وهو إمام الدنيا وسراج أهلها، ولم تبق كاهنة فى قريش والعرب إلا حجبت عن صاحبها وانتزع علم الكهانة منها، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا

أصبح منكوسا، وأصبح كل ملك أخرس لا ينطق يومه ذلك، ومرت وحوش المشارق إلى وحوش المغارب تبشر بالبشارات، وكذا بشر أهل البحار بعضهم بعضا[1]. وإلى ذلك أشار المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله:

(وَنَطَقَتْ) أى تكلمت **(بحمله كلُّ دَابة)** من الدواب ذوات الأربع وغيرها وإن خصها العرف بذوات الأربع **(لقُريشٍ)** القبيلة المشهورة التى منها رسول الله ﷺ **(بفِصَاحِ)** بكسر الفاء جمع نصيحٍ **(الألسُنِ)** بضم السين جمع لسان أى بالألسن الفصاح من إضافة الصفة للموصوف **(العربية)** التى هى أفصح اللغات وأشرفها وأجلها وأبينها، كيف لا وقد نزل القرآن بها، وكم وردت فى فضلها وفضل أهلها آيات قرآنية وأحاديث نبوية **(وَخَرَّت)** بالخاء المعجمة والراء المشددة أى سقطت حين حمله ﷺ **(الأسِرَّةُ)** بفتح الهمزة وكسر المهملة وشد الراء المفتوحة جمع سرير، ويجمع على سُرُر بضمتين ككثيب وكُتُب، والمراد هنا: أسِرَّة الملوك كما مر آنفًا **(و)** خرَّت **(الأصنامُ)** أى الصور المعبودة للمشركين **(على الوجوه)** جمع وجه **(و)** على **(الأفواه)** جمع فُوْه بضم فسكون ويقال فيه فم بالميم عوضًا عن الواو.

والمراد أنه وقع منهم ذلك على هيئة يشبه هيئة الإنسان عند السجود.

قال فى «المنح»: وذكروا ـ يعنى علماء هذا الشأن ـ أنه لما استقرت نطفته الكريمة فيها ـ أى أمه ﷺ ـ أصبحت أصنام الدنيا منكوسة.

وقد وقع منهم ذلك أيضا عند ولادته ﷺ فعن عبد المُطَّلب قال: كنت فى الكعبة فرأيت الأصنام سقطت من أماكنها وخرّت سجّدا، وسمعت صوتًا من جدار الكعبة يقول: ولد المصطفى المختار الذى تهلك بيده الكفار، ويطهر من عبادة الأصنام، ويأمر بعبادة الملك العلام.

وقال الجلال السيوطى فى «خصائصه الصغرى»: إن من خصائصه ﷺ

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٤٦٦)، وأورده السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٨١)، وقال: فيه نكارة شديدة. وقال القسطلانى فى المواهب (١/ ٦٣): شديد الضعف.

تنكس الأصنام لمولده ﷺ(1). وينافيه ما جاء أن عيسى ـ عليه السلام ـ لما وضعته أمه خرَّ كل شيء يعبد من دون الله فى مشارق الأرض ومغاربها ساجدًا لوجهه.

نعم فى تنكس الأصنام عند حمله وتكرره عنده وعند الولادة ـ كما يعلم مما مر ومما يأتى ـ خصوصية لنبينا ﷺ وعليه فليحمل كلام السيوطى. تأمل.

(وَتَبَاشَرَتْ) أى استبشرت وسرت فى أنفسها وبشر بعضها بعضا **(وحوشُ)** جمع وحش **(المَشَارِقِ)** جمع مشرِق بكسر الراء على غير القياس إذ قياسه فتحها مطلقا فى إرادة المصدر أو الزمان أو المكان ولا تكسر إلا إذا أريد غير المصدر من الزمان أو المكان وكان المضارع مكسور العين صحيح اللام، وهو مطلع الشمس لأن لها فى السنة ثلاثمائة وستين كوة، تطلع كل يوم فى واحدة منها لا تعود إليها إلا على دورها (و) وحوش **(المَغَارِبِ)** جمع مغرب وهو مغرِب الشمس، وَجُمِعَت لما ذكر فى مشارق، ويجرى فى مفرده ما يجرى فى مفرد مشارق، وقد يثنى فيقال مشرقين باعتبار مشرق الصيف والشتاء وبحسب ذلك يثنى المغرب وقد ورد ذكرهما بلفظ الجمع فى التنزيل كما فى قوله تعالى: **﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾** (2) الآية وكذا بلفظ المثنى بالاعتبار المذكور فى قوله تعالى: **﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾** (3) وكذا بلفظ المفرد باعتبار إرادة الجنس نحو قوله تعالى: **﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾** (4) الآية، والظاهر أن المراد هنا جميع أقطار الأرض باعتبار جعلها كلها قسمين شرقيًا وغربيًا، وكذلك يقال فيما يأتى من دواب البحر، ولذا أعاد إليهما ضمير المفرد فقال: (و) تباشرت كذلك **(دوابُّها)** جمع دابة أى دواب جميع المشارق والمغارب بالاعتبار المذكور، فالمراد

(1) الخصائص الكبرى (1/ 80).

(2) سورة المعارج: 40.

(3) سورة الرحمن: 17.

(4) سورة المزمل: 9.

جميع أقطار الأرض (**البحْرِيَّة**) أى المنسوبة إلى البحر بسكون الحاء المهملة؛ سمى به لعمقه واتساعه، والجمع أبْحُر وبِحَار وبُحُور، وكل نهر عظيم بَحْر.

(**واحْتَسَت**) بهمزة وصل وسكون الحاء المهملة وفتح المثناة فوق والسين المهملة مخففة، أى شربت (**العوالمُ**) جمع عالَم بفتح اللام، وهو ما سوى الله تعالى من الجواهر والأعراض (**من**) شراب (**السُرورِ**) بمهملة مضمومة ورائين مهملتين بينهما واو، وهو لذة القلب عند حصول نفع أو توقعه (**كأس**) بهمزة ساكنة وقد تبدل للتخفيف ألفا كما فى فأس ورأس، وهو إناء الشرب (**حُمَيَّاه**) بضم الحاء المهملة على صيغة المصغر، وهو فى الأصل الخمر المتخذ من عصير العنب، وقد تطلق مجازا على المشروب ولو معنويا كما هنا، فيكون قد شبه السرور بالخمر بجامع حصول الطرب والانتعاش بكل. واستعار الحميا للسرور تخييلا ورشحها بالكأس والاحتساء، وضبط بعضهم الحِمْيا بكسر الحاء المهملة وسكون الميم وفسره بشدة السرور، ونقل عن «القاموس» أن الحميا من كل شيء شدته. قال: فشبه السرور بمرق فى النفع، ونَصَبَ الاحتساء قرينة عليه، ورشحه بالكأس، وتعقبه الشارح بأمور منها:

أن ما ذكره من الضبط لا يناسب ما نقله عن «القاموس» فإن ما نقله فى الحميا على صيغة المصغر كما هو الموجود فى صحاح نسخ «القاموس»، وأن ما ذكره من الضبط إنما هو فى مصدر حميت الشمس والنار فإنه حِمْى بكسر الحاء وسكون الميم كما ذكره صاحب «القاموس» قبل ذلك.

(**وبَشَّرَت**) بفتح الموحدة وتشديد الشين المعجمة فراء مهملة مفتوحة، أى أخبرت بما يَسر كل ذى لُبٍّ سليم (**الجنُّ**) سموا به لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار، وهم أجساد هوائية أو نارية أى يغلب عليهم ذلك، فهم مركبون من العناصر الأربعة كالملائكة على قول، وقيل: أرواح مجردة، وقيل: نفوس بشرية مفارقة عن أبدانها. وعلى كل فلهم عقول وفهم ويقدرون على التشكل بأشكال مختلفة وعلى الأعمال الشاقة فى أسرع زمن، وصح خبر أنهم ثلاثة

أصناف: ذو أجنحة يطيرون بها، وحيات، وآخرون يحلون ويظعنون، ومع ذلك فقد تكفل الله لهذه الأمة بعصمتها عن أن يقع منهم ما يُؤدى إلى رفع الثقة ووقوع الريبة فى الدين بتشكّلهم بأحد، ومن زعم أنه رآهم رُدَّت شهادته وعُزِّر لمخالفته القرآن.

وقد ثبتت فى الأحاديث الكثيرة الصحيحة رؤيته ﷺ وقراءته عليهم وسؤالهم منه الزاد ولدوابهم على كيفيات مختلفة.

والجمهور على أن مؤمنيهم يثابون ويدخلون الجنة، وقول أبى حنيفة والليث: لا يدخلونها وثوابهم النجاة من النار بالغوا فى رده، على أنه نقل عن أبى حنيفة أنه أخذ دخولهم من قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ (١) انتهى ملخصًا من التحفة. وسيأتى عند قول المصنف: «وملكان على رأسه الشريف قد أظلاّه» جواز رؤيتهم كالملائكة لتصريح الحديث الصحيح بذلك، وحملوا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ (٢) على ما إذا كانوا على صورتهم الأصلية أو على الغالب.

(بإِظْلال) بكسر الهمزة وسكون الظاء المشالة مصدر أظل، أى بقرب (زمنه) أى وقت بروزه ﷺ إلى هذا العالم، فمن تبشيرهم بذلك: ما أخبر به ورقة بن نوفل(٣) فى قصة ذكرها ابن القطان(٤): أن ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نُفَيْل(٥) أتيا النجاشى... وساق القصة إلى أن قال: قال ورقة: كنت

(١) سورة الرحمن: ٥٤.

(٢) سورة الأعراف: ٢٧.

(٣) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، حكيم جاهلى، اعتزل عبادة الأوثان قبل الإسلام، وامتنع عن أكل ذبائحها، وتنصر، أدرك أوائل عصر النبوة، ولم يدرك الدعوة. سئل النبى ﷺ عنه فقال: «يبعث يوم القيامة أمة وحده». انظر: الأعلام (٨/ ١١٤).

(٤) هو على بن محمد بن عبد الملك الكتامى الحميرى الفاسى أبو الحسن بن القطان (٥٦٢ ـ ٦٢٨ هـ) حافظ ناقد. انظر: الأعلام (٤/ ٣٣١)، شذرات الذهب (٥/ ١٢٨).

(٥) هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشى العدوى، نصير المرأة فى الجاهلية، وأحد الحكماء، كان يكره عبادة الأوثان، ولا يأكل مما ذبح عليها، ورحل إلى الشام باحثًا عن عبادات أهلها، فلم تستمله اليهودية ولا النصرانية فعاد إلى مكة وتوفى بها قبل البعثة بخمس سنين. الأعلام (٣/ ٦٠).

ليلة قريبًا من وثن إذ سمعت من جوفه هاتفًا يقول:

وُلِدَ النَّبِيُّ وذلَّت الأمْلاكُ   ونأى الضَّلالُ وأدبَرَ الإشْرَاكُ

ومنها ما أخبر زيد بن عمرو بن نُفَيْل قال في حديثه: خرجت من عند أهلي وهم يذكرون حمل آمنة حتى أتيت جبل أبي قُبَيْس أريد الخلوة فيه، إذ رأيت رجلا من السماء وله جناحان قد وقف على أبي قُبَيْس مشرفًا على مكة، ونادى: ذلَّ الشيطان وبطلت الأوثان، ثم نشر ثوبًا معه فأهوى نحو المشرق والمغرب، فرأيته قد ظل بين السماء والأرض، وسطع نورٌ كاد يخطف بصري، وهالني ما رأيت، وخفق الهاتف بجناحه حتى سقط على الكعبة، فقال: ذلَّت الأصنام وأذن زيفها، وأومأ إلى الأصنام التي على الكعبة فسقطت كلها.

وفي القصة: فقال النجاشي: ويحكما! أخبركما بما أصابني: إني لنائم - في تلك الليلة التي ذكرتماها - في قبتي وقت خلوتي إذا بهاتف يقول: حلَّ الويل بأصحاب الفيل، ترميهم الطير الأبابيل بحجارة من سجيل، ولد النبي الأمي، من أجابه سعد، ومن أباه عند، فذهبت أصيح فلم أطق الكلام، ورمت القيام فلم أطق القيام، فقرعت القبة بيدي، فسمع ذلك أهلي فتبادروا، وأومأت إليهم أن أحجبوا عني الناس فحجبوهم، حتى أطلق الله لساني ويدي[1].

ومنها ما روى عن يحيى بن عروة عن أبيه كما عند ابن القطان: أن نفراً من قريش منهم وَرَقة بن نَوْفَل، وزيد بن عمرو بن نُفَيْل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، كانوا عند صنم لهم قد اجتمعوا إليه يومًا، اتخذوا ذلك اليوم عيدًا في كل سنة يعظمونه وينحرون عنده الجزور، ويأكلون، ويشربون الخمر، ويعكفون عليه، فرأوه يوما مكبوبًا على وجهه فأنكروا ذلك، وأخذوه وردّوه إلى حاله، فلم يلبث أن انقلب انقلابًا عنيفًا، فأخذوه وردوه إلى حاله،

(١) الخصائص الكبرى للسيوطي.

فانقلب الثالثة، فلما رأوه اغتمّوا، فقال عثمان بن الحويرث: ما له قد أكثر التنكيس؟! إن هذا لأمر حدث ـ وذلك فى الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ ـ فجعل عثمان بن الحويرث يقول:

أيا صَنَم العيدِ الذى صُفَّ حوله صناديد قومٍ من بعيدٍ ومن قُرْبِ
تَنَكَّسْتَ مقلوبًا فما ذاكَ قُلْ لنا بغاك سفيه أم تنكَّست للعبِ
فإن كان عن ذنبٍ أتينا فإننا نبوءُ بإقرارٍ ونلوى عن الذنبِ
وإن كنتَ مغلوبًا تنكست صاغرًا فما أنت فى الأوثان بالسيد الربِ

قال: فأخذوا الصنم فردّوه على حاله، فلما استوى هتف بهم بصوت جهير، وهو يقول:

تردَّى لمولود أنارت بنوره جميعُ فجاجِ الأرضِ بالشَّرقِ والغربِ
وخرَّت له الأوثانُ طُرّا فأرعدتْ قلوب مُلوكِ الأرضِ طُرّا من الرعبِ
ونار جميع الأرض باختْ وأظلمتْ وقد باتَ شاهُ الفرسِ فى أعظم الكربِ
وسارت عن الكهان بالغيب جنها فلا مُخْبِرٍ منهم بحقٍّ ولا كذبِ
فيا لقصى ارجعوا عن ضَلاَلكم وهبّوا إلى الإسلام والمنزل الرَّحْبِ

فلما سمعوا ذلك خلصوا نجيًا، فقال بعضهم لبعض: تصادفوا. . . إلى آخر ما ذكره ابن القطان فى هذا الخبر، وفى آخره: عن زيد بن عمرو بن نُفَيْل أنه خرج يطلب الدين حتى لقى بالحيرة[1] راهبًا فأخبره بالذى يطلب، فقال: إنك لتطلب دينا ما تجد ما يحملك عليه، ولكن قد أظل زمان نبى يخرج من بلدك بدين الحنيفية. فلما قال له ذلك رجع يريد مكة، فعدت عليه لخم فقتلوه[2].

وهذا وبعض ما تقدم وإن لم يكن إخبارًا بالحمل النبوى لكنه ذُكِرَ معه استطرادًا لما بين ذلك كله من المناسبة إذ المقصود من الإخبار بظهوره ﷺ كما

(١) الحيرة: مدينة كانت تبعد ثلاثة أميال عن الكوفة على موضع يقال له: النجف. (معجم البلدان (٢/٣٢٨).
(٢) الخصائص الكبرى للسيوطى (١/٨٨). وابن عساكر وعزاه للخرائطى فى الهواتف.

لا يخفى، والبشارات به ﷺ على الأنواع المذكورة كثيرة لا يحتملها هذا المحل.

(وانْتُهِكَت) مبنيًا للفاعل أو للمفعول أى انتزعت **(الكَهَانَة)** بفتح الكاف وهى الإخبار بالأمور الخفية والبعيدة من أصحابها.

قال القاضي عياض[1]: كانت الكَهَانَة فى العرب ثلاثة أضرب:

أحدها: أن يكون للإنسان ولى من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء، وهذا القسم بطل من حين بعث الله نبينا محمدًا ﷺ.

الثاني: أن يخبره بما يطرأ أو يكون فى أقطار الأرض مما خفى عنه مما قرب أو بعد، وهذا لا يبعد وجوده ولكنهم يصدقون ويكذبون، والنهى عن تصديقهم والسماع منهم عام.

الثالث: المنجمون، وهذا الضرب يخلق الله تعالى فيه لبعض الناس صدقًا لكن الكذب فيه أغلب، ومن هذا الفن العرافة وصاحبها عرَّاف، وهو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعى معرفته بها، ويعتضد بعض أهل الفن ببعض فى ذلك بالزجر والطير والنجوم وأسباب معتادة.

وهذه الأضرب كلها تسمى كَهَانَة، وقد كذبهم كلهم الشارع، ونهى عن تصديقهم وإتيانهم.. انتهى.

ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين الضربين الأولين وأحالوهما، ولا إحالة ولا بعد فى وجودهما.

ومما ورد فى النهى عن إتيانهم وتصديقهم ما أخرجه الطبرانى عن معاوية ابن الحكم: «لا تأتوا الكهان»[2].

---

(١) هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى، ولد فى سبتة بالمغرب سنة (٤٧٦ هـ) ونشأ بها، وهو عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته، توفى بمراكش مسمومًا سنة (٥٤٤ هـ)، ومن مصنفاته: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى». انظر: الأعلام (٥/ ٩٩)، طبقات المفسرين (٢/ ٢١)، وفيات الأعيان (١/ ٣٩٢).

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٩٦)، وأحمد فى مسنده (٥/ ٤٤٧)، وعبد الرزاق فى مصنفه (١٩٥٠٠).

وما أخرجه الطبرانى أيضًا عن واثلة: «من أتى كَاهِنة فسألها عن شىء حُجبت عنه التوبة أربعين ليلة، فإن صدَّقها بما قالت كفر»[1].

وما أخرجه أحمد والحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه: «من أتى عرَّافًا أو كَاهِنًا فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»[2].

(ورَهِبَت) بفتح الراء المهملة وكسر الهاء مبنيًا للفاعل، أى خافت أو هو بضم الراء مبنيا للمفعول كما قبله أى خوفت وتركت (الرَّهْبَانيَّة) بفتح الراء وسكون الهاء، عبادة النصارى منسوب إلى الرهبنة بزيادة الألف، والمراد أصحابها فيكون مجازًا بالحذف على حد قوله تعالى: ﴿وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾[3] أى أهل القرية، أو مجازًا مرسلاً من إطلاق الحال وإرادة المحل؛ وهم الرهبان جمع راهب، ويجمع على رهابين ورهابنة ورهبنة، سموا بذلك لأنهم كانوا يترهبون بالتخلى من أشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة عن أهلها، وتعمد مشاقها حتى أن منهم من كان يخصى نفسه ويضع السلسلة فى عنقه وغير ذلك من أنواع التعذيب، فنفاها النبى ﷺ عن الإسلام بقوله: «لا رهبانية فى الإسلام».

قال بعضهم: وقد جاء النهى عنها فى القرآن، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾[4] الآية. فيه نظر إذ ليس فى الآية صيغة نهى إلا أن يكون مراده النهى معنى.

(ولَهِجَ) بكسر الهاء أى تحدّث (بخبره) ﷺ (كل) شخص (حَبْر) بفتح الحاء المهملة وكسرها أى عالم والجمع أحبَار (خَبِير) بفتح الخاء المعجمة، أى عارف بأخبار ظهوره ﷺ من الكتب القديمة السماوية (وفى حُلاَ) بكسر الحاء المهملة أفصح من ضمها كما مر، جمع حِلية بكسر أوله كلحية ولحى، وربما

---

(١) عزاه السيوطى فى جامع الأحاديث (٢٠٠٦٨) للطبرانى فى معجمه الكبير.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٢٩)، والحاكم فى مستدركه.

(٣) سورة يوسف: ٨٢.

(٤) سورة الحديد: ٢٧.

يفتح ولا يناسب هنا، وهى فى الأصل اسم لكل ما يُتزين به من مصاغ الذهب والفضة، وتطلق الحلية على الصفة أيضًا وهو المراد هنا (حُسْنِه) بضم فسكون (تَاه) من التيه بمعنى التحير لعدم قدرته على الوقوف على حقيقتها.

عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت: كان يهودى يسكن مكة فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ قال فى مجلس من مجالس قريش: هل ولد فيكم [الليلة] مولود؟ فقال القوم: والله ما نعلمه. قال: احفظوا ما أقول لكم، ولد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخير، على كتفه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس، لا يرضع لليلتين[1].

ولعل سبب عدم رضاعه ﷺ كما قاله الحافظ ابن حجر وأقره: أن عفريتًا من الجن وضع يده فى فيه أو لتوعك أصابه قال فى «المنح»: أنه جاء أن راهبا كان بمر الظهران ـ وهو موضع على مرحلة من مكة يسمى الآن بوادى فاطمة ـ يقول: يوشك أن يولد فيكم يا أهل مكة مولود اسمه محمد، تدين له العرب، ويملك العجم، هذا زمانه، وكان لا يولد بمكة مولود إلا سأل عنه، فجاء عبد المُطَّلب صبيحة ولادته ﷺ فلما رآه قال: كن أباه فقد ولد ذلك المولود الذى كنت أحدثكم عنه، فما سميته؟ قال: محمداً.

وذكر نحو هذا فى «النعمة الكبرى» وفى آخره: فقد ولد ذلك المولود الذى كنت أحدثكم عنه يوم الإثنين، طلع نجمه البارحة، وولد اليوم، واسمه محمد.

وفى رواية زيادة على ما مر بعد قوله: هذا زمانه فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته، ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته، فتالله ما تركت أرض الخمرِ والخميرِ والأمن، ولا حللتُ أرضَ البؤس والجوع والخوف إلا فى طلبه.

وفيها أيضًا بعد قوله: «ولد ذلك المولود الذى كنت أحدثكم عنه يوم

(١) طبقات ابن سعد (١/ ١٠٦) (القسم الاول)، والوفا ص (٤٢)، والسيرة الشامية (١/ ٤٠٩) مطولاً. دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١٠٨)، مستدرك الحاكم (٢/ ٦٠١)، الخصائص الكبرى مطولاً (١/ ٨٤).

الإثنين» زيادة: «ويموت يوم الإثنين، وآية ذلك: أنه الآن وجع فيشتكى ثلاثًا ويعافى».

قال الحلبى: أقول: أى لا يرضع فى تلك الثلاث ليلتين، فلا يخالف ما سبق من قول الآخر لا يرضع لليلتين. انتهى.

وأنه قال لعبد المُطَّلب: فاحفظ لسانك فإنه لم يُحسد حسده أحد، ولم يُبْغ على أحد كما يُبْغى عليه، قال: فما عمره؟ قال: إن طال عمره لم يبلغ السبعين، يموت فى وترٍ دونها فى الستين: فى إحدى وستين، أو ثلاث وستين، وذلك جلّ أعمار أمته[1].

والخَمر بفتح الخاء المعجمة ما أسكر به، والخَمير ما يوضع فى العجين حتى يعود كالخمير، والأمن ضد الخوف، والبؤس بالهمز الشدة، والمراد بالأرض المذكورة أرض الشام لكثرة أشجارها وعنبها الذى يعصر منه الخمر، وكنى بذكر الخمير عن الشبع بدليل مقابلته بالجوع، والمعنى: ما تركت بلاد التبسط وهى بلاد الشام وأتيت بلاد الشدة وهى الحجاز إلا فى طلبه، أى طلب ذلك المولود. وقوله: «أدرك حاجته» هى النجاة من العذاب.

وروى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: كانت يهود قُرَيْظَة والنَّضير وخَيْبَر يجدون صفة رسول الله ﷺ قبل أن يُبعث وأن دار هجرته المدينة، فلما وُلِدَ قالت أحبار يهود: وُلِدَ أحمد الليلة، هذا الكوكب قد طلع. فلما تنبأ قالوا: فقد تنبأ أحمد، كانوا يعرفون ذلك ويُقرون به ويصفونه، أخرجه ابن سعد وأبو نعيم[2].

وأخرج أبو نعيم عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت أبا مالك بن سنان يقول: جئت بنى عبد الأشهل يوما لأتحدث فيهم فسمعت يوشع اليهودى يقول: قد أظلَّ خروجُ نبى يقال له أحمد، يخرج من الحرم.

---

(١) سيرة ابن كثير (١/ ٢٢٢)، الخصائص الكبرى (١/ ٨٥)، والسيرة الشامية (١/ ٤٠٩)، وقال ابن كثير: وفيه غرابة.
(٢) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٤٢).

فقيل له: ما صفته؟ قال: ليس بالقصير ولا بالطويل، وفى عينيه حمرة، يلبس الشَّملة، ويركب الحمار، سيفه على عاتقه، وهذا البلد مهاجره. فرجعت إلى قومى بنى خدرة وأنا أتعجب مما قال، فأسمع رجلاً يقول: أو يوشع يقول هذا وحده؟! كل يهود يثرب تقول هذا، فخرجت حتى جئت بنى قُرَيْظَة فأجد جمعا فتذاكروا النبى ﷺ. قال الزبير بن برطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذى لم يطلع إلا لخروج نبى وظهوره، ولم يبق أحد إلا أحمد، وهذه مهاجره[1].. انتهى.

قال الجلال السيوطى بعد ذكره ما تقدم: وأخرج أبو نعيم عن سعد بن ثابت قال: كان أحبار بنى قُرَيْظَة والنَّضير يذكرون صفة النبى ﷺ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبى وأنه لا نبى بعده، اسمه أحمد، ومهاجره إلى يثرب، فلما قدم النبى ﷺ المدينة ونزلها أنكروا وحسدوا وبغوا[2].

(وأُتِيَتْ) بالبناء للمفعول (أمه) ﷺ أى أتاها آت وهى بين النائمة واليقظانة كما فى رواية أنها قالت: أتانى آت وأنا بين النائمة واليقظانه، فقال: هل شعرت بأنك حملت بسيد الأنام؟ وفى نسخة: بسيد هذه الأمة ونبيها، وذلك يوم الاثنين، ثم أمهلنى حتى إذا دنت ولادتى، أتانى فقال: قولى أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمداً وهى **(فى المنام)** أى فى مباديه وهو مصدر ميمى بمعنى النوم؛ كما فى رواية: أنها كانت تقول: أتانى آت حين مرّ بى من حملى ستة أشهر فركضنى فى المنام برجله وقال: يا آمنة إنك حملت بخير العالمين، وإذا ولدتيه فسميه محمداً، واكتمى شأنك.

وسبب تردد الآتى إليها، قيل: لما كان عندها من التردد فى وجود حمل ببطنها إذ لم تجد ثقلاً ولا ألمًا، ولم يكن لها دليل سوى انقطاع حيضها فى غالب أدوارها فأورثها ذلك ترددًا فى أمرها.

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٤٢)، وابن الجوزى فى الوفا بأحوال المصطفى ص (٣٥)، والخصائص الكبرى (١/ ٤٦).

(٢) الخصائص الكبرى (١/ ٤٧).

(فقيل لها:) أى لأمه آمنة **(إنك)** قد **(حَمَلْتِ بسيِّدٍ)** أى أشرف وأكرم وأجل وأفخم جميع **(العالمين)** جمع عالَم وهو يطلَق على كل نوع من أنواع المخلوقات، يقال: عالم الجن، وعالم الإنس، وعالم الملائكة، وعالم كذا وعالم كذا، فالعالمون جمع للعوالم الثلاث العقلاء: عالم الجن، وعالم الإنس، وعالم الملائكة، فحينئذ يكون الجمع أعم من مفرده كما هى طريقة الجموع، بخلاف ما إذا قيل العالم اسم لما سوى الله فإنه يكون حينئذ أخص من مفرده فيكون خارجًا عن طريقة الجموع.

وعبارة شيخنا: والتحقيق أنه جمع لعالم؛ لأنه كما يطلق على ما سوى الله يطلق على كل جنس وعلى نوع وصنف، فيقال: عالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الملك. وبهذا الإطلاق يصح جمعه على عالمين لكنه جمع لم يستوف الشروط؛ لأنه يشترط فى المفرد أن يكون علما أو صفة، وعالم ليس بعلم ولا صفة بل قيل إنه جمع استوفى الشروط؛ لأن العالم فى معنى الصفة لأنه علامة على وجود خالقه، وقد نص على ذلك جماعة منهم شيخ الإسلام فى «شرح الشافية».

وأصله من العلامة كما قال أبو عبيدة؛ لأنه ما من نوع من العالم إلا وفيه علامة على وجود خالقه، أو من العِلْم كما قاله غيره فيختص بذوى العلم وهم: الإنس، والجن، والملائكة، لاختصاص العِلْم بهم، والراجح أنه يشمل العاقل وغيره تغليبًا للعاقل على غيره أو تنزيلاً لغير العاقل منزلة العاقل.

وقيل: اسم جمع أى اسم دال على الجماعة كدلالة المركب على أجزائه كقوم ورهط، وأما الجمع: فهو ما دل على الآحاد المجتمعة كدلالة تكرار الواحد بحرف العطف كالزيدين فى قولك: جاء الزيدون؛ فإنه فى قوة جاء زيد وزيد وزيد.

* * *

[تسميته ﷺ محمداً]

(وخير) أى أفضل جميع (البرية) أى الخلق (فَسَمِّيه إذا وَضَعْتِيه) كذا بياء متولدة من إشباع كسر التاء، وهى فى لسان المصريين شائعة، قاله فى نظيرها فى «المصابيح» وفى البرماوى. كالكرمانى بغير ياء (مُحَمَّدًا) أى هذا الاسم الكريم الشريف بشرف مسماه.

ولم تزل أمه ﷺ ترى وهى حامل به ما يدل على عظم قدره مما تواترت الأخبار بنقله إلى أن مرت تلك الشهور، وبرز للوجود هذا النور الأعظم، فامتلأ به الكون ضياء ونوراً، وأشرقت شمس الهداية والرسالة، فادحض الباطل وطهر الكون فيه تطهيراً. وقوله: وسميه إذا وضعتيه محمداً لا ينافى هذا أن المُسَمِّى له بذلك جده عبد المُطَّلب؛ لأنها حَدَّثت بما رأته جده عبد المُطَّلب فسمّاه محمدا.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وقد تقدم ما يتعلق بهذا الاسم الشريف من الخصائص وغيرها، وأن الله سبحانه وتعالى قد حمى هذا الاسم الكريم أن يسمى به أحد من العرب إلا حين شاع قبيل ولادته أن نبيًا يبعث اسمه محمد، فسمى قوم قليل أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو والله أعلم حيث يجعل رسالته.

أخرج أبو نعيم وغيره: أن محمد بن عدى بن ربيعة ـ الآتى ذكره ـ سُئِلَ: لم سماك أبوك محمداً فى الجاهلية؟ فقال: إنى سألت أبى عن ذلك، فقال: إنه خرج رابع أربعة فنزلوا عند دير بالشام، فسألهم صاحبها عن قبيلتهم، فأخبره أنهم من خندف، فأخبرهم أنه سيبعث فيهم قرشى اسمه محمد خاتم النبيين، فلما انصرفوا من عنده ولد لكل واحد منهم ولد سماه محمداً[1].

(١) أورده السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٤٠) وعزاه لأبى نعيم فى الدلائل والبيهقى فى الدلائل والخرائطى فى الهواتف.

وذكر القاضى عياض منهم ستة، وذكر منهم: محمد بن مَسْلَمة، وقال: لا سابع لهم. وقال: ومع ذلك فحمى الله كل من تسمّى به أن يدعى النبوة أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه بسبب يشك فى أمره.. انتهى.

وقد جمع السخاوى[1] من تسمى بذلك فى جزء مفرد فبلغوا نحو العشرين لكن مع تكرير فى بعضهم، ووهم فى بعضهم، فيتلخص منهم خمسة عشر، أربعة منهم صحابة على خلاف فيهم: وهم محمد بن عدِىّ بن ربيعة، ومحمد بن أُحَيْحة بن الجُلاَح الأوسى، ومحمد بن الحارث بن حُدَيْج ـ بحاء مهملة آخره جيم مصغراً ـ بن حُوَيْص، ومحمد بن مَسْلَمة الأنصارى شهد بدراً ومات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين. وتعقب السخاوى القاضى عياض فى ذكره له هنا بقوله: وليس ذكره بجيد فإنه ولد بعد النبى ﷺ بأزيد من عشرين سنة. لكن لا وجه له لما هو مصحح فى السيرة نقلاً عن الواقدى، والظاهر أن الخُلْفَ فى ولادته لا فى صحبته، وواحد منهم أدرك الإسلام وهو: محمد بن البراء البكرى، وأما الباقون فلم يدركوا الإسلام: وهم محمد بن أسامة بن مالك، ومحمد بن حِرْماز بن مالك اليعمرى، ومحمد بن حمران الجعْفِىّ المعروف بالشُّوَيْعر، ومحمد بن خُزَاعِىّ بن علقمة بن حزاية ـ بالزاى المعجمة ـ السُّلَمى من بنى ذَكْوان، ومحمد بن خَوْلِىّ النعيمى الهَمْدانى، ومحمد بن سُفيان بن مُجَاشع، ومحمد بن اليُحْمِد الأزدِى، ومحمد بن يزيد بن عمرو ابن ربيعة، ومحمد الأُسَيدِىّ، ومحمد الفُقَيْمى.

وقول القاضى فيما تقدم: لا سابع لهم مع عده محمد بن مَسْلمة منهم ينافيه ما فى «الشفاء» من وجود سابع لهم وهو: محمد بن اليُحْمِد، لكن قال السخاوى بعد ما نقل ما مر عنه: لكنه ـ أى القاضى ـ ذكر تلو كلامه المتقدم: محمد بن اليُحْمِد، الماضى فصار من عنده ستة لا سابع لهم.. انتهى. أى وهذا يقتضى أنه لم يثبت عنده محمد بن مَسْلَمة، وأنه إنما ذكره استطراداً

(1) القول البديع للسخاوى ص (71).

للإشارة إلى أنه مختلف فيه، فيكون من عنده ـ بعد إخراج محمد بن مَسْلَمة ـ منهم ستة لا سابع لهم، وإلا فما معنى قوله لا سابع لهم، وقد علمت ما رد به السخاوى فالمنافاة فى قول القاضى باقية[1].

فائدة

ذكر القاضى عياض أن أول من تسمى قبله ﷺ بمحمد: محمد بن سفيان، واليمن تقول: بل محمد بن اليُحْمِد.

وذكر ابن الجوزى أن أول من سمى فى الإسلام بمحمد: محمد بن حاطب.

* * *

[أسمائه الشريفة][2]

(لطيفة):

قال السخاوى: ذكر الحسين بن محمد الدامغانى[3] فى كتابه «شوق العروس وأنس النفوس» نقلا عن كعب الأحبار أنه قال: اسم النبى ﷺ عند أهل الجنة عبد الكريم، وعند أهل النار عبد الجبار، وعند أهل العرش عبد الحميد، وعند سائر الملائكة عبد المجيد، وعند الأنبياء عبد الوهاب، وعند الشياطين عبد القهار، وعند الجن عبد الرحيم، وفى الجبال عبد الخالق، وفى البر عبد القادر، وفى البحر عبد المهيمن، وعند الحيتان عبد القدوس، وعند الهوام عبد الغياث، وعند الوحوش عبد الرزاق، وعند السباع عبد السلام، وعند البهائم عبد المؤمن، وعند الطيور عبد الغفار، وفى التوراة موذ موذ، وفى الإنجيل طاب طاب، وفى الصحف عاقب، وفى الزبور فاروق، وعند الله طه

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (١/ ٥٠٣)، المحبر لابن حبيب ص (١٣٠)، إنسان العيون (١/ ١٢٨).

(٢) أفردها بالتأليف جماعة، منهم السيوطى: «الرياض الأنيقة»، «تذكرة المحبين فى أسماء سيد المرسلين».

(٣) هو محمد بن على بن محمد بن حسن بن عبد الله، أبو عبد الله الدامغانى (٣٩٨ ـ ٤٧٨ هـ) ولد بدامغان وتفقه بها، ثم رحل إلى بغداد، وولى القضاء بها، وله مصنفات منها: «الزوائد والنظائر فى غريب القرآن». انظر: الأعلام (٦/ ٢٧٦)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٨٥).

ويس، وعند المؤمنين محمد ﷺ[1].. انتهى.

وورد أن اسمه فى التوراة المنحمنة، وفى الإنجيل البارقليط، وفى الزبور حاط حاط، وفى صحف شيث أخوناخ، ومعناه صحيح الإسلام، وفيها أيضا: ركْن المتواضعين، وفى صحف إبراهيم موذ موذ، وقيل: طاب طاب، ولا مانع من وجود ذلك فيها وفى التوراة والإنجيل كما مر.

وعلل المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ أمر القائل لآمنة سميه محمداً بما تضمنه قوله (فإنه) أى النبى محمد ﷺ بالفاء كما فى أكثر النسخ ويؤيده ما فى رواية إذا وضع فسميه محمداً؛ فإنه اسمه فى التوراة أحمد يحمده أهل السماء والأرض، واسمه فى الفرقان محمد وباللام كما فى نسخة (سَتُحْمَدُ عُقْبَاه) بضم العين المهملة أى عاقبته، أى ستشكر ويثنى عليها بخير بين جميع الخلق فما منهم أحد إلا يشهد له بوصف الكمالات المفاضة من ذى الإكرام والجلال على ذلك الجمال.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

(1) القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع ص (٧٧).

[وفاة والده عبد الله بن عبد المطلب]

(ولما تَمَّ) أى كمل **(من)** أيام **(حَمْله)** أى حمل أمه به ﷺ **(شَهْرَان على)** صحيح و **(مشهور الأقوالِ)** المختلفة **(المرويَّة)** عن العلماء فى وفاة والده عبد الله، وقيل: قبل ولادته بشهرين، ومنهم من قال: توفى ورسول الله ﷺ فى المهد. قال السهيلى: وهو قول أكثر العلماء واحتج له بقول عبد المطلب: أوصيك يا عبد مناف بعدى بموتم بعد أبيه مرد فارقه وهو ضجيع المهد.

وعلى كونه توفى وهو ﷺ فى المهد اختلف كم كان عمره ﷺ؟ فقيل: ابن سبعة أشهر، وقيل: تسعة، قيل: وعليه الأكثرون، قال الحلبى: والحق قول كثير لا الأكثرين، وقيل: ابن ثمانية عشر، وقيل: ثمانية وعشرين شهراً.

ويخالف ما يأتى: أن المراضع أبته ليتمه لتمام زمن الرضاع، وكذا يخالف القول الذى قبله؛ لأنه لم يبق من زمن الرضاع إلا شهران، والراجح المشهور الذى رجحه ابن إسحاق وأورده ابن سعد، وجزم به الزبير بن بكّار وغير واحد، قال ابن الجوزى: وعليه معظم أهل السير، وأطلق غيره عزوه للجمهور وهو الأول يعنى أنه **(توفى)** وهو ﷺ حمل، والحجة له ما فى المستدرك عن قيس بن مخرمة: «توفى أبو النبى ﷺ وأمه حبلى»[1] قال الحاكم: على شرط مسلم وأقره الذهبى **(بالمدينةِ)** المنورة على الصحيح **(المُنَوَّرَة)** قديما باشتمالها على طينته ﷺ التى خلق منها، ودحاها الماء يوم الطوفانَ من مكة إليها، وحديثًا بسكناه ﷺ نحو عشر سنين من أواخر عمره الشريف فيها، ثم بمدفنه فى الحجرة الشريفة التى كانت مساكنه إليها، والتى فاق ما ضم أعضاءه الكريمة منها؛ سائر الأماكن سوى عرش رب العزة ففيه خلاف، وقد مر الكلام على ذلك مبسوطًا فى التعطيرة الأولى فراجعه.

(١) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٨٢)، الوفا ص (٨٥)، دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٠٧).

[أسماء المدينة النبوية] (1)

وللمدينة المنوّرة أسماء كثيرة وهى:

أثْرِب بفتح الهمزة وسكون المثلثة وكسر الراء وباء موحدة لغة فى يثرب - الآتى - وأرض الله، وأرض الهجرة، وأكّالة البلدان لافتتاحها على يد أهلها فغنموها وأكلوها، وأكّالة القرى كذلك، والإيمان قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (2) الآية، والبارة، والبرَّة، والبحرة، والبَحِيرَة بفتح أوّله على غير التصغير، والبلاط، والبلد، وبيت الرسول ﷺ، وتندد بالمثناة الفوقية والنون وإهمال الدالين، وتنذر كجعفر، والجابرة، وجبار كحذام، والجِبارة، وجزيرة العرب، والجُنّة الحصينة بضم الجيم، والحَرَم بالفتح، وحرم رسول الله، وحسنة، والخَيِّرة بتشديد المثناة التحتية كالنيرة، والخَيْرة كالذى قبله إلا أن الياء مخففة، والدار، ودار الأبرار، ودار الأخيار، ودار الإيمان، ودار السنة، ودار السلامة، ودار الفتح، ودار الهجرة، ودار الحجر، وذات الحرار، وذات النخل، والسلقة، والشافية، وطابة، وطَيْبة بسكون التحتية، وطَيِّبة بتشديدها، وطايب، وطيابا، والعاصمة، والعَذْرَاء بإهمال أوله وأعجام ثانيه مُسكَّنًا، والعرًّا بإهمال أوله والراء المشدّدة بمعنى الذى قبله، والعَروض كصبور، والغرَّاء تأنيث الأغر، وغَلَبَة محركة، والفاضحة بالفاء والضاد المعجمة والحاء المهملة، والقاسمة بالقاف والصاد المهملة، وقبة الإسلام، وقرية الأنصار، وقرية رسول الله، وقلب الإيمان، والمؤمنة، والمباركة، ومبوء الحلال والحرام، ومبين الحلال والحرام، والمجبورة بالجيم، والمُحبَّة بضم الميم

(1) انظر فى أسماء المدينة: سبل الهدى والرشاد (٣/ ٤١٤)؛ وفاء الوفا (١/ ٨ - ٢٧)، والرحلة الحجازية للنابلسى ص (٣٣٦) وقد نظمها شعراً. ومثير الغرام الساكن ص (٤٥١)، وإعلام الساجد ص (٣٣٢)، وأخبار المدينة لابن النجار ص (١١).

(2) سورة الحشر: ٩.

وبالحاء المهملة وتشديد الموحدة، والمُحَبَّبة بزيادة موحدة على ما قبله، والمَحْبوبة، والمَحْبورة بالحاء المهملة من الحبر وهو السرور، والمُحَرَّمة، والمحفوفة، والمحفوظة، والمختارة، ومدخل صدق، ومدينة الرسول، والمرحومة، والمرزوقة، ومسجد الأقصى، والمسكينة، والمسلمة كالمؤمنة، ومضجع رسول الله ﷺ، والمُطَيبة بضم أوّله وفتح ثانيه، والمُقدسة، والمقر بالقاف، والمكَّتان بفتح الميم وكاف مشددة فمثناة فوقية، والمكنية، ومهاجر رسول الله ﷺ، والموفَّية بتشديد الفاء ويجوز تخفيفها، ونَبلا بفتح النون من النُبل بضمها وهو الفضل والنجابة، والنَّاجية بالجيم، والنَحْر بفتح النون وسكون الحاء المهملة، ويَثْرِب لغة فى أثرب، ويندد بالمثناة التحتية ودالين، ويندر بإبدال الدال الأخيرة من الاسم قبله راء.

قال الشريف السمهودى: ولم أر أكثر من أسماء هذه البلدة الشريفة.

وذكر ابن السدّى الاستشفاء من الحمى بكتابة أسمائها وتعليقها على المحموم فإنها تنفى الذنوب فتشفى من دائها.

(أبوه) أى أبو النبى ﷺ بلا واسطة **(عبد الله)** بن عبد المُطَّلب عن ثلاثين سنة قاله أبو أحمد الحاكم ورجحه ابن عبد البر فيما تقدم وقت تزوّجه بآمنة، أو عن ثمان وعشرين أو عن خمس وعشرين، قال الواقدى: وهو الأثبت. وقدّمه الزرقانى. وعن ثمان عشرة سنة وهو الذى صححه الحافظ العلائى والحافظ ابن حجر واختاره السيوطى.

وقيل: بالأَبْواء بفتح أوّله وسكون الموحدة والمد، قال فى «القاموس»: موضع. قال فى «المختار»: مكان. وقيل: جبل. وقيل: قرية جامعة بين مكة والمدينة قريبة من الجُحفَة[1] مما يلى المدينة. وقال بعضهم: قرية من أعمال الفُرْع بضم الفاء وسكون الراء على ثلاثين ميلا من المدينة. وقال الزرقانى:

(١) كانت قرية كبيرة على طريق مكة، وهى ميقات أهل الشام ومصر إذا لم يمروا على المدينة، وبين الجحفة والبحر الأحمر حوالى ستة أميال، وبينها وبين غدير خم ميلان. (مراصد الاطلاع ١/ ٣١٥).

على ثلاث وعشرين ميلاً.

أقول: قد تنوسى هذا الموضع اليوم فلا يعرفه أحد على الحقيقة من أهل تلك الناحية، وعلى القول بأنها قرية فتكون قد خربت واندثرت بعد ذلك حتى صارت الآن نسيا منسيا.. والله أعلم.

لكن قال الحلبى: إن الذى بالأبواء قبر أمه على الأصح، فلعل قائل ذلك اشتبه عليه الأمر لأنه يجوز أن يكون سمعه ﷺ يقول وهو بالأبواء هذا قبر أحدى أبوى[1].. انتهى.

وقيل: قبر أمه بالحَجُون بفتح المهملة وضم الجيم، مقبرة أهل مكة، ودفن عبد الله فى دار التابعة بالتاء المثناة فوق والباء الموحدة والعين المهملة كما فى «الزهر الباسم»، وهو رجل من بنى عدى بن النجار.

قال بعضهم: وقد شاهدت مدفنه بها، ورأيت عليه صندوقا من خشب مصنوعًا عليه كسوة خضراء فاخرة، وهو تحت سقف هنالك، ولديه مكان آخر مسقف مفروش معد لارتفاع الثاوين به.

أقول: ويعرف ذلك المكان بزقاق الطوال بضم الطاء المهملة.. انتهى.

وتعقبه بعضهم بقوله: وقد اشتهر هذا القول عن رجل من المغاربة أومأ إلى هذا المكان المعروف، وقال: هنا قبر والد النبى ﷺ، فلا يعوَّل عليه، ولم نجده مُسَطَّرًا فى كتب، ولم يرد فيه نص ولا دليل ولا قول يعتمد عليه، والمشهور: أنه مات بالمدينة الشريفة ودفن بمكان يقال له: دار النَابِغَة بنون مفتوحة وباء مكسورة بعدها غين معجمة مفتوحة فهاء، ولم يعرف له قبرا.. انتهى.

وهو وجيه لكن ما ذكره من الضبط مخالف لما عليه الحلبى والزرقانى وغيرهما من أهل السير، ويدل لما ذكر من كون عبد الله توفى بالمدينة ودفن بدار التابعة ما جاء أنه ﷺ لما هاجر إلى المدينة ونظر إلى تلك الدار عرفها،

(١) إنسان العيون (١/ ١٧٢).

وقال: هنا نزلت بى أمى، وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله، وأحسنت العوم فى بئر بنى عَدِىّ بن النجار[1].

ومن هذا ومما جاء عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: أنه ﷺ كان هو وأصحابه يسبحون فى غدير أبى جحفة فقال النبى ﷺ لأصحابه: «ليسبح كل أحد إلى صاحبه» فسبحَ كل رجل إلى صاحبه، وبقى النبى ﷺ وأبو بكر، فسبح النبى ﷺ إلى أبى بكر حتى اعتنقه وقال: «أنا وصاحبى.. أنا وصاحبى»[2] وفى رواية: «أنا إلى صاحبى» يُعْلَم رد قول بعضهم وقد سُئل: هل عام ﷺ؟ الظاهر لا، لأنه لم يثبت أنه ﷺ عام فى بحر ولا بالحرمين بحر.. انتهى.

وقد جاء فى بعض الروايات ما يدل على أن موت والده من علامات نبوته فى الكتب القديمة، ويذكر عن ابن عباس أنه لما توفى عبد الله قالت الملائكة: صار نبيك بلا أب وبقى من غير حافظ ومرب، فقال الله تعالى: أنا وليه وحافظه وحاميه، وربه وعونه ورازقه وكافيه، فصلوا عليه وتبركوا باسمه[3].

وقيل لجعفر الصادق: لم يتّم النبى ﷺ؟ قال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق. ولا يرد عليه بقاء أمه حتى بلغ ستة سنين أو أكثر؛ لأن تعلق الحقوق إنما هو بعد البلوغ[4].

لكن يرد عليه بما قاله الدنوشرى أنه ارتضع من حليمة وكان له الفضل عليها فى ذلك ولو عاش أبوه وأمه حتى كبرا لكان فضله عليهما.. انتهى.

وما أحسن قول بعضهم فى يتمه ﷺ:

أخذ الإله أبا النَّبى ولم يَزَلْ   برسوله البر الرؤوف رَحيمَا
نفسى الفداء لمفردٍ فى يُتمه   والدُّر أحسن ما يكون يَتيمَا

(١) طبقات ابن سعد (١/ ١١٦)، والسيرة الشامية (٩/ ٥٤١).
(٢) عزاه الحافظ الشامى فى سيرته (٩/ ٥٤١) إلى ابن شاهين فى السنة، وأبى قاسم البغوى، والطبرانى.
(٣) الخصائص الكبرى (١/ ٨١).
(٤) انظر النهر الماد (٣/ ١٢٧٨) فى تفسير قوله تعالى: ﴿ألم يجدك يتيمًا﴾ [الضحى: ٦].

وقال ابن العماد[1] في «كشف الأسرار»: إنما رباه يتيمًا لأن أساس كل صغير كبير، وعقبى كل حقير خطير، ولينظر النبي ﷺ إذا وصل إلى مدارج عزه إلى أوائل أمره، ليعلم أن العزيز من أعزه الله تعالى، وأن قوته ليست من الآباء والأمهات، ولا من المال، بل قوته من الله تعالى، وأيضًا ليرحم الفقير والأيتام.. انتهى. وهذا أولى من قول بعضهم في حكمة يتمه أن لا يجب عليه طاعة لغير الله تعالى، وأن لا يكون عليه ولاية لغير الله لما فيه أن الجد أب الأب كالأب تجب طاعته وله الولاية وقد جاء: «ارحموا اليتامى وأكرموا الغرباء فإني كنت في الصغر يتيمًا وفي الكبر غريبًا».

قيل: **(وكان)** عبد الله **(قد)** خرج من مكة إلى المدينة ليمتار تمرًا أو لزيارة أخواله بها، ولا مانع من قصد الأمرين معًا، وقيل وهو الأثبت: خرج إلى غزة في عير من عيران قريش خرجوا للتجارة إليها ففرغوا من تجارتهم وانصرفوا راجعين إلى مكة فرجع معهم و **(اجتَازَ)** أي مر بالمدينة الشريفة واتصل **(بأخواله بني عَدِيٍّ)** أي أخواله بواسطة إذ هم في الحقيقة أخوال أبيه عبد المُطَّلب؛ لأن هاشمًا تزوج من بني عدي فولدت له عبد المُطَّلب، وأما أخوال عبد الله فإنما هم من قريش من بني مخزوم **(من الطائفة)** أي القبيلة **(النَّجَّارِيَّة)** المنسوبة الى تيم النجار، قيل له النَّجَّار: لأنه اختتن بقدوم أي آلة النجار، وقيل لأنه نجر وجه رجل بقدوم.

(ومكثَ) أي لبث وأقام **(فيهم)** أي بينهم **(شهرًا)** كاملاً، والشهر من الشهرة، يقال: شهره إذا أظهره، وسمي الشهر شهرًا لظهور أمره؛ لأن حاجات الناس داعية إلى معرفته بسبب ديونهم وأداء نسكهم وصومهم، والشهرة ظهور الشيء، وسمي الهلال شهرًا لشهرته وظهوره، وفي «القاموس»: والشهر الهلال والقمر، أو هو إذا ظهر وقارب الكمال والعدد

(١) هو عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي، أبو الفلاح (١٠٣٢ ـ ١٠٨٩ هـ) مؤرخ، فقيه، عالم بالأدب، ولد في صالحية دمشق، وأقام بالقاهرة، ومات بمكة حاجًا. انظر: الأعلام (٣/ ٢٩٠).

المعروف من الأيام لأنه يشهر بالقمر، جمعه أَشْهُر وشُهُور.

(سقيمًا) أى مريضًا حال من فاعل مكث، وكانوا لشفقتهم عليه ومزيد إكرامهم له لما عليهم من حقوق الرحم (يُعانون) بالعين المهملة من المعاناة وهى المقاساة كما فى «المختار» أى يقاسون (سُقْمَهُ) بضم السين وسكون القاف أو بفتحها أى مرضه بالمعالجة (و) يعانون (شكواه) أى ما يشكوه عليهم من آلامه الناشئة عن شدة مرضه، فكانوا يسعون له بما ينفعه من كل وجه من دواء وغيره رجاء أن يتعافى من سُقْمه ويعود إلى وطنه وحرمه، والله غالب على أمره، فنقل روحه إليه فى هذه البلدة الطيبة الشريفة، فهنيئًا له حيث صارت عرصة مدفنه مجاورة لمدفن ابنه زين الوجود وأشرف كل موجود من خلق الكريم الودود.

فلما قدم أصحابه مكة سألهم أبوه عبد المُطَّلب عنه فقالوا: خلَّفناه عند أخواله بنى عدى بن النَّجَّار، وهو مريض، فبعث إليه أخاه الحارث ـ وهو أكبر أولاد عبد المطلب ـ فوجده قد توفى. وقيل: أرسل إليه شقيقه الزبير فشهد وفاته.

(ولما تَمَّ) أى كمل (من) أيام (حمله) أى حمل أمه به ﷺ (على) القول (الرَّاجِحِ) من الأقوال الخمسة المختلفة فى قدر مدة حمل أمه به ﷺ هل هى تسعة أشهر أو أقل أو أكثر كما حررها العلامة الشيخ إبراهيم الزبيدى فى «منية ذوى الهمم فى بيان تحرير الأقوال المختلفة فى أوقات مولد ومبعث وإسراء وهجرة ووفاة رسول الله ﷺ» وهى الأطوار الخمسة المحمدية التى أشار بعض المحققين إلى كونها جديرة بالاعتناء بها لكونها أجل وأعظم ما وقع له ﷺ من الأحوال العليَّة (تسعة) بالمثناة الفوقية (أشهر) كاملة فعن أبى زكريا بن عائذ: بقى ﷺ فى بطن أمه تسعة أشهر كَمَلا بفتحتين مخفف الميم أى كاملة، وبهذا القول صدر مُغْلَطاى قال فى «الغرر»: وهو الصحيح.

وهو لا يظهر إلا على القول بأنها حملت به ﷺ فى رجب وولدته فى ربيع

الأول أو الآخر من غير تعيين يوم الحمل والولادة؛ لأنه يمكن أن يقال حينئذ على الأول: إن الحمل به كان فى أول يوم من رجب والولادة كانت فى آخر يوم من ربيع الأول، ولعلها وافقت يوم الاثنين كما هو أحد الأقوال الآتية فى يوم الولادة أنها يوم الإثنين من ربيع الأول، هكذا من غير تعيين ما مضى منه. وأما على أنها فى ربيع الآخر فظاهر، وأما على القول بأنها حملت به فى رجب وولدته فى رمضان فلا يظهر إلا أن يقال حينئذ: أن الحكم عليها بأنها كاملة حكم على غالبها، وإلا فيلزم على القول الراجح بأن الولادة يوم الإثنين ثانى عشر ربيع الأول أن يكون ابتداء الحمل فى جمادى الثانى مثلاً، ولم أقف على ذلك، ولذا عدل المصنف رحمه الله تعالى.

(قمرية) لعدم اقتضائه كون الأشهر كلها كاملة، والقمر هو اسم للهلال لكن بعد مضى ثلاثة أيام من أول الشهر، وهو فى غلاف من ماء، فكل ليلة يظهر منها شىء حتى يتكامل بدرًا، ثم يعود قليلاً قليلاً حتى يعود كالعرجون القديم، فيقطع الفلك فى ثمانية وعشرين ليلة، ثم يختفى حتى يطلع هلالاً، وهو مخلوق من نور العرش، قاله القرطبى فى [تفسير] سورة «يس».

وفيه احتراز عن الأشهر الرومية والقبطية فإن لها حسابًا آخر مذكور فى محله من كتب الفن؛ إذ الأشهر القمرية هى أشهر السنة العربية.

(وآن) بالمد أى حان وقرب **(للزَّمانِ)** المعهود على الولادة النبوية وظهور الطلعة المحمَّدية **(أن ينجلى)** أى ينكشف ما كان يعلوه بسبب قبائح الجاهلية من شنيع الأفعال وفظيع الأعمال التى كانوا عليها من عبادة الأوثان والأصنام ونحو ذلك مما كانوا يعدونها أمورًا حسنة دينية، إلا الذين هداهم الله وألهمهم لابتغاء مرضاته فتركوا ما كانوا عليه، ومالوا إلى الدين الحنيفى: كزيد بن عمرو بن نُفَيْل، وورقة بن نَوْفَل، وأضرابهما ممن كان يطلب مطلبهما، فكانوا لغيرهم من الجاهلية مخالفين كما يعلم ذلك الواقف على أخبارهم وقصصهم فى كتب المؤرخين، حتى صار كالعطشان فى شدة الاشتياق إلى ظهور ذاته

المحمدية المصطفوية ليزول به ﷺ (عنه) أى الزمان (صدَاه) أى عطشه الناشىء له بسبب ما مر، وفيه تشبيهه ﷺ بالبحر بجامع الحياة بكل.

و (حضَرَ) بالتذكير فيه للفصل بينه وبين فاعله المؤنث الحقيقى وهو جواب لما.

(أمُّهُ) آمنة (ليلة مولده) ﷺ أى ليلة يوم ولادته إذ الصحيح أنه ولد نهاراً بُعَيْدَ طلوع فجر يوم الإثنين ثانى عشر ربيع الأول كما يأتى.

(آسيَةُ) بالمد وكسر السين المهملة وتحتية مخففة مفتوحة من الأسى بمعنى الأسفَ أو الحزن، بنت مُزَاحِمْ. قيل: إسرائيلة وأنها عمة موسى، وقيل: إنها بنت عم فرعون وأنها من العمالقة، وهى امرأة فرعون ذات الفراسة الصادقة فى موسى حين قالت: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ [1] ومن فضائلها: أنها اختارت القتل على الملك، وعذاب الدنيا على النعيم الذى كانت فيه، وضرب الله بها المثل للمؤمنين: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [2] ومن عجيب أمرها: أنها لما تزوّجها فرعون كرهًا وهمَّ بها أخذه الله عنها فرضى بالنظر إليها فلم يصبها أبدًا.

(ومريمُ)، ﴿ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [3] الآية إلى غير ذلك من الآيات المنوهة بقدرها والمصرحة بعظيم فخرها، قيل: إنهما نبيتان، بل قال القرطبى: الصحيح أن مريم نبية. لكن قال القاضى عياض: الجمهور على خلافه، وبعضهم نقل الإجماع على عدم نبوّة النساء، وهو الصحيح، وجملة من اختلف فى نبوتهن ست: هاتان، وحواء، وسارة، وهاجر، وأم موسى واسمها يوحانذ.

وقيل: مريم من ذرية سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وبينها وبينه أربعة وعشرون أبًا.

---

(١) سورة القصص: ٩.

(٢) سورة التحريم: ١١.

(٣) سورة التحريم: ١٢.

والمشهور أنها لم تتزوّج أصلاً، وقيل: إنها تزوجت بابن عمها يوسف النجار ولم يقربها.

ولما رفع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان سنها ثلاثًا وخمسين سنة تعلقت به وبكت، فقال لها: إن القيامة تجمعنا. وبقيت بعد ذلك خمس سنين أو ست سنين.

(فى) أى مع **(نُسْوَة)** بكسر النون وضمها أى نساء من الحور العين أى نزلن **(من الحَظيرة)** بفتح الحاء المهملة وكسر الظاء المعجمة المثالة بعدها مثناة تحتية **(القُدْسيَّة)** أى المقدسة المطهرة عن جميع الأكدار الدنيوية، وحظيرة القدس من أسماء الجنة قال فى «النهاية» وفى الحديث: «لا يلج حظيرة القدس مدمن الخمر» أراد بحظيرة القدس الجنة، وهى فى الأصل الموضع الذى يُحاط عليه لتأوى إليه الإبل والغنم، يقيها البرد والريح[1]. انتهى.

قال الزرقانى: ولعل حكمة شهودهم كثرة الحور له فى الجنة، كما أن مريم وآسية من نسائه فى الجنة كما فى الحديث[2]. انتهى.

(وأخذها) أى آمنة **(المَخاضُ)** قال البيضاوى بفتح الميم وكسرها مصدر مخضت المرأة إذا تحرك الولد فى بطنها للخروج. وذكر أبو سعيد النيسابورى[3] فى «شرف المصطفى» ـ ورواه عنه الحفاظ وسكتوا عليه ـ عن كعب الأحبار، ورواه أبو نعيم عن ابن عباس: أن آمنة كانت تقول: «أتانى آت حين مرَّ بى من حملى ستة أشهر فركضنى برجله وقال: يا آمنة إنك حملت بخير العالمين، فإذا ولدتيه فسميه محمدًا واكتمى شأنك» فكانت تحدث عن نفسها وتقول: «أخذنى يوم الإثنين ما يأخذ النساء من الألم، ولم يعلم بى أحد من

(١) النهاية فى غريب الحديث (١/ ٤٠٤).

(٢) روى ذلك الطبرانى عن سعد بن جنادة (الدر المنثور ٦/ ٢٧٨).

(٣) هو عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابورى الخَرْكُوشِىُّ، أبو سعد المتوفى سنة (٤٠٧ هـ) واعظ، من فقهاء الشافعية بنيسابور، رحل إلى العراق والحجاز ومصر، وله تصانيف عديدة منها: «دلائل النبوة» و «شرف المصطفى». الأعلام (٤/ ١٦٣).

قرابتى، وإنى لوحيدة فى المنزل، وعبد المُطَّلب فى طوافه غائب عنى، فسمعت وجبة عظيمة وأمرًا شديدًا، فهالنى ذلك، فرأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادى فذهب عنى الرَّوْع من كل وجع كنت أجده، ثم التفت فإذا بشربة بيضاء فيها لبن، وكنت عطشانه، فتناولتها فشربتها، فأصابنى نور عال، ثم رأيت نسوة كالنخل طوالاً كأنهن بنات عبد مناف يحدقن بى، فبينما أنا أتعجب وأقول: يا غوثاه من أين علمن بى؟!».

وفى رواية: «فقلن: نحن آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وهؤلاء من الحور العين، فاشتد الأمر، وإنى أسمع الوجبة كل ساعة أعظم وأكبر وأهول مما تقدم، فبينما أنا كذلك إذا بديباج أبيض قد مُدّ بين السماء والأرض. وإذا قائل يقول: خذوه عن أعين الناس».

قالت: «ورأيت رجالاً قد وقفوا فى الهواء بأيديهم أباريق من فضة وإناء ترشح من عنبر، عَرْفه أطيب من ريح المسك الإذفر، وأنا أقول: ياليت عبد المُطَّلب دخل علىّ».

قالت: «ثم نظرت فإذا أنا بقطعة من الطير قد أقبلت حتى غطت حجرتى، مناقيرها من الزمرد، وأجنحتها من الياقوت، فكشف الله عن بصرى فأبصرت فى ساعتى تلك مشارق الأرض ومغاربها، ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات: علمًا فى المشرق، وعلمًا فى المغرب، وعلما على ظهر الكعبة».

قالت: «فأخذنى المخاض واشتد بى الأمر جدًا، وكأنى مستندة إلى نساء، وكثرن علىّ حتى كأنهن معى فى البيت»[1].

(فولدته) أى آمنة أم النبى ﷺ حال كونه (نورًا) أى ضياء لامعا (يتلألأ) أى يلمع (سَنَاه) أى ضوءه، وهو مقصور، قال الله عز وجل: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ بِالأَبْصَارِ﴾[2]. والسناء من الحسب ممدود.

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٤٦٥)، وقال السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٨١): فيه نكارة شديدة، وقال القسطلانى فى المواهب (١/ ٦٦): وهو مما تكلم فيه.

(٢) سورة النور: ٤٣.

قالت آمنة: «فلما خرج من بطنى نظرت إليه فإذا هو ساجدٌ قد رفع أصبعيه إلى السماء كالمتضرع المبتهل، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت تنزل من السماء حتى غشيته، فغيب عن وجهى برهة، فسمعت مناديًا ينادى، وقائلاً يقول: «طوفوا بمحمد مشارق الأرض ومغاربها وأدخلوه إلى البحار كلها ليعرفه جميع من فيها باسمه ونعته وصفته وبركته، ويعلمون أنه سُمِّى فيها الماحى لا يبقى شىء من الشرك إلا محى فى زمنه»[1].

وقد مر عن كعب الأحبار: أن الملائكة طافت بطينته لما أراد الله تعالى خلقه ﷺ حول العرش والكرسى، وفى السموات والأرض والجبال والبحار، فعرفت الملائكة وجميع الخلق محمدا ﷺ.

ففى قول الزرقانى: خُصت الأرض بذلك دون السماء لأنها محل بعثته وظهور رسالته نظر.

وقالت: «ثم انجلت السحابة عنه فى أسرع من طرفة عين فإذا به مندرجٌ فى ثوب صوف أبيض، أشد بياضًا من اللبن، وتحته حريرة خضراء، وقد قَبَضَ على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الأبيض الرطب، وإذا بقائل يقول: «قبض محمد ﷺ على مفتاح النصر، وعلى مفتاح الذكر، وعلى مفتاح النبّوة»[2]. . انتهى.

وهو مما تكلم فيه، وإنما ذكرناه لشهرته فى المواليد، ولأن أمره ﷺ وشأنه فوق هذا فلا بأس بذكره.

قال بعض الحفاظ: وأعجب منه ـ قال غيره: ولا عجب ـ ما ذكره الخطيب عنها أيضًا أنها قالت: «رأيت سحابة أعظم من الأولى ولها نور، وأسمع فيها صهيل الخيل، وخفقان الأجنحة، وكلام الرجال، حتى غشيته، وغُيِّب عنىّ أطول من المرة الأولى فسمعت مناديًا ينادى: طوفوا بمحمد جميع الأرضين، وعلى مواليد النبيين، واعرضوه على روحانى [من] الجن والإنس والملائكة

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٤٦٥)، وقال السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٨١): فيه نكارة شديدة، وقال القسطلانى فى المواهب (١/ ٦٦): وهو مما تكلم فيه.
(٢) أخرجه أبو نعيم فى الدلائل ص (٤٦٧)، وقال السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٨١): فيه نكارة شديدة.

والطير والوحش، واعطوه خَلق آدم ـ بفتح الخاء ـ ومعرفة شيث، وشجاعة نوح، وخُلَّة إبراهيم، ولسان إسماعيل، ورضاء إسحاق، وفصاحة صالح، وحلم لوط، وبشرى يعقوب، وجمال يوسف، وشدة موسى، وصبر أيوب، وطاعة يونس، وجهاد يوشع، وصوت داود، وحب دانيال، ووقار إلياس، وعصمة يحيى، وزهد عيسى، وأغمسوه فى أخلاق النبيين[(١)].

وكان ﷺ فى جميع ما ذكر بالمنزل الأعلى فكانت معرفته لا تستقصى، وشجاعته لا تحصر، وخُلَّته لا تساويه خُلَّة غير، وفصاحته لا يدانيه فصاحة أحد، أعلم الناس باللغة العربية، وأرضى الخلق بأمر ربه، وبَلَغَ من الحكمة والعلم ما لا مضارع له فيه، وكان بشرى يعقوب بسلامة ولده، وقد بشر ﷺ بأمور كثيرة، أشد الناس فى الدين والقوة. وأيضًا فأحواله فى الصبر لا يضبطها الحصر، وكان طاعة يونس لله من السبع، وطاعة المصطفى لربه قبل السبع من وقت الرضاع، وجهاد يوشع الجبابرة كان بعد موسى يوم الجمعة ووقفت له الشمس ساعة حتى فرغ من القتال، وجاهد نبينا ﷺ الجبابرة ببدر يوم الجمعة، ونصره الله ثم استمر مجاهدًا حتى توفاه الله، واستمر الجهاد فى شرعه إلى يوم القيامة.

وفاق داود عليه السلام فى الصوت، ويوسف فى الحسن كما قال ﷺ: «لم يبعث الله نبيًا إلا حسن الوجه حسن الصوت، وإن نبيكم أحسنهم وجهًا وأحسنهم صوتًا»[(٢)].

ولله در العارف بالله الشيخ البوصيرى فى بُردة المديح حيث قال:

مُنَزَّهٌ عن شريكٍ فى مَحَاسنه ... فجوهرُ الحُسنِ فيه غَيْرَ مُنْقَسِمِ[(٣)]

ولم يُفْتَتَن به كيوسف لغلبة جلاله على جماله فلم يستطع أحد أن يُمعن النظر فيه عليه الصلاة والسلام لقوة مهابته ومزيد وقاره، وقد عصمه الله من

(١) هو جزء من الحديث الذى مرَّ.

(٢) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

(٣) المجموعة النبهانية (٤/ ٥).

كل شيء من أول أمره إلى آخر عمره، وفاق كل زاهد كما سيأتى تحقيق أكثر ذلك فى أماكنه من شرحنا هذا.

قالت آمنة: «ثم انجلت عنى فى أسرع وقت وإذا به قد قبض على حريرة خضراء مطوية طيًا شديدًا، ينبع من تلك الحريرة ماء معين، وإذا بقائل يقول: قبض محمد على الدنيا كلها لم يبق خلق من أهلها إلا دخل طائعا فى قبضته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم القادر على ما يريد». وفى رواية قالت: «ثم انجلت عنىّ فإذا به قد قبض على حريرة خضراء مطوية طيًا شديدًا، ينبع من تلك الحريرة ماء، وإذا بقائل يقول : بَخٍ بَخٍ قبض محمد على الدنيا كلها».

قالت: «ثم نظرت إليه وإذا به كالقمر وريحه يسطع كالمسك الإذفر»(١).

ولا ينافيه ما يأتى فى مبحث الشمائل عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن ظهور النفحات منه ظهر بعد الإسراء؛ لأن هذا طيب ذاتى، وذاك طيب مكتسب من العالم الأقدس، والكامل يقبل الكمال.

«وإذا بثلاثة نفر فى يد أحدهم إبريق من فضة، وفى يد الثانى طست من زمرد أخضر، وفى يد الثالث حريرة بيضاء، فنشرها فأخرج منها خاتمًا تحار أبصار الناظرين دونه، فغسله من ذلك الإبريق سبع مرات، ثم ختم بين كتفيه بالخاتم، ولفه فرده إلىّ»(٢).

وقد يقال: ما حكمة أصل غسله وقد ولد نظيفًا ما به قذر كما يأتى، وما حكمة كون الغسل سبعًا؟ وسيأتى فى مبحث شق صدره الشريف فى الرضاع وإخراج الأذى منه مرارًا أن الرواية ضعيفة، وعلى فرض صحتها فيحتمل أن يكون ذلك لمزيد الاعتناء بشأنه ﷺ والمبالغة فى تطهير جسده الشريف، كما أن إخراج ذلك الأذى منه كان استقصاء لتنظيف جوفه ومبالغة واعتناء بشأنه ﷺ.

(١) جزء من الحديث السابق.
(٢) جزء من الحديث السابق.

وروى الحافظ ابن عائد[1] فى كتابه «المولد» كما نقله عنه الشيخ بدر الدين الزركشى[2] فى «شرح بُردة المديح» عن ابن عباس: لما ولد النبى ﷺ قال فى أذنه رضوان خازن الجنان: أبشر يا محمد فما بقى لنبى علم إلا وقد أعطيته فأنت أكثرهم علما وأشجعهم قلبا[3].

فائدة

ذكر أن أم إمامنا الشافعى رأت وهى حامل به أن النجم المسمى بالمُشْتَرَى خرج منها فوقع فى مصر، ثم وقع فى كل بلدة منه شظية، فتأول ذلك أصحاب الروايات بأنها تلد عالما يكون علمه بمصر أولاً ثم ينتشر إلى سائر البلدان.

ثم نقل المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ من القصيدة الهمزية البوصيرية ستة أبيات شهيرة لما تضمنته من الثناء الفخيم على المولد السنى والمولود العظيم، وفخار أمه به ﷺ على جميع نساء العالم، مع تقديم وتأخير فيها لنكتة قصدها فى البيت الأخير وهى ـ والله أعلم ـ القطع بثبوت الهنا لجميع الخلق.

[وَمُحَيًّا كَالشَّمْسِ مِنْكَ مُضِيءٍ ... أَسْفَرَتْ عَنْهُ لَيْلَةٌ غَرَّاءُ
لَيْلَةُ الْمَوْلِدِ الَّذِى كَانَ لِلدِّ ... ينِ سُرُورٌ بِيَوْمِهِ وَازْدِهَاءُ
مَوْلِدٌ كَانَ مِنْهُ فِى طَالِعِ الْـ ... ـكُفْرِ وَبَالٌ عَلَيْهِم وَوَبَاءُ
يَوْمَ نَالَتْ بِوَضْعِهِ ابْنَتُ وَهْبٍ ... مِنْ فَخَارٍ مَا لَمْ تَنَلْهُ النِّسَاءُ
وَأَتَتْ قَوْمَهَا بِأَفْضَلَ مِمَّا ... حَمَلَتْ قَبْلُ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ
وَتَوَالَتْ بُشْرَى الْهَوَاتِفِ أَنْ قَدْ ... وُلِدَ الْمُصْطَفَى وَحَقَّ الْهَنَاءُ][4]

(١) هو يحيى بن مالك بن عائذ، ابو زكريا الأندلسى، حافظ، مات بالأندلس سنة (٣٧٦ هـ). انظر: تذكرة الحفاظ (٣/١٠٠٣ رقم الترجمة ٩٣٦)، سير أعلام النبلاء (١٦/٤٢١).

(٢) هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشى (٧٤٥ ـ ٧٩٤ هـ) فقيه شافعى مات بمصر. انظر: الأعلام (٣/٣٩٧).

(٣) أورده القسطلانى فى المواهب اللدنية (١/٦٦)، والسيوطى فى الخصائص الكبرى (١/٨٤) وقال: قال ابن دِحْية فى «التنوير»: هذا حديث غريب.

(٤) المجموعة النبهانية (١/٧٨).

فقال: (ومُحَيًا) بضم الميم وفتح الحاء المهملة فمثناة تحتية مشددة، مقصور مرفوع بالعطف على فاعل حبذا السابق فى البيت الذى قبله وهو عقد أى وحبذا وجه. (كالشمس) متعلق بمحذوف صفة أولى لمحيا وقوله (منك) حال منه وقوله (مضىء) صفة ثانية، هذا هو المتعين فى إعراب البيت، وأما تجويز بعضهم كون (مضىء) مبتدأ مؤخرا و (كالشمس) خبرًا مقدمًا وجعل (منك) صفة لمحيا كما يؤخذ من قوله أوحال منه لتخصيصه بمنك إذ لا يتخصص به إلا إذا كان صفة ففيه مع التكلف الذى لا داعى إليه الفصل بين المبتدأ والخبر بأجنبى وهو منك الواقع صفة لمحيا لأنه ليس معمولاً للمبتدأ الذى هو مضىء ولا للخبر الذى هو (كالشمس) وشاهد هذا حديث البخارى عن الربيع بنت مُعَوِّذ[1]: «لو رأيته لقلت الشمس طالعة». وحديث أحمد والترمذى والبيهقى وابن حبَّان عن أبى هريرة رضى الله عنه: «ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجرى فى وجهه»[2].

وورد تشبيهه أيضًا بالقمر فى قول ابن أبى هالة: «يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر»[3] ولكل من الشبيهين وجه يرجحه على الآخر.

فوجه ترجيح التشبيه بالقمر على التشبيه بالشمس أن القمر جسد يملأ نوره الأرض أحوج ما كانت إليه ويؤنس كل من شاهده، فهو مجمع النور من غير أذى، ويتمكن الناس من مشاهدته، بخلاف الشمس فإنها وإن يملأ نورها الأرض لكن تغشى البصر من تمكن الرؤية إليها.

وأما وجه ترجيح التشبيه بها على التشبيه بالقمر: أن صفة الشمس من الإشراق والإضاءة، وصفة القمر من الحسن والملاحة، ووجه الشبه مراع. وأيضًا فنور الشمس ذاتى كنوره ﷺ فإنه ذاتى أيضًا بخلاف نور القمر فإنه

(١) هى الربيع بنت معوذ بن عفراء النجارية، الأنصارية، صحابية من ذوات الشأن،بايعت النبى ﷺ بيعت الرضوان، وصحبته فى غزواته، توفيت نحو سنة (٤٥ هـ). انظر: الأعلام (٣/ ١٥).

(٢) الترمذى (٣٦٤٨).

(٣) جزء من حديث أخرجه البيهقى فى الدلائل (١/ ٢٨٦) مطولاً.

عرضى مكتسبٌ من نور الشمس، وحينئذ فالتشبيه بها مع رعاية وجه التشبيه بها أبلغ منه بالقمر. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (١) وشتان ما بينهما فعلم أن فى كل منهما أبلغية من جهته.

(أَسْفَرَتْ) صفة لمحيا أيضًا، أو حال منه على تقدير قد، والرابط بين الصفة والموصوف على الأول وبين الحال وصاحبها على الثانى الضمير المجرور بعن أى: انجرت وزالت وانقضت وانكشفت (عنه) أى عن ذلك المحيا، أو أضاءت متجاوزة عنه (ليلةٌ) عظيمة (غَرَّاءُ) أى بيضاء بظهور نوره فيها وفى عقبها، وهذا أولى من جعل كونها غراء من حيث ظهور القمر فيها بناء على أنها ليلة ثانى عشر، أو من حيث كونها من غرة الشهر أى أوله بناء على أنها الليلة الثانية من الشهر، وغرته ثلاث ليال؛ لأن كلاً من هذين لا مدح فيه له ﷺ بخلاف الأول من الغرة، وهى بياض فى وجه الفرس فوق الدرهم، فهى غرة.. ففيه إشارة إلى أن تلك الليلة استنارت بنوره فكانت غرة فى وجه الدهر، ثم أبدل منها قوله: (ليلة المولِد) على وزن مفعل بكسر العين لا غير مصدر ميمى بمعنى الولادة. قال أبو الفضل فى شرحه: المولد بالكسر زمن الولادة ومكانها.. انتهى. وكلاهما غير مقصود هنا بل المقصود الأول.

(الذى كان) أى دام واستمر على حد قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢) وهى ناقصة (للدينِ) خبرها، وهو لغة الجزاء، واصطلاحًا الشرع المبعوث به ﷺ، وَحُدَّ أيضًا بأنه وضعٌ إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم فى معاشهم ومعادهم.

(سُرورٌ) اسمها أى فرح عظيم (بيومهِ) أى فى يومه أو كان السرور بنفس اليوم من حيث الولادة فيه، وأضاف ذلك ليوم المولد دون ذاته مبالغة فى زيادة عظمته؛ لأن ذلك إذا وقع لظرفه التابع له فكيف بذاته. واليوم هو من طلوع

(١) سورة يونس: ٥.

(٢) سورة النساء: ٩٦.

الشمس إلى غروبها كما عند الفلكيين ونحوهم، أو من طلوع الفجر كذلك كما عند الشرعيين، فالخلاف في المبدأ.

(وازدهاءُ) وأصله ازتهاء من الزهو أعنى التكبر والفخر ووقعت تاء الافتعال ـ وهى من الحروف الرخوة ـ بعد زاى شديدة فتنافرتا فأبدلت دالاً، ثم أبقيت بلا إدغام ويجوز إدغامها بعد قلبها زايا والزاى دالاً فى الأخرى، وقد شبه الدين على طريق الاستعارة المكنية بمن يأتى له أن يسر ويفرح، وخيل له بالسرور لوروده به ﷺ موارد الإظهار على الدين كله وانتطاقه الشرف، وتوشحه وشاح الاستقامة إلى يوم القيامة بشهادة: «لا تزال طائفة من أمتى. . .» الحديث[1].

فالمعنى لما كانت هذه الليلة الغراء هى ليلة ولادتك وأنت أشرف مولود سُرَّ الدين وأهله باليوم الذى برزت فيه إلى هذا الوجود على الوجه الأكمل، وافتخر به على سائر الأديان والأيام، واستقام ذلك إلى يوم القيامة أى إلى قربه لِما قيل من أنه يُفقد الدين، ولا يوجد له أثر قبل النفخة الأولى بمائة وعشرين سنة.

(مولدٌ) عظيم بالجر بدل من المولد والرفع خبر مبتدأ محذوف **(كان)** أى صار على الدوام **(منه)** أى من أجله أو من لابتداء الغاية **(فى طَالِعِ)** أهل **(الكفرِ)** الذى يطلع به على ما يحل بهم من نجم أو رؤيا أو غيرها فهذا هو المراد بالطالع، وقيل المراد به غير ذلك **(وبالٌ)** أى هَمٌّ وغَمٌّ عظيمٌ **(عليهم)** أى على أهله الذين هم الفُرس بدليل السياق أو أعم بدليل الواقع **(ووباءُ)** يُقصر ويُمد لغة وإن كان المد متعينًا هنا للوزن، وهو المرض الشديد العام، ويقال: هو كثرة الموت بغير سبب بخلاف الطاعون فإنه الموت بسبب طعن الجن للإنس.

وفى قوله: «وبال ووباء» الجناس اللاحق، وهما كنايتان عما اعترى لهم بوجوده من إشراف ملكهم على الزوال ومما حل بهم من البوار والوبال والهوان.

(١) أخرجه ابن ماجه (٦)، الترمذى (١٢٢٩)، أحمد فى مسنده (٩٧/٤)، البيهقى فى السنن (١٨١/٩).

(يومَ) قال فى «المنح»: بدل من مولد. ويرد عليه أنه أعرب مولد الثانى بدلا من المولد الأول، أو خبرًا مبتدؤه محذوف. فعلى الأول: يلزم عليه البدل من البدل وفيه ما فيه. فتتعين البدلية فى يوم على كون مولد الثانى خبر مبتدأ محذوف وهو اسم زمان.

(نَالت) أى أعطيت **(بوضعه)** أى بسببه آمنة **(ابنتُ وَهْب)** ابن عبد مناف المار **(مِنْ)** بيانية **(فَخَار)** على وزن سلام: التمدح بالخصال العلية والشيم المرضية **(ما لم تنله النسَاءُ)** حتى حواء، وهذا لا يقتضى أفضليتها على حواء إلا من حيث أنها ولدته بلا واسطة، وإلا فحواء أفضل منها للاختلاف فى إيمانها بل وفى نجاتها، وإن كان الصحيح بل الصواب بل الواجب القول بهما كما مر بخلاف حواء؛ لأن الإجماع قام على إيمانها الكامل بل قيل بنبوّتها.

(و) يوم **(أتت)** آمنة **(قَوْمَهَا)** اسم جمع للذكور كما فى «شرح الأشمونى على الخلاصة» آخر باب جمع التكسير، فما فى «المنح» من أنه اسم جنس غير مُسَلَّم، وتدخل فيه النساء تبعا كما هنا، وقيل إنه خاص بالذكور لظاهر قول الشاعر:

وما أدرى وسوفَ إخال أدرى ... أقومٌ آلُ حصنٍ أمْ نساءُ

(بأفضلَ) أى بمولود أفضل بالإجماع **(مما)** أوقع ما على ذات العالم وهو عيسى عليه السلام، وإن كانت فى الأصل موضوعة لغير العالم على قول بعض أئمة اللغة خلافًا للأكثرين فإنها عندهم موضوعة له ولغيره كما قال فى «التلويح» ملاحظة لصفة غير مفهومة من الصلة من كونه مولودًا أو نحوه على سبيل المجاز؛ لأنه لما كان الملحوظ فيه ذلك وهو من غير العالم كانت كأنها مستعملة فى غير العالم، ونظير ذلك قوله تعالى: **﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾** الآية(1).

والمعنى انكحوا الموصوفة بأى صفة أردتم من البكر والثيب إلى غير ذلك

(1) سورة النساء: ٣.

من الأوصاف، وتقييد الصفة بغير المفهومة مما ذكر: لدفع ما يرد من أن كل موصول استعمل فى العالم نحو: جاءنى من قام، ملحوظ الصفة المفهومة من صلته لوجوب ملاحظة الصلة، فقول بعضهم بعد ذكر الآية: أى الطيب فيه نظر لما علمته. والتعبير بالعالم أولى من التعبير بالعاقل: لأنه لا يشمل البارىء تعالى مع ورود إطلاقها عليه تعالى كقول بعضهم: سبحان ما سخركن لنا.

(قد أتت) به وفى نسخة: حملت **(قبلُ)** أى قبل آمنة **(مريمُ)** ابنت عمران الصديقة بنص القرآن كما مر **(العَذْرَاءُ)** أى البكر لأنها لم تتزوّج على ما مر، والعُذرة بضم العين: البكارة، وتطلق أيضًا على معان منها: الناصية ـ وهى الخصلة من الشعر ـ، وقلفة الصبى، والشعر على كاهل الفرس.

(وتوالت) أى تتابعت **(بُشرى)** أى بشارة **(الهواتف)** للناس جمع هاتف، وهو ما يسمع هتفه أى صوته، وقيل: صوته الخفى ولا يُرى شخصه، والمراد هنا أعم من ذلك؛ لأن البشارة به ﷺ جاءت فى ألسنة الأحبار والكهان والجان كما استوعبه أهل السير وجمع أكثره ابن ظفر[1] فى كتابه «البُشر بخير البشر» وقد تقدم نزر يسير من ذلك، ومنها أيضًا: ما جاء أنه حين ولد ﷺ هتف هاتفٌ على الحَجُون بفتح الحاء جبل بأعلى مكة:

فأقسم ما أنثى من الناس أنجبت ... ولا ولدت أنثى من الناس واحده
كما ولدت زُهْرية ذات مفخر ... مجنبة لوم القبائل ماجده

وهتف آخر على أبى قُبَيس بأربعة أبيات فيها معنى ذلك وزيادة[2].

ومنها: أن سواد بن قَارب الدَّوسى لما قدم على رسول الله ﷺ وحسن إسلامه أخبره أن رَئْيَهَ أنشده أبياتًا ثلاث ليال متوالية، وذكرها للنبى ﷺ وفيها

---

(١) هو محمد بن أبى محمد بن محمد بن ظفر، أبو عبد الله، الصَّقَلى المكى (٤٩٧ ـ ٥٦٥ هـ) أديب رحالة، مفسر، ولد فى صقلية، ونشأ بمكة، توفى بالشام، له تصانيف عديدة منها: «خير البِشر بخير البَشَر» و «أنباء نجباء الأبناء». الأعلام (٦/ ٢٣١)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٢٢).

(٢) ينظر الخبر والأبيات فى الوفا ص (٩٣).

حث «سواد بن قارب» على المجيء إلى رسول الله ﷺ والإيمان به وعظيم مدحه.

(أن) أي بأن متعلق ببشرى **(قد وُلِدَ المصطفى)** أي المختار على الخلق كلهم.

(وحَقَّ) بفتح الحاء أي ثبت. قال الله تعالى: **﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** (1) أي ثبتت، أو بضمها وبها قرئ في السبع، والحق من أسمائه تعالى بهذا المعنى؛ لأنه الثابت أزلاً وأبدًا لذاته، ويقال الحق لما يقابل الباطل؛ لأنه جدير بالثبوت كما أن الباطل جدير بالزهوق.. انتهى من شرح البيضاوي لابن السبكي. **(الهناءُ)** أي الفرح والسرور لكل الخلائق به. قال الله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾** (2) فقد علم من هذا والذي قبله وما سردناه من الروايات سابقًا في شرحنا هذا أن البشارات به ﷺ كانت مستمرة من حين حمله بل قبله بل في الكتب السماوية، حتى في الجنة قبل خلق آدم عليه السلام.

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

فائدة

ذكر بعضهم أن الهتف وقع في غير ما يتعلق بالمصطفى عليه الصلاة والسلام؛ فإنه سمع يوم موت إمام الحرمين(3) - رحمه الله - قائلاً من الجن يهتف بهذين البيتين وهما:

يا دهر بع رتب المعالي بعده ... بيع الكساد ربحت أم لم تربحِ

قَدِّم وأخِّر مَنْ تشاء من الورى ... مَاتَ الذي قَدْ كُنت منه تستحي

وقد خمسها ابن عطاء الله فقال:

فَتَكَ الزمانُ بنا وأظهر حده ... وغدا يحاربنا وينصر جُنْدهُ

---

(1) سورة الزمر: ٧١.

(2) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(3) هو إمام الحرمين، أبو المعالي الجُويني، عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن يوسف، الفقيه، الشافعي، أحد الأئمة الأعلام، توفي سنة (٤٧٨ هـ). انظر: شذرات الذهب (٥/٣٣٨)، سير أعلام النبلاء (١٨/٤٦٨).

ورمى عزيزا كان يُنْجز وَعـدَه   يا دهُر بِعْ رُتبَ المعالى بعدهُ
بيع الكساد ربحت أم لم تربح
دمعى على فقد الأحبةِ قد جرى   يوم الفراق فـلا تَسَلْ عمًّا جرى
يا دهرُ قد حكمتْ فافعل ما ترى   قدِّم وأخِّر من تشاء من الورى
مات الذى قد كنت منه تستحى

(هذا) معمول لفعل محذوف والتقدير: أعلم هذا ولا تفرط فى شىء منه. وقد يُؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر كما هنا **(و)** لا يخفى على الذائقين المستنشقين لعَرْف عطر عبير نَشْر ذكر أوصاف سيد المرسلين أن صفاته النبوية وأحواله الزكية يطرب عند سماعها كل محبّ صادق أديب أريب، فلذا ذكر غير واحد من العلماء أنه **(قد استحسن القيام)** أى عدّه حسنًا وحكم باستحبابه وندبه شرعًا **(عند)** أى لدى وصول القارىء للمولد إلى **(ذكر مولده)** أى ولادته ﷺ **(الشريف)** أى الذى له شرف ومزية على ولادة غيره ممن ولد من الأنبياء والمرسلين فضلا عن غيرهم من سائر الخلق أجمعين لما اشتمل عليه من الآيات العجيبة والخوارق الغريبة **(أئمة)** أى طائفة من العلماء العاملين المقتدى بهم وبأمثالهم فى الدين **(ذوو)** بواوين أى أصحاب **(رِواية)** بكسر الراء أى نقل عمن يقتدى به كالصحابة والتابعين والمجتهدين **(و)** ذوو **(رَوِيَّة)** بفتح الراء وكسر الواو وشد المثناة تحت، أى فكر وتدبر ونظر وتأمل ليأخذوها على الوجه الأتم.

وشاهد ما تقرر من استحسان جماعة من الأئمة الأعلام للقيام لشريف مولد سيد الأنام عليه من الله العظيم أفضل الصلاة والسلام ما ذكره بعض المحققين من أنه جرت العادة بأنه إذا ساق الوعاظ والمدّاح مولده ﷺ وذكروا وضع أمه له ﷺ قام أكثر الناس عند ذلك تعظيمًا له ﷺ.

وهذا القيام بدعة لا أصل لها لكنها بدعة حسنة لأجل التعظيم، ولذا قيل بندبها كما تقدّم إذ البدعة تنقسم إلى: واجبة، وإلى مستحسنة أى مندوبة،

وإلى غيرهما من بقية الأحكام الخمسة كما ذكره الأصوليون وغيرهم، وما أحسن قول الإمام البليغ حسَّان زمانه أبي زكريا يحيى الصَّرْصَرى [1] الحنبلى - رحمه الله تعالى - فى بعض قصائده النبوية:

قليلٌ لمدح المصطفى الخطُّ بالذهبْ ... على فضةٍ من خط أحسن من كَتبْ
وأنْ ينهض الأشرافُ عند سماعه ... قيامًا صفوفًا أو جثيًا على الرُّكَبْ
أما اللهُ تعظيمًا له كَتَبَ اسمه ... على عرشه يا رتبةً سَمَتْ الرُّتَبْ

وقد اتفق أن منشدًا أنشد هذه القصيدة فى ختم درس شيخ الإسلام بقية المجتهدين الأعلام تقى الدين السبكى - رحمه الله تعالى - وكان القضاة والأعيان مجتمعين عنده، فلما وصل المنشد إلى قوله: «وأن ينهض الأشراف عند سماعه...» إلى آخر البيت نهض الشيخ فى الحال قائما على قدميه امتثالا لما ذكره الصَّرْصَرىْ، وقام الناس كلهم، وحصلت ساعة تجل عظيمة، ذكر ذلك ولده التاج السبكى فى ترجمته من طبقاته[2].

قال بعضهم: ويكفى ذلك فى الاقتداء والعمل بعمله فإنه كان من كبار الأئمة وأساطين الأمة ففعل مثله حجة أىّ حجة يتضح بها للعامل الحجة.

(فطُوبى) هى اسم الجنة وقيل اسم شجرة فيها، وأصلها فعلى من الطيب قلبت ياؤه واوًا لضم ما قبلها، قاله الفراء، وقال: وفيها لغتان: تقول العرب طوباك وطوبى لك.

واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [3] فروى عن ابن عباس أن معناه فرحٌ وقرّة عين.

وقال عكرمة: نِعْمَ ما لهم.

---

(1) هو الإمام يحيى بن يوسف بن يحيى الأنصارى، أبو زكريا جمال الدين، شاعر ضرير من أهل بغداد، أكثر شعره فى مدح المصطفى ﷺ، قتله التتار ببغداد سنة (٦٣٦ هـ). انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢١١)، النجوم الزاهرة (٧/ ٦٦)، كشف الظنون (١٣٤٠).

(2) قال الحافظ الشامى فى السيرة الشامية (١/ ٤١٥): وهذا القيام بدعة لا أصل لها.

(3) سورة الرعد: ٢٩.

وقال الضحاك: غبطة لهم.

وقال قتادة: حُسنى لهم، وعن قتادة أيضًا: أصابوا خيراً.

وقال إبراهيم: خيرٌ لهم وكرامة.

وقال عجلان: دوام الخير.

وقيل: الجنة، وقيل: شجرة فيها، وكل هذه الأقوال محتملة هنا أيضًا.

وقد جاء لفظ طوبى في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «طوبى لمن بات حاجًا وأصبح غازيًا: رجلٌ ذو عيال متعفف، قانعٌ باليسير من الدنيا، يدخل عليهم ضاحكًا ويخرج منهم ضاحكًا، فو الذى نفسى بيده إنهم هم الحاجُّون الغازُون فى سبيل الله عز وجل» أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى هريرة رضى الله عنه[1].

وأخرج أيضًا عن عبد الله بن حنطب: «طوبى لمن رزقه الله الكفاف ثم صبر عليه»[2].

ومنها: «طوبى لمن تواضع فى غير منقصة، وذل بنفسه فى غير مسكنة، وأنفق من مال جمعه فى غير معصية، وخالط أهل العلم والحكمة، ورحم أهل الذل والمسكنة، طوبى لمن ذل نفسه، وطاب كسبه، وحسنت سريرته، وكرمت علانيته، وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله» أخرجه البخارى فى تاريخه عن ركب المصرى[3].

ومنها: «طوبى شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» أخرجه ابن حبان فى صحيحه، وأحمد فى مسنده عن أبى سعيد[4].

(١) مسند الفردوس (٣٧٣٦) وفيه إسحاق بن إبراهيم الدبرى: حوله كلام.

(٢) مسند الفردوس (٣٧٣٧) وفيه أحمد بن محمد بن مسروق: منكر الحديث.

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن (٤/ ١٨٢)، الطبرانى فى معجمه الكبير (٤٧١٥)، البخارى فى التاريخ الكبير (٣/ ٣٨٣)، الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٢٩)، السيوطى فى الجامع الكبير (١٥٢٧١). والحديث ضعيف. انظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٩)، والموضوعات لابن الجوزى (٣/ ١٧٨)، وفيض القدير (٤/ ٢٧٧).

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٧١)، موارد الظمآن (٢٣٠٢)، الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٦٧).

ومنها: «طوبى شجرة غرسها الله بيده، ونفخ فيها من روحه، تنبت بالحُلى والحُلل، وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة» أخرجه ابن جرير عن قرة بن إياس[1].

ومنها: «طوبى شجرةٌ فى الجنة لا يعلمُ طولها إلا الله، يسيرُ الراكبُ تحت غصن من أغصانها سبعين خريفًا، ورقها الحُلَلُ، يقع عليها الطير كأمثال البُخت»[2].

ثم على أنها اسم الجنة أو شجرة فيها فهو مبتدأ خبره ما بعده. وأما على أنها من الطيب فهو بدل من اللفظ بفعله وهو طاب والأصل طاب من كان... إلخ. وعلى كل فيحتمل أنه إخبار، وأنه دعاء، ثم الأولى أن يكون الأوّل هو المقصود هنا؛ وعليه أى فالجنة حاصلة (لمن) أى لشخص **(كان تعظيمُهُ)** أى النبى ﷺ وشرف وكرم **(غاية)** أى بنهاية **(مَرَامِه)** بفتح الميم، اسم مفعول من رام بمعنى طلب أو مصدر ميمى بمعنى اسم مفعوله (و) غاية (مَرْمَاه)، بفتح الميم وسكون الراء، ما يقصد بالرمى فشبه تعظيمه ﷺ بالمرمى بجامع الاعتناء والقصد فى كل، فإن الرامى مثلاً يعتنى غاية الاعتناء بأن لا يخطىء سهمه فيصيب ما رامه، فيجب على كل مسلم مؤمن بالله ورسوله أن يجعل تعظيمه ﷺ نصب عينيه ويعتنى به غاية الاعتناء حتى تصل همته العلية المشبهة بسهم الرامى إلى ما هو قاصده، وهو تعظيمه ﷺ بحيث لا يكون فوقه شىء غير تعظيم الله تعالى، كيف لا وقد عظمه الله تعالى وشرفه وفضله على من سواه من جميع الخلق، وقربه لديه وحباه بكمال حبه، وأرسله رحمة للعالمين ﷺ مادامت السموات مع الأرضين.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

---

(١) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (١٥٢٨٩) لابن جرير.

(٢) مسند الفردوس (٣٧٥٩)، مسند أحمد (٣/ ٧١).

[مولد النبى ﷺ عام الفيل]

ولما فرغ المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ من ذكر حمله ﷺ وذكر بعض ما كان فيه وقبله وبعده شرع الآن يتكلم على أحوال ولادته ﷺ فما بعدها من نشأته ورضاعه وغيرهما مما ستسمعه إن شاء الله تعالى فيما يملى عليك من نحو بعثته وهجرته وصفته فقال: (وَبَرَزَ ﷺ) أى ظهر فى هذا الوجود حال كونه (واضعًا) ومعتمدًا على (يديه) كلتيهما (على الأرض) وحال كونه (رافعًا رأسهُ) الشريف (إلى) جهة (السَّماء العَلِيَّة) ناظرًا إليها نظرًا حقيقيًا كما يعلم من حديث عطاء وابن عباس الآتى قريبًا وحال كونه (مُؤْمِيًا) بميم مضمومة وهمزة ساكنة وقد تبدل واوًا تخفيفًا فياء تحتية فى آخره مبدلة من همزة، اسم فاعل أومأ أى مشيرًا (بذلك الرَّفع إلى سُؤدده) أى سيادته (و) إلى (عُلاه) أى علو شانه (و) حال كونه (مشيرًا) أيضًا (إلى) إظهار (رِفْعَة) بكسر الراء، أى ارتفاع (قدره) العظيم بأنه يرتفع ويعلو فى الدنيا والآخرة (على) قدر (سائر) من السُؤْر بضم السين وإسكان الهمز هنا بمعنى باقى لا بمعنى جميع كما توهمه بعضهم وإلا لدخل نفسه حينئذ ولا يقال إنه ﷺ أرفع قدرًا على نفسه، وسيأتى كلامهم فى السائر فى مبحث الشمائل.

(البَرِيَّة) بتخفيف الراء المهملة وشدّ المثناة تحت، أى الخلق من إنس وجن ومَلَك، وأنه يصل إلى مراتب علية لا يصلها أحد حتى خواص الأنبياء والرسل.

(و) مشيرًا أيضًا إلى (أنه) ﷺ هو (الحبيب) لله سبحانه وتعالى على وجه لا يشاركه فيه أحد، والمحبة أصلها الميل إلى ما يوافق المحب، ولكن هو فى حق من يصح منه الميل والارتفاع بالرفق وهى درجة المخلوق، وأما الخالق تعالى فمنزه عن الأغراض فمحبته لعبده تمكنه من سعادته وعصمته وتوفيقه،

وتهيئة أسباب القرب إليه، وإضافة رحمته إليه، وقصواها كشف الحُجُب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وينظر إليه ببصيرته ولسانه الذى ينطق به، فهى أعم من الخُلة إذ الخُلة هى تخلل العبد فى الصفات الإلهية بحيث لا يشذ منها عنه، فالخُلة خاصة والمحبة عامة.

واختلفوا فى تفضيلها، فقال جماعة: إن المحبة أفضل، وقال جماعة: إن الخُلة أفضل، ويؤيد الأول حديث البيهقى فى «شعب الإيمان» عن أبى هريرة رضى الله عنه: «اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وموسى نجيًا، واتخذنى حبيبًا، ثم قال: وعزتى وجلالى لأوثرن حبيبى على خليلى ونجيى»(1) أى وعلى غيرهما من الأنبياء والمرسلين.

وحديث سلمان عند ابن عساكر قال: هبط جبريل على النبى ﷺ فقال: «إن ربك يقول لك إن كنتُ اتخذتُ إبراهيم خليلاً فاعلم أنى قد إتخذتُك حبيبًا، وما خلقتُ خلقًا أكرم علىَّ منك، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأُعرِّفهم كرامتك ومنزلتك عندى، ولولاك ما خلقتُ الدنيا»(2).

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإن كانوا فائزين بمحبة الله تعالى إياهم إلا أنهم لم يصلوا درجة محبته إياه ﷺ؛ فكل ما لواحدٍ منهم من المزايا من جهة الله تعالى مجتمعٌ فيه ﷺ على الوجه الأكمل الأشمل، فقد اجتمع فيه من المزايا ما تفرق فى غيره، وإن كان التحقيق أن أفضليته ﷺ ليست لمزاياه التى اختص بها وإنما أفضليته بتفضيل من الله تعالى. وبما تقرر عُلم أن مقام المحبة فى حق نبينا ﷺ أرقى من مقام الخُلة فى حق غير نبينا.

وقول بعضهم: لا مانع من أن يوجد فى المفضول ما لا يوجد فى الفاضل يُرد بأنه قد صح فى حديث المعراج عن أبى يعلى أنه قال له ربه: «اتخذتك خليلاً وحبيبًا» فثبت أنه خليل كإبراهيم وزاد كونه حبيبًا.

(1) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (٣٣١) للحكيم الترمذى، والبيهقى فى الشعب وضعفه، والديلمى، وابن الجوزى فى الموضوعات.

(2) قال الحافظ الشامى فى سيرته (١/ ٩٤): سنده واهٍ جدًا. وقال السيوطى فى اللآلئ (١/ ١٤١): موضوع.

وعلى تسليم بأن مقام الخُلَّة أرقى من مقام المحبة فنقول: إن محبة الله تعالى فى حقه بمقام الخُلَّة فى حق غيره. وقول ابن القيم - وهو ممن قال بأكملية الخُلَّة وجَهَّل من قال بخلافه - إن الخُلَّة هى نهاية المحبة دليل لما ذكرته لأنه ﷺ فى أعلى طبقات المحبة عند الله، فبهذا الإعتبار هى أعظم من الخُلَّة بدليل الإيثار المذكور فى الحديث السابق. وأما خُلَّة الله فى حقه ﷺ فلا يساويها لا خُلَّته ولا محبته فى حق غيره من الأنبياء وغيرهم.

وكيف لا وهو **(الذى حَسُنَتْ)** حسنًا كاملاً لم يشاركه فيه أحد **(طباعُهُ)** الكريمة **(وسجاياه)** الفخيمة جمع سجية بمعنى الطبيعة أيضًا فهو من عطف المرادف مراعاة للتسجيع، قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

وشاهد ما ذكره المصنف - رحمه الله تعالى - ما رواه ابن سعد من حديث جماعة منهم عطاء وابن عباس أن آمنة قالت: «لما فصل منى - تعنى النبى ﷺ - خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع على الأرض معتمدًا على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب».

قال فى «النعمة الكبرى»: إشارة إلى أنه يملك الأرض كلها، وأنه ينثر التراب يوم بدر وغيره على وجوه أعدائه فيكون سببًا لهزيمتهم وهلاكهم.. انتهى.

قالت: «فقبضها ورفع رأسه إلى السماء فبلغ ذلك رجلا من لهب فقال لصاحبه: انجه لئن صدق الفال ليغلبن هذا المولود أهل الأرض». وفى رواية عن ابن سعد مرسلة: «لما ولد ﷺ وقع على كفيه وركبتيه شاخصًا بصره إلى السماء».

ووقع فى أثناء حديث رواه ابن حبان فى صحيحه أن أمه آمنة قالت: «ثم وضعته فما وقع كما تقع الصبيان وقع واضعًا يديه بالأرض رافعًا رأسه إلى السماء»[2].

---

(١) لبيهقى فى السنن (١٠/١٩٢)، الأحاديث الصحيحة (٤٥)، إتحاف السادة المتقين (٦/١٧١)، كنز العمال (٥٢١٧)، كشف الخفا (١/٢٤٤)، البداية والنهاية (٦/٤١).

(٢) صحيح ابن حبان.

وفى رفع بصره ﷺ إلى السماء فى تلك الحالة كما قاله العلامة الشمس الجوجرى[1] ـ رحمه الله تعالى ـ إشارة وإيماء إلى رفع شأنه وعلو قدره، وأنه يسود الخلق أجمعين.

وكان هذا أول فعل وجد منه ﷺ فى أول ولادته، وفيه إشارة وإيماء لمن تأمل أن جميع ما يقع له من حين يولد إلى حين يقبض ﷺ مما يدل عليه ذلك الفعل؛ فإنه ﷺ لا يزال متزايد الرفعة فى كل وقت وحين، علىَّ الشأن على المخلوقات أجمعين فى الدنيا والآخرة. ولله در الإمام البوصيرى ـ رحمه الله ـ حيث أشار إلى ذلك فى قصيدته الهمزية المحمدية بقوله:

رَافِعًا رأسَـهُ وفى ذلكَ الرَّفْـ ـعُ إلى كُلِّ سُؤْدَدٍ إيمـاءُ[2]

رَامِقًا طَرْفَهُ السَّمَـاءَ ومَرْمَى عينِ من شأنُهُ العُلُوُّ العَلاءُ[3]

وفى رفع رأسه ﷺ إلى السماء إشارة وإيماء إلى كل سؤدد، وأنه لا يتوجه قصده إلا إلى جهة العلو دون غيرها مما لا يناسب قصده.

وروى الطبرانى أنه لما وقع إلى الأرض وقع مقبوضة أصابع يده مشيراً بالسبابة كالمسبح بها. وسبقت رواية: أنها لما وضعته نظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعيه إلى السماء كالمتضرع المبتهل.

قال بعض أهل الإشارات: لما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ الله آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾[4] فأخبر عن نفسه بالعبودية والرسالة، ونبينا محمد ﷺ وقع ساجداً وخرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، وقبض قبضة من تراب، ورفع رأسه إلى السماء، فكانت عبودية عيسى عليه الصلاة والسلام بالمقال، وعبودية محمد ﷺ بالفعال، ورسالة

---

(١) هو محمد بن عبد المنعم بن محمد الجوجرى (٨٢١ ـ ٨٨٩ هـ) من فقهاء الشافعية بمصر. له تصانيف منها: «شرح همزية البوصيرى» و «ترجمة الإمام الشافعى». الأعلام (٦/ ٢٥١).

(٢) إيماء: إشارة.

(٣) الرامق: الناظر. مرمى العين: نظرها. العلاء: الرفعة. والبيتين فى المجموعة النبهانية (١/ ٧٨).

(٤) سورة مريم: ٣٠.

عيسى عليه السلام بالإخبار، ورسالة محمد ﷺ بالأنوار.

وفى قوله: ورسالة عيسى بالإخبار... إلخ نظر؛ لأن الأنوار عبارة عن المعجزات التى هى سبب فى ثبوت الرسالة عند ادعائها ولابد منها لكل رسول - عيسى وغيره - فليست رسالة عيسى بالإخبار مجرداً عن الأنوار بل هو مصحوب بها كما قص علينا ذلك فى الكتاب العزيز حيث قال تعالى حكاية عنه: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ﴾ الآية[1]، وأيضًا فتفريع الرسالة على الآية التى تكلم بها عند الولادة غير ظاهر إذ لم يصرح بها فى الآية، وأيضًا فرسالة نبينا ﷺ ليست بالأنوار وحدها بل بالأنوار والإخبار، فكل منهما رسالته بالأنوار والإخبار.

وفى سجوده ﷺ عند وضعه إشارة إلى أن مبدأ أمره على القُرْب، قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[2] وقال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[3] فحال عيسى عليه الصلاة والسلام يشير إلى مقام العبودية، وحال محمد ﷺ يشير إلى مقام القرب من الحضرة الإلهية كما قيل فى هذا المعنى:

لك القُرْبُ مِنْ مَولاك يا أشرَف الورى ... وأنت لكلٍّ المرسلين خِتَامُ
وأنت لنا يومَ القيامةِ شافعٌ ... وأنت لكلِّ الأنبياءِ إمامُ
عليكَ من الله الكريم تحيةٌ ... مباركةٌ مقبولةٌ وسلامُ

وخرَّج أبو نُعَيم فى «الدلائل» من حديث عبد الرحمن بن عوف عن أمه الشِّفَّاء بنت عمرو بن عوف - قابلة آمنة - قالت: لما وَلَدَتْ آمنة بنت وهب محمداً ﷺ وقع على يدى فاستهلَّ، فسمعت قائلا يقول: رحمك الله أو رحمك ربك[4].

---

(١) سورة آل عمران: ٤٩.

(٢) سورة العلق: ١٩.

(٣) عزاه السيوطى فى الدر المنثور لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر (٦/ ٦٢٧).

(٤) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (٨٦)، الوفا ص (٩١).

وهذا لا ينافى ما تقدم عن آمنة أنها قالت: ولم يعلم بى أحد من قرابتى، وإنى لوحيدة فى المنزل لإمكان حضورها بعد ذلك. ولا ما تقدم آنفًا عن ابن سعد من حديث جماعة منهم: عطاء وابن عباس من أنه وقع على الأرض معتمدًا على يديه لإمكان حصول الأمرين على التعاقب.

قالت الشَّفَّاء: فأضاء لى ما بين المشرق حتى نظرت إلى بعض قصور الشام - وفى لفظ: قصور الروم - ثم ألبسته وأضجعتُه فلم أنشب أن غشيتنى ظُلمة وقشعريرة عن يمينى، فسمعت قائلاً يقول: أين ذهبت به؟ قال: إلى المغرب، وأسفر ذلك عنى، ثم عاودنى الرعب والظلمة والقشعريرة عن يسارى، فسمعت قائلاً يقول: أين ذهبت به؟ قال: إلى المشرق. قالت: فلم يزل الحديث منى على بال حتى أن بعثه الله يوم الإثنين، فكنت فى أول الناس إسلامًا[1].

وقولها: فاستهلَّ أى صاح، وعليه فقول القائل: رحمك الله ليس تشميتًا بل تعظيمًا لقدره، وحمله بعضهم على العطاس مع الاعتراف بأنه لم يكن فى شىء من الأحاديث تصريح بأنه ﷺ لما ولد عطس[2] بقرينة قول القائل - أى الملك -: رحمك الله، لما استقر من شرعه الشريف أنه لا يسن التشميت إلا لمن حمد الله، وقد جاء: «إن العاطس إذا حمد الله فشمتوه، وإن لم يحمد الله فلا تشمتوه»[3]، فلعله ﷺ حمد الله تعالى بعد عطاسه فشمَّته المَلَكُ.

ومن لطيف ما اتفق أن الخليفة المنصور وشى عنده فى بعض عماله، فلما حضر عنده عطس المنصور، فلم يُشَمِّته ذلك العامل، فقال له المنصور: ما منعك من التشميت؟ فقال: إنك لم تحمد الله. قال: حمدت الله فى نفسى، فقال: قد شمَّتك فى نفسى. فقال له: ارجع إلى عملك فإنك لم تحابنى فلا تحابى غيرى.

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (٨٦)، الوفا ص (٩١).
(٢) السيرة الشامية (١/ ٤١٥).
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٢).

ويدل لما مر ما روى أنه حين خروجه من بطن أمه قال: «الحمد لله كثيراً» فحملهُ على العطاس هنا غريب كحمل القائل على المَلَكْ، وإلا فالاستهلالُ صياح المولود أوّل ما يولد، وقد أشار إلى التشميت صاحب الهمزية بقوله:

شَمَّتَتْهُ الأمْلاكُ إذ وَضَعَتْهُ ... وَشَفَتْنَا بقولِها الشَّفَّاءُ[1]

* * *

[فى تكلمه ﷺ فى المهد]

وذكر ابن سبع فى «الخصائص» أن مَهْدَه ﷺ كان يتحرك بتحريك الملائكة، وأن أول كلام تكلم به أن قال: «الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً»[2].

وروى الواقدى أنه قال حين ولادته: «جلالُ ربى الرفيع» ولا مانع من تكرار ذلك حين خروجه وحين وضعه فى المهد، وأنه زاد بعد قوله: «والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً» كما فى رواية، فحينئذ يكون تكلمه ﷺ حين خروجه من بطن أمه لم يشاركه فيه غيره من الأنبياء إلا الخليل وإلا نوحًا، بخلاف تكلمه فى المهد، على أنه يجوز أن يكون المراد بالتكلم فى المهد التكلم فى غير أوان الكلام، فهو ﷺ من جملة من تكلم فى المهد، وإن كان ﷺ عدَّهم ولم يذكر نفسه منهم، وقد أشار الجلال السيوطى ـ رحمه الله تعالى ـ إلى جملة من تكلم فى المهد[3] بقوله:

تكَلَّمَ فى المهدِ النَّبىُ مُحَمَّدٌ ... وعيسى ويحيى والخليلُ ومريمُ
ومُبْرِى جُرَيْج ثم شاهدُ يوسف ... وطفلٌ لدى الأخدودِ يَرْويه مُسْلمُ
وطفلٌ عليه مُرَّ بالأمةِ التى ... يُقالُ لها تَزْنِى ولا تَتَكَلَّمُ
وماشطةٌ فى عهد فِرْعَونَ طفلها ... وفى زمن الهادى المُبَارَكُ يُخْتَمُ

(١) المجموعة النبهانية (١/ ٧٨).

(٢) أخرجه البيهقى فى الدلائل (١/ ١٤٠)، وأورده السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٩١).

(٣) السيرة الشامية (١/ ٤٢٣).

وزاد بعضهم فقال:

وَزِدْ لهم نوحًا ويوسفَ بَعْدَهُ ومثلهما موسى الكليمُ المُعَظَّمُ

ووجد بهامش «سيرة الشامى»:

وبنت لمحيى الدين قدّس سِرَّه وأعنى به العربى فتلك تُتَمِّمُ

وزاد بعضهم: إدريس.

تنبيه

يُجمع بين الروايات السابقة بأن وقت ولادته ﷺ وقع منه جميع ما ذُكِرَ، فتارة قبض بيده التراب، وتارة وقع على كفيه وركبتيه شاخصًا بصره إلى السماء، وتارة وضع يديه رافعًا رأسه إلى السماء، وتارة قبض أصابع يده أو يديه مشيرًا بالسبابة أو بالسبابتين، وتارة رؤى ساجدًا، وتارة جاثيًا على ركبتيه كما فى رواية، وتارة قابضًا على حريرة بيضاء وقيل: خضراء.

***

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

[فى حزن إبليس لما ولد رسول الله ﷺ]

وفى تفسير ابن مخلد: أن إبليس لعنه الله رنَّ - أى صوّت - بحزن -، وكان له أربع رنات: رنةٌ حين لُعِن، ورنةٌ حين أُهْبِط، ورنة حين وُلِد رسول الله ﷺ، ورنة حين أُنزِلَتْ عليه ﷺ فاتحة الكتاب(1).

قال فى «إنسان العيون»: وقد أشار صاحب الأصل إلى الرنة التى كانت عند ولادته بقوله:

لمولده قَدْ رنَّ إبليسُ رَنَّةً فَسُحْقًا له ماذا يفيد رَنِينهُ (2)

وعن عطاء الخراسانى لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ

(1) الروض الأنف (1/ 105)، الاكتفا (1/ 167)، السيرة الشامية (1/ 424)، الخصائص الكبرى (1/ 183).

(2) إنسان العيون (1/ 110).

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (١) صرخ إبليس صرخة عظيمة اجتمع بها جنوده من أقطار الأرض قائلين: ما هذه الصرخة التى أفزعتنا؟ قال: أمرٌ نزل بى لم ينزل قط أعظم منه. قالوا: وما هو؟ فتلى عليهم الآية وقال لهم: فهل عندكم من حيلة؟ قالوا: ما عندنا من حيلة. فقال: اطلبوا فإنى سأطلب، قال: فلبثوا ما شاء الله، ثم صرخ فى أخرى فاجتمعوا إليه وقالوا: ما هذه الصرخة التى لم نسمع منك مثلها إلا التى قبلها؟ قال: هل وجدتم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: لكنى قد وجدت. قالوا: وما الذى وجدت؟ قال: أزين لهم البدع التى يتخذونها دينًا، ثم لا يستغفرون الله؛ أى لأن صاحب البدع يراها بجهله حقًا وصوابًا ولا يراها ذنبًا حتى يستغفر الله منها.

وعن الحسن قال: بلغنى أن إبليس قال: سوّلت لأمة محمد المعاصى فقطعوا ظهرى بالاستغفار، فسوّلت لهم ذنوبًا لا يستغفرون الله منها وهى الأهواء أى البدع.

وعن عكرمة: أن إبليس لما وُلِد رسول الله ﷺ ورأى تساقط النجوم قال ـ أى لجنوده ـ: لقد ولِد الليلة ولد يُفسد علينا أمرَنا، فقال له جنوده: لو ذهبت إليه فخَبَلْتَه. فلما دنا من رسول الله ﷺ بعث الله جبريل ـ عليه السلام ـ فركضه برجله رَكْضَةً فوقع بعدن(٢).

وقال النصير الطوسى(٣) فى شرح «الإشارات» فى الحديث: «ما من مولود يولد من بنى آدم إلا ولد ومعه قرينه من الشيطان، فقيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا كذلك إلا أن الله أعاننى عليه فأسلمَ»(٤) بفتح الميم. وفى رواية

---

(١) سورة النساء: ١١٠.

(٢) عزاه السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/٨٦) لابن أبى حاتم فى تفسيره.

(٣) هو محمد بن محمد بن الحسن، أبو جعفر، نصير الدين الطوسى، كان عالمًا فى العلوم العقلية، والأرصاد والرياضيات، علت منزلته عند هولاكو فكان يطيعه فيما يشير به عليه، وله مؤلفات منها: شكل القطاع، وتربيع الدائرة، وحل مشكلات الإشارات والتنبيهات لابن سينا. توفى سنة (٦٧٢ هـ). انظر: فوات الوفيات (٢/١٤٩)، الأعلام (٧/٣٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨١٤)، الترمذى (١١٧٢)، النسائى (٣٩٦٠).

صحيح البخارى: «فأسلم الشيطان». قال القاضى بعد قوله: «فأسلم»: يعنى القرين أنه انتقل عن حال كفره إلى الإسلام فصار لا يأمر إلا بخير كالْمَلَكْ، وهو ظاهر الحديث.

ويؤيده ما فى «الوفا» عن نافع عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه ﷺ قال: «فضلت على آدم بخَصْلتين: كان شيطانى كافرًا فأعاننى الله عليه حتى أسلم، وكان أزواجى عونًا لى. وكان شيطان آدم كافرًا وكانت زوجته عونًا على خطيئته»[1].

وقد أشار إلى ذلك الصَّرصرِّى ـ رحمه الله ـ بقوله:

فى خصلتين يفوق آدم فيهما ... وهمـا لأهلِ الحقِ واضحتانِ
شيطانُ آدَم كافرٌ يُغوى وَقَـدْ ... وَصلَتْ هدايتهُ إلى الشيطـانِ
ولَزوجِهِ عـونٌ عليــه وأنه ... بنسائهِ قَدْ كـانَ خير مُعَانِ

ونقل الشيخ محمد الشامى فى «سيرته» عن المطالع: ما أسلم من الشياطين إلا شيطانان: شيطان نبينا محمد ﷺ، وشيطان نوح عليه السلام.

قال الشهاب الخفاجى: وقال بعضهم: بل سائر الأنبياء على هذا المنوال فتدبر.. انتهى. وفيه نظر لتصريحه فى الحديث السابق بكفر شيطان آدم، ومنهم من أنكر هذه الرواية وقال: الرواية الصحيحة: «فأسلمُ» ـ أى بهمزة وضم الميم ـ ومعناها: أن الله أعاننى عليه حتى أسلم من شره فإن الشيطان لا يُسْلِمْ قط.. انتهى.

قال القاضى عياض فى «الشفا»: وصحح بعضهم هذه الرواية ورجحها أى على الرواية الأولى.

ثم اعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبى ﷺ من الشيطان وعدم تسلطه عليه فى جسمه بأنواع الأذى، وفى خاطره بالوساوس؛ لأنه قد أخبر بسلامته

(1) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٤٨٨)، الخطيب فى تاريخه (٣/ ٣٣١)، العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء (٢/ ٣٢)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٣٣٧)، العلل المتناهية (١/ ١٨١) وفيه: محمد بن الوليد بن أبان وهو فى عداد من يضع الحديث. وترجم له الذهبى فى الميزان (٤/ ٥٩).

من قرينه القريب منه الملازم، له فسلامته من البعيد عنه غير الملازم له من باب أولى، وقد جاءت الآثار بتصدى الشياطين له فى غير موطن رغبة فى إطفاء نوره وإدخال شغل عليه إذ يئسوا من إغوائه فانقلبوا خاسرين خاسئين.

قال الحلبى: وهذا - أى عدم قربه من نبينا محمد ﷺ - يجوز أن يكون فى خصوص إبليس فلا ينافى ما تقدم عن الحافظ ابن حجر: أن عدم ارتضاعه ﷺ فى ليلتين بوضع عفريت من الجن يده فى فيه، على تسليم صحته.. انتهى.

وقد يقال: هذا ينافى ما تقدم من إجماع الأمة على عصمته من الشيطان وعدم تسلطه عليه فى جسمه وخاطره إلا أن يحمل كلامهم فى عدم القرب والتسلط إلى جسمه وخاطره على ما بعد النبّوة، وفى عدم القرب والتسلط إلى خاطره على ما قبل النبوة، وعلى كلا الحالين فهم قد يئسوا من إغوائه ﷺ ولم يكن لهم إلى ذلك سبيل.

* * *

[فرح جده عبد المطلب به ﷺ وتسميته له محمدًا]

(ودعت) بتخفيف الدال المهملة أى أرسلت تدعو ليوافق رواية ابن إسحاق الآتية (أمه) ﷺ بعد ولادته جده (عبد المطلب) بن هاشم الجد الأول لرسول الله ﷺ (وهو يطوف بهاتيك) أتى بما يشار إليه للبعيد تنويهًا على بعدها وعلو شأنها فى الشرف والعظم على سائر الأماكن إذ ذاك، فقول بعضهم: نزّلها منزلة القريب لقربها من القلوب المؤمنة حتى كأنها فيها كامنة كغيرها من سائر المحبوبات من شعائر الله سبحانه، فيه نظر إذ لا يؤتى بالإشارة للقريب إلا بدون الكاف.

(البَنِيّة) بفتح الموحدة وكسر النون وتشديد التحتية؛ أى الكعبة المبنية بأمر الله تعالى للملائكة فمن بعدهم من عمّارها، وقد بنيت الكعبة مرارًا عديدة يأتى بيانها إن شاء الله تعالى فى محله، ولها أسماء أخرى يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى.

(فأقبل) منها عليها حال كونه (مسرعًا ونظر إليه) أى إلى ابن ابنه محمد ﷺ نظر محبٍّ مشتاق إلى محبوبه الغائب (وبلغ من السرور) أى الفرح به ﷺ حالٌ مُقدم على صاحبها وهو (مُناه) بضم الميم وتخفيف النون، فقول بعضهم بيان له فيه ما تقدم من أن البيان لا يتقدم على مبينه. والمراد: ما كان يتمناه من إقرار عينه بولد لأحب أولاده إليه وأكرمهم عليه ابنه عبد الله سيما وقد كان مبشرًا بعظمة هذا المولود الأعظم وجلالة قدره الأفخم ﷺ.

* * *

[انفلاق البرمة حين وضع ﷺ تحتها]

وروى أنه لما جاء البشير إلى جده عبد المُطَّلب بولادة آمنة له ﷺ سُرَّ بذلك سرورًا عظيمًا، وقام مع من كان معه من أشراف قومه حتى دخل عليها وكانت وضعته تحت بُرْمَة كفأتها عليه، كما هو عادتهم فيمن ولد من قريش، وأرادت أن يكون جده أول من يراه، فوجدت البُرْمَة قد انفلقت عنه فلقتين، وإذا هو قد شق بصره ينظر إلى السماء، فأخبرت أمه جدَّه عبد المُطَّلب بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه، فقال: احفظيه فإنى أرجو أن يصيب خيرًا[1]. وفى رواية: قالت أمه ﷺ: لما ولدته وضعت عليه جَفْنَة - بفتح الجيم - فانفلقت عنه فلقتين.

قال فى «إنسان العيون»: وهذا مما يؤيد أنه ﷺ ولد ليلاً، فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: كان فى عهد الجاهلية إذا ولد لهم مولود من تحت الليل وضعنه تحت الإناء لا ينظرون إليه حتى يصبحوا، فلما ولد ﷺ وضعته تحت بُرْمَة - وزاد فى لفظ: ضخمة[2]، والبُرْمَة: القِدْر، فلما أصبحوا أتوا البُرْمَة فإذا هى قد انفلقت اثنتين، وعيناه إلى السماء، فتعجبوا من ذلك.

وعن آمنة أنها قالت: فوضعت عليه الإناء فوجدته قد انفلق الإناء عنه وهو يمصّ إبهامه يَشْخَبُ - أى يَسيل - لبنا[3].

وفى رواية: أن عبد المُطَّلب هو الذى دفعه للنسوة ليضعنه تحت الإناء. ويؤيده رواية ابن إسحاق قال: إن أمه لما ولدته أرسلت إلى جده - وكان يطوف فى البيت تلك الليلة - أنه قال: ولد لك غلام. فجاء إليها، فقالت له: يا أبا الحارث ولد لك مولود له أمر عجيب، فتعجب عبد المطلب، فقال:

---

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (٨٧)، الوفا ص (٩٢)، مناهل الصفا (٣٠).

(٢) عزاه الحافظ الشامى فى سيرته لأبى نعيم (١/ ٤١٨) ولم ترد فيه هذه الرواية بنصها.

(٣) الوفا ص (٩٢)، دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١١٣)، تهذيب تاريخ ابن عساكر (١/ ٢٨٢)، البداية والنهاية (٢/ ٢٦٤)، الخصائص الكبرى (١/ ٨٥، ٨٦).

أليس بشرًا سويًا؟! قالت: نعم، ولكن سقط ساجدًا ثم رفع رأسه وأصبعيه إلى السماء. فأخرجته له ونظر إليه فأخذه وأم به أشرف محل من بلده حتى وصل به إلى مسجد الحرام.

قال: **(وأدخله الكعبة)** المسماة بهذا الاسم المأخوذ من التكعيب بمعنى الارتفاع أو الارتباع لكونها مرتفعة أو مرتبعة، وهى أشرف من كل ما سواها من الأرض حتى المدينة المنورة ما عدا ما ضمّ الأعضاء الشريفة ومواضع أجساد الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

(الغَرّاء) بفتح الغين المعجمة وشد الراء المهملة أى النيرة الأرجاء.

قال: **(وقام)** أى عبد المطلب حينئذ منتصبًا على قدميه حال كونه **(يدعو)** الله تعالى **(بخلوص)** أى مع اخلاص **(النيَّة)** بتشديد التحتية، الخالصة من المحبطات راجيا من الله تعالى استجابته، وأهله يؤمنون **(ويشكر الله تعالى)** ويثنى عليه بأنواع الثناء **(على ما)** أى الجميل الذى **(مَنَّ)** بتشديد النون أى أنعم **(به عليه و)** يشكره أيضًا على ما **(أعطاه)** أى أنعم عليه من إيجاد هذا المولود السعيد الأكرم، فعطفه على ما قبله تفسير إذن لعطية هى المنة.

قال ابن إسحاق: ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها[1]. قال فى «إنسان العيون»: وبه يظهر التوقف فى قول ابن دُرَيْد: أكفأت عليه جَفْنَة لئلا براه أحد قبل جده، فجاء جده والجَفْنَة قد انفلقت عنه، إلا أن يقال: يجوز أن يكون جده أخذه بعد انفلاق الجفنة ثم دخل به الكعبة، ثم بعد خروجه من الكعبة دفعه لها والنسوة ليضعنه تحت جَفْنَة أخرى إلى أن يصبح، فانفلقت تلك الجَفْنَة الأخرى، حتى لا ينافى ذلك ما تقدم عن أمه فوجدت الإناء قد انفلق وهو يمص إبهامه.

قال بعض أهل الإشارات: فى انفلاق البُرْمة عنه ﷺ إشارة إلى ظهور أمره وانتشاره وأنه يفلق ظلمة الجهل ويزيلها.

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ١٠٣)، البداية والنهاية (٢/ ٢٦٤)، دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١١١)، تهذيب تاريخ ابن عساكر (١/ ٢٨٤).

[ولادته ﷺ مختونا مسرورا]

(وولد) النبى ﷺ حال كونه (نظيفًا) أى ليس عليه من أقذار الولادة شىء كما ورد عن أمه أنها قالت: ولدته نظيفًا ما به قذر.

قال الحلبى: أقول لم يصاحبه قذر ولا بلل فلا ينافى جواز وجود البلل والقذر بعده أى فى زمن إمكان النفاس فلا يستدل بذلك على أن أمه ﷺ لم تر نفاسًا؛ فإن النفاس عندنا هو البلل الحاصل بعد الولادة فى زمن إمكانه لا الحاصل مع الولد.. انتهى ملخصًا.

وفيه نظر إذ اللائق بعظيم شأنه أنه لم يكن معه فى الرحم شىء من الأقذار حتى يَخْرُجَ بعده.

وحال كونه أيضًا (مَخْتُونًا) من الخَتْن بالمعجمة والفوقية الساكنة وهو قطع القُلْفَة ـ بضم القاف وسكون اللام ـ التى تغطى حشفة الذكر وبعض الجلدة التى فى أعلى فرج الأنثى. ويسمى ختان الرجل: إعذارًا بالعين المهملة والذال المعجمة، وختان المرأة: خِفَاضًا، بالخاء المعجمة المكسورة والفاء والضاد المعجمة.

قال النووى رحمه الله تعالى: الختان واجب عند الشافعى وكثير من العلماء، وسنة عند مالك وأكثر العلماء أى ومنهم: أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ وهو عند الشافعى واجب على النساء والرجال.. انتهى. وذهب بعض أصحابه إلى أنه واجب فى حق الرجال سنة فى حق النساء. والمعتمد ما ذهب إليه الشافعى.

ثم الصحيح من مذهبنا أن الختان جائز فى حال الصغر ليس بواجب، وعليه الجمهور.

ولنا وجه أنه يجب على الولى أن يختن الصغير قبل بلوغه، ووجه أنه

يحرم ختانه قبل عشر سنين، والصحيح أنه لا يجب الختان إلا بعد البلوغ.

والصحيح أنه يستحب أن يختن المولود فى اليوم السابع من ولادته.

وهل يحسب يوم الولادة من السبع أم يكون سبعة سواه؟ وجهان أظهرهما يحسب كما فى «الإعلام بشرح الإلمام»، وهو الذى صححه النووى فى «شرح مسلم» فى خصال الفطرة، وهو ظاهر قوله فى «المنهاج» حيث قال: ويندب تعجيله فى سابعه والراجح من الوجهين ندب وقوع الختان فى اليوم الثامن وهو الأصح فى «الزوائد» و «نكت التنبيه» قال بعضهم: إنه المعتمد، وجزم به اليمنى، وحكاه المستظهرى عن الأكثرين وأقروه. وفى «المهمات» أنه المنصوص المفتى به. ولا يبعد أن يقال: إن ولد المولود فى أوّل اليوم حسب أى يوم الولادة فيكون الختان فى السابع أو فى آخره أى آخر اليوم فلا، فيكون الختان فى الثامن.

وشاهد ما ذكره المصنف - رحمه الله تعالى - ما رواه الطبرانى وغيره من طرق عن أنس: «من كرامتى على ربِّى أن ولدتُ مَخْتُونًا ولم يرَ أحد سَوأتى»[1] والمراد بقوله مختونًا: أى على صورة المختون إذ هو القطع ولا قطع هنا؛ لأن الله تعالى يوجد ذلك على تلك الهيئة من غير قطع، فيحمل الكلام على المجاز باعتبار أنه على صفة المقطوع لعلاقة المشابهة فى الصورة.

وحال كونه أيضًا (مقطوع السُّر) بضم السين ما تقطعه القابلة من سُرَّة الصبى. وقد جاء فى لغة سَرر بفتح السين وكسرها مع تكرار الراء، ومنه قوله ﷺ: «النفساء يجرها ولدها بسررها إلى الجنة»[2] وجمعه أسرة كما فى «القاموس» وقد وقع فى نسخة: (مقطوع السُّرة) بزيادة تاء آخره كما فى

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٩٩)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/ ٢٦٥)، وابن الجوزى فى العلل ص (١٧١)، والوفا ص (٩٤)، الذهبى فى الميزان (٢/ ١٧٢)، الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٢٤). وصححه الضياء المقدسى وابن مُغُلطاى. وجزم جماعة من العلماء بأنه ﷺ ولد مختونًا، منهم: ابن حبيب وابن الجوزى وابن دريد والحاكم، وخالفهم ابن القيم والذهبى.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٨٩)، الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٢٦٤)، والهيثمى فى مجمع الزوائد (٥/ ٢٩٩).

«المواهب» وقال شارحه الزرقاني: الأولى حذف التاء إذ السُّر بالضم ما تقطعه القابلة من سُرة الصبى كما فى «النهاية» وغيرها إلا أن يكون سمى السُّر سُرَّة مجازًا لعلاقة المجاورة أو فيه حذف أى مقطوع منه ما يتصل بالسُّرة لأن السُّرة لا تقطع وإنما هى الموضع الذى قطع منه السُّر وذلك على الأصح.

(**بيد القدرة**) الباهرة (**الإلهية**) فقد ورد عن العباس رضى الله عنه: «ولد النبى ﷺ مختونا مسرورًا»[1] أى مقطوع السُّر، ففرح به جدّه وقال: إن لابنى هذا شأنًا.

وحال كونه أيضًا (**طيِّبًا**) بكسر المثناة التحتية مشدّدة؛ أى يسطع ريحه كالمسك الإذفر كما تقدم فى رواية.

وحال كونه أيضًا (**دهينًا**) أى مدهونًا؛ أى كأنه مدهون لرونق جسمه وليونته ونعومته.

وحال كونه أيضًا (**مكحولة بكُحْل**) بضم الكاف وسكون المهملة لا بفتحها (**العناية**) الربانية (**عيناه**) الكريمتان.

(**وقيل**): لم يولد مختونًا بل ختنه جبريل ـ عليه السلام ـ حين كان عند مرضعته حليمة السعدية، وشق صدره الشريف، وطهَّر قلبه، وختمه بخاتم النبّوة.

وقيل: بل (**ختنه**) إما بفعله أو بأمره بالموسى (**جدّه**) عبد المُطَّلب[2] (**بعد**) مضى (**سبع ليال سوية**) أى مستوية من كون كل ليلة منها كاملة من أوّلها إلى آخرها، وهذا صريح فى أن الختان كان فى اليوم الثامن.

ففى نظر بعضهم فى قوله: «بعد سبع ليال» نظر، وليس كقول غيره خَتَنَهُ فى سابع ولادته حتى يقتضى خلاف الراجح من وقوع الختان فى اليوم الثامن كما زعم بل طرفا كلامه ـ أعنى بعد وسوية ـ يبعدان ذلك كل البعد سواء قلنا

(١) قال الحافظ الشامى فى السيرة (١/ ٤٢٠): رواه الخطيب عن أبى بكرة موقوفًا، ولا يصح سنده. وقال الذهبى: خبر منكر.

(٢) قال الحافظ العراقى: سنده غير صحيح (السيرة الشامية ١/ ٤٢٠).

إن الولادة كانت ليلاً أم قلنا إنها كانت نهاراً، وأنها فى طلوع فجر يوم الإثنين كما هو الصحيح، وعليه جرى المصنف ـ رحمه الله ـ كما سيأتى؛ لأنه يكون حينئذ أوّل الليالى السبع التى كان الختان بعد مضيها يوم الثلاثاء وآخرها يوم الإثنين، فيكون الختان يومئذ فى ثامن يوم الولادة الذى يندب على الراجح المعتمد أن يكون الختان فيه كما مر بيان ذلك قريبًا؛ وذلك أن العرب كانوا يختتنون لأنه سنة توارثوها من إبراهيم وإسماعيل لا لمجاورة اليهود.

فقد حصل من الاختلاف فى ختانه ثلاثة أقوال أرجحها الأول، وبه جزم ابن الجوزى. وقال الخَيْضَرِىّ : هو الأرجح عندى، وأدلته مع ضعفها أمثل من أدلة غيره، ولأنه فى حقه ﷺ غاية الكمال لأن القلفة قد تمنع كمال النظافة والطهارة واللذة فأوجده ربه مكمَّلاً سالمًا من النقائص والمعائب، ولأن الختان من الأمور الظاهرة المحتاجة إلى فعل آدمى فخلق سليمًا منها؛ لئلا يكون لأحد عليه مِنَّة، وبهذا لا ترد العلَقة التى أخرجت بعد شق صدره لأن محلها القلب، ولا اطلاع عليه للبشر، فأظهره الله على يد جبريل ـ عليه السلام ـ ليتحقق الناس كمال باطنه. . انتهى ملخصًا.

وفى قوله: قد تمنع كمال النظافة والطهارة، نظر؛ لأن فضلات الأنبياء طيبة طاهرة، بل قيل: إنه كان يشم من المحل الذى يقضى فيه حاجته رائحة كرائحة المسك وإن لم ير ما يخرج منه لما قيل من أن الأرض كانت تبتلعه، فكانت الرائحة من الأثر لا من العين.

وليس هذا من خصائصه ﷺ كما قال ابن القيم فإن كثيراً من الناس ولد مختونًا.

وقال الحافظ: إن العرب تزعم أن الغلام إذا ولد فى القمر فسخت قلفته فيصير كالمختون.

وفى «الوشاح» لابن دُرَيْد: قال ابن الكلبى: بلغنى أن آدم ولد مختونًا، واثنى عشر نبيًا من بعده خلقوا مختونين آخرهم محمد ﷺ، ثم عدَّهم وذكر

سامًا منهم، وزاد محمد بن حبيب[1] أربعة[2]، فجملتهم سبعة عشر نظمهم الحافظ السيوطى فى «قلائد الفوائد» فقال:

وسبعةٌ مع عَشْرٍ قد رووا خُلِقُوا ... وهم خِتَان فخُـذْ لازلتَ مأنوسًا
محمد آدم ادريس شيث ونو ... ح سام هود شعيب يوسف موسى
لوط سليمان يحيى صالح زكر ... يا وحنظلة الرَّسِّىّ مع عيسى

وما ذكر فى سام على سبيل التغليب لأنه ليس بنبى على الصحيح، ولا حجة فى أثر الكلبى لأنه مقطوع مع أنه متروك متهم بالوضع.

وأما إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد اختتن كما فى الصحيحين بالقَدُوم بفتح القاف وتخفيف الدال عند أكثر رواه البخارى.

قال النووى: ولم يختلف فيه رواة مسلم. وقيل بتشديدها، وأنكره يعقوب ابن شيبة. وعلى الأول: فالمراد به الفأس كما فى رواية ابن عساكر والأصيلى، وعلى الثانى: المكان الذى وقع فيه الختان، وهو قرية بالشام. وأنكره النَّضْر ابن شميل. وقيل بالعكس. والذى فى «القاموس» جواز إطلاق الضبطين على كل منهما، والراجح أن المراد الآلة؛ لحديث أبى يعلى: «أُمِرَ إبراهيم بالختان فاختتن بقَدُوم فاشتدّ عليه الوجع فأوحى إليه: عجلت قبل أن نأمرك بآلته، قال: يا رب كرهت أن أؤخر أمرك»[3]. وقال الحافظ أبو نعيم: قد يتفق الأمران فيكون قد اختتن بتلك الآلة فى ذلك الموضع.

لطيفة

قال القطب الشيخ أحمد المتولى ـ رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته ـ أخبرتنى امرأة من الصالحات من أهل حارة غيط العدة بباب الخرق أنها ولدت أحد

(١) هو محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو، الهاشمى بالولاء، أبو جعفر البغدادى، عالم بالأنساب والأخبار واللغة والشعر. توفى بسامراء سنة (٢٤٥ هـ). الأعلام (٦/ ٧٨).

(٢) المحبر لابن حبيب ص (١٣١).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٦)، وأحمد فى مسنده (٣/ ٤١٥)، وعزاه الحافظ الشامى فى السيرة (١/ ٣٦٦) لأبى يعلى وأبى الشيخ فى العقيقة.

عشر ولداً ذكراً نزلوا من بطنها مختونين، وذلك ضحى يوم الثلاثاء ثالث عشرين رجب عام تسعمائة وسبعين وتسعة كذا وجدته بخطه بهامش كتاب.

فائدة

أوّل من اختتن من الرجال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما أن هاجر أوّل من اختتن من النساء كما فى «الفلك المشحون».

* * *

(وأولم) أى صنع حينئذ لمن حضره وليمة، وهى تقع على كل دعوة تتخذ لسرور حادث: كنكاح، وختان، وغيرهما، والأشهر استعمالها عند الإطلاق فى النكاح، ويتقيد فى غيره، فيقال: وليمة الختان وغيره. ويقال لطعام الختان: إعذار. فقول بعضهم والأنسب: وصنع مأدبة؛ لأن الوليمة ما يصنع للعرس والمأدبة ما يصنع للختان وهم؛ لأن المأدبة اسم لما صنع بلا سبب كما صرح به العلامة محمد بن شمس الدين الحجازى الأنصارى فى كتابه «مرشد السائل فى تصحيح المسائل» وغير واحد، قال فى «المصباح» أدب أدبًا من باب ضرب: صنع صنيعًا ودعا الناس إليه. قال: واسم الصنيع المأدُبة بضم الدال وفتحها. وقال فى الإعذار: الإعذار طعام يتخذ لسرور حادث، ويقال هو طعام الختان خاصة، وهو مصدر سمّى به، يقال: أعذر إعذاراً إذا صنع ذلك الطعام، ومثله فى «القاموس» وغيره، فقول الزرقانى فى «شرح المواهب»: المأدبة اسم لطعام الختان كما أفاده «القاموس» و «المصباح» سهو منه.

فإن قلت: لو عبر المصنف وغيره بالإعذار لكان أولى وأنسب؛ لأن القصد إطعام الطعام لختانه كما يفيده ما رواه بعض الحفاظ بسنده إلى ابن عباس أن عبد المطلب ختنه يوم سابع ولادته وجعل له مأدبة وسماه محمداً.

قلت: لا يفيد ذلك لأن الضمير فى له للنبى ﷺ أى للفرح بظهوره ﷺ، ويؤيده ما روى: أنه لما ولد ﷺ أمر عبد المطلب بجزور فنحرت، ودعا رجالاً

من قريش فحضروا وأطعموا. وفى بعض الكتب كان ذلك يوم سابعه، فلما فرغوا من الأكل قالوا: ما سميته؟ قال: سميته محمداً... الحديث. نعم قرينة سياق الأوّل ـ أعنى حديث ابن عباس ـ تفيد ذلك ويرد أنه لو كان لذلك لقال: وصنع إعذاراً، أو صنع مأدبة للختان مثلاً دفعًا للتردد فى هل هو لختانه، أو لظهور الفرح والسرور به ﷺ؟ ثم رأيت بعضهم قد جزم بما ذكرناه وقال: أي وأطعم القوم الذين حضروا ذلك الطعام الذى صنعه لهم قصداً لإظهار الفرح والسرور والبشرى بظهور سيد أهل الدنيا والأخرى ﷺ ما حدا حادى السرى.

وللوليمة أسباب ذكرها العلماء وبلغوها نحو عشرة، نظمها بعضهم فقال:

عَشْرٌ تحب من الولائم يا فتى ... مَنْ يُحْصِهَا قَدَ عَزَّ فى أقرانهْ
فالخرس إنْ نَفَسَتْ كذاك عقيقة ... للطفلِ والإعذارِ عند ختَانهْ
ولحفظ قرآنٍ وآداب لقد ... قالوا الحذاق لحذْقِهِ وبيانهْ
ثُمَّ الملاك لعقدهِ ووليمة ... فى عُرْسِهِ فاحْرِصْ على إعلانهْ
وَكَذَاكَ مأدبة بلا سببٍ يرى ... ووكيرة[1] لبنائهِ لمكانهْ
ونقيعة[2] لقدومه ووضيمة[3] ... مِنْ أقرباء الميت أو جيرانهْ

والولائم مستحبة وآكدها وليمة العرس، والإجابة فرض عين فى وليمة العرس وسُنَّة فى غيرها.

وقد نقل النووى وابن عبد البر الإجماع على وجوب الإجابة إلى وليمة العرس عند توفر الشروط التى بلغت نحو عشرين، منها: أن يَعُمّ، وأن لا يَخُصَّ الأغنياء، وأن يعينه بالدعوة، وأن يكون الداعى حرّاً رشيداً مكلفًا مسلمًا ـ على الأصح ـ وأن يخص باليوم الأوّل على المشهور، وأن لا يُسْبَقَ

(١) الوكيرة: طعام يعمل عند الفراغ من البنيان.

(٢) النقيعة: ما يذبح للضيافة، والطعام يصنع للقادم من السفر، وطعام الرجل ليلة عرسه، وما نحر من النهب قبل القسم.

(٣) الوضيمة: طعام المأتم.

وإلا قُدِّمَ السابق، وأن لا يكون ثَمَّ من يتأذى بحضوره من منكر أو عدوّ أو غيرهما، وأن لا يكون له عذر... وغير ذلك من الشروط. وضبطها الماوردي بما يلاحظ في ترك الجماعة.

وليس المراد بالتعميم أن يعم الناس جميعًا بالدعوة؛ لأن هذا غير ممكن، بل الشرط أن لا يَظْهَرَ منه قصد التخصيص، وأما عند عدم تمكنه فلا يضر التخصيص.

(وأَطْعَمَ وسَمَّاه مُحَمَّدًا) ﷺ إما لما رأته أمه ﷺ في المنام حين قيل لها إذا وضعتيه فسميه محمدًا وحدثته به، أو لرؤيا رآها كأن سلسلة من فضة خرجت من ظَهْره لها طرف بالسماء وطرف بالأرض وطرف بالمشرق وطرف بالمغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهلُ المشرق وأهل المغرب يتعلَّقون بها، فعبّرت له بمولود يكون من صُلْبه يتبعه أهلُ المشرق والمغرب، ويحمده أهلُ السماء والأرض[1]، أو بإلهام له من الله تعالى.

ولا مانع من وقوع التسمية منهما بذلك فيكون سمّته أمه سرًا وجدّه جهرًا، كل ذلك ليطابق تسميته به قبل؛ فقد صح أن آدم رأى اسم محمد مكتوبًا على العرش، وأن الله تعالى قال لآدم: لولا محمد ما خلقتك كما تقدم.

وورد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: لما ولد ﷺ عَقَّ عنه عبد المُطَّلب بكبش وسماه محمدا. فقيل له: يا أبا الحارث! ما حَمَلك على أن تسميه محمدًا ولم تسمّه باسم آبائه؟ فقال: أردت أن يَحْمده الله في السماء ويَحْمده الناس في الأرض[2]. وقد حقق الله رجاءه كما سبق في علمه سبحانه وتعالى، والحمد لله.

(وأَكْرَمَ مَثْواه) بفتح الميم وسكون المثلثة أي مقامه وهو كناية عن إكرامه ﷺ؛ فمن إكرامه إياه ما ذكره الجلال السيوطي في «خصائصه الكبرى»: أنه

(١) الروض الأنف (١/ ١٠٥)، الاكتفا (١/ ١٦٨)، السيرة الشامية (٤٣٨).
(٢) السيرة الشامية (١/ ٣٤٧).

كان يوضع لعبد المُطَّلب فراش فى ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له، وكان ﷺ يأتى حتى يجلس عليه، فيذهب أعمامه يؤخرونه ـ أى إجلالاً لجدّه ـ، فيقول جدّه: دعوا ابنى يجلس، فيمسح ظهره ويقول: إن لابنى هذا لشأنًا»[1] . . انتهى.

وفى رواية: «إن لولدى هذا لشأنا عظيما».

وفى أخرى: «دعوا ابنى يجلس عليه فإنه يحس من نفسه بشىء وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربى قبله ولا بعده»[2].

وكان عبد المُطَّلب عند الجَدْب والقَحْط يستسقى به ﷺ فيسقون ببركته، وكان يبعثه فى مُهم حاجاته فلا يبعثه فى حاجة قط إلا أنجح فيها[3].

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(1) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٢)، دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٠٦).

(2) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٢٢)، ابن الجوزى فى الوفا ص (١١٧).

(3) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٢٠)، وابن سعد فى الطبقات الكبرى (١/ ١١)، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٦٠٣).

[الخوارق التى ظهرت بمولده ﷺ]

ولما فرغ المصنف رحمه الله تعالى من ذكر المولد الشريف وتوابعه وبعض ما يتعلق به شرع يتكلم أيضا على بعض ما يتعلق به من الخوارق والغرائب التى وقعت تلك الليلة وذلك اليوم إذ هى أخص ما يتعلق بالمولد النبوى، وحيث كان الأمر كذلك لزم أن نذكر حقيقة الخارق وثبوته ثم أقسامه فنقول:

اعلم أن الخارق فعل من أفعال الله يفعله على خلاف عادته المستمرة فى خلقه. قال فى «المواقف»: فعل الله أو ما يقوم مقامه من التروك. قال: وقولنا: أو ما يقوم مقامه ليتناول التعريف ما إذا قال: أنا أضع يدى على رأسى وأنتم لا تقدرون عليه، ففعل، وعجزوا، فإنه لا فعل لله ثمة فإن عدم خلق القدرة فيهم على ذلك الوضع ليس فعلا صادراً عنه تعالى بل عدم صرف، ومن جعل التروك وجوديًا بناء على أنه الكف؛ حذفه لعدم الحاجة إليه قال شارحه الشريف الجرجانى: وفى كلام الآمدى أن الخارق إن كان الترك عدميًا ـ كما هو أصل شيخنا ـ فالخارق هنا هو عدم خلق القدرة ـ فلا يكون فعلاً، وإن كان وجوديًا ـ كما ذهب إليه بعض أصحابنا ـ فالخارق هنا هو خلق العجز فيهم، فيكون فعلاً، فلا حاجة إلى قولنا أو ما يقوم مقامه.. انتهى.

قال جدنا المحقق السيد محمد بن رسول البرزنجى فى شرح الخارق بعد سوقه ما ذكرناه: أقول ومن هنا عبر المحققون بقولهم: أمر بدل فعل. قال: وأنكر قوم جواز خرق العادة، وقالوا: إنه محال عقلا وإن تجويزه سفسطة، ولو جوزناه لجاز انقلاب الجبل ذهبًا، وماء البحر دمًا ودهنًا، وأوانى البيت رجالاً، ويولد هذا الشيخ من غير أب أو أم دفعة، وكون من أظهر المعجزة غير من ادّعى النبوة بأن ينعدم المدعى عقب دعواه ويوجد مثله فى آن إعدامه،

وأن يكون الشخص الذى يتقاضى الدين غير الذى عليه، ولا يخفى ما فيه من الخبط والإخلال بالقواعد المتعلقة بالنبوة وأحكام الشريعة، ويختل نظام المعاش والمعاد.

ثم قال بعد أن ذكر ما أجاب به عنهم أئمتنا فى كتب الكلام: وأقول من المعلوم المقرر أن الوقوع يستلزم الإمكان، فوقوع الخوارق فى كل عصر يبطل دعوى الاستحالة ويثبت الإمكان، فإن الوقوع وراء الإمكان، فبطل دعواهم الاستحالة. وإن الإمكان لا يستلزم الوقوع لعدم وقوع الممكنات بأسرها، فلا يلزم من إمكان الخارق ثبوت الاحتمالات التى أوردوها فى لزوم الإخلال بقواعد الشريعة؛ لأن الأصل بقاؤها على منوال العادة وعدم تغيرها استناداً إلى العادة المستمرة، فلا يترك ذلك الأصل بمجرد الاحتمال الناشىء عن القول بالإمكان، فتجويز الإخلال بمجرد الاحتمال سفسطة فى المقال، وبالله التوفيق الملك المتعال. . انتهى.

هذا وقد علمت حقيقة الخارق وثبوته وبطلان دعوى استحالته، وأن وقوعه ممكن فى كل وقت، وأما أقسامه فكثيرة تأتى على أنواع شتى، حصرها العلماء فى ستة أقسام.

أولها: الإرهاص: وهو ما وقع من الخوارق قبل زمان دعوى النبوة تأسيسًا لها، فما وقع لنبينا ﷺ من الخوارق قبل البعثة النبوية كشقّ صدره الشريف، وتسليم الحَجَر عليه، وميل فيئ[1] الشجر إليه ونحوها من هذا القسم.

ثانيها: المعجزة: وهو ما يظهر على يد مدّعى النبوة سواء كان بتحد أو دونه إذا كان موافقا لمراده، فما وقع منها له ﷺ بعد البعثة مع التحدى: كانشقاق القمر ونحوه، أو بدونه: كحنين الجذع، ونبع الماء، ونحوهما. معجزة؛ لأنه كان موافقًا لمراده وهو دعوى الرسالة.

وهذان القسمان قد فرغ منها لأنه لا نبى بعد نبينا ﷺ، ثبت ذلك بالكتاب

(١) الفيئ: الظِلُّ.

والسنة والإجماع القطعي الضروري، فكل من ادّعى النبوة بعده ﷺ وجب قتله، ولا يتوقف في شأنه، وكل ما وجد من خارق على يد مدّع للنبوة بعده ﷺ - بفرض وقوع ذلك منه - فاستدراج، إن كان على وفق مراده وإلا فإهانة.

ثالثها: الكرامة: وهو ما يظهر على يد مدّعي الولاية مع اتصافه بالاستقامة ومتابعة السنة متابعة كاملة حال دعوى الولاية؛ فإنه لا كرامة إلا مع كمال متابعة الشريعة، ومن هنا قالوا: إن كل كرامة لولي فهي معجزة لنبيه؛ لأنه إنما نالها ببركة اتباعه. ومن هنا كان الأصح أن كل ما جاز أن يكون معجزة للنبي جاز أن يكون كرامة للولي، وما يظهر على يده قبل دعوى الولاية فهو أيضًا كرامة منبهة لغيره.

وأما ما يظهر على يد مؤمن غير مدع للولاية فمع الاستقامة كرامة، وبدون الاستقامة إن عقبه الإنابة والاستقامة فمنبهة وإيقاظ له، وإن عقبه عدم الاستقامة، أو ظهر على يد مدّعي الولاية مع عدم متابعته السنة فمكرٌ واستدراجٌ وإملاء.

رابعها: الاستدراج: وهو ما يظهر على يد نحو الساحر من كل ذي زيغ مائل عن الدين فاجر، كطيرانه في الهواء، وركوبه فرسًا على ظهر الماء ونحوهما.

خامسها: المعونة: بالمهملة والنون، وهو ما يظهر على يد مؤمن غير مستقيم ولا مدّع للولاية ولم يعقبه لا توبة واستقامة ولا عجب وغرور ورؤية نفس.

سادسها: الإهانة: وهو ما يظهر على يد مدّع للنبوة ولا يكون إلا مخالفًا لدعواه؛ لاستحالة تصديق الله تعالى، كذب الكاذب؛ لاحتمال صدقه بحسب الظاهر قبل ظهور الخارق، بخلاف المتأله لاستحالة صدقه، فلا يحتاج إلى تكذيبه بمخالفة الخارق لدعواه كما وقع لمسيلمة الكذّاب في خوارقه المخالفة لدعواه، فإنه دعا لأعور بذهاب عوره وشفاء الصحيحة من عينيه فذهبت الأخرى وأنه تَفَلَ في ماء بئر كثير عَذْب فقلّ وملح، زيادة في خزيه وفضيحته

حيث أراد مضاهاة المصطفى ﷺ فيما جرى على يده من نحو هذه الخوارق.

ومنه: الفتنة والابتلاء وهو ما يظهره على يد مبطل متأله - أى مدع للألوهية - سواء وافق دعواه أم لا، فهو فتنة للكفار وابتلاء للمؤمنين، وقد يقال له الفتنة مطلقًا. قال تعالى حكاية عن رسوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ (1) وقال ﷺ: «من فتن الدجال كذا وكذا» فسماها فتنا مطلقا.

ولا يضر موافقة الخارق لدعواه لأن دلالة العقل القطعية قد عارضت خوارقه.

فهذه جملة ما ذكره العلماء من أقسام الخوارق فلنقدم الكلام على القسم الأول الواقع فى كلام المصنف - رحمه الله تعالى - ثم نردفه بذكر بعض القسم الثانى؛ فإن إخلاء هذا الكتاب منه غير لائق، فنقول: قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(و) اعلم أنه قد **(ظَهَرَ)** ووقع **(عِنْدَ)** لدى **(وِلاَدَتِه)** ﷺ **(خَوَارِقُ)** جمع خارق من خرق يخرق من باب ضرب. وهو لغة: مزّق الشيء وقطعه. وعرفًا: تبدّل حكم العادة بغيره من غير سبب ظاهر **(وَغَرَائِبُ)** رديف الخوارق **(غَيْبِيَّة)** أى منسوبة للغيب أى الغائب عنا. ولا يقال كان ينبغى للمنصف - رحمه الله تعالى - أن يقول آيات أو بينات أو برهان؛ لأن هذه هى الواردة فى القرآن والسنة دون لفظ الخارق والمعجزة ونحو ذلك لأنَّا نقول هى وإن لم ترد لكن صارت فى اصطلاح المتأخرين أبين وأظهر فلذلك خُصَّت بالذكر.

وكان ظهور ذلك ووقوعه **(إِرْهَاصًا)** أى تأسيسًا **(لنبوّته)** ﷺ **(وإعلامًا)** أى إخبارًا لما من شأنه أن يُعلم ويُخبر **(بأنه)** أى الذى ظهرت عند ولادته هذه الخوارق والغرائب التى لم يظهر نظيرها لولادة مخلوق من بنى آدم؛ الذين هم

(1) سورة الأعراف: ٧.

أفضل المخلوقات سوى الملائكة على تفصيل فى المسألة عند الأشاعرة والماتريدية (**مُخْتَارُ الله**) تعالى أى مستخلصه (**و**) بأنه (**مُجْتَبَاه**) عطف تفسير على سابقه إذ المُجتبى والمُختار بمعنى، وإنما أتى به لتتميم القافية المستلزمة فى التسجيع.

(**فـ**) من الغرائب التى ظهرت عند ولادته ﷺ ما رأته أمه ﷺ - فيما تقدم من الروايات - من حضور آسية ومريم وجمع من حور العين، وكأن ديباجًا أبيض قد مُدَّ بين السماء والأرض، وكأن قطعة طير قد أقبلت حتى غطَّت حجرتها، وأنها رأت ثلاثة أعلام: علمًا بالمشرق، وعلمًا بالمغرب، وعلمًا على ظهر الكعبة. وأنها رأت سحابة عظيمة قد أقبلت تنزل من السماء، وأنها سمعت مناديًا ينادي: طوفوا بمحمد مشارق الأرض ومغاربها. وأنه ﷺ مندرج فى ثوب صوف أبيض وتحته حريرة خضراء، وأنها رأت ثلاثة نفر فى يد أحدهم إبريق من فضة، وفى يد الثانى طَسْت من زمرد، وفى يد الثالث حريرة بيضاء فنشرها فأخرج منها خاتمًا فغسله من ذلك الإبريق سبع مرات، ثم ختم بين كتفيه بالخاتم، ولفَّه فردَّه إليها... إلى غير ذلك(1).

وأنه (**زيدت السماء حفظًا**) عبَّر بالزيادة للإشارة إلى أن السماء سبق لها حفظ قبل وجوده ﷺ فقد جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن الشياطين كانوا لا يُحْجَبون عن السموات، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها مما سيقع فى الأرض فيلقونها على الكهنة، فلما وُلِدَ عيسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - حُجبوا عن ثلاث سموات - وعن وهب: عن أربع سموات - ولما ولد النبى ﷺ حُجبوا عن السموات كلها(2)، فما منهم أحد يريد استراق السمع إلا رُمى بشهاب - وهو الشعلة من النار - فلا تخطىء أبدًا، فمنهم من تقتله، ومنهم من تحرق وجهه، ومنهم من تَخْبله فيصير غولاً يضل الناس فى

(1) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٦٥)، دلائل النبوة لأبى نعيم ص (٤٦٦)، وقال السيوطى فى الخصائص: فيه نكارة شديدة (١/ ٨١).
(2) عزاه الحافظ الشامى فى سيرته (١/ ٤٢٤) للزبير بن بكّار وابن عساكر.

البرارى. . . كذا قال بعضهم.

لكن مقتضى كلام البيضاوى[1] أنها تارة تصيب الصاعد، وتارة لا، ولذلك لا يرتدعون عنه رأسًا.

ولا يقال إن الشيطان من النار فلا يحترق بها؛ لأنه ليس من النار الصرف كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص، وإنما نسب إليها خلقه فى قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [2] كما يُنسب خلق الإنسان إلى التراب كما فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [3] لكون الجزء النارى فى نوع الجن أغلب، كما أن الجزء الترابى فى نوع الإنسان أغلب، وإلا فكل موجود مركب من العناصر الأربع التى هى النار والتراب والماء والهواء، مع أن النار القوية إذا استولت على النار الضعيفة أهلكتها.

وفى عبارة بعضهم: روى أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء ثم تجاوز السماء الدنيا إلى غيرها، فلما ولد عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مُنِعوا من مجاوزة السماء الدنيا، وصاروا يسترقون السمع فى السماء الدنيا فى بعض الأحايين، وفى أكثر الأحايين يسترقون دونها، حتى بعث النبى ﷺ فمنعوا أصلاً فصاروا لا يسترقون السمع إلا دون السماء الدنيا.

وقوله: «مُنِعوا من مجاوزة السماء الدنيا» فيه نظر؛ لما مر عن ابن عباس ووهب من أن الحَجْبَ كان عن ثلاث سموات أو عن أربع.

واختلف متى كان هذا الرمى بالنجوم؛ فقيل: إنما حدث بعد مبعثه ﷺ؛ لئلا تلتبس الكهانة بالوحى؛ ولأن ذلك أظهر للحجة وأقطع للشبهة، واحتج من قال بهذا: بكون العرب قد استغربت ذلك حتى أفزعوا لذلك، وسار بعضهم إلى عمرو بن أمية الثقفى ـ وكان من دهاة العرب ـ فقالوا: يا عمرو،

(١) هو عبد الله بن عمر بن على الشيرازى، أبو سعيد ناصر الدين البيضاوى، مفسر، قاض، توفى فى تبريز سنة (٦٨٥ هـ) وقيل: سنة (٦٩١ هـ). الأعلام (٤/ ١١٠).

(٢) سورة الرحمن: ١٥.

(٣) سورة غافر: ٦٧.

ألا ترى ما حدث من السماء من القذف بالنجوم؟ فقال: بلى، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التى يُهتدى بها فى البر والبحر، ويُعرف الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس فى معايشهم هى التى يُرمى بها؛ فهى والله طيّ الدنيا وهلاك الخلق الذى فيها، وإن كانت نجومًا غيرها، وهى ثابتة على حالها: فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق.

فلو كانوا يعرفون هذا الرمى بالنجوم قبل ذلك ما أنكروه.

وأيضًا إنكار الجن مما يدل على حدوثها، قال تعالى: **﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾** (١).

وقيل: بل كان قديمًا، ويدل عليه: حديث ابن عباس السابق ووهب. وقد ذكره قوم من قدماء الجاهلية فى أشعارهم: فوصفوا الرمى بالنجوم، ولكن الشياطين كانت تسترق السمع فى بعض الأحوال، فلما بُعث رسول الله ﷺ كثر الرجم وزاد زيادة ظاهرة حتى تنبّه لها الإنس والجن، ومُنِعَ الاستراق أصلاً، فلم ينكروا إذن أصل الرجم بالشهب، وإنما أنكروا كثرة ذلك والتغليظ فيه والتشديد، ولم يكن كذلك قبل ذلك؛ ويدل أيضًا قوله تعالى: **﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾** (٢) على أنه كان قبل ذلك شىء، لكنه كثر ذلك واشتد عند مبعثه؛ لتنقطع تخليطات الشياطين وتلبيساتهم بالكلية.

وجاء عن معمر أنه قال للزهرى: أكان يُرْمَى بالنجوم فى الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أفرأيت قوله تعالى: **﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾** (٣).

قال: غلظت وشُدد أمرها حين بعث ﷺ. وجرى على هذا ابن قتيبة.

وفى «المنح» ما يفيد أنه إنما وُجِدَ بعد وجود النبى ﷺ قرب مبعثه لكن لا بشدة، ثم وُجِدَ بشدة بعده؛ فكأنه لم يصح عنده حديث ابن عباس وغيره، وحمل قول معمر: «فى الجاهلية» على ما قبل مبعثه وبعد وجوده ﷺ؛ بدليل

(١) سورة الجن: ٩.
(٢) سورة الجن: ٨.
(٣) سورة الجن: ٩.

قوله: وشُدد أمرها... إلخ.

(ورِدَ) بالبناء للمفعول عطف على قوله زيدت أى طرد **(عنها)** أى السماء، أى عن الوصول واستراق السمع من مقاعدهم القريبة منها؛ فإنهم كانوا يقعدون فيها ليسمعوا شيئًا من الملائكة المتكلمين بما سيقع فى الأرض من الأقضية والمغيبات، إما لكون رئيسهم يلقيه عليهم ليكتبوه فيتلقونه منه، أو أن بعضهم ينسخه من كتب البعض الآخر زيادة فى الاعتناء والظهور للملائكة. وكانوا يأتون الكهان ويُلقون ما استلقوه منهم إليهم مع ما يضمونه إليه من الكذب.

(المَرَدَة) محركة جمع مارد وهو: المتمرد العاتى من الجن. وهم أجسام نارية تقدر على التشكل فى الصور المختلفة كما يأتى بيانه.

(وذوو) بواوين أى أصحاب **(النفوس الشيطانية)** أى المنسوبة للشيطان، فيقال: من شَطَنَ، يقال: شَطَنَ صاحبه: خالفه عن نيته ووجهه. وفى الأرض: دخل إما راسخًا وإما واغلاً. والشاطن: الخبيث، والشيطان: كل عات متمرد من إنس أو جن أو دابة. وشَطَنَ وتشطَّن: فعل فعله. كما فى «القاموس».

وقيل: من شَطَّ؛ إذا بعد لبعدهم عن رحمة الله تعالى. أو من شَاطَ بمعنى احترق. أو هلك لاحتراقه وهلاكه بالشهب. فنونه على الأول أصلية، وعلى الأخيرين زائدة.

قال الخفاجى: والشياطين: مردة الجن، وعليه فعطفه على المردة من عطف المرادف، ويصح أن يكون من عطف العام على الخاص ويؤيده قول «القاموس»، وقول العلامة محمد بن طيب المغربى الفاسى فى شرح «حزب النووى»: إن الشيطان يطلق على كل عات متمرد من إنس أو جن أو دابة.

(ورَجَمَت) بالبناء للفاعل أى أصابت: مجاز عن الرمى لعلاقة السببية، أو رمت: والإسناد مجاز عقلى، وإلا فالرامى فى الحقيقة هو الله.

(رُجُوم) بضم الراء والجيم فواو. جمع رَجْم بفتح أوّله وسكون ثانيه، وهو - أى الرجم - مصدر سمى به ما يُرْجم به. ويجوز أن يكون الرجوم فى حد ذاته مصدرًا لا جمعًا كما فى «النهاية» ويمتنع هنا لتأنيث الفعل إلا أن يقال: إنه قد يكتسب التأنيث من المضاف إليه، ومن ثم ذكر بعضهم أنه فى الأصل مصدر نُقل إلى ما يُرْجم به من الشهب، وفيه نظر؛ لأن رَجَمَ متعد كما هنا، وقياس مصدر المتعدى: فَعْل بفتح أوّله وسكون ثانيه كما قال فى «الخلاصة»:

فعل قياس مصدر المعدى من ذى ثلاثة كردّ ردّا

لا فعول: إذ هو مصدر الفعل اللازم مفتوح العين فى الماضى كما قال أيضًا:

وفعل اللازم مثل قعدا له فعول باطراد كغدا

إلا أن يقال إنه مصدر سماعى، فليراجع، وبينهما وبين الرجيم الآتى جناس الاشتقاق. والمراد بالرجوم: الشُّهُب جمع شِهَاب وهو: شعلة نار، أو ما ينفصل من نور الكواكب.

(النيِّرات) بفتح النون وكسر التحتية؛ أى المضيئات فالإضافة بيانية، فالمراد: أنهم يُرْجمون بنار الكواكب ونورها، لا أنهم يُرْجمون بالكواكب أنفسها؛ لأنها ثابتة لا تزول. وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار، والنار ثابتة فى مكانها.

قال الحليمى[1] : ليس فى كتاب الله تعالى أن الشياطين ترمى بالكواكب أو بالنجوم.

ثم أطال فى تقرير أن الرمى إنما هو بالشُّهُب، وجعل المصابيح؛ أى فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾[2] كناية عن الشعل لا عن النجوم.

(١) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخارى، الجرجانى، أبو عبد الله، فقيه شافعى، ولد سنة (٣٣٨ هـ) وتوفى فى بخارى سنة (٤٠٣ هـ) من أشهر كتبه: «شعب الإيمان» فى ثلاث مجلدات. تاريخ جرجان ص (١٩٨).

(٢) سورة الملك: ٥.

قال أبو شامة(1): وما جاء فى الأحاديث وشعر العرب القديم من التصريح بالرمى بالنجوم يمكن تأويله: إما بأنه على تقدير مضاف واستعمل النجم فى الشهاب مجازًا.. انتهى.

أقول: وبهذا يؤول ما فى بعض النسخ «نجوم» بالنون، وقيل: تنقض ثم ترجع إلى مكانها. قال الزرقانى: وهذا لا ينافى ما سبق؛ لجواز أن صورة الشعلة النازلة رجعت إلى مكانها الذى جاءت منه وهو النجم.. انتهى. وتبعده المشاهدة.

(كل رجيم) أى مرجوم **(فى حال مَرْقاه)** بفتح الميم وسكون الراء المهملة؛ أى صعوده. قال بعضهم: لما رُجمت الشياطين ومُنعت من مقاعدها فى السماء لاستراق السمع شكوا ذلك لإبليس، فقال لهم: هذا أمرٌ حدث فى الأرض، وأمرهم أن يأتوا بتربة من كل أرض فصار يشمها إلى أن أُتِىَ بتربة أرض تِهَامة فلما شمّها قال: من ههنا الحدث.

(و) من العجائب التى وقعت عند ولادته ﷺ أيضًا: أنه **(تَدلَّت)** بتشديد اللام؛ أى قربت ودنت **(إليه)** ﷺ **(الأنجم)**: أى الكواكب **(الزُهرية)** بضم الزاى المعجمة؛ أى المنسوبة إلى الزهرة: بمعنى البياض النير - نسبة الموصوف إلى صفته - حتى يظن المشاهد لها سقوطها عليها.

روى البيهقى، والطبرانى، وابن عبد البر عن عثمان بن أبى العاص، عن أمه - أم عثمان الثقفية، واسمها فاطمة بنت عبد الله - أنها قالت: لما حضرت ولادة رسول الله ﷺ رأيت البيت حين وقع قد امتلأ نورًا، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع علىَّ(2) **(واستنارت)** سبب **(بنورها)** أى الأنجم **(وِهَاد)** بكسر الواو؛ جمع وهدة وهو: ما انخفض من الأرض؛ أى

---

(1) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى الدمشقى، أبو القاسم شهاب الدين أبو شامة، مؤرخ، محدث، بحث، ولد سنة (٥٩٩ هـ) وتوفى بدمشق سنة (٦٦٥ هـ). تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٦٠)، رقم الترجمة ١١٥٧).

(2) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (٨٥)، دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١١١)، الوفا ص (٩١)، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٠)، وعزاه للطبرانى، وقال: فيه عبد العزيز بن عمران وهو متروك.

استضاءت بسبب تدلى تلك النجوم جميع ما انخفض من أرض **(الحرم)** المكى **(و)** كذا **(رُبَاه)** بضم الراء وتخفيف الموحدة؛ جمع رُبوة بضمها وفتحها، وحكى فى «المختار» كسرها أيضًا، وهو ما ارتفع من الأرض. فالمراد: جميع بقاع الحرم.

(و) من الغرائب التى ظهرت عند ولادته ﷺ أيضًا: أنه حين وقع **(خَرَجَ معه)** ﷺ **(نورٌ)** عظيم **(أضاءت له)** أى لذلك النور **(قُصُورُ)** جمع قصر **(الشام)** الإقليم الكبير المشهور، بهمزة ساكنة ويجوز إبدالها ألفا **(القَيْصَرِيَّة)** أى المنسوبة إلى قيصر ملك الروم وهو ابن عيضور **(فرآها)** رؤية بصرية **(مَنْ)** أى الذى **(بِطَاحُ مكَّةَ دَارُهُ)** بكسر الموحدة جمع أَبْطَح وبطحا؛ وهو فى الأصل: السبيل الواسع المشتمل على دقاق الحصى. والمراد: من كان داره داخل مكة؛ فإن قريشا كانوا فرقتين: بِطَاح، وظواهر. فالبِطَاح: من دخل مكة، والظواهر: من أقام بظاهر مكة ولم يدخل الأَبْطَح **(ومَغْنَاه)** بالغين المعجمة؛ أى منزله.

وشَاهِد ذلك: ما روى من جملة حديث صحّحه ابن حبان، والحاكم: أن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورا أضاء له قصور الشام[1].

وما روى عن ابن سعد: أن أم رسول الله ﷺ قالت لما ولدته: خرج من فرجى نور أضاء له قصور الشام، فولدته نظيفا ما به قذر.

وسبقت رواية ابن عباس: خرج منه نورٌ أضاء له ما بين المشرق والمغرب.

ورواية الشَّفَّاء: فأضاء لى ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى بعض قصور الشام[2].

وفى رواية: أنها رأت حين حملت به أنه خرج من فرجها نور أضاء له قصور الشام، فولدته نظيفا ما به قذر.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٢٧)، والحاكم فى مستدركه (٢/ ٦٠٠)، والبيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٨٠ و ٢/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٦٧).

وفى رواية فى غير هذا الحديث: أنها رأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بُصرى من أرض الشام[1].

ويمكن أن يجمع بين اختلاف الروايات فى خروج النور حين الحمل وحين الوضع: بأنه لا مانع من وقوعه فى الوقتين؛ زيادة فى البشارة بظهوره وظهور دينه ﷺ، وإن كانت الرواية لحين الوضع أولى لاتصالها وصحتها.

وقد جمع الحافظ الجلال السيوطى بين الروايتين بأن قولها: «حين الحمل» هى رؤيا نوم وقعت فى الحمل، وأما ليلة الولادة: فرأت ذلك رؤية عين[2].

وفى الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «إنى عبد الله وخاتم النبيين، وإن آدم لَمُنجدلٌ فى طينته، وسأخبركم عن ذلك: إنى دعوة أبى إبراهيم، وبشارة أخى عيسى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات الأنبياء يَرَيْن»[3].

وروى ابن إسحاق: كانت آمنة تحدث أنها أُتيت حين حَمَلت، فقيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة؛ وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بُصرى من أرض الشام، فإذا وقع فسمِّيه محمدًا، فلما وضعته خرج معه ذلك النور الذى أضاء له ما ذكر.

واستدلال بعضهم من أنها رأت ذلك النور فى المنام حين الحمل بهذا الحديث فيه نظر.

وإلى هذا النور يشير عمه العباس ـ رضى الله عنه ـ فى قصيدته التى امتدح بها النبى عند رجوعه ﷺ من غزوة تبوك، وقد قال له فى مرجعه: يا رسول الله، أريد أن أمتدحك. فقال له ﷺ: «قل لا يفضض الله فاك» فقال قصيدة منها:

وأنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أشرقت الأر ... ضُ وضاءتْ بنورك الأُفقُ

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٦٣)، الوفا ص (٩١).

(٢) الخصائص الكبرى (١/ ٧٩).

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، والحاكم فى مستدركه (٢/ ٦٠٠)، والبيهقى فى الدلائل (٢/ ١٣٠)، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٣).

فنحنُ في ذاك الضِّياءِ وفي النُّو ر وسُبل الرَّشـادِ نَخْتَرِقُ

قال في «اللطائف»: وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذى اهتدى به أهل الارض وزالت به ظلمة الشرك كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

وخُصت الشام بالذكر فى أكثر الروايات لما اختصت به من سبق نور نبّوته إليها، ولأنها خيرة الله من أرضه كما فى حديث صحيح، فهى أفضل الأرض بعد الحرمين. قيل: ومصر، وأوّل أقليم ظهر فيه ملكه ﷺ، ومن ثم نقل كَعْب عن الكتب السالفة أنها دار ملكه أى باعتبار سبقه إليها قبل نظرائها، ولذا أسرى به ﷺ إلى البيت المقدس منها، كما هاجر إليها إبراهيم، ولوط، وبها ينزل عيسى ابن مريم، وهى أرض المحشر والمنشر.

وفى تخصيص بُصْرى من أرض الشام كما فى بعض الروايات لطيفة وهى: أن النبى ﷺ وصل بنفسه الكريمة إلى أرض بُصْرى من أرض الشام مرتين ولم يتجاوز ذلك. فكان إشارة إلى ذلك. قاله ابن الجوزى[2].

وقال غيره فى تخصيصها: لأنها أول موضع من بلاد الشام دخلها ذلك النور المحمدى؛ ولذلك كانت أول ما افتُتح من بلاد الشام.

وأما ما ورد فى رواية ابن سعد عن ابن القبطية فى مولد النبى ﷺ قال: قالت أمه: «رأيت كأن شهابًا خرج منى أضاءت له الأرض»[3]. فالتعبير بالشهاب: إما أنه مراد به النور، أو للإشارة إلى أنه شهاب على أهل الكفر

---

(١) سورة المائدة: ١٥، ١٦.

(٢) هو عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى القرشى، أبو الفرج، علامة عصره فى التاريخ والحديث، ولد وتوفى ببغداد، ومن مصنفاته: «الوفا بأحوال المصطفى» مطبوع، توفى سنة (٥٩٧ هـ). الاعلام (٣/٣١٦)، ومقدمة مثير الغرام الساكن.

(٣) المواهب اللدنية (١/ ٦٧).

يحرقهم ويمحوهم، ولأجل أنه زادت بمولده حراسة السماء بالشهب، وقُطع رصد الشياطين ومَنْعهم من استراق السمع كما تقدم.

(و) من العجائب التى وقعت عند ولادته ﷺ: أنه تزلزلت الكعبة ولم تسكن ثلاثة أيام ولياليها، وكان ذلك أول علامة رأت قريش من مولده ﷺ.

(انْصَدَعَ) أى انشق شقًا آل به إلى خرابه، وسمع له صوت عظيم (الإيوانُ) بكسر الهمزة؛ الصفة العظيمة كالأزج قاله الجوهرى، يقال: بيت مؤزج: أى مبنى طولاً غير مسدود الوجه، أى فهو صفة طويلة واسعة بأولها عقد واسع بابه، وهو فارسى، وقيل: بيت الملك المُعد لجلوسه مع أرباب مملكته لتدبير ملكه، وقيل غير ذلك، وجمعه إيوانات وأواوين؛ لأن أصله إوّان بتشديد الواو فأبدلت من إحدى الواوين ياء لانكسار ما قبلها وقد تحذف الياء، ويقال: إوان كخوان.

وكان ذلك الإيوان من أعاجيب الدنيا سعة وبناءً وإحكامًا.

(بالمدائنِ) بالهمز جمع مدينة؛ بمعنى المصر الجامع. والمراد به هنا: بلد بالعراق، والنسبة إليها مدائنى (الكِسْرَوِيَّة) أى المنسوبة إلى كِسرى بفتح الكاف وكسرها؛ لقب لكل من ملك الفرس كما يأتى فى مبحث الهجرة إلى النجاشى وهو معرب خسرو: أى واسع الملك، وهو اسم أعظم ملوك الفرس كما هو مشهور فى كتب التاريخ، ويجمع على أكاسرة على غير قياس، وقياسه: كسَرون كعيسَون وموسَون بفتح السين فيهما، والنسبة إليه كسرى وكسروى (الذى) أسسه سابور ذو الأكتاف و (رَفَعَ) ابن قباذ بن فيروز المسمى (أَنُوْ شَرَوَان) بفتح الهمزة وضم النون وسكون الواو وفتح الشين المعجمة كالراء والواو بعدها؛ ومعناه بالعربية: مجدد الملك الملقب بكَسرى، وهو غير كِسرى الذى كتب له رسول الله ﷺ فمزق كتابه.

ذكر الدميرى[1]: أن كَسرى هذا أول من اقتص من قاتله، وذلك أنه قال له

(١) هو محمد بن موسى بن عيسى بن على الدميرى، أبو البقاء، كمال الدين: باحث، أديب، من فقهاء الشافعية =

منجموه: إنك تقتل. فقال: والله لأقتلن قاتلي، فعمد إلى سم ناقع ووضعه في حق وكتب عليه: دواء الباه صحيحٌ مجرّبٌ إذا استعمل منه وزن كذا وكذا أنعظ، وَجَامَعَ كذا وكذا، فلما قتله ابنه قياد وفتح خزائنه فوجد ذلك الحق مختومًا فقرأ ما كتب عليه فقال: بهذا كان كِسرى يقوى على مجامعة النساء، ففتحه واستعمل منه ما ذكر فمات.

وكان لكسرى ثلاث آلاف امرأة.. انتهى. وكان كِسرى مجوسيًا.

(سَمْكَهُ) أي جعل سمكه أي طوله في جهة العلو رفيعًا، وقيل: سقفه (وسوّاه) أتمه وأتقنه وأحكمه، وجعله سويًا لا اعوجاج فيه، حتى كان يظن أنه لا يهدمه إلا نفخة الصور، ومكث في بنائه نيفًا وعشرين سنة. وقيل: أتمه أبرويز الملقب بكسرى أيضًا ابن هرمز بن أَنُوشَرْوَان، وهو الذي كتب له رسول الله ﷺ فمزق كتابه.

وكان سمكه مائة ذراع، وطوله كذلك، وعرضه خمسون ذراعًا، وبناؤه من الجص والآجر.

وفي حاشية الجمل على الهمزية: وقرر شيخنا العمادي أنه بلغه أن مسجد السلطان حسن بني على شكل وقدر وصورة إيوان كسرى.. انتهى.

ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا سُتر هذا الإيوان، فأخرجوا منها ألف ألف دينار من الذهب.

قال ابن نباتة[1]: يروى أن الرشيد هارون أراد هدمه فاستشار يحيى بن خالد البرمكي فنهاه، وقال: في بقائه معجزة باقية. فقال الرشيد: بل أبيتَ إلا تعصبًا لآبائك - يعني الفرس - وأمر بهدمه، فصرف على هدم شُرافة منه مالاً

= في مصر، ولد بالقاهرة، وله مؤلفات عديدة منها: «حياة الحيوان» و «الديباجة في شرح كتاب ابن ماجه»، توفي سنة (٨٠٨ هـ). الأعلام (٧/ ١١٨).

(١) هو عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقي، أبو يحيى، صاحب الخطب المنبرية كان مقدمًا في علوم الأدب، واجمعوا على ان خطبه لم يعمل مثلها، ولد في ميافارقين بديار بكر، وسكن حلب وتوفي بها سنة (٣٧٤ هـ). وفيات الأعيان (١/ ٢٨٣).

كثيرًا فكفَّ عنه.

فقال له يحيى: أرى الآن أن تهدمه لئلا يُتحدّث عنك أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك. فتغافل عن قوله وتركه.. انتهى.

(و) بسبب انصداعه وتحركه **(سَقَطَ)** منه **(أَرْبَعٌ وَعَشْرٌ)** أى أربع عشرة، عدل عنه لثقل تركيبه **(من شُرُفَاته)** جمع شُرُفة بضمتين كما فى «تثقيف اللسان»، ويجوز سكونها وفتحها كما قاله «البرهان»؛ وهو ما يبنى على أعلى الحائط منفصلاً بعضه من بعض على هيئة معروفة، وله شُرُفات كثيرة. قيل: اثنتان وعشرون، وطول كل شُرُفة: خمسة عشر ذراعًا **(العُلْويَّة)** أى المنسوبة للعلو ضد السفل، وهى صفة كاشفة؛ لأن الشُرُفات لا تكون إلا كذلك.

قال الشيخ ابن حجر فى «النعمة الكبرى»: قال ابن الجوزى: وهذا الشق باق إلى الآن، أخبرنا به جماعة ممن رآه بالمدائن، وأنه سقط من أعلى الإيوان أربع عشرة شرافة[1].

وقال فى «المنح»: عُلِمَ بالقطع البرهانى أن ذلك ليس إلا محض آية منه ﷺ للوجود على نبّوته، وأنه لا مُلك ولا عزّ لأحد مع مُلكه وعزّه، وسر تلك الأربع عشرة: الإشارة إلى أنه لم يبق من ملوكهم إلا أربعة عشر - أى كما أشار إلى ذلك سطيح كما يأتى إن شاء الله تعالى قريبًا - فهلك عشرة فى أربع سنين، وأربعة إلى زمن عثمان - رضى الله عنه - وقد فُتح فى زمن عمر - رضى الله عنه - أكثر إقليم فارس، وكَسَرَ كِسرى وأهانه غاية الهوان، فتقهقر إلى أقصى مملكته، ثم قُتِلَ فى زمن عثمان - رضى الله عنه - أكثر إقليم فارس، وزال ملكه بالكلية.

وصح أنه ﷺ أخبر بأنه: «إذا هلك كِسرى فلا كِسرى بعده»[2]، «وأن

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ١٨)، أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٨٨).

(٢) أخرجه البخارى (٤/ ١٠٤)، مسلم (الفتن: ٧٧)، الترمذى (٢٢١٦)، أحمد (٢/ ٢٣٣)، البيهقى فى السنن (١/ ١٧٧)، الطبرانى فى الكبير (٢/ ٢٣٤)، شرح السنة للبغوى (١٣/ ٣٠٩)، بدائع المنن (٨/ ١٨)، البيهقى فى دلائل النبوة (٤/ ٣٩٣)، مشكل الآثار (١/ ٢١٣).

أمواله وكنوزه تنفق فى سبيل الله»، فانقطع ملكه، وزال من جميع الأرض، وتمزق ملكه كل ممزق؛ لأنه ﷺ دعا عليه بذلك لَمَّا جاءه كتابه فمزقه.

وقد بشر ﷺ أمته فى حفر الخندق بملك بلاده وقال لسُرَاقة حين أراد الانصراف عن النبى ﷺ - كما سيأتى فى طريق الهجرة وكان من فقراء الصحابة -: «كيف بك إذا لبست سواريّ كسرى»(1). فلما جىء لعمر - رضى الله عنه - فى زمن خلافته بسواريّ كسرى، وتاجه، ومِنْطَقته، وبساطه وكان ستين ذراعًا فى ستين ذراعًا منظومًا باللؤلؤ والجواهر الملوّنة على ألوان زهر الربيع، كان يُبسط له فى إيوانه، ويُشرب عليه إذا عدمت الزهور، وجىء له بمال كثير من مال كِسرى، وبنات كِسرى، وكن ثلاثا، وعليهن من الحُلى والحُلل والجواهر ما يقصر اللسان عن وصفه. وعند ذلك دعا - رضى الله عنه - سُرَاقة وقال: ارفع يدك، وألبسه السوارين. أى اظهارًا للمعجزة، وتحقيقًا لخبره ﷺ وقال: الحمد لله الذى سلبهما كِسرى وألبسهما سُرَاقة.

(وكُسِرَ) بالبناء للمفعول **(ملك كِسرى)** وهو كناية عن ما حل به وبأتباعه من الوبال والهوان والنكال **(لهول ما)** أى الذى **(أصابه وعَرَاه)** هما بمعنى يقال عرا يعرو: كعلا يعلو أى أصاب، والمعنى أن ملكه تفرّق وتشتّت لهول ما أصابه وأفزعه وأخافه من المصائب النازلة به، والكرب العظيم الذى وقع فيه.

ورأى فى تلك الليلة المَوْبَذَان - أى القاضى الكبير، وفى كلام المحدّث: وهو خادم النار الكبير، ورئيس أحكامهم، وعنه يأخذون مسائل شرائعهم - فى نومه إبلاً صعابًا تقود خَيْلاً عِرَابًا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها.

ورأى كسرى ما أهاله وأفزعه وهو ارتجاس الإيوان وسقوط شُرُفاته، فلما أصبح تصبَّر: أى لم يظهر الانزعاج لهذا الأمر الذى رآه، ثم رأى أن لا يدَّخر ذلك - أى هذا الأمر الذى هاله وأفزعه - عن مَرَازبته أى فرسانه وشجعانه،

(1) إتحاف السادة المتقين (7/ 18)، الشفا (1/ 674).

فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره، ثم بعث إليهم، فلما اجتمعوا عنده قال: أتدرون فيما بعثتُ لكم؟ قالوا: لا. إلا أن يُخبرنا الملك. فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران، وكتاب من صاحب إيليا[1] أن بحيرة ساوه غاضت، وكتاب من صاحب الشام أن وادى سماوة انقطع، وكتاب من صاحب طبرية أن الماء لم يجر فى بحيرة طبرية. فازداد غمًا إلى غمه، فأخبرهم بما رأى وما هاله.

فقال الموبْذَان: وأنا قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا، ثم قصها عليه. فقال: أى شىء هذا يا موبَذَان؟ قال: حدثٌ يكون فى ناحية العرب، فابعث إلى عاملك بالحيرة[2] يوجه إليك رجلا من علمائهم فإنهم أصحاب علم بالحدثان. فكتب كسرى إلى النعمان بن المنذر ملك العرب أن يرسل إليه أعلم من فى أرضه من العرب. فبعث إليه عبد المسيح بن عمر الغسَّانى ـ وهو معدود من المعمرين عاش مائة وخمسينَ سنة ـ فلما ورد عليه قال: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليسألنى الملك فإن كان عندى علم منه وإلا أخبرته من يَعلَمه، فأخبره بالذى وجه إليه فيه. قال: عِلْمُ ذلك عند خالى سَطِيح، يسكن مشارف الشام ـ بالفاء ـ أى أعاليها، فأمره كِسرى بالذهاب إليه، فجاءه فوجده مشفيًا على الموت، وعمره إذ ذاك ثلثمائة سنة، وقيل: خمسمائة سنة، فأخبره سَطِيح من غير أن يذكر له شيئًا بما من جملته: عبد المسيح على جمل مُشِيح[3] إلى سطيح، وقد وافى على الضريح، بعثه ملك ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبَذان، رأى إبِلاً صِعَابًا تقود خيلاً عِرَابًا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة ـ أى تلاوة القرآن ـ وظهر صاحب الهِرَاوة، وفاض وادى سَمَاوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نيران فارس، فليست بابل للفرس مقامًا، ولا الشام لسَطِيح شامًا،

(١) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس؛ قيل: معناه بيت الله. (مراصد الاطلاع ١/ ١٣٨).
(٢) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، على موضع يقال له: النجف. (معجم البلدان ٢/ ٣٢٨).
(٣) مُشِيح: يقال ناقة مشحاة إذا كانت سريعة.

يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشُرُفات، وكل ما هو آتٍ آت، ثم قضى سَطِيح مكانه ـ أى مات من ساعته ـ وقيل: أدرك الإسلام فلم يسلم.

والهِرواة بكسر الهاء: العصا، وسمى النبى ﷺ صاحب الهِراوة؛ لأنه كان يمسك فى يده العصا كثيراً عند مشيته، وكان يمشى بالعصا بين يديه، وتغرز له فيصلّى إليها ـ التى هى العنزة ـ وفى الحديث: «حمل العصا علامة المؤمن وسنة الأنبياء»(1).

قال فى «إنسان العيون»: وقد يقال مراد سَطِيح بالعصا: العنزة التى كانت تغرس له فيصلى إليها فى غير المسجد؛ لأنه لم يحفظ أن ذلك كان لمن قبله من الانبياء..

وسمى أيضًا: «صاحب القضيب»: أى السيف كما وقع مفسرًا فى الإنجيل؛ قال: معه قضيب من حديد يقاتل به وأمته كذلك. وقد يحمل على أنه القضيب الممشوق الذى كان يمسكه ﷺ. والممشوق: الطويل الممدود الرقيق.

فإن كان المراد بالقضيب السيف، فهو كناية عن جهاده وكثرة غزوه وقتاله وفتوحاته وغنائمه. وإن كان المراد به العصا، فهو عبارة عن كونه من صميم العرب وخطبائهم.

فعلى الأوّل: فعيل بمعنى فاعل، وعلى الثانى: فعيل بمعنى مفعول.

فهو ﷺ صاحب العصا يرعى بها الأخيار، والقضيب يبيد به الأشرار.

وعند موت سَطِيح نهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول:

شمر فإنك ماضى العزم شمير ... ولا يغرنك تفريق وتغيير
إن يمس الملك بنى ساسان أفرطهم ... فإن ذا الدهر أطوار دهارير
فربما ربما أضحوا بمنزلة ... تخاف صولهم الأسد المهاصير
منه أخو الصرح بهرام وإخوته ... والهرمزان وشابور وسابور

(1) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (١٣٤٥٠) للديلمى، وفيه يحيى بن هاشم الغسانى، كان يضع الحديث. وانظر الحاوى فى الفتاوى (١٠٩/٢)، كشف الخفا (٣٨٣/١).

والناس أولاد علات فمن علموا   أن قد أقل فمحقور ومهجور
وهم بنو لام أما إن رأوا نشبا   فذاك بالغيب محفوظ ومنصور
والخير والشر مقرونان فى قرن   فالخير متبع والشر محذور

فلما قدم عبد المسيح على كِسرى وأخبره بما قال سطيح. فقال كِسرى: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكًا كانت أمور وأمور.

فملك منهم عشرة فى أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ وقد ذكر أن آخر من هلك منهم كان فى أوّل خلافة عثمان رضى الله عنه.

(و) من الغرائب التى ظهرت عند ولادته ﷺ أيضًا: أنه **(خَمَدَت)** بفتح الميم من باب قعد وكسرها من باب علم والأوّل أفصح وأشهر؛ أى سكنت بسكون لهبها من غير انطفاء جمرها، وإلا لقيل: همدت كما فى «المنح» **(النيرانُ)** جمع نار. وهى من ذوات الواو، وإنما جمعت على نيران لانكسار ما قبل الواو المستلزم لقلبها ياء **(المعبودة)** من دون الله تعالى **(بالممالكِ الفارسيَّة)** أى المنسوبة إلى فرس من الفَرَاسة بفتح الفاء بمعنى الشجاعة، وفارس إقليم معروف هو وأهله، وكان كِسرى من أجل ملوكهم، وكان لها ألف عام لم تخمد لشدّة اشتعالها، وكثرة إمدادها دائما، وكانوا يعبدونها كما قال ابن هانىء:

سجدتُ إلى النيرانِ أعصرها وَمُذْ   شَعَرَتْ به سَجَدَتَ لهُ نيرانُهَا

وقال آخر:

وذاكَ دليلٌ للنجاةِ من اللَّظى   به لانطفاء النَّارِ من كلِّ مَوْقِدِ

وكان كِسرى وأتباعه يعبدونها ويرمون فيها المسك والعنبر ونحوهما، ولهم بها فتنة عظيمة إذ لم تزل تأجّج وإن لم تمدّ، وكان فى إقليم فارس من بيوت النار الموقدة المئين من السنين ما تحيل العادة انطفاءه، فلما انطفت تلك النيران كلها فى ساعة واحدة تلك الليلة أورثهم ذلك كربة وبلاء عظيمًا صبّه الله

عليهم صبًا بإزالة ما يعتقدونه إلههم ومتعبدهم؛ لأنهم مجوس، وعلموا أن ذلك لأمر عظيم حدث فى العالم يكون سببًا لإزالة ملكهم، وتمزيقهم كل ممزق.

وكان فى وقوع ذلك آية عظيمة على نبّوة النبى ﷺ وسر عظيم **(لطُلُوع)** أى ظهور **(بَدْره)** أى بدره هو؛ فالإضافة للبيان، ويرد عليه ما تقدم عن اللقانى من أن الإضافة البيانية لا تأتى فى الإضافة للضمير؛ فالمخلص من ذلك أن يكون الكلام على تقدير مضاف أى بدر وجوده، وحينئذ تكون الإضافة حقيقية.

(المُنير) مقتبس من قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا**﴾ (1).

المنير الزائد النور، أو المظهر لغيره ما خفى عليه، اسم فاعل أنار: أى أضاء هو فى نفسه وأنار غيره أى أكسبه نورًا، وصيّره ذا نور يضىء به، فهو ﷺ منير فى نفسه، ومنير لغيره؛ لأنه المرشد الهادى للناس بما يفيض عليه من الأنوار القدسية، المبين ما يهتدون به ويتخلصون من ظلمات الجهل والضلال.

وللإمام الغزالى ـ رحمه الله تعالى ـ كلام لطيف فى النور نقله عنه الخفاجى فى شرح «الشفا» له مناسبة هنا فلنذكره بالاختصار: وهذا النور يشير إلى الظهور، وهو أمر إضافى. فقد يظهر الشىء لإنسان ويبطن عن غيره، وإضافة الظهور إلى الحواس الداركة أقوى، وأجلاها حاسة البصر، والأشياء بالنسبة إليها ثلاثة أقسام: منها ما لا يبصر بنفسه: كالأجسام المظلمة. ومنها ما يبصر ولا يبصر به غيره: كالشمس، والسراج. والنور اسم لهذا القسم الثالث: وهو عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر عنده غيره، وما يبصر عنه وغيره أحق وأولى باسم النور من الذى لا يؤثر فى غيره أصلا، ولما كان سر النور وروحه هو الظهور للإدراك، كان الإدراك موقوفًا على وجود النور فهو الظاهر المظهر.

(1) سورة الأحزاب: ٤٥، ٤٦.

قال: وهذه الخاصة توجد فى الروح القدسى النبوى؛ إذ تفاض بواسطته أنوار المعارف على الخلائق، وبهذا أظهر معنى تسمية محمد ﷺ سراجًا منيرًا.. انتهى.

وفى كلام المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ تشبيه بالبدر، ويرشحه قوله: **(وإشراق)** أى إضاءة **(مُحَيَّاه)** بضم الميم وفتح الحاء وشدّ المثناة تحت؛ أى وجه الشريف المشبّه بالشمس فى الإشراق والإضاءة، ولا يخفى ما فى كلامه من مزيد الحسن حيث جمع بين التشبيهين بهذين الكوكبين النَّيرين اللذين بهما قوام نفع العالم، وتقدّم شاهد تشبيه وجهه ﷺ بالشمس فى حديثى الربيع بنت معوذ، وأبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ وأن لكل من التشبيهين وجهًا يرجحه على الآخر.

(و) من العجائب التى وقعت عند ولادته ﷺ أيضًا: أنه **(غَاضَتْ)** بالغين والضاد المعجمتين؛ أى غارت وذهبت فى الأرض حتى لم يبق فيها قطرة ماء **(بُحَيْرَة)** بصيغة التصغير وهو تصغير تعظيم كما يعلم مما يأتى **(سَاوهْ)** وتسمى عين ساوه بسين مهملة وبعد الألف واو فهاء ساكنة؛ قرية من قرى بلاد فارس بينها وبين الرّى، من أشهر بلاد «خُرَاسان» كما فى «تاريخ ابن خِلّكَان» اثنان وحشرون فرسخًا، وأضيفت البحيرة إليها لبنائها مكانها، وهى المعروفة بالغيض.

وأما بحيرة طَبَريَّة التى بالشام يخرج منها نهر بينها وبين الصخرة ثمانية عشر ميلاً فباقية إلى يومنا هذا، ويكون ذهاب مائها عند خروج يأجوج ومأجوج كما ورد: «أنهم يمرون ببحيرة طَبَريَّة فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: كان بهذه مرة ماء»[1].

وهو الذى عليه المحققون: كالأزهرىّ، والبُرْهَان، والزرقانى، وغيرهم. وتعقب الخفاجى البُرْهَان فى «نسيم الرياض» وقال: والجواب الحق أن المراد

(1) جزء من حديث أخرجه أحمد فى مسنده.

بحيرة طبرية. وقد روى الحديث البيهقى، وابن أبى الدنيا، وابن السكن، فالمعترض لم يقف على هذه الرواية، ولعل ماءها نقص نقصًا لا ينقص مثله فى زمان طويل، أو غار ماؤها ثم عاد بعد ذلك لما فيها من العيون النابعة التى تمدها الأمطار. . انتهى. أى وهذا وجه إثبات أنه بحيرة طَبَرِيَّة.

وأجيب بأن غَيْضَ كليهما ثابتٌ فى الأحاديث التى نقلها السيوطى وغيره، غاية الأمر أن بحيرة سَاوَهْ نشف ماؤها بالكلية، وبحيرة طَبَرِيَّة نقص ماؤها فقط، وهو جمعٌ حسن.

ووقع للشيخ ابن حجر الهَيْتَمى فى «النعمة الكبرى»: وغاضت بحيرة سَاوَهْ وتسمى بحيرة طَبَرِيَّة. وكأن مراده: الجمع؛ أى تسمى فى بعض الأحاديث: بحيرة طَبَرِيَّة فهى واحدة فلا يعترض عليه بأن سَاوَهْ بفارس، وطَبَرِيَّة بالشام.

(وكانت) بحيرة سَاوَهْ بعراق العجم **(بين)** مدينتى **(هَمَذَان)** بفتح الهاء والميم والذال المعجمة؛ بلدة بخراسان من بلاد العجم بناها همذان بن الفلوج بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ وهى المرادة هنا، ومن خاصيتها أن الإنسان لا يكون بها حزينًا ولو كان ذا مصائب. كذا فى «عجائب البلدان» للقزوينى. وأما الهَمْدان بفتح الهاء وسكون الميم ودال مهملة؛ فهى قبيلة باليمن.

(وقُمْ) بضم القاف وسكون الميم؛ مدينة ببلاد العجم بها آبار ليس فى الأرض مثلها عذوبة وبردًا، وأبنيتها بالآجر، وفيها سراديب فى نهاية الطيب، ومنها إلى الرّى مفازة سبخة، ومنه قول الشاعر:

أيها القاضى بِقُمْ　　　قَدْ عَزَلْنَاكَ فَقُمْ

(من) جملة **(البلاد العَجَمِيَّة)** وهو أقليم خراسان، كانت تلك البحيرة كما قال «الخميس»[1] أكثر من ستة فراسخ فى الطول والعرض، وكان يركب فيها السفن ويسافر إلى ما حولها من البلدان. . انتهى.

---

(١) هو حسين بن محمد بن الحسن الدِّيار بكرىّ، مؤرخ، ولي قضاء مكة وتوفى بها سنة (٩٦٦ هـ) له: «تاريخ الخميس» مطبوع. الأعلام (٢/ ٢٥٦).

وفى «المنح»: وكانت تحيل العادة أن يغيض ماؤها لكثرته (و) مع ذلك فقد (جَفَّتْ): أى تلك البحيرة - أو الينابيع على ما يأتى - ليلة ولادته ﷺ وأصبحت يابسة كأن لم يكن بها ماء؛ حتى أن لهب النار ينبع من قعرها، وأشار إلى ذلك فى «البردة»:

كأن بالنَّارِ ما بالماءِ من بللٍ حُزْنًا وبالماءِ ما بالنَّارِ من ضَرَمِ[1]

وكذا فى «الهمزية»:

وعيونٌ للفرسِ غَارَتْ فهل كا نَ لنيرانهمْ بها إطفاءُ[2]

وهذا توبيخ وتقريع لهم: أى هل تلك المياه التى غارت كانت بها إطفاء تلك النيران. ويقال فى جوابه: لا، بل إطفاؤها إنما هو لسر وجود هذا النبى المعظم، وظهوره المضمحل به كل لهو وباطل.

(إذ) تعليل لسبب الجفاف (كَفَّ) بفتح الكاف والفاء مشددة؛ أى منع يتعدى ويلزم (واكفُ) اسم فاعل وكَفَ يكف فهو واكفٌ أى شديد، مفعول لما قبله مضاف لقوله (مَوْجِهَا) من إضافة الصفة للموصوف، وهو مضاف للضمير العائد على بحيرة (الثَّجَّاج) بفتح المثلثة وجيمين بينهما ألف الأولى منهما مشددة؛ أى سيال صفة للموج (ينابيعُ) جمع ينبوع وهو عين الماء أو الماء نفسه إذ الينبوع جاء للمنبع وللنابع ففى «حاشية شيخ زاده»[3]: الينابيع جمع ينبوع وهو: إما الموضع الذى يجرى فيه الماء من خلال الأرض، أو نفس الماء الجارى. والمراد هنا: الأول. وهى فاعل قوله: «كَفَّ» هذا إن جعلناه متعديا. ولم يقل كَفَّتْ بالتأنيث للفصل بينه وبينها. والمعنى: جفت تلك البحيرة بسبب إنكفاف: أى امتناع ينابيع تلك المياه التى كان لها موج شديد بحيث تفتحت وبلعت ما فيها، أو فاعل قوله جَفَّتْ إن جعلناه لازما وجعلنا

(١) المجموعة النبهانية (٤/٧). والضرم: الالتهاب.

(٢) المجموعة النبهانية (١/٧٨).

(٣) هو محمد (محيى الدين) بن مصطفى (مصلح الدين) القوجرى، مفسر من فقهاء الحنفية، كان مدرسًا فى استانبول، له حاشية على أنوار التنزيل للبيضاوى، توفى سنة (٩٥١ هـ). الأعلام (٧/٩٩).

واكف فاعله، وحينئذ فالمعنى: جفت ينابيع (هاتيك) وفى بعض النسخ تلك اسم إشارة لما بعده وهو (المياه) الكائنة ببحيرة سَاوَهْ؛ بسبب انكفاف موجها الشديد الذى كان استمداده منها.

والأقرب من ذلك كله والأوضح أن تكون إذ ظرفًا للماضى مجردة عن معنى التعليل. والمعنى: جفت البحيرة وقت كف الينابيع، واكف: الموج الكثير. هذا إذا كان فاعل جفَّت ضميرًا راجعًا لبحيرة وجعلنا كَفَّ متعديًا. أما إن جعلنا كَفَّ لازمًا، وجعلنا الينابيع فاعل جفت، فيكون المعنى حينئذ: جفت الينابيع وقت انكفاف، واكف الموج الكثير.

(و) من الغرائب التى ظهرت عند ولادته ﷺ أيضًا: أنه (فَاضَ) الماء حتى كثر وسال، وفى كلام بعضهم: أن نهر الفرات الذى كان به قوامهم ضل الطريق ووقع فى (وادى سَمَاوهْ) أى واد يعرف بسَمَاوهْ بفتح السين المهملة فميم فألف فهاء ساكنة؛ فأصبح الفرات ساكنًا غير جارٍ إشارة إلى وقوف أمرهم وتعطّله (وهى) أى سَمَاوهْ: موضع بين الكوفة والشام، وليست من العواصم كما فى «القاموس» وغيره، وبهذا يُعلم ما فى «المنح»: أنها قرية بينهما، ويحتمل على بعد أن يقال: إنها بنيت بعد ذلك، أو كانت قرية ثم خربت واندثرت فيطلق عليه تارة موضع وتارة قرية. وفسَّرها المصنف بقوله: (مَفَازَةٌ) وهى أرض متسعة مهلكة سميت بذلك تفاؤلا بالسلامة والفوز من الهلاك فيها. (فى فَلاَةٍ) بفتح الفاء: مرادفة لمفازة أتى بها لزيادة الإيضاح، وكذا قوله: (وبَرِّيَّة) بفتح الموحدة وشد الراء والمثناة التحتية رعاية للتسجيع، وعلم من ذلك أن سَمَاوهْ هذه غير سَمَاوهْ القرية المعروفة بين الكوفة والبصرة على نهر الدجلة إذ يبعده قوله: (لم يكن) يُوجد ويُعهد (بها) أى فيها (قَبْلُ) أى قبل ذلك (ماءٌ) بالتنوين؛ ثم رأيت فى «المراصد» ما يؤيد ما ذكرناه ونص عبارته: السَمَاوة بفتح أوله وبعد الألف واو: بادية بين الكوفة والشام، أرض مستوية لا حجر فيها، وماء بالبادية. وقيل: السماوة؛ ماء لكلب.

وفى «المجمل»: السماوة: ماء بالبادية.

قال النووى فى «التهذيب»: قال السمعانى فى «ترجمة المسىء المتنبى»: إنما قيل له ذلك؛ لأنه ادعى النبّوة فى بادية السماوة، وتبعه كثير من كِلْب وغيرهم، فخرج له لؤلؤ أمير حمص فأسره، ثم أشهد عليه أنه تاب وكذب نفسه فيما ادعاه وأطلقه.. انتهى.

وما تقدم من أنها ماء بالبادية يعكر عليه قوله: لم يكن... إلخ. إلا ان يقال: إن الماء بقى بعد ما فاض، فأطلق عليه اسم المحل. لكن قال فى «الوشاح»: قد تنوسى لفظ سَمَاوة اليوم ولم يُعرف إلا موضع بين الحِلَّة والبصرة ـ يريد بذلك ما قدمناه ولله الحمد ـ وفى قوله: «تنوسى لفظ سماوة» نظر فتأمل.

(يَنْقَعُ) بفتح المثناة التحتية فنون فقاف مفتوحة فعين مهملة مضارع نَقَع بفتحتين؛ أى يبل (للظمآن) العطشان (اللَّهاه) بفتح اللام؛ اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم، والجمع لهوات ولهيات. والمراد: الفم جميعه؛ فهو مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل، وعلم مما مر: أن الإضافة فى قوله وادى سَمَاوة بيانية؛ أى واد هو سَمَاوة، ويحتمل أن تكون حقيقية على معنى اللام: أى واد لسَمَاوة، وأعاد ضمير التانيث إليه وهو قوله: هى؛ إما باعتبار ما اكتسبه من المضاف إليه وهو سَمَاوة، أو باعتبار إرادة البقعة، أو راعى جانب الخبر وهو قوله: مفازة، فقوله: لم يكن بها... إلخ. يصح أن يكون نعتًا لمفازة، أو لسَمَاوة وللوادى بالاعتبار المذكور.. والله أعلم.

وللشقراطيسى[1] أبيات لها مناسبة بهذا المقام:

ضاءت لمولدِهِ الآفاقُ واتَّصَلَتْ بُشْرى الهواتفِ فى الإشراقِ والطَّفَلِ[2]

(١) هو الإمام أبو محمد عبد الله بن يحيى بن على الشقراطيسى المغربى، فقيه مالكي، توفى سنة (٤٦٦ هـ). الأعلام (٤/ ١٤٤)، شجرة النور (١١٧).

(٢) الطفل: آخر النهار عند الغروب.

وصرحُ كسرى تداعى من قواعده وانقضَّ مُنْكَسِرَ الأرجاءِ ذا مَيَلِ
ونارُ فارسَ لم تُوقَدْ وما خَمِدَتْ من ألف عامٍ ونهرُ القومِ لم يَسِلِ
خرَّتْ لمبعثه الأوثانُ وانبعثتْ ثواقبُ الشُّهْبِ ترمى الجِنَّ بالشُّعَلِ[1]

(و) هنا تم الكلام على القسم الأول الواقع فى كلام المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ وقد تبين بهذا انقسام الخوارق كلها باعتبار اختلاف أزمنتها إلى ثلاثة أقسام:

قسم منها وقع قبل البعثة النبوية: وهو شامل لما وقع قبل المولد النبوى وبعده وقد مر.

وقسم بين المبعث والوفاة النبويين.

وقسم وقع من وقت الوفاة النبوية إلى الآن لصالحى الأمة وهو غير محصور؛ إذ كل خارق وقع لخواص أمته ﷺ إنما هو فى الحقيقة له إذ هو السبب فيه.

وسبق أن الذى يسمى بمعجزة حقيقة هو ثانى الأقسام، وأفراده كثيرة جداً حتى قيل: إنه ظهر على يديه ﷺ من المعجزات ألف، بل قيل: ثلاثة آلاف؛ منها ـ وهو أعظمها وأشهرها وأعمها ـ: القرآن العظيم، وهو مُنْطَوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها كما قال القاضى عياض من جهة ضبط أنواعها فى أربعة أوجه:

أحدها: حسن تأليفه، والتآم كلمه، وفصاحته، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب؛ فإنهم مع فصاحتهم وبلاغتهم لم يقدروا على معارضته والإتيان بمثله كما جاء ذلك فى القرآن فى كثير من الآيات، ولم يَخْفَ على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم؛ ولهذا لما سمع الوليد من النبى ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...﴾[2] الآية. قال:

(١) المجموعة النبهانية (٣/ ١٩٩).

(٢) سورة النحل: ٩٠.

والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر.

وذكر أبو عبيد: أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (١) فسجد وقال: سجدت لفصاحته.

وحُكى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يومًا نائما فى المسجد، فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد بشهادة الحق، فاستخبره، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يُحسن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلا من أُسَارى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها، فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة، وهى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢).

ثانيها: صورة نظمه العجيب، وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظيرٌ له ولا استطاع أحد مماثلة شىء منه؛ بل حارت فيه عقولهم، وتدلهت به دونه أحلامهم.

ثالثها: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذى أخبر كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمنين﴾ (٣).

وقوله: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (٤).

وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (٥).

وقوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى

(١) سورة الحجر: ٩٤.

(٢) سورة النساء: ٨٠.

(٣) سورة الفتح: ٢٧.

(٤) سورة الروم: ٢.

(٥) سورة الفتح: ٢٨.

﴿الأَرْضِ﴾ الآية[1].

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾ [2] إلى آخرها.

فكان جميع هذا كما قال، فغلبت الروم فارس فى بضع سنين، ودخل الناس فى الإسلام أفواجا.

رابعها: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الداثرة، وقد كان كثيراً ما يسألونه ﷺ عن هذا، فيتنزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً: كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى والخَضِر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذى القرنين، ولقمان وابنه، وأشباه ذلك من الأنباء والقصص، وبدء الخلق، وما فى التوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، مما صدَّقه فيه العلماء بها ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر فيها.

وهذه الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لا نزاع فيها ولا مرية.

ومن الوجوه البيِّنة فى إعجازه: كونه آية باقية لا تُعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [3].

وسائر معجزات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ انقضت بانقضاء أوقاتها، فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز الباهرة آياته، الظاهرة معجزاته؛ على ما كان عليه من أول نزوله إلى وقتنا هذا، حجة قاهرة.

ولإعجازه وجوه كثيرة ذكرها الأئمة الأعلام لا يسعها المقام. وحقيقة الإعجاز: الوجوه الأربعة التى ذكرناها فليعتمد عليها وبالله التوفيق. . انتهى.

ومنها: انشقاق القمر فلقتين ـ وفى رواية مرتين ـ لما طالبه كفار قريش آية على صدقه فى دعوى النبوة. ومنها: رد الشمس بعد غروبها وحبسها عن الغروب. ومنها: نبع الماء بين أصابعه مراراً متعددة. ومنها: تفجير الماء فى

(١) سورة النور: ٥٥.

(٢) سورة النصر: ١.

(٣) سورة الحجر: ٩.

عين تبوك، وبئر الحديبية. ومنها: تكثير الطعام ببركته ودعائه. ومنها: تسليم الحَجَر والشجر عليه، وشهادتها له بالنبوة، وإجابتها دعوته، ومثولها بين يديه، ثم رجوعها إلى منابتها بأمره غير مرة. وكذا سائر الجمادات: كحنين الجذع، وتسبيح الحصى والطعام فى كفه. والحيوانات: كسجود الجمل وشكواه إليه قلة العلف وكثرة العمل، وكلام الضب والذئب والظبى، وشهادة جميعها له بالرسالة.

ومن هذا الباب: تسخير الأسد لسفينة ـ مولى رسول الله ﷺ ـ لما وجهه إلى مُعاذ باليمن فلقى الأسد فعرَّفه أنه مولى رسول الله ﷺ، ومعه كتابه، فهمهم وتنحّى عن الطريق.

ودفعه لعُكَّاشة جذل[1] حطب وقال: «اضرب به» حين انكسر سيفه يوم بدر فعاد فى يده سيفًا صارمًا، طويل القامة، أبيض شديد المتن، فقاتل به، ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن استشهد فى قتال الرِّدة، وكان هذا السيف يقال له: العَوْن.

ودفعه لعبد الله بن جَحْش يوم أحد وقد ذهب سيفه عَسِيْبُ[2] نخل، فرجع فى يده سيفًا.

ذكر القاضى عياض هاتين المعجزتين فى فصل: «كراماته ﷺ» بناء على أن ما لم يقع مع التحدى كرامة. وتقدم أن المعجزة ما وقع بتحد أو بدونه إذا كان موافقًا لمراده.

ومنها: إحياء الموتى، وإبراء المرضى وذوى العاهات: كنطق الشاة التى أهدتها يهودية مَصْلِيَّة[3] مسمومة فأكل ﷺ منها ومن معه فقال: «ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتنى أنها مسمومة»، وقال لليهودية: «ما حملك على ما صنعت؟» قالت: إن كنت نبيًا لم يضرك ما صنعت، وإن كنت ملكًا أرحت

---

(١) الجذل: أصل الشجرة.

(٢) عسيب نخل: جريد النخل.

(٣) مَصْلِيَّة: اى مشوية.

الناس منك[1].

وردَّ عين قَتَادة بن النعمان بعد سقوطها على خده فعادت أحسن عينيه وأحدّهما[2].

وَبَصَقَ على أثر سهم فى وجه أبى قتادة بن النعمان بعد سقوطها على خده، فعادت فى يوم ذى قِرْدَةَ، قال: فما ضرب عليَّ ولاقاح.

وأتاه أعمى يسأله أن يدعو له أن يكشف الله عن بصره، فأمره أن يتوضأ ثم يتوسل إلى الله بنبيه ﷺ فى دعاء علمه إياه، ففعل، فرجع وقد كشف الله عن بصره.

وتَفِلَ فى عينى علىّ - رضى الله عنه - يوم خَيْبَر وهو رَمِدٌ فعوفى من ساعته ولم يرمد بعد ذلك[3].

ومسح على رِجْل عبد الله بن عَتِيك بعد انكسارها فصحّت لحينها وعادت كأحسن ما كانت.

ووضع كفه على المريض فعقل من ساعته.

ومسح على رأس أقرع فنبت شعره واستوى فى وقته وذهب داؤه.

وأتته امرأة من خَثْعَم معها صبى به بلاء لا يتكلم، فأتى بماء فمضمض فاه، وغسل يديه، ثم أعطاها إياه وأمرها بسقيه ومسه به، فبرىء الغلام وعقل عقلا يفضل عقول الناس.

وجاءت امرأة بابن لها به جنون، فمسح صدره فَثَعَّ ثَعَّة، فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفى[4].

* * *

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٢٥٢)، إتحاف السادة المتقين (٧/ ١٨٧).

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٣٤٧)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٣٣٨).

(٣) أخرجه البخارى (٤٢١٠)، مسلم (كتاب الجهاد: ١٣٢)، أحمد (١/ ١٨٥)، البيهقى فى السنن الكبرى (٩/ ١٠٧)، البيهقى فى دلائل النبوة (٤/ ٢٠٥)، الطبرانى فى المعجم الكبير (٦/ ١٨٧)، كنز العمال (٣٠١١٩).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٤)، الدارمى (المقدمة ٤)، البيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ١٨٦).

[إجابة دعائه ﷺ]

وظهرت إجابة دعائه ﷺ فيمن دعا لهم وعليهم فى أمور لا تحصى، ومن ذلك:

[دعائه] لأنس بن مالك بطول العمر وكثرة ماله والولد، فعاش نحو المائة أو أكثر، ودفن مائة من ولده لصلبه، وكان كَرْمُه يحمل فى السنة مرتين[1].

و [دعا] لعبد الرحمن بن عوف بالبركة؛ فحفر الذهب فى تركته بالفوس حتى مجلت فيه الأيدى.

و [دعا] لابن عباس بالفقه فى الدين والحكمة والتأويل، فكانت بحراً لا يجارى، وسُمى حَبْر الأمة وترجمان القرآن.

و [دعا] لعلى ـ رضى الله عنه ـ أن يُكْفَى الحرَّ والقرَّ، فكان يلبس فى الشتاء ثياب الصيف، وفى الصيف ثياب الشتاء ولا يصيبه حرٌ ولا برد[2].

و [دعا] لفاطمة ـ رضى الله عنها ـ أن لا يجيعها الله تعالى فما جاعت بعد.

ودعا على «مُضَر» فأقْحطوا حتى استعطفته قريش، فدعا لهم فسقوا.

و [دعا] على كِسْرى حين مزَّق كتابه أن يُمَزِّق الله ملكه، فلم يبق له باقية، ولا بقيت لفارس رياسة[3].

وقال لرجل يأكل بشماله: «كل بيمينك»، فقال: لا أستطيع. فقال: «لا

(١) صحيح البخارى (٨/ ٩١)، مسلم (٤٥٨، ١٩٢٨)، الترمذى (٣٨٢٩)، دلائل النبوة للبيهقى (٦/ ١٩٤)، الوفا ص (٣٥٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١١٧)، أحمد فى مسنده (١/ ٩٩، ١٣٣)، فتح البارى (٧/ ٤٧٧)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٣٥٠).

(٣) أخرجه البخارى (٢٩٣٩)، البيهقى دلائل النبوة (٤/ ٣٨٨)، الزيلعى فى نصب الراية (٤/ ٤٢١)، مصنف ابن أبى شيبة (١٤/ ٣٣٨)، تاريخ بغداد (١/ ١٣٢)، تهذيب تاريخ دمشق (٧/ ٣٥٦).

استطعت»، فما رفعها إلى فيه بعد[1].

و [دعا] على عُتْبَة بن أبى لهب: «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك»، فأكله الأسد[2].

و [دعا] على الحكم بن أبى العاص وكان يَخْتَلِجُ بوجهه ويَغْمِزُ عند النبى ﷺ فرآه ﷺ فقال: «كن كذلك»، فلم يزل يَخْتَلِج إلى أن مات.

و [دعا] على محلم بن جثامة فمات لسبع، فلفظته الأرض، ثم دفن فلفظته مرات، فألقوه بين صدين ورضخوا عليه الحجارة[3].

قال القاضي عياض: وهذا الباب أكثر من أن يحاط به.. انتهى.

قال فى «المنهج الأعدل» نقلا عن بعض العلماء: إن من أعظم معجزاته حاله ﷺ وهو ما استمر عليه من الآداب والأخلاق: كتأدبه بآداب القرآن، وعزائمه: كالحلم، والصبر، والعفو مع الاقتدار؛ وكتمام التواضع للضعفاء، والترفع على الأغنياء، ومقابلة السيئة بالحسنة؛ وكتمام الجود مع تمام الزهد فى الدنيا، وشدة الخوف من الله تعالى بحيث يظهر عليه أثره، ومع الفراغ من حظوظ النفس، وكالشجاعة إلى حد الغاية، والإصرار على الدعوة مع ما يرى فيها من المتاعب والمشاق.

ومنها: تكميله لغيره بحيث بلغ من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى مقام الولاية أكثر من عشرة آلاف، وظهر فى أمته من العلماء المجتهدين والعباد والزاهدين، والأولياء العارفين، ما لا يحصى ببركته ﷺ وتمهيده لهم من الدين والكمالات ما كان سببا لذلك.. انتهى ملخصًا.

* * *

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٦٢٣٥)، أبو نعيم فى معرفة الصحابة (١٢٠٦)، الدارمى (٢/ ٩٧)، البيهقى فى السنن (٧/ ٢٧٧)، البيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٢٣٨).

(٢) البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٩٦)، أبو نعيم دلائل النبوة ص (١٦٣)، الشفا (١/ ٦٣٢)، الوفا ص (٣٥٤).

(٣) الخصائص الكبرى (٢/ ١٣٠).

[محل مولده ﷺ]

(وَ) اختلف في محل مولده ﷺ فقيل: كان بعُسْفَان، وهذا القول باطل. وقيل: بباب شبيكة ـ كجهينة ـ وادٍ قرب العَرْجَا، وموضع بين «مكة» و «الزاهر»، أو بئر هناك كما في «القاموس».

وقيل: بردم بني جمح.

وقيل: بشِعْب بني هاشم وهو المشهور، بل حكى عليه الإجماع.

وعبارة الأزرقي[1] لا اختلاف فيه بين أهل مكة أنه (كَانَ مَوْلِدُهُ) أي ولادته ﷺ (بالموضع) المشهور بمكة (المَعْرُوفُ) في سوق الليل آخر شِعْب بني هاشم، قال في «النعمة الكبرى»: كان داراً لأخي الحجاج بن يوسف الثقفي، وصلت إليه من ولد عقيل بن أبي طالب، وكان عقيل وضع يده عليها لما هاجر النبي ﷺ، ثم اشترتها الخيزران[2] أم هارون وبنتها مسجداً لله يُصلَّى فيه، ثم لازال الخلفاء والسلاطين يتعاهدونها بالبناء والتجديد إلى الآن، وقد كان وراءها بركتان عظيمتان يستقى منهما الحاج ثم خربتا ومحلهما ظاهر إلى الآن.

ومن الغريب جداً أن المولد بردم بني جمح؛ سمي به لما ردم فيه من قتلاهم لما قاتلوا بني محارب بن فِهْر. قيل: وليس هو الرَّدم المسمى بالمدعى الآن؛ لأن هذا إنما كان في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ.

وأغرب منه ما قيل أنه ولد بعُسْفَان، ولم يعول أئمتنا عليه بل قالوا: يجب الإيمان بأنه ولد بمكة، وهذا أول واجب للأولاد على أصولهم أنهم يُعلِّمونه

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن أحمد بن عقبة الأزرقي، أبو الوليد، مؤرخ يماني الأصل، من أهل مكة، من مؤلفاته: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. توفي سنة (٢٥٠ هـ). الأعلام (٦/٢٢٢).

(٢) هي الخيزران، زوجة المهدي العباسي، وأم ابنيه الهادي وهارون الرشيد، ملكة حازمة متفقهة، يمانية الأصل، توفيت ببغداد. الأعلام (٢/٣٢٨).

لهم إذا بلغوا سبع سنين وميزوا، بل قضية كلام بعضهم أن إنكار ذلك كفرٌ كإنكار كونه قرشيًا.

(بالعِرَاصِ) بكسر العين المهملة فراء فصاد مهملتين بينهما ألف جمع عَرْصَة كضربة؛ وهى كل موضع واسع لابناء فيه، ويُجمع على عَرَصَات، سميت بذلك لأن الصبيان يتعرّصون فيها؛ أى يلعبون ويمرحون (المكيَّة) أى المنسوبة لمكة (والبلدِ) اسم من أسماء مكة قال تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ (١).

(الَّذِى لاَ يُعْضَدُ) بضم أوله وسكون العين المهملة وفتح الضاد المعجمة بعدها دال مهملة مبنيًا للمفعول؛ أى لا يُقطع (شَجَرُهُ) وهو ما له ساق من النبات (ولا يُخْتَلَى) بضم المثناة تحت وسكون الخاء المعجمة وفتح المثناة فوق فلام؛ أى لا يُقطع، فهو من قبيل عطف الرديف (خَلاَهُ) بفتح الخاء المعجمة مقصور جمع خلاة؛ النبات الرقيق ما دام رطبًا، وإذا يبس فهو حشيش.

* * *

[تعظيم مكة وحرمها]

وأصل هذا ما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرام، حرَّمه الله تعالى، لا يُعْضَد شوكه، ولا يُنفر صيده ولا تُلْتَقط لقْطته إلا من عرفها»(٢).

وعن أبى شريح العدوى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال لعمرو بن سعيد لما أراد بعث الناس إلى مكة لقتال ابن الزبير: ائذن لى أيها الأمير أحدثك حديثًا سمعته أذناى ووعاه قلبى أنه ﷺ قال: «إن مكة حرَّمها الله تعالى ولم يحرِّمها

---

(١) سورة البلد: ٢.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٥)، ومسلم (١٣٥٥)، البيهقى فى السنن (٥/ ١٩٥)، البغوى فى شرح السنة (٧/ ٢٩٤)، النسائى (٨٧٤)، ابن ماجه (٣١٠٩).

الناس، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يَعْضَدَ بها شجرًا، فإن أحدٌ ترخَّصَ بقتال رسول الله فيها فقولوا: إن الله عز وجل أذِن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذِن لى فيها ساعة من نهارٍ، ثم عادت حُرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلِّغ الشاهد الغائب»[1].. انتهى.

قوله: «لا يُعْضَدَ شوكه» فيه دليل على تحريم نبات الحرم من الشجر والكلأ، سواء الشوك المؤذى وغيره. وهو الذى اختاره المتولى. وقال الزركشى: وهو الصحيح، وقال جمهور أصحابنا: لا يحرم الشوك وإن لم يكن نابتًا فى الطريق؛ لأنه مؤذى كصيد يصول، وانتصروا لمقابله بصحة النهى عن قطع شوكه بخصوصه، فلا يصح الجواب عنه بأنه مخصوص بالقياس على الفواسق الخمس، على أن الفرق أن لتلك نوع اختيار بخلاف الشوك.

وحاصل المذهب: أنه لا فرق فى التحريم، وإيجاب الضمان بين النابت بنفسه والمستنبت كالأشجار المثمرة، والقرع، والخلاف، والفرصاد لظاهر الخبر.

قال الماوردى: ومحل الخلاف فيما أنبت فى موات الحرم، فإن أنبت فى أملاكه لم يحرم بلا خلاف. هذا بالنسبة إلى الشجر، وقيده ابن الرفعة بالرطب، قال: أما إذا كان الشجر قد جفّ فَقَلَعَهُ فلا شىء عليه.

وجوز القاضى حسين القطع بالطاء لا باللام فلا يلزم من جواز القطع القلع؛ بدليل الحشيش اليابس فإنه يجوز قطعه، ولا يجوز قلعه.

لكن فرق الشهاب ابن حجر فى «التحفة»: بأن الحشيش ينبت إذا أصابه ماء. قال: ومن ثم لو علم فساد منبته من أصله جاز قلعة. قال: وكأنهم إنما لم يجروا هذا التفصيل فى الشجر لندرته فيه بفرض تصوره.. انتهى. فلا يقاس الشجر على الحشيش.

ولم يتكلم النووى فى «الروضة» و «شرح المهذب» على الشجر اليابس،

---

(١) أخرجه مسلم (٩٨٧)، أحمد فى مسنده (٣١/٤)، البيهقى فى السنن (٦٠/٧)، مشكاة المصابيح (٢٧٢٦).

وإنما تعرَّض للقطع فقط. قال الزركشي: قد يوهم تحريم القلع، والصواب الجواز كما سبق.. انتهى.

وأما المستنبت بالنسبة إلى غير الشجر؛ كالحنطة، والشعير، وسائر الخضروات، فيجوز قطعه وقلعه بلا خلاف لمالكه، ولو قطعه غيره فعليه قيمته له، ولا شيء عليه للمساكين. قاله الخفَّاف[1] في كتاب «الخصال».

وقد استثنى أصحابنا من التحريم والتضمين في النابت بنفسه مسائل:

أحدها: الإذخر لورود التصريح باستثنائه في الصحيح.

الثانية: الشوك: كالعوسج وغيره لأذاه.

الثالثة: إذا احتيج لشيء من الكلأ لعلف البهائم جاز أخذه على الأصح؛ لأن المنع منه لأجلها، كما يجوز تسريحها فيه.

الرابعة: إذا احتيج إليه للدواء فالأصح لا يحرم قطعه؛ كالحاجة إلى الإذخر وقد استثناه الشرع.

الخامسة: إذا احتيج إليه للحاجة التي يقطع لها الإذخر: كتسقيف البيوت، ونحوه.

السادسة: ما يتغذى به؛ كالرجلة المسماة بالبقلة، ونحو ذلك؛ لأنه في معنى الزرع، صرح باستثنائها المحب الطبري[2] في «شرح التنبيه».

* * *

---

(١) هو المبارك بن كامل بن محمد بن الحسين، البغدادي الظفري، أبو بكر الخفاف، محدث، تتبع أخبار أهل العلم في عصره، وجمع كتاب «سلوة الأحزان» في نحو ٣٠٠ جزء، وخرج لنفسه معجماً لشيوخه، ولد وتوفي ببغداد (٤٩٠ ـ ٥٤٣ هـ). الأعلام (٥/ ٢٧١).

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري المكي الشافعي، محب الدين أبو العباس، شيخ الحرم، ولد بمكة وتوفي بها، من تصانيفه: «الرياض النضرة في فضائل العشرة» و «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين». معجم المؤلفين (١/ ٢٩٨).

[أسماء مكة] (1)

فائدة : لمكة أسماء كثيرة: بكّة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والمأمون، وأم القرى، والنَّاسة بالنون فى أوله والسين المهملة فى آخره، والبَّاسَّة بالباء الموحدة، والنَّاسَّة بنون ثم سين مشددة، وصَلاَحِ بفتح الصاد وكسر الحاء المهملتين. قال فى «القاموس»: كقَطَامِ رقد يصرف: مكة. . انتهى.

وأم رُحْم بضم الراء وتسكين الحاء المهملتين، وأم زَحم بالزاى المعجمة، وفى «القاموس» أم زُحْم بالضم: مكة. . انتهى.

وكُوثَى بضم الكاف وفتح الثاء المثلثة، والحاطمة، والعَرْش بفتح العين المهملة وإسكان الراء على وزن نذر ويصح ضم العين والراء والتصغير، والقادسة، والمقدسة، والبلد الأمين، والبلد، والبلدة، والقرية، والثَّنِيَّة، وطَيْبَة، والحرم، والمسجد الحرام، والعطشة، وبرَّة، والرّتَاج، والكعبة، والرأس، ذكرها الزركشى فى «إعلام الساجد».

وقال الحافظ صدر الدين أبو على الحسن بن محمد البكرى فى «الأربعين البلدانية»: ويقال لها: قبلة أهل الإسلام، ومَعَاد، وصاحب المشاعر العظام، والزمزم، والمُقام، والمسجد الحرام، وهى مهبط الوحى، وملاذ الرسل، ومعاذ الصالحين من سائر الأمم.

وقال النووى: فى أسماء البلدان لا يعلم أبدًا أكثر من أسماء مكة والمدينة ـ وتقدم ذكر أسمائها ـ لكونهما أفضل الأرض؛ وذلك لكثرة الصفات المقتضية للتسمية، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أى غالبا؛ ولهذا كثرت أسماء الله تعالى ورسوله ﷺ حتى قيل: إن لله تعالى ألف اسم، ولرسوله ﷺ كذلك. . انتهى.

---

(1) انظر: شفاء الغرام (٤/٤٧)، إعلام الساجد ص (٧٨)، سبل الهدى والرشاد (١/٢٢٥)، مثير الغرام الساكن ص (٢٤٣).

[تاريخ مولده ﷺ]

(وَ) اعلم أنه قد (اخْتُلِفَ) بالبناء للمفعول (فِيْ) تعيين (عَامِ) هو من أول المحرم إلى آخر ذى الحجة كما نقل عن ابن الخباز، بخلاف السنة فإنها من وقت فى دور إلى مثله من الدور الثانى، وقد فرّق بينهما الإمام السهيلى فى «الروض الأنف» لكن باعتبار أصل الوضع، فإن السنة من دور الشمس إلى عودها لمحلها؛ لأنها من سنى بمعنى دار، ومنه: السانية.

والعام ما اشتمل على الفصول الأربعة بتمامها. وهما هنا بمعنى ولادته ﷺ هل هو عام الفيل أو قبله أو بعده.

فقيل: عام الفيل. قال الحافظ ابن كثير: المشهور عند الجمهور، وعن إبراهيم بن المنذر شيخ البخارى، لا يشك فيه أحد من العلماء. ونقل غير واحد فيه الإجماع. وقال: كل قول يخالفه وهم، وسيأتى ما فيه.

واختلفوا فيما مضى منه. وقيل: يوم الفيل، وقيل: بعده بشهر، وقيل: بأربعين يومًا، وقيل: بخمسين يومًا وهو الراجح المشهور كما سيأتى، وقيل: بخمسة وخمسين يومًا، وقيل: بشهرين وستة أيام.

وقيل: قبل الفيل بخمس عشرة سنة. قال بعضهم: وهذا غريب منكر وضعيف أيضًا.

وقيل: بعد الفيل بسنتين، وقيل: بعشر سنين، وقيل: بخمس عشرة سنة، وقيل: بثلاثة وعشرين عامًا، وقيل: بثلاثين عامًا، وقيل: بأربعين، وقيل: بسبعين عامًا.

ويرد القول بأن الولادة كانت بعد الفيل بعشر سنين فما بعدها بأن قصة الفيل إنما كانت توطئة لنبوّته، ومقدّمة لظهوره وبعثته، وإلا فأصحاب الفيل كما قال ابن القيم كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم خيراً من دين أهل

مكة إذ ذاك؛ لأنهم كانوا عباد أوثان؛ فنصرهم الله تعالى على أهل الكتاب نصرة لا صنع للبشر فيها إرهاصًا وتقدمة لخروج هذا النبى ﷺ الأعظم من هذه البنية التى قصدوا هدمها وتخريبها وإبادة أهلها، المندرج نور النبوة فى رتيسهم المقصود بالهلاك.

ووجه الرد كما فى «إنسان العيون»: أن الإرهاصات إنما تكون بعد وجوده وقبل مبعثه الذى هو دعواه الرسالة، لا قبل وجوده بالكلية الذى هو المراد بظهوره. وحينئذ فقول القاضى البيضاوى ـ رحمه الله ـ أنها من الإرهاصات؛ إذ روى أنها وقعت فى السنة التى ولد فيها رسول الله ﷺ أى بعد وجوده. ومن ثم قال ابن القيم فى «الهدى»: إن مما جرت به عادة الله تعالى أن يقدم بين يدى الأمور العظيمة مقدمات تكون كالموصلة لها، فمن ذلك قصة مبعثه ﷺ تقدمها قصة الفيل.. انتهى.

قلت: وذلك يضعف أيضًا الأقوال بأنها كانت بعد الفيل بشهر فأكثر، ويؤيد القول بأنها كانت قبل الفيل، كما أن ذلك القول بأن الولادة كانت قبل عام الفيل، أو فيه، أو بعده يقتضى تضعيف ما ذكره الحافظ أبو سعيد النيسابورى ـ رحمه الله تعالى ـ فى قصة طويلة ذكرها فى سبب إتيان أبرهة إلى هدم الكعبة، وما وقع بينه وبين عبد المُطَّلب من أن نور النبى ﷺ كان فى ظهر عبد المُطَّلب، وأنه استدار ذلك النور فى وجهه يومئذ، وأن الفيل لما نظر إلى وجهه برك كما يبرك البعير، وخرّ ساجدًا، وأنطق الله الفيل وقال: السلام على النور الذى فى ظهرك يا عبد المُطَّلب، وأشباه ذلك مما ورد فى وجود النور فى عبد المُطَّلب إذ ذاك؛ مع أن الولادة فى ذلك الوقت يلزمها أن يكون النور انتقل من عبد المُطَّلب إلى عبد الله، ومنه إلى آمنة.

ثم رأيت العلامة ابن حجر حاول الجواب عن ذلك بأن النور وإن انتقل من عبد المُطَّلب لكن أكرمه الله بإحداث نور آخر أوجده فى صلبه، أو أثر ذلك النور كان باقيًا فى ظهره.. والله أعلم.

(وَ) كذا اختلف (فِي) تعيين (شَهْرِهَا) فقيل: فى ربيع الأول. وقيل: فى شهر غير معين. وقيل: فى صفر. وقيل: فى ربيع الآخر. وقيل: فى رمضان لثمان خلت منه، وصححه كثير من العلماء. وقيل: لاثنى عشرة ليلة خلت منه. وقيل: فى رمضان، كما مرَّ عن الزبير بن بكَّار، ونقله عن ابن عمر غير صحيح، وهو موافق لما هو مثله فى الشذوذ أن أمّه حملت به فى أيام التشريق. وقيل: فى محرم. وقيل: يوم عاشوراء من شهر المحرم حكاه ابن شاهين[1]. وقيل: لخمس بقين منه. قال بعضهم: وهذا القول غريب جداً.

(و) كذا اختلف (فى) تعيين ذات (يومها) وفى أى وقت منه، وفى أى يوم من شهرها. فقيل: يوم الإثنين. قال بعضهم: لا خلاف فيه والله. وقيل: يوم الجمعة، وهو قول ساقط مردود، بل قال بعضهم خطأ.

ومن ثم قال بعضهم: مقتضى قول المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ وفى يومها: أنه وقع خلاف فى ذات اليوم، فقيل: يوم الإثنين، وقيل: يوم الثلاثاء مثلاً، مع أن بعضهم حكى الإجماع على أنه يوم الإثنين.

ويجاب بأنه إنما ذكره إشارة لوقوع الاختلاف فى ذات اليوم، وقد وقع وإن كان مسقوطًا مردودًا كما علمت فلا يقدح ذلك فى حكاية الإجماع فلا يعترض عليه.

وقيل: يوم الإثنين من ربيع الأول من غير تعيين، والجمهور على أنه معين.

واختلفوا فى تعيينه فقيل: لاثنتى عشرة ليلة خلت منه وهو الراجح المشهور، وقيل: لليلتين خلتا منه، وقيل: لثمان خلت منه واختاره أكثر أهل الحديث وغيرهم، بل أجمع عليه أهل التاريخ بل نقل عن ابن دحية أنه قال: وهو الذى لا يصح غيره. وقيل: لعشرة منه، حكاه مُغْلَطاى والدمياطى

(١) هو عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين، أبو حفص، واعظ علامة، من أهل بغداد، كان من حفاظ الحديث، له نحو ٣٠٠ مصنف منها: كتاب «السنة» و «التفسير»، توفى سنة (٣٨٥ هـ). الأعلام (٥/ ٤٠).

وصحّحه. وروايته عن الباقرى لم تصح. وقيل: لست عشرة منه. وقيل: لثمان عشرة. وقيل: لسبع عشرة خلت منه. وقيل: لثمان بقين منه. وقيل: لاثنى عشر بقين منه.

وقيل: إن اليوم غير معين **(على أقوال)** مختلفة وقعت **(للعلماء)** أى علماء هذا الشأن يعنى التاريخ **(مرويَّة)** محكيةً عنهم، وقد حررنا بعضها كما رأيت **(و)** مع ذلك فـ **(الراجحُ)** من الأقوال فى تعيين كل من العام والشهر واليوم **(أنها)** أى الولادة الشريفة على طريق اللف والنشر المعكوس كانت **(بُعيد)** طلوع **(فجر يوم الإثنين)** قال بعضهم: وحكى عليه الإجماع، وعليه العمل الآن فى الأمصار خصوصًا أهل مكة فى زيارتهم موضع مولده الشريف ﷺ، وقيل: إنها كانت عند إبهار النهار؛ أى وسطه لثنتى عشرة خلت من شهر ربيع الأول.

وعليهما فالولادة كانت نهارًا، والأحاديث الصحيحة دالة على ذلك: كحديث مسلم سئل ﷺ عن صوم يوم الإثنين فقال: «فيه ولدت، وفيه أنزل علىّ»(1).

وأخرج أحمد عن ابن عباس: ولد ﷺ يوم الإثنين، ونبىء فيه، وخرج من مكة مهاجرًا فيه، وقدم المدينة فيه، «وَرَفَعَ الحَجَرَ الأسود فيه» وزيد: «أن نصرة بدر فيه»(2).

وردّ بأن الأكثر على أنها يوم الجمعة سابع عشرين من رمضان، وأجيب بأنه الذى عند أهل التاريخ ومشاهير المحدثين ومن يعتمد على قوله من السلف الأول. وقال بعض متأخرى الحفاظ ومنهم البدر الزركشى: الصحيح أنه ولد بعد الفجر يوم الإثنين؛ أى لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة فيه، فلا يعارضه تدلى النجوم. قال ابن دحية: لأنها ضعيفة.

(1) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٩٧)، مسلم (الصيام: ١٩٧)، أبو داود (١/٢٤١)، أبو نعيم فى الحلية (٩/٥٢).
(2) السيرة الشامية (١/٤٠١).

وقال البدر الزركشي: لأن الزمان زمان ظهور الخوارق، فلا مانع من تدلى النجوم نهاراً.

قال الزرقاني: قال النجم: وقد يقال أن الولادة عقب الفجر، وللنجوم حينئذ سلطان كما فى الليل، فلا ينافى سقوطها. . انتهى.

وقيل: كان مولده عند طلوع الغَفْر بفتح الغين المعجمة وسكون الفاء ثم راء مهملة؛ وهو ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر، وهو مولد النبيين أى وقت مولدهم. . انتهى.

وقال جماعة: ولد ليلاً واستدلوا بما رواه ابن السكن من حديث عثمان بن أبى العاص، عن أمه فاطمة بنت عبد الله الثقفية: أنها شهدت ولادة النبى ﷺ ليلا قالت: فما شىء أنظر اليه من البيت إلا نور، وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو حتى أنى لأقول يقعن علىّ»[1].

وبتصريح عائشة رضى الله عنها بذلك، كما رواه الحاكم، وسبقت أخبار تدل له، ومن ثم قال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر: أكثر الأخبار تقتضى أنه ولد ليلاً؛ لكن الذى صح عند مسلم وغيره كما مر خلاف ما فيها؛ فالأصح أنه ولد نهاراً لكن بعد الفجر كما فى حديث وإن كان فيه ضعف؛ لأن الضعيف فى الفضائل والمناقب يعمل به اتفاقًا، وهو الذى رجحه المصنف - رحمه الله تعالى.

قال المحقق ابن حجر: فمن أطلق أنه ولد ليلاً أراد بالليل ما قبل طلوع الشمس، أو أراد مجاز المجاورة. وليس فى رواية: «أن النجوم تدلت عند ولادته» ما يدل على أن ذلك كان قبل الفجر لما مر عن الزركشى، وزيادة فى إكرامه ﷺ. وقد أشار صاحب الهمزية إلى التردد فى وقت الولادة بقوله:

ليلةُ المولدِ الذى كان للد   ينِ سرورٌ بيومهِ وازدهاءُ[2]

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١١١). وانظر: مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٠).

(٢) المجموعة النبهانية (١/ ٧٨). والازدهاء: خفة الطرب.

وقد أضاف كلا من الليل واليوم للولادة مراعاة للخلاف فى ذلك.

هذا تحرير ما وقع من الخلاف فى يوم ولادته ﷺ.

وأما شهرها: فالراجح فى تعيينه كما قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ أنه (ثَانِىْ عَشَرَ شَهْرَ رَبِيعِ الأَوَّل) هو فى الأصل اسم لفصل معين من فصول السنة الأربعة، ثم جعل علمًا على كل من الشهرين المعروفين اللذين هما الثالث والرابع من شهور السنة العربية، فلذا التزم إضافة شهر إليه عند إرادة أحد الشهرين العربيين تمييزًا له عن فصل الربيع، ووجب تمييز كل من الشهرين بوصفه اللازم له من الأول والآخر؛ ليتميز أحدهما عن الآخر، كذا قال بعضهم. وقد ينازع فى لزوم الإضافة لأجل التمييز إذ هو يحصل بالوصف إلا أن يقال: لزوم الإضافة لحصول التمييز من أوّل الأمر قبل النطق بالوصف.

وكون الولادة فى شهر ربيع الأول هو الصحيح الذى عليه المعوّل، وهو الأشهر، بل الصواب، بل حكى ابن الجوزى الاتفاق عليه، لكن قال ابن حجر: مراده اتفاق الأكثر.

وأما موسم ذلك الوقت: فكان فى نَيْسَان كما أشار إلى ذلك فى «المواهب» و «شرحه» حيث قالا: ووافق ذلك من الشهور الشمسية نَيْسَان ـ بفتح النون ـ وهو سابع الأشهر الرومية كما فى «القاموس»، وهو برج الحمل. وفى «النور» عن الدمياطى: ولد فى برج الحمل، وهو يحتمل أن يكون فى نَيْسَان وأن يكون فى آذار.

لكن ما جزم به المصنف نقله فى «روضة الأحباب» عن أبى مشعر البلخى: وكان ذلك ـ أى مولده ـ لعشرين مضت منه من نَيْسَان، قاله الخوارزمى.. انتهى كلام «المواهب» و «شرحه».

قال الخفاجى فى «شرح الشفا»: وحملت به أمه آمنة نهارًا، وولد ليلاً فى شِعْب أبى طالب عند الجمرة الوسطى، ووافق مولده يوم عشرين من نَيْسَان

سنة اثنين وثمانين من التاريخ الإسكندرى.

وقيل: كان فى الساعة العاشرة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، فكان كما قيل: ربيعٌ فى ربيعٍ فى ربيع.. انتهى.

وحكمة كونه ﷺ لم يولد فى ليلة الجمعة، ولا فى يومها، ولا فى رمضان، ولا فى بعض أشهر الحرم، مع أنها أفضل من غيرها؛ لئلا يتوهم أنه تَشَرَّف بالزمان، وليس الأمر كذلك؛ بل الزمان هو الذى يَتَشَرَّف برسول الله ﷺ، فخص بزمن غير شريف؛ ليحصل له الشرف به على التشريف، وهذا هو حكمة كونه دفن بالمدينة دون مكة.

وفى ولادته ﷺ فى فصل ربيع الذى هو أعدل الفصول وأحسنها رمزٌ إلى أن شريعته أعدل الشرائع وأحسنها، ولله در من قال:

يقولُ لنا لسانُ الحالِ عنه ... وقولُ الحقِ يَعْذُبُ للسَّميعِ

فوجهى والزمانُ وشهرُ وَضْعى ... ربيعٌ فى ربيعٍ فى ربيعِ

وقد اختص هذا الشهر بهذه المنقبة العظيمة التى فاق بها على سائر الشهور، وفاز بهذه الكرامة الكبرى التى صار بها مذكوراً على مر الدهور، ولقد أجاد من قال:

لهذا الشهر فى الإسلام فضلٌ ... ومنقبةٌ تفوقُ على الشهورِ

فمولودٌ به واسمٌ ومعنى ... وآياتٌ بَهَرْنَ لدى الظهورِ

ربيعٌ فى ربيعٍ فى ربيع ... ونورٌ فوق نورٍ فوق نورِ

والراجح أيضًا من الأقوال فى عام ولادته ﷺ ويومها: أنها بعد مضى خمسين يومًا على المشهور **(من عام الفيل)** أى من يومه كما فى «المنح» وغيره.

وفى «المواهب»: فالأكثرون على أنه ولد عام الفيل، وبه قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ومن العلماء من حكى الاتفاق عليه وقال: كل قول يخالفه وهم. لكن قال مُغْلَطاى: فيه نظر. قال الزرقانى: يعنى لكثرة الخلاف.

وتقدم عن الحافظ ابن كثير فى سرد الأقوال المختلفة فى عام الولادة أنه المشهور عند الجمهور، قال: ووقع عند البيهقى والحاكم عن ابن عباس قال: «ولد ﷺ يوم الفيل»[1] لكن المراد مطلق الوقت لقول يحيى بن معين[2]: يعنى عام الفيل.. انتهى. كما يقال يوم الفتح، ويوم البدر. ويحتمل حقيقة اليوم فهو أخص من الأول وبه صرح ابن حبان فى «تاريخه» فقال: ولد عام الفيل فى اليوم الذى بعث فيه الطير الأبابيل على أصحاب الفيل، ذكره الحافظ فى «شرح الدرر»، وفى «النعمة الكبرى».

وكان مولده ﷺ عام الفيل كما رواه الترمذى وغيره، والحاكم وصححه، وهو المراد بيوم الفيل فى رواية؛ إذ اليوم يطلق ويراد به مطلق الوقت.

قال فى «المنهج الأعدل»: أقول: والذى تلخص من الأقوال المحكية فى عام الولادة الشريفة خمسة عشر قولاً منها قول واحد بأنها قبل الفيل، وباقيها متفقة كلها على أنها كانت بعده، وإنما الاختلاف بين قائلها فى قدر المدة الفاصلة بين وقت الفيل ووقت الولادة، وهل مقدرة بالأيام والأشهر، أو السنين، فتأمله والله أعلم.. وقد تقدم تحرير ذلك.

* * *

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/ ١٠٣)، أبو نعيم فى الدلائل ص (١٠١)، ابن هشام فى السيرة (١/ ١٥٩).

(٢) هو يحيى بن معين بن عون بن زياد المرى، أبو زكريا، من أئمة الحديث، ومؤرخى رجاله، قال عنه الإمام أحمد ابن حنبل: أعلمنا بالرجال، عاش ببغداد، وتوفى بالمدينة سنة (٢٣٣ هـ) وله مؤلفات منها: التاريخ والعلل، والكنى والأسماء. وفيات الأعيان (٢/ ٢١٤).

[قصة إهلاك أصحاب الفيل]

ثم أشار المصنف إلى قصة الفيل بقوله: (الَّذى صَدَّهُ اللهُ) أى منعه (عَنِ) الوصول والبعث فى (الحَرَمِ) المحترم (وَحَمَاهُ) أى حفظه منه ومن أصحابه، كما قصّ الله سبحانه وتعالى علينا من خبرهم فى قوله عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (1).

وذلك أن أبرهة بن الصباح الأشْرَم ملك اليمن من قبل أصْحَمَة النجاشى ـ وكان نصرانيًا ـ رأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج، فقال: أين يذهبون؟ فقيل: يحجون بيت الله بمكة. قال: وما هو؟ قيل: من الحجارة. فقال: والمسيح، لأبنين لكم بيتًا خيرًا منه، فبنى لهم كنيسة لم يُر مثلها فى زمانها، وجعل أرضها من الرخام الأسود، والأحمر، والأصفر، كان قد نقلها من قصر بلقيس، وركَّبَ فيها صلبانًا من ذهب وفضة، وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس، وجعل ارتفاعها عظيمًا جدًا، واتساعها باهرًا، وحلاّها بالذهب والفضة وأنواع الجواهر، ثم كتب إلى النجاشى أنى قد بنيت لك كنيسة لم يُبْن مثلها لملك كان قبلك وأريد أن أصرف اليها حج العرب. فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشى غضب رجل من كِنَانة، فخرج حتى أتى الكنيسة فتغوط فيها ولطخ قبلتها بالعَذِرَة فلحق بأرضه، فأغضب ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، وكتب إلى النجاشى يخبره بذلك وسأله أن يبعث إليه فيله، فلما قدم إليه الفيل بعث رجلاً كان عنده إلى بنى كِنَانة يدعوهم إلى حج تلك الكنيسة، فقتلت بنو كِنَانة ذلك الرجل، فزاد أبرهة ذلك غضبًا، فأمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم خرج فى ستين ألفًا ومعه الفيل حتى إذا كان بأرض خَثْعَم عرض له نُفَيْل بن حبيب

(1) سورة الفيل: 1.

الخَثْعَمى[1] فى قبيلتى «خَثْعَم» و «نَاهِش» ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزم نفيل وأصحابه، وأتى به أسيراً إلى أبرهة، فلما همّ بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب، فخلّى سبيله وخرج معه يدله حتى أتى «المُغَمَّس» بضم الميم الأولى وفتح الغين المعجمة وتشديد الميم الثانية مفتوحة أو مكسورة.

فلما نزل به بعث رجلاً من الحبشة على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال تِهَامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المُطَّلب بن هاشم، فهموا بقتاله ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوه، وبعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة، وقال له: سل عن سيد هذا البلد وشريفهم، ثم قل: إن الملك يقول: إنى لم آت لحربكم؛ إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لحرب؛ فلا حاجة لى بدمائكم، فإن لم يرد حربى فأتنى به.

فلما دخل مكة وسأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له: عبد المُطَّلب بن هاشم، فجاءه وأخبره بما أمره به أبرهة، فقال له عبد المُطَّلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم - عليه السلام - فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه، ثم قام وانطلق معه إلى أبرهة، فلما وصل إلى قريب من أبرهة أمر بإدخاله على الفيل أوّلا؛ إرهابًا له، فأدخلوه عليه.

وكان الفيل المذكور لا يسجد لأحد إلا للنجاشى، فحين رأى عبد المُطَّلب سجد له. وذكر بعضهم: أن نور النبى ﷺ كان فى ظهر عبد المُطَّلب وأنه استدار ذلك النور فى وجهه يومئذ، وأن الفيل لما نظر إلى وجه عبد المُطَّلب برك كما يبرك البعير، وخرَّ ساجدًا، وأنطق الله الفيل وقال: السلام على النور الذى فى وجهك. وفى لفظ: فى ظهرك. فأخبروا أبرهة بذلك فوقع فى نفسه

(١) هو نفيل بن حبيب الخثعمى، شاعر جاهلى، يلقب بذى اليدين، كان من أدلة أبرهة الحبشى فى زحفه على مكة. الاعلام (٨/ ٤٥).

شيء منه.

وكان عبد المُطَّلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم، فلما دخل على أبرهة ألقيت له الهيبة في قلبه فأجلَّه وأعظمه عن أن يجلسه تحته، فنزل عن سريره وأجلسه بجنبه على بساطه ثم قال لترجمانه: سله عن حاجته. فقال: حاجتى أن يرد إلىَّ الملك مائتى بعير أصابها لى. فلما قال ذلك قال له أبرهة: قل له: لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى؛ أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ولا تكلمنى فيه. قال: إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربًا سيمنعه. قال: ما كان ليُمنَع منى. قال: أنت وذاك. فردَّ عليه إبله، وانصرف عبد المُطَّلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شِعْب الجبال، ثم قام عبد المُطَّلب ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنوده، وأخذ عبد المُطَّلب بحلقة باب الكعبة وهو يقول:

يا ربِّ لا أرجو لهم سِواكَا ... يا ربِّ فامنع منهمُ حمَاكَا
إنَّ عدوَّ البيت من عَادَاكَا ... إنهم لن يقهروا قُوَاكَا

ثم أرسل عبد المُطَّلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش حتى طلع جبل «ثَبِير»، فاستدار دائرة غرة رسول الله ﷺ فى جبهته كالهلال، واشتد شعاعها على البيت الحرام كالسراج، فلما نظر عبد المُطَّلب ذلك قال: يا معشر قريش، ارجعوا فقد كفيتم هذا الأمر فوالله ما استدار هذا النور منى إلا أن يكون الظفر لنا، فرجعوا متفرقين.

والظاهر كما تقدم عن ابن حجر: أن الله أكرم عبد المُطَّلب فاحدث فيه ثانيًا نورًا آخر أوجده فى صلبه، وأطلع الفيل وغيره عليه أو أثره لما تقدم من أنه انتقل إلى عبد الله، ومنه إلى آمنة؛ لأنه ﷺ ولد عام الفيل كما تقدم.

ثم إن أبرهة أرسل رجلا يتعرف حال القوم، فلما نظر وجه عبد المُطَّلب خضع وخرَّ مغشيًا عليه، فلما أفاق سجد لعبد المُطَّلب وقال: أشهد أنك سيد

قريش. فقال عبد المُطَّلب: يا معشر قريش، لا يصل إلى هدم هذا البيت؛ لأن له ربا يحميه.

ثم لما تهيأ أبرهة لدخول مكة وهيأ فيله ـ وكان اسمه محمودًا، وكنيته أبو العباس وقيل: أبو الحجاج ـ قام نُفَيْل بن حبيب[1] إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال: ابرك محمودًا أو ارجع راشدًا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه، فبرك. فضربوه فى رأسه بالطَّبَرْزين[2] ليقوم فأبى، فأدخلوا مَحَاجن[3] لهم فى مراقِّه[4] فبزَّغوه[5] بها ليقوم فأبى، فوجَّهوه راجعًا إلى اليمن فقام يُهَرْوِل[6]، ووجَّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى مكة فبرك.

وأورد عليه: بأن الفيل ليس له مفصل فى ركبتيه حتى يكون منه ذلك.

قال السهيلى: يحتمل أن يكون بروكه سقوطه إلى الأرض لما جاءه من أمر الله، ويحتمل أنه فعل فعل البارك: وهو الذى يلزم موضعه ولا يبرح، فعبر بالبروك عن ذلك.

وقال فى «إنسان العيون»: وقد سمعت من يقول أن الفيلة صنفان، صنف منها يبرك كما يبرك الجمل، قال ابن الصلت:

إن آيات ربنا بينات ... ما يمارى بهن إلا كفور

جلس الفيل بالمغمس حتى ... ظل يحبو كأنه معقور

ثم أرسل الله عليهم الطيور الأبابيل؛ أى الجماعات المتفرقات أمام كل جماعة طائر أحمر المنقار، أسود الرأس، طويل العنق، من جهة البحر، مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجر فى منقاره، والآخران فى رجليه، وكانت أمثال العدس. وقيل: كانت أكبر من العدس ودون الحمصة، وكان الحجر يصيب

(١) وقيل هو: نفيل بن عبد الله بن جزء بن عامر (الروض الانف ١/ ٤٥).

(٢) الطَّبَرْزِين: آلة مُعَقَّفَةٌ من حديد.

(٣) المحاجن: جمع محجن وهى عصًا معوجة وقد يجعل فى طرفها حديد.

(٤) مَرَاقُّه: أسفل بطنه.

(٥) بزَّغوه: أى شرطوه بالحديد الذى فى تلك المحاجن.

(٦) يُهَرْوِلُ: يسرع.

رأس الرجل فيخرج من دُبُره أو من أسفل مركوبه إن كان راكبا، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه المقتول به، وقيل: كان على كل حجر مكتوب: من أطاع الله نجا ومن عصاه غوى.

وجلس عبد المُطَّلب فى مكان عال ينظر ما يصنع أبرهة، فمرت عليه تلك الطير فقيل ما هى بنجدية ولا يمانية، بل هى طير غير مؤنسة، بيضاء قدر اليعاسيب، جمع يعسوب وهى أم النحل.

قال سعيد بن جبير: كانت طيرًا من السماء لم ير قبلها ولا بعدها مثلها.

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها طير بين السماء والأرض تعشش وتفرخ».

وعن ابن عباس: كان لها خراطيم كخراطيم الطير وأكُفّ كأكُفّ الكلاب.

وقال عكرمة: كانت طيرًا خضراء خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع، ولم تر قبل ذلك ولا بعده.

وقالت عائشة: هى أشبه شىء بالخطاطيف.

وقيل: بل كانت أشباه الوطاويط: حمراء وسوداء. وقيل: غير ذلك. ولعلها كانت أنواعًا.

وكان عدد الطيور عشرين ألفًا، فكان كل طائر يقتل ثلاثة، فلم يرجع منهم أحد إلا وزير أبرهة أبو يكْسُوم ومعه طائر يطير فوقه حتى بلغ النجاشى فقص عليه القصة، فلما أتمها وقع عليه الحجر فخرَّ ميتًا بين يديه.

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم. فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التى منها جاءوا ويسألون عن نُفَيْل بن حبيب ليدلَّهم على الطريق إلى اليمن، فقال نُفَيْل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أين المَفَرُّ والإلهُ الطالِبُ ... والأشْرَمُ المغلوب ليس الغالبُ

وقال أيضا:

حمدتُ الله إذ أبصرت طيرًا   وخفت حجارةً تُلقى علَيْنَا
فكلّ القوم يسألُ عن نُفَيْلٍ   كأنَّ عليه للحبشانِ دَيْنَا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل سهل، وأصيب أبرهة فى جسده بالجذام، وخرجوا به معهم، فتساقطت أعضاؤه وأنامله أنملة أنملة، وسال منه القيح والصديد والدم، وما مات حتى انشقّ قلبه، وكان كلما دخل أرضًا وقع منه عضو، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ليس عليه غير رأسه، فمات بها.

قال ابن إسحاق: لما رد الله الحبشة من مكة عظمت العرب قريشًا وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم، فكان ذلك نعمة من الله عليهم، وكانت هذه القصة إرهاصًا لنبّوته عليه الصلاة والسلام.

ولما هلك أبرهة وتمزقت الحبشة بقيت تلك الكنيسة خربة، وسكنها الجن، فكان كل من تعرض لأخذ شيء من بنائها وأمتعتها أصابته الجن بسوء؛ لأنه كان بناها على اسم صنمين، واستمرت هكذا إلى زمن السفاح أول خلفاء بنى العباس، فبعث إليها جماعة من أهل الحزم والعزم والعلم فنقضوها حجرًا حجرًا، واندرست، فلله الحمد والمنة.

(عطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْف شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

[رضاعه ﷺ]

ولما فرغ المصنف رحمه الله تعالى من الكلام على ولادته ﷺ وما يتعلق بها من العجائب والغرائب، شرع يتكلم فى الرضاع وما يتعلق به من ذلك فقال:

(وَأَرْضَعَتْهُ) من الرضاع وهو امتصاص اللبن من الثدى **(أُمُّهُ)** نسبًا: آمنة بنت وهب **(أَيَّامًا)** قيل: ثلاثة. وقيل: سبعة. وقيل: تسعة. ووقع لبعضهم سبعة أشهر وهو وهم؛ كأنه اشتبه عليه سبعة أيام بأشهر، أو أنه تحريف من الناقل **(ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ)** أيامًا قلائل قبل قدوم حليمة **(ثُوَيْبَةُ)** مصغر ثوب مع زيادة تاء التأنيث فى آخره **(الأَسْلَمِيَّةُ)** أى المنسوبة إلى أَسْلم؛ بطن من أزد، وهى جرثومة من جرائيم قحطان، وقد صح أن النبى ﷺ قال: «أسلم سالمها الله»[1].

وثُوَيْبَة هذه هى **(الَّتِى أَعْتَقَهَا)** أى أخرجها عن الرق إلى الحرية **(أَبُو لَهَبٍ)** واسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، كنى بذلك لتوقد لونه من الحسن، وهو أخو عبد الله والد النبى ﷺ، وكان كافرًا عاتيا شديد الأذى لرسول الله ﷺ حتى مات والعياذ بالله على ذلك، وكان موته بعد غزوة بدر الكبرى بليال رماه الله بالعدسة: وهى بثرة تخرج بالبدن تتشاءم بها العرب وأنها تعدى أشد العدوى، فلما رمى أبو لهب بها وأصابته فى رجله تباعد عنه بنوه، فبقى ثلاثة أيام ميتًا لا يقرب جنازته أحد، فلما خافوا السُّبَّة: أى العار، دفعوه بعود فى حفرته، ثم قذفوه بالحجارة، ودفن بأعلى مكة. وذكر ابن إسحاق: أنهم لم يحفروا له ولكن أسندوه إلى حائط، وقُذفت عليه الحجارة من خلف الحائط حتى ورى. وذكر أن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ

(١) أخرجه البخارى (٢/ ٣٣)، مسلم (فضائل الصحابة: ١٣٢)، أحمد فى مسنده (٢/ ٢٠)، البيهقى فى السنن (٢/ ٢٠٨)، الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣٤٠)، الطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٢٤١).

كانت إذا مرت بموضعه ذلك غطت وجهها. . انتهى.

(حِيْنَ وَافَتْهُ) أى جاءت سيدها أبا لهب (عِنْدَ مِيْلَادِهِ) وقت ولادته (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِبُشْرَاهُ) أى بالبشارة به ﷺ حيث أخبرته قبل غيرها بما يسره وهو حصول ولد لأخيه عبد الله؛ وذلك أنها قالت: أشعرت أن آمنة قد ولدت غلامًا لأخيك عبد الله. فقال لها: اذهبى فأنت حرة، كما فى «الروض»، هذا هو الصحيح.

وقيل: إنما أعتقها بعد الهجرة. قال الشامى: وهو ضعيف.

والجمع بأنه أعتقها حينئذ ولم يظهره إلا بعد الهجرة مما لا ينبغى؛ فإنه لما هاجر كان عدوه فلا يتأتى منه إظهار أنه كان فرح بولادته، وأيضًا فالقائل بالثانى لا يقول أنه أعتقها للبشارة بالولادة. وقد روى أنه أعتقها قبل ولادته بدهر طويل.

تنبيه

ما مر قريبًا من أنه كان كافرًا عاتيًا شديد الأذى لرسول الله ﷺ حتى مات، وما قد نزل فى حقه من القرآن بذمه الذى لا ذم فوقه، لا يبعد ما تقدم فى مقدمة الكتاب من تخفيف العذاب عنه كل ليلة إثنين، وأنه يمص الماء من بين أصابعه بإعتاقه لثُوَيْبَةَ حين بشرته بولادة النبى ﷺ، وبإرضاعها له أى بأمره فلا يرد أنه ليس فعله حتى يجازى عليه، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [1] لأنه لم يُنَجِّهِم من النار، ولم يُدخلهم الجنة؛ كأنه لم يفدهم أصلا، أو لأنه هباء بعد الحشر وهذا قبله.

وقال السهيلى: هذا النفع إنما هو نقصان من العذاب وإلا فعل الكافر محبط بلا خلاف أى لا يجده فى ميزانه ولا يدخله الجنة. . انتهى.

وجوّز الحافظ تخفيف عذاب غير الكفر بما عملوه من الخير بناء على أنهم مخاطبون بالفروع.

(١) سورة الفرقان: ٢٣.

وفى «التوشيح»[1] قيل: هذا خاص به إكرامًا للنبى ﷺ كما خفف عن أبى طالب بسببه (فَأَرْضَعَتْهُ مَعَ ابْنِهَا مَسْرُوحٌ) بفتح الميم وسكون السين المهملة فراء مضمومة فحاء مهملتين بينهما واو، قال البرهان: لا أعلم أحدا ذكره بإسلام. وقال الجلال السيوطى فى خصائصه الصغرى إنه لم يقف على إسلامه.

(وَأَبِى سَلَمَةَ) عبد الله بن عبد الأسد المخزومى كنى بابن له من أم سلمة التى صارت بعده من أمهات المؤمنين ـ رضى الله عنهن ـ.

وكان إرضاع ثُوَيْبَة لأبى سلمة بعد النبى ﷺ كما رواه ابن سعد، كذا فى كلام بعضهم. وقال غيره: والذى فى «المواهب» أنها أرضعته أيضًا معه ﷺ بلبن ابنها مَسْرُوح، وهو ظاهر عبارة المصنف ـ رحمه الله ـ.

وكان أبو سلمة هذا من أجلاء الصحابة، وأمه برة بنت عبد المُطَّلب عمة رسول الله ﷺ، مات فى حياة النبى ﷺ. وذكر بعضهم: أن أبا سلمة ـ رضى الله عنه ـ أول من يدعى إلى الحساب اليسير.

(وَهِى) أى ثُوَيْبَة (بِهِ) ﷺ (حَفِيَّةٌ) بفتح الحاء المهملة وكسر الفاء، مبالغة فى الإكرام والبر والإلطاف (وَأَرْضَعَتْ) ثُوَيْبَة (قَبْلَهُ) ﷺ عمه، أخا أبيه من أبيه (حَمْزَةَ) ابن عبد المطلب بن هاشم، أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء، كان ـ رضى الله عنه ـ شديداً ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره، ولا يطمع طامع عند المخاشنة بكسره، أسلم فى السنة الثانية من البعثة كما جزم به فى «أسد الغابة» و«الإصابة» وقيل: فى السادسة، وفيه نظر. وكان ابتداء إسلامه حمية أفضت به إلى السعادة الأبدية، ضرب يوم إسلامه رأس أبى جهل بقوس كانت فى يده فشجّه شجّة منكرة، ثم قال له: أتسب محمدًا وأنا على دينه؟! وذلك أن أبا جهل نال من النبى ﷺ وسبه وأذله كل ذلك لا يجيبه ﷺ، فغضب حمزة لما أُخْبِرَ بذلك ففعل بأبى جهل ما فعل، وأصلحت

(١) لعله يقصد «التوشيح على الجامع الصحيح» للسيوطى (مخطوط).

قريش بينهما مخافة الشر، فاستوثقت بإسلامه - رضى الله عنه - عُرى الدين، وذل لوطئته عتاة المشركين، والنبى ﷺ إذ ذاك مختف بدار الأرقم، فانطلق إلى النبى ﷺ وأسلم، وقال للنبى ﷺ: يا ابن أخى أَظْهِرْ دينك، والله ما أحب أن لى ما أظلته السماء وأنا على دينى الأول. وعزّ رسول الله ﷺ بإسلامه، وكفّ المشركون عن بعض ما كانوا ينالون منه.

وأول لواء عقده النبى ﷺ كان له حين بعثه إلى سيف البحر من أرض جُهَينة، وكان - رضى الله عنه - أسنّ من النبى ﷺ بسنتين على الصحيح.

وفى قوله رحمه الله: **(الَّذِى حُمِدَ)** بالبناء للمفعول **(فِى نُصْرَةِ الدِّيْنِ)** الحنيفى المحمدى **(سراه)** نائب الفاعل، قال بعضهم: ويجوز أن يكون الجار والمجرور نائب الفاعل إشارة إلى ما ورد أنه شهد بدرًا مع النبى ﷺ، وقاتل قتالاً شديدًا وهو معلم بريشة نعامة، وأبلى فيها بلاءً عظيمًا، وقاتل بسيفين بين يدى رسول الله ﷺ، وبدَّد صناديد الكفر، وفعل بأهل الشرك الأفاعيل، وخرج يوم أحد مع النبى ﷺ فكان يهد الأبطال من المشركين هدًا مثل الجمل الأورق والأسد الضارى، ما يقوم له شيء، كيف وقد قال ﷺ: «والذى نفسى بيده إنه لمكتوب عند الله عز وجل فى السماء السابعة حمزة أسد الله وأسد رسوله».

وقتل واحدًا وثلاثين رجلاً؛ كذا قاله الإمام النووى - رحمه الله تعالى - ولم أقف على مستنده فى ذلك، والذى رأيته فى كتب السير أن قتلى كفار قريش يوم أحد ثلاثة وعشرون. وقيل: اثنان وعشرون، فليحرر. وقد يقال لا منافاة لاحتمال ما فى السير على عدد من وجد منهم مقتولاً يومئذ غير الذين لم يعلم بقتلهم بأن حملهم المشركون معهم ودفنوهم فى أماكن لم يطلع عليهم المسلمون، أو أن المراد: أن جميع من قتله حمزة فى حروبه من المشركين. والله أعلم.

ثم عثر عثرة وقع منها على ظهره ببطن الوادى عند جبل الرماة، فانكشف

الدرع عن بطنه، فزرقه وحشى بن حرب[1] مولى جبير بن مطعم بحربة فأكرمه الله بحربة الشهادة على يده فى يوم السبت منتصف شوال سنة ثلاث أو أربع من الهجرة عن سبع وخمسين سنة، وقيل: تسع وخمسين، وقيل: أربع وخمسين سنة. ومثَّل به المشركون، وبقروا بطنه. ولما وقف ﷺ ورأى ما به من التمثيل نظر إلى شىء لم ينظر إلى شىء كان أوجع لقلبه منه، وغاظه ذلك وقال: «لن أصاب بمثلك أبدًا، ما وقفت موقفا أغيظ لى من هذا» وبكى ﷺ وشهق حتى كاد يبلغ الغشى، وقال ﷺ: «لئن أظفرنى الله بقريش لأمثلن بسبعين منهم»، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾[2] الآيات إلى آخر السورة. فقال ﷺ «بل نصبر» وكفَّر عن يمينه[3].

وعن سعيد بن المسيب كان يقول: كنت أعجب لقاتل حمزة كيف ينجو حتى أنه مات غريقا فى الخمر. رواه الدارقطنى على شرط الشيخين. وهذا ينافى الحكم بعدالته الواجب له كباقى الصحابة، هكذا قاله الحفنى.

قال فى «إنسان العيون»، وفى «الخصائص الصغرى» نقلاً عن «شرح جمع الجوامع»: أن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ كلهم لا يفسقون بارتكاب ما يفسق به غيرهم.. انتهى.

(وَكَانَ ﷺ يَبْعَثُ) أى يرسل **(إِلَيْهَا)** إلى ثُوَيْبَة على ما عُرِف من مكارم أخلاقه ﷺ ووفائه بأداء الحقوق **(مِن المدينة)** الشريفة بعد هجرته إليها **(بِصِلَةٍ)** بكسر المهملة أى عطية **(وَكُسْوَةٍ)** بضم الكاف وكسرها أى ثياب، وهى وإن كانت داخلة فى عموم الصلة لكن نص عليها لبيان أن الكسوة كانت ترسل إليها ثيابًا لا قيمتها؛ حتى لا تحتاج إلى معاناة اشترائها مبالغة منه ﷺ فى

(١) هو وحشى بن حرب الحبشى، أبو دسمة مولى «بنى نوفل»، صحابى، من سودان مكة، كان من أبطال الموالى فى الجاهلية، وهو قاتل حمزة عم النبى ﷺ يوم أحد، ثم وفد على النبى ﷺ مع وفد أهل الطائف بعد أخذها، واسلم، وشهد اليرموك وشارك فى قتل مسيلمة الكذاب، وسكن حمص ومات بها فى خلافة عثمان بن عفان، وذلك سنة (٤٥ هـ). الأعلام (٨/ ١١١).

(٢) سورة النحل: ١٢٦.

(٣) دلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٢٨٨).

إكرامها ومجازاتها (**هِيَ بِهَا**) أى بتلك الصلة (**حَرِيَّةً**) جديرة وحقيقة؛ بسبب رضاعها وتربيتها له، ولم يزل ﷺ محافظًا على إيصال ذلك إليها (**إِلَى أَنْ أَوْرَدَ هَيْكَلَهَا**) جثتها مفعول أول لأورد وقوله: (**رَائِدُ الْمَنُونِ**) فاعله والمعنى: إلى أن أورد الموت جثتها (**الضَّرِيحَ**) القبر مفعول ثان لأورد وقوله: (**وَوَارَاهُ**) غطاه وستره، وكان موتها سنة سبع عقب خيبر.

وقد اختلف العلماء فى إسلامها فـ (**قِيلَ:**) إنها ماتت (**عَلَى دِينِ قَوْمِهَا الْفِئَةِ**) الفرقة (**الْجَاهِلِيَّةِ، وَقِيلَ:**) قد (**أَسْلَمَتْ**) قال أبو نعيم: لا أعلم أحدًا ذكره إلا ابن منده[1]. وقال ابن الجوزى: لا نعلم أنها أسلمت[2]. والبرهان فى «النور» لم يذكرها أبو عمر فى الصحابة. وقال الذهبى: يقال أنها أسلمت، وهذا يقتضى أن الراجح عنده أنها لم تسلم. قال النور الحلبى: قال الحافظ ابن حجر: وفى «طبقات ابن سعد» ما يدل على أنها لم تسلم لكن قد (**أَثْبَتَ الْخِلَافُ**) فى إسلامها وعدمه الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى (**ابْنُ مَنْدَه**) بفتح الميم وسكون النون وفتح الدال المهملة آخرها هاء ساكنة، الأصبهانى الحافظ الجوّال ختام الراحلين وفرد المكثرين مع الحفظ والمعرفة والصدق وكثرة التصانيف، سمع ألفا وسبعمائة، وعاد من رحلته وكتبه أربعون حملا. قال المستغفرى: ما رأيت أحفظ منه، مات سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

(**وَحَكَاهُ**) فيه إشارة إلى رد من أنكر إسلامها: كالدمياطى، وابن حبان النحوى؛ فقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربى فى «سراج المريدين»: أنه لم ترضعه مرضعة إلا وأسلمت، ونقله الجلال السيوطى عن بعضهم.

(**ثُمَّ**) بعد إرضاع ثُوَيْبَة (**أَرْضَعَتْهُ**) ﷺ (**الْفَتَاةُ**) الشابة (**حَلِيمَةَ**) بنت أبى ذُؤَيْب ـ بمعجمة وموحدة ـ مصغر ذئب واسمه عبد الله بن الحارث وهو عبد

---

(١) هو محمد بن إسحاق بن محمد الأصفهانى، أبو عبد الله، محدث حافظ مؤرخ، كانت وفاته فى أصبهان سنة (٣٩٥ هـ). معجم المؤلفين (٩/ ٤٢).

(٢) الوفا ص (١٠٤).

العُزَّى بن شِجْنَة - بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون - بن جابر بن رِزام - بكسر المهملة ثم المنقوطة - بن ناصرة بن فُصَيّة[1] بن سعد بن بكر بن هوازن. هكذا فى «الاستيعاب». وقيل فى نسبها غير ذلك: ابن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر أحد أجداد النبى ﷺ، وتكنى حليمة بأم كبشة اسم بنت لها من الحارث بن عبد العُزَّى كما فى «فتح البارى».

لطيفة

ذكروا أنه لما ولد ﷺ قيل: من يكفل هذه الدرة اليتيمة التى لا يوجد لمثلها قيمة؟ قالت الطيور: نحن نكفله ونغتنم خدمته العظيمة، وقالت الوحوش: نحن أولى بذلك ننال شرفه وتعظيمه، فنادى لسان القدرة: أن يا جميع المخلوقات إن الله قد كتب فى سابق حكمته القديمة أن نبيه الكريم يكون رضيعًا لحليمة الحليمة.

(السعدية) نسبة لجدها السابع سعد بن بكر؛ لأنه أشهر آبائها وبه عُرفت القبيلة بأسرها، وبنو سعد من أكرم العرب وأفصحهم، وحليمة من أوسطهم ولذا اختارها الله تعالى لرضاعه ﷺ؛ لأن الرضاع يؤثر فى الطباع، وكان من عادة نساء قريش دفع أولادهن إلى المراضع من غير قبيلتهم؛ لينشأ الولد عربيا فيكون أنجب ولسانه أفصح كما فى الحديث: «أنا أعربكم؛ أنا من قريش واسترضعت فى بنى سعد بن بكر»[2].

وقيل : ليتفرغ النساء للأزواج. وقيل : لأنهم كانوا يستوخمون مكة على الأطفال. وقيل: لأنهم كانوا يرون عارًا على المرأة أن ترضع ولدها.

(وَكَانَ قَدْ رُدَّ كُلٌّ مِنَ الْقَوْمِ) الذين يريدون اتخاذ المراضع لأولادهم - وهم

(١) تصغير فصاه وهى: النواة من التمر.

(٢) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (١/ ٧١)، وله عدة روايات أوردها العجلونى فى كشف الخفا (١/ ٢٣٢)، والحديث حول تصحيحه كلام. انظر: الأسرار المرفوعة ص (١١٦)، المغنى عن حمل الأسفار (٢/ ٣٦٤)، مناهل الصفا ص (١٢).

أهل مكة **(ثَدْيَهَا لِفَقْرِهَا، وأَبَاهُ)** إذ الفقر يستلزم قلة الأكل المستلزم عادة لقلة اللبن المضرة بالرضيع غالبًا، وما تُعْطَاه من الجعل ربما تصرفه فى حوائجها الخارجة فلا يفيدها فى دفع الجوع الذى هو المحذور.

قال فى «إنسان العيون»: أقول: لم أقف على رواية فيها أن حليمة أبتها الرضعاء لفقرها، وكأن بعضهم أخذ ذلك من قولها: «فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا غيرى، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره»(1) ولا دلالة فى غيره.. انتهى.

(فَأَخْصَبَ عَيْشُهَا) من الخِصْب بكسر أوله وهو ضد الجَدْب؛ أى اتسع قوتها وقوت دوابها بسبب إرضاعها له ﷺ، وحصلت البركة والنماء فى رحابها ببركة حلوله ﷺ فى رحلها وديار قومها **(بَعْدَ)** أن كانت الأرض قَفْرَة، والأشجار يابسة من شدة **(المَحْلِ)** بفتح الميم وسكون الحاء المهملة مصدر مَحَلَ من باب قطع ضد الخِصْب؛ أى الضيق والقحط وعدم البركة، فى نفس نهار أخذته قبل دخول ليلة اليوم الثانى كما يفيده قول المصنف: **(قَبْلَ الْعَشِيَّةِ)** أى عشية ذلك اليوم، والعشية: أول الليل كذا فى كلام بعضهم، والذى فى «القاموس»: والعشى والعشية آخر النهار، وعلى كل فالمراد: أنه حصل لها ذلك قبل دخول ليلة اليوم الثانى إذ لا مانع من مبادرة ذلك لها لأجله ﷺ، ويؤيد هذا المقصود ما سيأتى عن حليمة **(وَدَرًّ)** بفتح المهملة؛ أى امتلأ وسال، يقال: درَّ الضرع باللبن يُدر بالضم درورا، وأدرَّت الناقة بلبنها فهى مُدر **(ثَدْيَاهَا)** تثنية الثدى وهو خاص بالأنثى، وقيل: عام **(بِدُرٍّ)** بضم الدال وشد الراء جمع دُرة وهى اللؤلؤة الثمينة **(دُرٍّ)** بفتح الدال وشد الراء؛ أى بلبن كالدر فى صفاء البياض، فالإضافة من إضافة المشبه به للمشبه كما فى لجين الماء **(لَبَنَهُ)** بفتحات، وبابه ضرب كما فى «المختار» **(اليَمِينِ)** أى سقاه اللبن الثدى اليمين، وما وقع فى بعض النسخ أَلْبنه بزيادة

(1) أخرجه أبو يعلى (2/ 332)، الطبرانى فى الكبير (24/ 545)، البيهقى فى دلائل النبوة (1328).

همزة فى أوله وسكون اللام فتحريف إذ لا يتأتى مزيده هنا (منهما) أى من ثديى حليمة (وَلَبَنُ الآخَرُ) أى الأيسر (أَخَاهُ) عبد الله بن الحارث السعدى.

وفى كلام المصنف إشارة إلى قول حليمة ـ رضى الله عنها ـ: وأعطيته ثديى الأيمن، فأقبل الثدى بما شاء من لبن، فحولته إلى الأيسر فأبى. وكانت تلك حالته بعد.

قال فى «المواهب» و «شرحه» للعلامة الزرقانى: قال أهل العلم فى حكمة امتناعه ﷺ من الثدى الأيسر: ألهمه الله تعالى أن له شريكًا، فألهمه العدل، فلذا امتنع وأخذ الأيمن؛ لأنه كان يحب التيامن فى أموره كلها. قال بعضهم: وفاعل قوله لبنه ضمير مستتر عائد إلى الله تعالى، ومفعوله البارز يعود إلى النبى ﷺ، وكذا فاعل قوله ولبن الآخر: أى سقى الله النبى ﷺ لبن الثدى الأيمن منهما، وأعطى لبن الثدى الآخر وهو الأيسر أخاه، أو فاعله اليمين أى سقى الثدى اليمين اللبن للنبى ﷺ.. انتهى.

(وَأَصْبَحَتْ) صارت (بَعْدَ الهُزَالِ) بضم الهاء؛ الضعف الحاصل لها من الفاقة والجوع قوية. قال فى «القاموس»: الهُزال بالضم: نقيض السمن، هزل كعنى هزالاً، وهزل كنصر هزلاً ويضم.. انتهى.

وأما نقيض الجد: فبابه ضرب وفرح كما فيه أيضًا، وليس مرادًا هنا كما هو معلوم، وباب الأول أيضًا ضرب كما فى «المختار» وغيره (وَ) بعد (الفَقْرِ [والهُوَالِ]) قلة ذات اليد (غَنِيَّه) ذات غنى (وَسَمِنَتْ الشَّارِفُ) بشين معجمة فألف فراء مكسورة ففاء؛ الناقة المسنة الهرمة. وعن الأصمعى: يقال للذكر والأنثى شارف، والمراد هنا: الأنثى لا غير، والجمع الشُرُف بضم الراء وتسكن (لَدَيْهَا) عندها (وَالشِّيَاهُ) جمع شاة، وهى تطلق على كلا نوعى الغنم من الضأن والمعز ذكورًا وإناثًا.

وروى أن حليمة ـ رضى الله عنها ـ قالت: ثم قدمنا أرض بنى سعد، ولا أعلم أرضا أجدب منها، وكانت غنمى تروح شباعًا لبنا فنحلب ونشرب وما

يحلب إنسان غيرنا قطرة لبن ولم يجدها فى ضرع حتى يؤمر الرعيان أن تسرح غنمها حيث تسرح غنمى، فتروح أغنامهم جياعًا ما تَبِضُّ بقطرة لبن، وتروح أغنامى شِبَاعًا لُبَّنا(١)، فلم نزل نتعرف من بركته الزيادة والخير حتى مضت سنتاه.

(وَانْجَابَ) بالنون والجيم؛ أى زال وانقطع، وفى بعض النسخ: التَمَّ بفتح التاء المثناة فوق والميم المشددة والمعنى واحد **(عَنْ جَانِبِهَا)** أى عنها وعن جهتها **(كُلُّ مُلِمَّةٍ)** بضم الميم الأولى وفتح الثانية مشددة بينها لام مكسورة اسم فاعل ألمَّ بشد الميم؛ أى نازلة من نوازل الدنيا **(وَ)** كل **(رزِيَّه)** بمعناها **(وَطَرَّزَ)** بفتح الطاء المهملة والراء المشددة وتخفف قال فى «القاموس»: الطِراز بالكسر: علم الثوب، وطرزه تطريزاً: علمه فتطرز، والمراد: حسن وزين **(السَّعْدُ)** الخير وحسن الحال والبركة.

(بُرْدَ) بضم الموحدة وسكون الراء نوع من الأكسية ملفق من شقتين، وإضافته إلى **(عَيْشِهَا)** من إضافة المشبه به للمشبه، والعيش ما يكون به الحياة أو نفس الحياة والظاهر أن المراد الأول **(الهَنِىّ)** بفتح الهاء وكسر النون وشد الياء؛ أى اللذيذ سليم العاقبة ومحمودها **(وَوَشَّاهُ)** بالواو والشين المعجمة من الوشى؛ وهو نقش الثوب وتحسينه فالمراد من طرز ووشى شىء واحد وهو التحسين والتزيين، والمراد من ذلك: أن الله تعالى أزال عنها المَحْل والجَدْب وأبدلها منهما الخِصْب والخير الكثير؛ وذلك لأن الجزاء من جنس العمل.

وأصل ذلك ما رواه ابن إسحاق وغيره عن حليمة ـ رضى الله تعالى عنها ـ كما قدمنا عنها البعض قريبا ـ قالت: قدمت مكة فى نسوة من قومى فى سنة شَهْبَاء(٢)، على أتان(٣) لى، ومعى صبى، وشارف لنا ما تَبِضُّ(٤) بقطرة لبن،

(١) لُبَّنا: أى كثير اللبن.

(٢) تعنى سنة القحط والجَدْب؛ لأن الارض تكون فيها بيضاء.

(٣) الأتان: الأنثى من الحُمُر.

(٤) ما تَبِضُّ: ما تنشغُ ولا ترشحُ، ومن رواه ما تبصُّ فمعناه: لا يبرقُ عليها أثر لبن، من البصيص وهو البريق واللمعان.

ولا لبن بثديي فلا ينام صبيي من الجوع؛ لأنه لا يجد فى ثديى ما يغنيه ولا فى شارفنا ما يغذيه. قالت: وما عَلِمْتُ امرأة منا إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل يتيم، فوالله ما بقى من صَوَاحبى امرأة إلا أخذت رضيعًا غيرى، فلما لم أجد غيره قلت لزوجى: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صَوَاحبى وليس معى رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه. فذهبتُ فإذا به مدرج فى ثوب صوف، أبيض من اللبن، يفوح منه المسك، وتحته حريرة خضراء، راقد على قفاه يغط، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله، فدنوت منه رويدًا فوضعت يدى على صدره ﷺ فتبسم ضاحكًا وفتح عينيه ونظر إلىَّ، فخرج من عينيه نورٌ حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر؛ فقبلته بين عينيه وأعطيته ثديي الأيمن، فأقبل الثدى عليه بما شاء من لبن، فحولته إلى الأيسر فأبى ـ وكانت تلك حالته بعد ـ قالت: ثم أخذته بما هو إلى أن جئت به رحلى، فقام صاحبى ـ يعنى زوجها ـ إلى شارفنا تلك فإذا بها حَافل(1)، فحلَب فشرب وشربتُ حتى روينا، وبتنا بخير ليلة، فقال صاحبى حين أصبحنا: يا حليمة، والله إنى لأراك أخذت نسمةً مباركة، ألم ترى إلى ما بِتنا به الليلة من البركة والخير حين أخذناه، فلم يزل الله يزيدنا خيرا.

قالت: فودعت النساء بعضهن بعضًا، وودعت أنا أم النبى ﷺ ثم ركبت إتانى وأخذت محمدًا ﷺ بين يدىَّ. قالت: فنظرت إلى الأتان وقد سجدت نحو الكعبة ثلاث سجدات ورفعت رأسها إلى السماء، ثم مشت حتى سبقت دواب الناس الذين كانوا معى، وصار الناس يتعجبون منى ويقلن النساء لى وهن ورائى: يا بنت أبى ذؤيب أهذه إتانك التى كنت عليها وأنت جائية معنا ترفعك طورًا وتخفضك أخرى؟! فأقول: تالله إنها هى، فيتعجبن منها ويقلن: إن لها شأنًا عظيمًا. قالت: فكنت أسمع أتانى تنطق وتقول: والله إن لى شأنًا ثم شأنًا، بعثنى الله بعد موتى، ورد لى سمنى بعد هزالى، ويحكن

(1) الحافل: الممتلئة الضّرع من اللبن.

يا نساء بنى سعد إنكن لفى غفلة، وهل تدرين من على ظهرى، خيار النبيين وسيد المرسلين، وخير الأولين، وحبيب رب العالمين.

قالت: ثم قدمنا منازل بنى سعد، ولا أعلم أرضا من أرض الله أجدبَ منها، فكانت غنمى تروح علىّ حين قدمنا به ﷺ شِبَاعًا لُبَّنا، فنحلب ونشرب وما يَحْلب إنسانٌ قطرةَ لبن ولا يجدها فى ضَرْع، حتى كانت الحاضر من قومنا يقولون لرعاتهم: اسرحوا حيث تسرح غنم بنت أبى ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تَبِضُّ بقطرة لبن، وتروح أغنامى شِبَاعًا لبنًا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته.

فلله درها من بركة كثرت بها مواشى حليمة ونمت، وارتفع قدرها به وسمت، فلم تزل حليمة تتعرف الخير والزيادة، وتفوز منه بالحسنى وزيادة، وما أحسن ما قال:

لقد بلغت بالهاشمى حليمة ... مقامًا علا فى ذروة العزِ والمجدِ
وزادت مواشيها وأخصب ربعها ... وقد عمَّ هذا السعدُ كل بنى سعدِ

وذلك أن حليمة قالت: لما دخلتُ منزلى لم يبق منزل من منازل بنى سعد إلا شممْنا منه ريح المسك، وألقيت محبتُه فى قلوب الناس حتى إن أحدهم كان إذ نَزَلَ به أذى فى جسده أخذ كفَّه ﷺ فيضعها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله تعالى سريعًا، وكذا إذا اعتلَّ لهم بعيرًا أو شاة فعلوا ذلك.

قالت حليمة: وكان ينزل عليه ﷺ كل يوم نورٌ كنور الشمس ثم ينجلى عنه.

وجملة مرضعاته ﷺ عشرة نظمها بعضهم فى قوله:

إن رمت تحفظ مرضعات المصطفى ... خذهن بالترتيب فى التبيانِ
أمٌّ له وكذا ثُوَيْبَة يا فتى ... وحليمةٌ نالت رضى الرحمنِ
وكذلك امرأةٌ لحمزة أرضعتْ ... وثلاث أبكارٍ روى فى الشانِ
مع أم فَرْوة وأم أيمن بعدها ... مع خَوْلة شَرُفْنَ بالعدنانِ

تنبيه

اقتصر المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ من المرضعات على أمه وثُوَيْبَة وحليمة للنزاع في غيرهن، ولم يستقل بإرضاعه غير ثُوَيْبَة وحليمة، ولم يتصف منهن بالاستقلال سواهما، وثُوَيْبَة وإن قلت أيام رضاعها مستقلة به فيها، فأما أمه وإن أرضعته تلك المدة فهى فى معرض دفعه لمرضعته فلم تستقل به.

والذى ذكر أم أيمن من المرضعات: القرطبى، والمشهور أنها من الحَوَاضِن كالشيماء بنت حليمة.

والذى ذكر أن خَوْلَة من المرضعات : ابن الأمين[1]، وتبعه بعضهم ولعله اليعمرى[2]. قال الشامى: وهو وهم؛ لأنها إنما أرضعت ولده إبراهيم، ذكره ابن سعد، وابن عبد البر، وغيرهما، وهو الذى فى «الإصابة» بخطه.. والله أعلم.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْف شَذِيٍّ مِنْ صَلَاةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

(١) هو إبراهيم بن يحيى بن إبراهيم، أبو إسحاق بن الأمين، مؤرخ أندلسى، من أهل قرطبة، ولد ومات بالأندلس (٤٨٩ ـ ٥٤٤ هـ) وله مؤلفات منها: «الإعلام من الخيرة الأعلام من أصحاب النبى عليه السلام». الأعلام (٧٩/١١).

(٢) هو: محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمرى، أبو الفتح، فتح الدين، مؤرخ، عالم بالأدب، من حفاظ الحديث، ولد بالقاهرة وتوفى بها (٦٧١ هـ) وله تصانيف عديدة منها: «عيون الأثر فى فنون المغازى والسير». فوات الوفيات (١٦٩/٢)، الأعلام (٣٤/٧).

(وَكَانَ) ﷺ (يَشِبُّ) بكسر الشين المعجمة من باب ضرب (فِي الْيَوْمِ) الواحد شبابًا يشبه فى نمو جسمه الشريف شباب (الصَّبِيِّ فِي الشَّهْرِ) الواحد، وذلك إنما هو (بِعِنَايَةٍ) أى إعانة (رَبَّانِيَّةٍ) بفتح الراء وشد الموحدة وكسر النون نسبة للرب تبارك وتعالى بزيادة الألف والنون على غير القياس، والمتبادر من كلام المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ أنه كان يمشى ويتكلم فى اثنى عشر يومًا تقريبًا؛ لأنها بمنزلة السنة لغيره، وأنه كان يُفْصَل من الرضاع فى أربعة وعشرين يومًا؛ لأنها بمنزلة حولين لغيره، وأنه كان يقارب الحلم فى أربعة أشهر تقريبًا؛ لأنها بمنزلة العشر سنين لغيره، ولم أر ما يعضده، فلعل المراد من ذلك: أنه كان ﷺ يَشِبُّ شبابًا لا يَشِبُّه الغلمان كما يؤخذ من كلامه الآتى قريبًا، وقد وقع فى رواية ابن إسحاق كما فى «المواهب» و «شرحه» للزرقانى أنه كان ﷺ يَشِبُّ شبابًا لا يَشِبُّه الغلمان. هكذا مجملاً من غير تعيين.

(فَقَامَ) ﷺ (عَلَى قَدَمَيْهِ فِي ثَلاثٍ) أى ثلاثة أشهر ـ كما فى الرواية ـ ولم يقل ثلاثة: لأن المعدود إذا حذف يجوز تذكيره مع المذكر، وتأنيثه مع المؤنث كما قالوه فى قوله ﷺ: «وأتبعه ستًا من شوّال» وإنما تلزم قاعدة العدد إذا ذكر المعدود (وَمَشَى فِي خَمْسٍ) أى خمسة (وَقَوِيَتْ فِي تِسْعٍ) أى تسعة (مِنَ الشُّهُورِ) جمع شهر كما مر (بِفَصِيحِ النُّطْقِ قُوَاهُ) بضم القاف جمع قوة، وأصل ذلك ما روى كما فى «شواهد النبوة»: ولما صار ابن شهرين كان يتزحلف مع الصبيان إلى كل جانب، وفى ثلاثة أشهر كان يقوم على قدميه، وفى أربعة كان يمسك الجدار ويمشى، وفى خمسة حصلت له القدرة على المشى، ولما تم له ستة أشهر كان يسرع فى المشى، وفى سبعة أشهر كان يسعى ويعدو إلى كل جانب، ولما مضى عليه ثمانية أشهر شرع يتكلم بكلام فصيح، وفى عشرة أشهر كان يرمى بالسهام مع الصبيان(1).

(1) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

(وَ) لما بلغ من العمر سنتين فصلته حليمة وقدمت به على أمه بمكة على عادة المراضع فى إتيانهن بالأولاد إلى أمهاتهم بعد تمام الرضاع، فأتت به موافقة لهن مع أنها كانت أحرص شىء على مكثه فيهم، فحاولت الرجوع به لتصل إلى مقصودها لما رأت من بركته ﷺ وقالت لأمه: لو تركته عندنا حتى يغلظ فإنا نخشى عليه وباء مكة. ولم تزل تتلطف بها وتناشدها حتى ردَّته معها، فرجعت.

* * *

[شق صدر النبى ﷺ مرة ثانية]

فبعد قدومها (شَقَّ) بآلة كما قال به جماعة منهم: المنذرى، والنووى، والسيوطى - رحمهم الله تعالى - وظاهر الروايات، ولا مانع منه. وقيل: بغير آلة. ولم يثبت أنه كان بسكين بيضاء مجلية (الْمَلَكَانِ) هما: جبريل، وميكائيل (صَدْرَهُ الشَّرِيفَ لَدَيْهَا) من ثُغْرَة نحره - بضم المثلثة وسكون الغين المعجمة - وهو الموضع المنخفض بين الترقوتين إلى نحو عانته كما فى البخارى، أو من عند المَفْرِق كمسجد وهو الموضع الذى يفترق فيه عظم الصدر وهو رأس المعدة إلى منتهى العانة كما فى رواية. وفى بعض الروايات الاقتصار على الصدر، ويجمع بأن المراد بالبطن الصدر. ولم يجد له ألمًا أصلاً كما قال ﷺ: «لم أجد له مسًا»، ولا ينافيه وجدانه منتقعًا كما فى رواية: «فأقبل وهو مُنْتَقَعُ [1] اللون» لجواز أنه من الفزع الحاصل من مجرد رؤية الملك وشقّ الصدر، ولعل هذا هو المراد بقوله فى «المنح»: ووقع له ﷺ من ذلك الشق نوع مشقة، وتقدم فى قول ختانه هنا على يد جبريل (وَأَخْرَجَا مِنْهُ) أى من صدره والمراد به القلب، فسماه باسم ما هو فيه من إطلاق المحل وإرادة الحال فيه (عَلَقَةً) وهى قطعة دم جامدة سميت بذلك لأنها تعلق بما

(١) منتقع اللون: أى متغير.

تصيبه (دَمَوِيَّةٌ) وفى رواية: «مضغة سوداء» فقد تكون العلقة لكبرها تشبه المضغة. قال فى «المنح» وفى رواية صحيحة: «أنه أخرج منه عَلَقَتَان سوداوان» ولا ينافي ما ذكر أنه واحدة؛ لأن المراد بها الجنس على أن الشق تكرر كما يأتى، فلا بدع أنه ﷺ أخرج واحدة ثم ثنتان؛ لأن المراد المبالغة فى تطهيره وتكريمه وذلك يستدعى استقصاء تنظيف جوفه. . انتهى.

قال بعضهم: وهو كما تراه نصٌّ فى تكرار إخراج العَلَقَة. ويؤيده ما ذكره الحافظ الغيطى فى «قصته» من تأويل الأذى الذى أخرج من صدره الشريف ليلة الإسراء بها - أعنى العَلَقَة - لورود ما يشهد له فى بعض الروايات، وتعقبه بعضهم بقوله: وفيه أن إخراج العلقة مرتين فأكثر قد يتوقف فيه سيما مع قول الملك: هذا حظُّ الشيطان منك. والذى ينبغى أن يكون نزع تلك العَلَقَة إنما هو فى المرة الأولى التى كانت وهو صغير السن فى بنى سعد، والواقع فى غيرها إنما هو إخراج ذلك الأذى، وأنه غير تلك العَلَقَة، وأن المراد به ما يكون فى الجبلات البشرية، وتكرار إخراج ذلك الأذى استقصاء له ومبالغة، وذكر العلقة فى غير المرة الأولى وقول الملك: «هذا حظُّ الشيطان منك» وهم من بعض الرواة. . انتهى. وهو وجيه وإن قال بعضهم: غير صاف عن الإشكال، فتأمل.

وقد وقع له ﷺ هذا الشق مرارًا: مرة فى حال صباه وهو عند حليمة، ومرة وهو ابن عشر أو نحوها، ومرة وهو فى غار حراء عند مجىء جبريل له بالوحى، ومرة عند الإسراء. وروى شقّ صدره خامسة وهو ابن عشرين ولم يثبت.

والحكمة فى شقِّ صدره الشريف فى حال صباه واستخراج العَلَقَة منه - كما قال الحافظ -: تطهيره عن حالات الصبا حتى يتصف فى سن الصبا بأوصاف الرجولية؛ ولذلك نشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان وغيره. وفى بلوغه عشر سنين - كما قال الشامى - إن العشر قريب من سن التكليف

فشقّ قلبه وقدّس حتى لا يلتبس بشىء مما يُعاب على الرجال. قال: لكن هل كان فى هذه المرة يختم؟ لم أقف عليه فى شىء من الأحاديث. وأما الثلاث مرات ففى كل مرة منها يختم كما هو مقتضى الأحاديث.. انتهى.

وعند مجىء جبريل له بالوحى فى غار حراء زيادة [فى] الكرامة؛ ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوى فى أكمل الأحوال من التطهير. وعند الإسراء به؛ ليتأهب للخطاب والمناجاة. وفى بلوغه عشرين سنة؛ لكمال الرجولية لكنها لم تثبت كما تقدم.

وخُلقت هذه العلقة لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية فخُلقت تكملة للخلق الإنسانى ولابد منه، ونزعها كرامة ربانية طرأت بعده، فإخراجها بعد خلقها أدل على مزيد الرفعة وعظيم الاعتناء والرعاية من خلقه بدونها: قاله العلامة السبكى، ولا يرد على ذلك ولادته ﷺ من غير قلفة على أحد القولين كما تقدم؛ لأن القلفة لما كانت تزال ولابد من كل أحد مع ما يلزم على إزالتها من كشف العورة؛ كان نقص الخلقة الإنسانية عنها عين الكمال، وقد تقدم البحث فى ذلك عند قول المصنف وولد ﷺ مختونًا فراجعه.

وقال غير السبكى: لو خلق سليمًا منها لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته فأظهره الله على يد جبريل ليتحققوا كمال باطنه كما برز لهم مُكَمَّل الظاهر.

وأما قول الرازى: وقوعه فى حال الطفولية مشكل؛ لأنه معجزة لا يجوز تقدمها على النبوة؛ لأن الذى عليه أكثر أهل الأصول اشتراط اقتران المعجزة بالتحدى، فمردود بأن هذا من باب الإرهاص لا المعجزة، ونظائر ذلك كثيرة.

وقيل: وهذا الشق هو المراد بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١).

ونقل الخطيب فى «إقناعه» عن بعض أكابر القوم فى تأويل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ (٢) أن أصل هذه التوبة أخذ العلقة من صدره

(١) سورة الانشراح: ١.

(٢) سورة التوبة: ١١٧.

الكريم، وقيل: هذا حظ الشيطان منك.. انتهى.

(وأَزَالاَ) أى أبعدا **(منْهُ)** أى من صدره **(حَظَّ)** بالظاء المشالة أى نصيب **(الشَّيْطَانِ)** وهى العَلَقَة المذكورة التى خلقها الله فى قلوب البشر قابلة لما يلقيه الشيطان فيها، فأزيلت من قلبه فلم يبق فيه مكان يلقى الشيطان فيه شيئًا، وهذا لا يقتضى أن يكون قبل ذلك للشيطان فيه حظ؛ لأنه كما قال الإمام السبكى: لا يلزم من وجود المحل القابل لما يلقيه حصول الإلقاء أى بالفعل.

(وَبِالثَّلْجِ غَسَلاَهُ) قال بعضهم: وقع الغسل فى هذه المرة بالثلج، وفى ليلة الإسراء بماء زمزم. قال فى «المنح»: أى لأنه يقوى القلب ويسكن الروع، وأخذ البلقينى من إيثار الملك له على ماء الكوثر أنه أفضل منه، وهو ظاهر خلافا لمن نازعه فيه بما لا يجدى كما بينته فى «شرح العباب».. انتهى.

تنبيه

قال النجم الغيطى: اختلف هل كان شق الصدر وغسله مخصوصًا به أو وقع لغيره من الأنبياء. قال الحافظ ابن حجر: قد وقع عند الطبرانى فى قصة تابوت بنى إسرائيل أنه كان فيه الطَسْت الذى تغسل فيه قلوب الأنبياء، وهذا مشعر بالمشاركة.. انتهى.

وصحح الحافظ الجلال السيوطى فى «خصائصه الصغرى»: عدم المشاركة، وأنه من خصائصه ﷺ، وخالفه تلميذه الشامى فقال: الراجح المشاركة، وما صححه الشيخ - يعنى السيوطى - فى «خصائصه الصغرى» من عدم المشاركة لم أر ما يعضده بعد التفحص الشديد.

قال: قلت: يمكن أن يقال وقوع شق الصدر له مع تكرره ثلاث مرات أو أربعًا لم يشاركه أحد من الأنبياء فيه، وعليه يحمل كلام السيوطى، وأما مطلق شق الصدر فوقعت فيه المشاركة لغيره من الأنبياء وعليه يحمل كلام غيره، قال: ومستند ما قلته أن تكرر شق الصدر له ﷺ ثبت فى الأحاديث التى بعضها فى الصحيحين، ووقوع شق الصدر لغيره إنما أخذ من القصة

المذكورة، وليس فيها تعرض للتكرر هذا ما ظهر.. والله أعلم.

ويحتمل أن يراد بما فى القصة من غسل قلوب الأنبياء: ظاهر قلوبهم؛ لأن القلب من جملة الأحشاء التى غسلت بغسل الصدر والبطن. على أن ابن دحية أبطله.

وأيضًا فقد يطلق الصدر على القلب من باب تسمية الحال باسم محله، ومنه ما وقع فى قصة المعراج: «ثم أتى بطَسْتٍ ممتلىء حكمة وإيمانًا فأفرغ فى صدره». وعليه فلنحمل ما صححه الجلال وأن شق الصدر غير شق القلب، فتأمل ذلك تأملاً حميدًا، ولا تكن ممن لا يفهم إلا تقليدًا.

والحكمة فى غسله بالثلج ـ كما قال السهيلى ـ: لما يشعر به من ثلج اليقين وبرده على الفؤاد، ولذا حصل له اليقين بالأمر الذى يراد به بوحدانية ربه.. انتهى.

ويستأنس لهذا بقوله ﷺ: «ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم فى قلبى دهرًا». وفى رواية: «فأنا الساعة أجد برده فى عروقى ومفاصلى».

ويشهد له قوله: **(وَمَلأَهُ)** عقب غسله وإخراج ما فيه من العلقة والأذى **(حِكْمَةً)** بكسر الحاء المهملة وسكون الكاف؛ تطلق على العلم، والمعرفة، والنبوّة.

قال النووى ـ رحمه الله ـ: فيها أقوال كثيرة مضطربة صفا لنا منها: أنها العلم المشتمل على معرفة الله تعالى مع نقاء البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق للعمل به والكف عن ضده، والحكيم من حاز ذلك كله.. انتهى ملخصًا.

قال الحافظ: أصح ما قيل فيها: إنها وضع الشىء فى محله، أو الفهم فى كتاب الله تعالى.. انتهى.

(وَمَعَانٍ إِيمَانِيَّةً) أى حلمًا، وعلمًا، ويقينًا، وإسلامًا كما ورد فى حديث ليلة الإسراء، فلذا كان ﷺ أحلم الناس وأعلمهم؛ فهو أثبتهم فى كل أموره،

وأشدهم انقيادًا لأوامر ربه وأقضيته. ونسبة المعانى للإيمان من نسبة المَتَعلق للمُتَعلَق، وتجسيم الحكمة والمعانى جائز كما جاء أن سورة البقرة تجيء يوم القيامة كأنها الظلة، والموت فى صورة كبش، وكذلك وزن الأعمال، ويحتمل أن المراد: أنهما ملآه سرًا من أسرار الله تعالى يحصل به زيادة فى كمال الإيمان وكمال الحكمة.

والمقصود بهذا التأويل: الجواب عما قيل إنهما من الأعراض، وهى لا تقوم بنفسها ولا تقبل الانتقال؛ لأنه من صفات الأجسام.

قال العلامة ابن حجر فى «المنح»: وفى وضع الإيمان والحكمة بالقلب دليل ـ كما عليه أكثر أهل السنة والجماعة ـ أن العقل فى القلب، دلت عليه الآيات، لا فى الدماغ. انتهى.

(ثُمَّ خَاطَاهُ) أى الملكان صدره الشريف خياطة معنوية كما فى بعض الروايات، وفى الرواية الآتية: «أنه كان يرى أثر المخيط فى صدره» فمقتضى ذلك أنها كانت حسيَّة، ويدل له: قول الملك فى حديث أبى ذر الآتى: «خطه، فخاطه» وإن كان يبحث فى وجه الاستدلال منه أن المراد: خطه خياطة معنوية، فالمعول عليه فى كون الخياطة حسيَّة رؤية أنس أثر المخيط فى صدره الشريف، ولا ينافى منطوق الأحاديث الآتية قريبًا أن الخائط أحدهما، لأنا نقول إنما نسب المصنف الخياطة إلى مجموعها، وإن كانت فى الحقيقة من واحد، على سبيل المجاز أو على سبيل تنزيل فعل المشارك له فى الغسل منزلة المشارك فى نفس الخياطة، فأطلق عليه اسمه، ومثل هذا يقال فى نظيره من كل ما ظاهره التنافى، وعليه فالواحد هو جبريل ـ عليه السلام ـ كما صرح به غير واحد.

(وبِخَاتَمِ) بفتح التاء هنا فقط، ويقال له: خِتْم وخَاتَام **(النُّبُوةِ)** قال القرطبى: سمى بذلك لأنه أحد العلامات التى يعرفه بها أهل الكتب السابقة، ولذا لما حصل عند سَلْمَان من علامات صدقه ما حصل ـ كموضع مبعثه،

ومهاجره - جدّ في طلبه، فجعل يتأمل ظهره، فعلم ﷺ أنه يريد الوقوف على خاتم النبوة، فأزال الرداء عنه، فلما رأى سَلْمَان الخاتم أكبّ عليه فقبله، وقال: أشهد أنك رسول الله.

وفى قصة بَحِيْرَا الراهب: وإنى أعرفه بخاتم النبوة، وقال غيره: إضافته للنبوة لكونه من آياتها، أو لكونه ختمًا عليها لحفظها، أو ختمًا عليها لإتمامها كما تكمل الأشياء ثم يختم عليها، أو لأنه من نبوته كخاتم فضة.

قال السهيلي: وحكمة وضعه: أنه لما شق صدره وأزيل منه مغمز الشيطان ملأ قلبه حكمةً وإيمانًا، فختم عليه كما يختم على الإناء المملوء مسكًا. انتهى. فجمع الله أجزاء النبوة لسيدنا محمد ﷺ وتممها وختم عليها بختمه، فلم يجد عدوّه سبيلاً إليه.

(خَتَمَاهُ) وأصل ذلك: ما رواه البزار وغيره عن أبى ذر: يا رسول الله متى علمت أنك نبى، وبم علمت حتى استيقنت؟ قال: «أتانى اثنان - وفى رواية: ملكان - وأنا ببطحاء مكة - أى بنواحيها؛ لأنه كان فى بنى سعد - قال أحدهما لصاحبه: شقّ بطنه، فشقّ بطنى فأخرج قلبى، فأخرج منه مغمز الشيطان وعلق الدم فطرحهما، فقال أحدهما لصاحبه: اغسل بطنه غسل المُلاء - أى الثوب الذى يتغطى به - ثم قال أحدهما لصاحبه: خط بطنه، فخاط بطنى، وجعل الخاتم بين كتفى كما هو الآن، ووليا عنى، فكأنى أرى الأمر معاينة»[1].

وعند الإمام أحمد وصححه الحاكم: «ثم استخرجا قلبى، فشقّاه فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتنى بماء وثلج، فغسلا به جوفى، ثم قال: ائتنى بالسكينة فذرأها فى قلبى، ثم قال أحدهما لصاحبه: خطه فخاطه، وختم عليه بخاتم النبوة»[2].

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٥)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة ص (١٥١).
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٨٤)، الحاكم فى المستدرك (٢/ ٦١٦، ٦١٧).

فإن قيل: كيف . ـمة على النبوة، وإنما كانت بعد الأربعين؟ أجيب بجواز أنه ـك الحالة العجيبة فى صغره علم أنه يكون له شأن وصار مط ـيه، فلما جاءه الوحى علم بالمقدمات المستقرة أن هذا أمر من ا ـطان فيه سبيل. انتهى.

ولا يناف ـيث عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ من أنه رجع بها رسول ا ـب فؤاده إلى أن قال: «خشيت على نفسى»، فقد وُجِّهَتْ الخشية ـن الأقوال وأصوبها بأنها من الموت، أو من المرض، أو من عد ـى تلقى الوحى وإطاقته، وليس المراد أنه خشى أن يكون ما أتاه ليس من ـند الله كما سيأتى؛ لأنه متحقق أنه من عند الله، فقول خديجة: «كلا والله ما يخزيك الله...» إلى آخر ما فى الحديث، لعلها لم تفهم ما سبب الخوف، ولذا انطلقت به إلى ورقة.

قال القاضى عياض: وهذا الخاتم هو أثر شق الملكين بين كتفيه. وأبطله الإمام النووى بأن شقهما كان فى بطنه وصدره كما فى الروايات، ومن ثم صح عن أنس رضى الله عنه: «كنت أرى أثر المخيط فى صدره ﷺ»(1).

وقد ثبت أن خاتم النبوة كان بين كتفيه ﷺ، وورد التصريح فى بعض الروايات بالختم على قلبه ﷺ، ففى رواية أبى نعيم كما فى «المنح» عن حليمة عنه ﷺ: «ثم قال ـ أى أشار ـ الملك بيده يمنة ويسرة، كأنه تناول شيئًا، فإذا خاتم من نور يحار الناظر دونه، فختم به على قلبى فامتلأ نوراً، وذلك نور النبوة والحكمة، ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم فى قلبى دهراً...»(2) الحديث.

ويؤيد هذا ما مر فى رواية الإمام أحمد: «وختم عليه بخاتم النبوة»، إذ ظاهره أن الختم على القلب، وإعادة الضمير هنا للنبى ﷺ بعيد، وينافى هذا

(1) أخرجه مسلم (كتاب الإيمان: 261)، أحمد فى مسنده (3/121).
(2) أخرجه أحمد فى مسنده (4/184)، وابن عساكر (1/38، 372).

رواية أبى ذر المتقدمة، وفى رواية ابن عائذ أنه بين ثدييه: أى على صدره.

قال الحلبى فى «إنسان العيون»: وقد يقال فى الجمع: لا مانع من تعدد الختم فى المحال المذكورة ـ أى فى قلبه وصدره وبين كتفيه ـ فختم القلب لحفظ ما فيه، وختم الصدر وبين كتفيه مبالغة فى حفظ ذلك؛ لأن الصدر وعاؤه القريب، وجسده وعاؤه البعيد، وخص بين الكتفين؛ لأنه أقرب إلى القلب من بقية الجسد، ولعله أولى من جواب القاضى عياض بأن الذى بين كتفيه أثر ذلك الشق الذى كان فى صدره، إذ هو خلاف الظاهر من قوله: «وجعل الخاتم بين كتفى». وأولى من جواب الحافظ ابن حجر أيضًا بأنه يجوز أن يكون الختم لقلبه ظهر من وراء ظهره عند كتفه الأيسر؛ لأن القلب فى ذلك الجانب؛ لما علمت.. انتهى.

ثم على كون خاتم النبوة بين كتفيه، فالصحيح كما قال السهيلى: أنه كان عند نُغْض كتفه الأيسر ـ وهو بنون مضمومة وقد تفتح وغين وضاد معجمتين ـ أعلى الكتف، ورواية الأيمن ضعيفة، والسر فى وضعه على جهة كتفه الأيسر أن القلب فى تلك الجهة، وبه جزم الجلال فقال: وجعل خاتم النبوة بظهره بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان لغيره.

روى ابن عبد البر بسند قوى عن عمر بن عبد العزيز: أن رجلاً سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم، فأرى جسد ممهى، يرى داخله من خارجه، وأرى الشيطان فى صورة ضفدع، عند كتفه حذاء، قلبه له خرطوم كخرطوم البعوضة، وقد أدخله فى منكبه الأيسر إلى قلبه؛ يوسوس إليه، فإذا ذكر الله تعالى العبد خنس.

ومُمْهَى ـ بضم الميم الأولى وسكون الثانية وتخفيف الهاء ـ اسم مفعول من أمهاه أى مصفى، وفى «النهاية»: أنه رأى ذلك منامًا، والمها: البلور، وكل شىء صفى فهو مُمهى تشبيهًا به.

وفيما تقدم عن الحلبى أشعار بأن الخاتم قد وقع على القلب أيضًا، ولا

ينافيه صريح قول المصنف: «ويخاتم النبوة ختماه» أن الختم على الصدر؛ لأن المراد بالصدر: القلب مجازًا كما مر، على أنه لا يحسن أن يراد بالصدر القلب؛ لأنه يصير ساكتًا عن ختم الصدر، وما صححه السهيلى وجزم به الجلال هو الصحيح الصواب.

وقد اختلفت الآثار فى تشبيه ذلك الختم اختلافًا كثيرًا، وكلٌ شبَّه بما سنح له، وكلها ألفاظ متقاربة، المراد منها واحد، وهو قطعة لحم بارزة عليها شعرات، إذا قلل قيل كبيضة الحمام، وإذا كثر قيل كمجمع الكف - أى على هيئته - وهو ما يجتمع عند قبض اليد، لكنه أصغر منه.

واختلف هل وُلد وهو به، أو وضع بعد الولادة؟ وعلى الثانى؛ فهل حين وُلد، أو عند شق صدره - وهو فى بنى سعد -؟ به قطع القاضى عياض، وقال الحافظ: وهو الأثبت.

وفى حديث عائشة: أنه عند المبعث، وعند أبى يعلى وغيره فى حديث المعراج، من حديث أبى هريرة: «ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوّة»[1]. وطريق الجمع: أن الختم تكرر ثلاث مرات: فى بنى سعد، ثم عند المبعث، ثم ليلة الإسراء؛ كما دلت الأحاديث، ولا بأس بهذا الجمع، فإن فيه إعمال الأحاديث كلها؛ إذ لا داعى لرد بعضها وإعمال بعضها لصحة كل منها.

وأما رواية بعد الولادة - وتقدم ذكرها ثَمَّ - فضعيفة، وأما أنه وُلِدَ به فضعيف أيضًا. قال الزرقانى: ويطالب زاعمه بدليله.. انتهى.

ونقل الحلبى فى «إنسان العيون» عن الحافظ ابن حجر ما يوافقه، حيث قال: ومقتضى الأحاديث التى فيها شق الصدر ووضع الخاتم أنه لم يكن موجودًا حين ولادته، وإنما كان أول وضعه لما شق صدره عند حليمة، خلافًا لمن قال ولد به، أو حين وضع، قال: هذا كلامه.

(١) أخرجه البخارى (٣٥٤١، ٥٦٧٠)، مسلم (الفضائل:١١١)، الترمذى (٤٦٤٣)، أحمد (٦/ ١١٢)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٥).

ولا يخفى أن ما قلناه من أن هذا الخاتم غير خاتم النبوّة أولى؛ لأن به يجتمع القولان، وتندفع المخالفة، والجمع أولى من التضعيف؛ لما صحح من أنه وُلِدَ به، وعلى أنه هو يلزم أن يكون خاتم النبوة تعدّد محلّه، فوجد بين كتفيه، وفي صدره، وفي قلبه.

ولا يقال: قد أشير إلى الجواب عن ذلك بأن الموجود بين كتفيه هو أثر ما في صدره وقلبه، لأنا نقول: يبطله ما تقدم عن «الدلائل» لأبي نعيم، وما تقدم عن بعض الروايات: «فأقبل الملك وبيده خاتم، فوضعه بين كتفيه وثدييه»، وأيضًا يلزم عليه أن يكون خاتم النبوّة تكرر الإتيان به ثانيًا في قصة المبعث، وثالثًا في قصة الإسراء، ففي قصة المبعث: «فأكفأني كما يكفأ الإناء، ثم ختم في ظهري». وفي قصة الإسراء: «ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوّة». وكل منهما يُبطل كون ما في ظهره أو بين كتفيه أثر لذلك الختم الذي وجد في صدره أو قلبه، إلا أن يقال ما في قصة المبعث وقصة المعراج غير خاتم النبوة، وأن خاتم النبوة إنما هو الأثر الحاصل من ختم صدره وقلبه في قصة الرضاع، وأنه يلزم تكرر الختم على ذلك الأثر في المبعث وفي قصة الإسراء، وفيه أنه لا معنى لتكرير الختم على ذلك الأثر في محل واحد، ولا يقال الغرض منه المبالغة في الحفظ؛ لأن ذلك إنما يكون عند تعدد محل الختم لا عند إعادته ثانيًا وثالثًا في محل واحد، وأيضًا هو خلاف ظاهر كلامهم في أنه في المحال الثلاثة خاتم النبوّة.. انتهى.

والحاصل أن جملة الأختام الحاصلة من مقتضى الروايات سبعة:

أحدها: ولد به.

وثانيها: بعد الولادة.

وثالثها: عند حليمة على قلبه. وعلى صدره، وعلى كتفه، فهذه خمسة.

وسادسها: في غار حراء.

وسابعها: عند الإسراء.

وعلى تقدير صحة الروايات كلها والجمع بينها بأن الختم تعدد، فليس منها خاتم النبوّة إلا الذى كان على كتفه الشريف عند حليمة، لما علمت، ولما مر عن السهيلى، ويحمل باقيها على ما مر عن الحلبى فى «إنسان العيون» من أن المراد من تعدد الختم فى المحال المذكورة: المبالغة فى حفظ ما فى قلبه من نور النبوة والحكمة والإيمان، وخصّ بين الكتفين؛ لأنه أقرب إلى القلب من بقية الجسد. فإبعاد القليوبى لتعدد محله مع الإمكان غير مستقيم.

والصحيح أن خاتم النبوة لم يرفع عند موته ﷺ، وما روى عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - أنها قالت: «التمست الخاتم حين توفى رسول الله ﷺ فوجدته قد رفع». مؤوّل بأن المراد قد رفع ظهوره، فلا ينافى أنه اختفى وتقلص كما يتقلص الإنسان بعد الوفاة. على أن العلاَّمة الشامى توقف فى صحة ذلك الحديث، فقال: لا أظنه صحيحًا، فلينظر سنده.

ووضع الخاتم بين كتفيه ﷺ بإزاء قلبه - كما مر - مما اختص به على سائر الأنبياء، فقد روى الحاكم فى «المستدرك» عن وهب بن منبه قال: لم يبعث الله نبيًا إلا وقد كانت عليه شامة النبوة فى يده اليمنى، إلا أن يكون نبينا فإن شامة النبوة كانت بين كتفيه(1). وبه جزم الجلال - كما تقدم -. قال الحلبى: لم أقف على بيان تلك الشامات التى كانت للأنبياء غير نبينا ما هى؟.

وفى «النعمة الكبرى»: أنها كانت شامات سوداء.

تنبيه

ما مر عن الجلال فى قوله: «وجعل خاتم النبوة على ظهره... إلخ»، مشكل؛ إذ مفهومه أن للشيطان موضع الدخول لقلوب الأنبياء غير نبينا ﷺ وعليهم لم يختم، ولا يخفى ما فيه من الخطورة، ما أشنعها من عبارة وأخطأها من إشارة؛ كذا قال القسطلانى فيما كتبه على هامش «الخصائص».

(1) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

ويجاب بأن المراد بغيره في قوله: «حيث يدخل الشيطان لغيره»: سوى الأنبياء، لما عُلم وتقرر في النفوس من عصمة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من الشيطان، واختص نبينا من سائر الأنبياء بالختم في المحل المذكور مبالغة في حفظه من الشيطان وقطعًا لأطماعه. فليتأمل.

وجميع ما ورد من الشق وإخراج القلب وغيرهما يجب الإيمان به، وإن كان خارقًا للعادة، ولا يجوز تأويله لصلاحية القدرة له.

(وَوَزَنَاهُ) أي الملكان، النبي ﷺ وزنًا اعتباريًا ـ أي اعتبرا فضله وشرفه ـ وقاساه بغيره، ووقع في حديث ساقه الشامي، ثم قال: «زنه بألف. فوزنوني فرجحتهم، فجعلت أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخر عليَّ بعضهم»[1].

وهذا كالصريح في أنه حصى اللهم إلا أن يقال فيه تجوّز، والمراد: رأيت زيادة رجحان في الاعتبار على الألف حتى صارت في الاعتبار لو كانت محسوسة لكادت أن يسقط عليَّ بعضها.

(فَرَجَحَ) أي زاد ﷺ **(بِألْف مِنْ أمَّته)** ويبدل منه **(أُمَّة الخَيْرِيَّة)** أي المنسوبة إلى الخير والفضل. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

وأصل ذلك ما ذكره السيوطي في «الخصائص»، ولفظه: أخرج البيهقي وابن عساكر من طريق محمد بن زكريا الغلابي، عن يعقوب بن جعفر بن سليمان، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه عن جده،عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت حليمة تحدث أنها لما فطمت رسول الله ﷺ تكلم فقال: «الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً». فلما ترعرع كان يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيتجنبهم، فقال لي يومًا: «يا أماه! ما لي لا أرى إخوتي بالنهار؟». فقلت: فدتك نفسي، يرعون غنمًا لنا فيروحون من ليل إلى ليل. قال: «ابعثيني معهم». فكان يخرج مسرورًا،

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٥)، وأحمد في مسنده (١٧١٩٦)، والدارمي (١٣).

(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

ويرجع مسروراً، فلما كان يوم من ذلك خرجوا، فلما انتصف النهار إذا بابنى ضمرة يعدو فزعًا وجبينه يرشح باكيًا ينادى: يا أبةِ، يا أمّة الحقا أخى محمداً فما تلحقانه إلا ميتًا. قلنا: وما قصته؟ قال: بينا نحن قيام إذ أتى رجل فاختطفه من أوساطنا وعلا به ذروة الجبل، ونحن ننظر إليه، ثم شق صدره إلى عانته ولا أدرى ما فعل به.

فأقبلت أنا وأبوه نسعى، فإذا نحن به قاعداً على ذِرْوة الجبل شاخصًا ببصره إلى السماء يتبسم ويضحك، فأكببتُ عليه وقبّلت بين عينيه وقلت: فدَتك نفسى، ما الذى دهاك[1]؟ قال: «خيراً يا أماه. بينا أنا الساعة قائم إذ أتانى رهطٌ ثلاث بيد أحدهم إبريق فضة، وفى يد الثانى طَسْت من زمرّدة خضراء ملىء ثلجًا، فأخذونى فانطلقوا بى إلى ذِرْوة الجبل، فأضجعونى على الجبل إضجاعًا لطيفًا، ثم شقَّ أحدهم من صدرى إلى عانتى وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك مسًا ولا ألمًا، ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج أحشاء بطنى فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ثم أعادها.

وقام الثانى فقال للأول: تنح فقد أنجزت ما أمرك الله به، فدنا منى فأدخل يده فى جوفى فانتزع قلبى فشقه وأخرج منه نكتة سوداء مملوءة بالدم فرمى بها، فقال: هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله ثم حشاه بشىء كان معه وردَّه مكانه، ثم ختمه بخاتم من نور، فأنا الساعة أجد بَرْد الخاتم فى عروقى ومفاصلى.

وقام الثالث وقال: تنحيا فقد أنجزتما ما أمركما الله به فيه، ودنا منى، فأمرَّ يده فى مفرق صدرى إلى منتهى عانتى وقال: زنوه من أمته بعشرة، فوزنونى بهم فرجحتهم. ثم قال: زنوه بمائة من أمته، فوزنونى فرجحتهم. ثم قال: زنوه بألف من أمته، فوزنونى بهم فرجحتهم. ثم قال: دعوه فلو وزنتموه بأمته كلها لرجح بهم، ثم أخذ بيدى فأنهضنى إنهاضًا لطيفًا، فأكبوا علىَّ

(١) دهاك: أى أصابك.

وقبلوا رأسى وما بين عينىَّ وقالوا: يا حبيب الله، لن تراع، ولو تدرى ما يراد بك من الخير لقرت عيناك، وتركونى قاعداً فى مكانى هذا. . . الحديث»[1].

وفى حديث شداد بن أوس عند أبى يعلى، وأبى نعيم، وابن عساكر: نحوه، غير أنه فيه: «أن الطَّسْت من ذهب»[2]. فلعله كان مرصّعًا بالزمرد، وقوله ﷺ: «أتانى رهط ثلاثة» موافق لما فى حديث شداد، ومخالف لقول ضمرة: «رجل أو رجلان» فلعله لم ير سوى اثنين، وأما المصطفى ﷺ فرأى الثلاثة.

والحكمة فى اختصاص الإتيان بطَسْتٍ من ذهب: أن الطَسْت أشهر آلات الغسل، وأما كونه من ذهب فلأنه أغلا الأوانى وأصفاها ولأن فيه خواص ليست فى غيره، منها: أنه من أوانى الجنة، وأنه لا تأكله النار ولا التراب ولا يصدأ، وأنه أثقل الجواهر فناسب ثقل الوحى.

قال بعضهم: وإن نُظِرَ إلى لفظه؛ ناسب من جهة إذهاب الرجس عنه، وإن نُظِرَ إلى معناه؛ فلوضاءته ونقائه وثقله، والوحى ثقيل.

قال النجم الغيطى: وأما تحريم استعماله فهو مخصوص بأحوال الدنيا وذلك كان من أحوال الغيب، فيلحق بأمور الآخرة.

قال النووى رحمه الله: ليس فى هذا الخبر ما يوهم جواز استعمال إناء الذهب والفضة؛ لأن هذا فعل الملائكة واستعمالهم وليس بلازم أن يكون حكمهم حكمنا؛ أو لأنه كان قبل تحريم النبى ﷺ استعمال أوانى الذهب والفضة. . انتهى.

وهذا أحسن من جوابه الأول؛ لأنه تعقب بأنه لا يكفى أن يقال أن المستعمل له ممن لم يحرم عليه ذلك من الملائكة؛ لأنه لو كان قد حرم عليه استعماله لنزه أن يستعمله غيره فى أمر يتعلق ببدنه المكرم.

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ١٤٠)، وابن حجر فى المطالب العالية (٤٢٥٤)، وفى سنده عمرو بن صبح: وضّاع مشهور، لكن للحديث شواهد.

(٢) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٥٠)، الخصائص الكبرى (١/ ٩٦)، السيرة الشامية (١/ ٤٧٠).

(وَنَشأَ) بفتح النون والشين المعجمة والهمزة من باب نفع؛ أى تجدد وحدث وكبر (ﷺ عَلَى أَكْمَلِ الأَوْصَافِ) وأجملها (مِنْ حَالِ صِبَاهُ) من حال نشأته، وهذا بيان لحكمة شق صدره الشريف فى حال صباه واستخراج ما مر منه، وهو تطهيره عن نقائص الصبا ليكون على أكمل الصفات من حين نشأته؛ ولذلك تعدد شق صدره ليكون لكل طور من أطوار طفوليته، ثم بلوغه، ثم بعثته، ثم الإسراء به كمال يخصه ويليق به.

والتحقيق أنه ﷺ لم يزل يترقى فى مراتب الكمال كما أخذه بعضهم من قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (1).

(ثُمَّ) بعد ما حصل له من الشق المذكور (رَدَّتْهُ) حليمة (إِلَى أُمِّهِ) وهو ابن أربع سنين على الراجح كما يأتى (وَهِيَ بِهِ) أى بالرد إلى أمه (غَيْرُ سَخِيَّةً) بفتح السين المهملة وكسر الخاء المعجمة؛ راضية أى لم تكد تسمح نفسها بمفارقته لما عاينته فى إقامته عندها من الخيرات الكثيرة عليها وعلى زوجها وبنيها وسائر متعلقاتها من بركاته ﷺ، بل كانت كارهة لذلك، وإنما ردته مع بخلها برده (حَذَرًا) بفتح الحاء المهملة والذال المعجمة؛ أى خوفًا عليه (مِنْ أَنْ يُصَابَ بِمُصَابِ) بميم مضمومة؛ أى إصابة أمر (حَادِث) وفى بعض النسخ بصاب بغير ميم، والصاب بتخفيف الباء: عصارة شجر مر، أى بمرارة حادث كريه يشبه عصارة ذلك الشجر المرّ (تَخْشَاهُ) أى تخاف وقوعه به وهو تعرض الجن له، وقد عصمه الله من ذلك.

وأصل ذلك - بعد ما قدمناه كما فى السير - قول حليمة: فوالله إنه لبعد مقدمنا أى من مكة بعد رده عندما فصلته - كما مر - بشهرين أو ثلاثة مع أخيه من الرضاعة لفى بَهْمٍ(2) لنا خلف بيوتنا، جاء أخوه يشتد فقال: ذاك أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه وشقا بطنه.

---

(1) سورة الضحى: ٤.

(2) البَهْمُ: الصغار من الغنم، واحدتها بَهْمَة.

فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائمًا منتقعًا لونه، فاعتنقه أبوه وقال: أى بنى، ما شأنك؟ فقال: «جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعانى وشقّا بطنى ثم استخرجا منه شيئًا فطرحاه، ثم رداه كما كان». فرجعنا به معنا. فقال أبوه: يا حليمة، إنى خشيت أن يكون ابنى قد أصيب، فانطلقى بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوفه. فاحتملناه حتى قدمنا به مكة على أمه. قالت: ما ردكما به فقد كنتما حريصين عليه؟ قلنا: نخشى الإتلاف والإحداث. فقالت: ما ذاك بكما! فأصدقانى ما شأنكما؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره، فقالت: أخشيتما عليه الشيطان؟ لا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابنى هذا شأن فدعاه عنكما[1].

وذكر السيوطى فى «الخصائص الكبرى» حديثا أخرجه أبو نعيم من طريق الواحدى قال فى آخره: فرجعت به معها[2].

وظاهر هذا السياق بل صريحه: أن شق الصدر ورجوعه إلى أمه كان فى السنة الثالثة؛ لقوله فيه: «بشهرين أو ثلاثة».

وقد قال ابن عباس: رجع إلى أمه وهو ابن خمس سنين ويومين. وقال الأموى: وهو ابن ست سنين، والراجح أنه ﷺ رجع إلى أمه وهو ابن أربع سنين، وأن شق الصدر إنما كان فى الرابعة كما جزم به الحافظ العراقى فى «نظم السيرة»، وتلميذه الحافظ ابن حجر فى «سيرته».

(ووفدَت) بكسر الفاء من باب تعب؛ أى قدمت **(عليه)** السيدة **(حليمة)** السعدية ـ تقدّم ذكر نسبها ونسبتها ـ تشكو إليه السنة وذلك **(فى أيام)** أم المؤمنين **(خديجة)** بنت خويلد القرشية الآتى بيان حالها وخصالها الزكية **(السيدة)** الشريفة فى قومها **(الرَّضِيَّة)** بالراء المهملة فعيلة بمعنى مفعولة؛ أى المرضية، وفى بعض النسخ: «الوَضية» بالواو من الوضاءة وهو الحسن

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ١٣٣)، وابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ١٧٣)، وابن كثير فى البداية والنهاية (٢/ ٢٧٣)، وابن الجوزى فى الوفا ص (١٠٥).

(٢) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٤٩).

(**نَحبَاهَا**) بموحدة؛ أعطاها بلا جزاء ولا مَنّ (**مِنْ حِبَائه**) بكسر الحاء المهملة فموحدة وبعد الألف همزة ممدود؛ أى عطائه (**الْوَافِرِ**) التام الكثير (**بِحَيَاهُ**) بفتح الحاء مقصور المطر؛ أى بما تحيى به الأرض، شبه عطاءه بالمطر إذا نزل على الأرض المجدبة فإنه يحصل لها به غاية الحياة، وفى بعض النسخ: «بمحياه» والمحيا محل الحيا أى المحل المعد للإعطاء، والمعنى: أعطاها من إعطائه الكثير فى المحل الذى أعده للإعطاء.

قال فى «النعمة الكبرى»: ويروى أنها قدمت على رسول الله ﷺ وهو متزوّج خديجة ـ رضى الله عنها ـ فشكت إليه جدب البلاد، فكلم خديجة فأعطتها أربعين شاة وبعيرا[1].

وفى بعض الروايات: عشرين من الغنم وبكَرَات[2].

(**وَقَدِمتْ**) أى وفدت أيضًا (**عَلَيْه**) ﷺ مرة ثانية وهو بالجِعْرَانة بعد وقعة هَوَازِن (**يَوْمَ حُنَيْنٍ**) سنة ثمان بعد فتح مكة، وكان المسلمون فيها اثنى عشر ألفًا، والكفار أربعة آلاف. و «حُنَيْن» واد بين مكة والطائف (**فَقَامَ**) ﷺ (**إِلَيْهَا**) إكرامًا لها واعترافًا بحقها، وفيه دليل على جواز القيام تعظيمًا لمن يستحقه.

واعلم أنه قد اختلف العلماء فى القيام للتعظيم المعتاد هل هو مكروه أم لا؟ فقيل: مكروه استدلالاً بحديث: «لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا»[3].

وحديث: «من أحبَّ أن يتمثل له الناس قيامًا وجبت له النار»[4]. ونحوه،

---

(١) الوفا ص (١١١).

(٢) البَكْرُ: الفتىُّ من الإبل.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٣٠)، أحمد فى مسنده (٥/ ٢٥٣)، ابن أبى شيبة فى مصنفه (٨/ ٣٩٨)، مشكاة المصابيح (٤٧٠٠).

(٤) أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، بإسناد صحيح، وعزاه الهيثمى فى المجمع (٨/ ٤٠) للطبرانى فى الكبير والأوسط، وقال: فيه رجال لم أعرفهم. وعزاه السيوطى فى الجامع الكبير (٢٠٠٨٨) لابن جرير. وانظر: مجمع البحرين (٣٠٤٤).

حتى ذهب بعضهم إلى حرمته، والأحسن ما قاله القاضى زكريا فى «شرح الروض»: أنه مستحب لأهل العلم والصلاح، وللحكام العدول، بل قد يجب إذا خشى من تركه ضرراً: كجبابرة الملوك. ويستحب لمن قدم من سفره، ولذوى الأرحام تكريمًا وبرًا لهم، ويدل على ذلك قوله ﷺ للأنصار لما قدم عليهم سعد رضى الله عنه: «قوموا لسيدكم»(١).

والمنهى عنه إنما هو الذى يكون على سبيل الرياء والتكبر، وَحَمْلُ حديث سعد على أنه كان مريضًا وَقَدِمَ راكبًا، فأمرهم رسول الله ﷺ بالقيام ليعينوه فى النزول عن دابته خلاف الظاهر، وقد فعله ﷺ فكان يقوم لفاطمة ـ رضى الله تعالى عنها ـ، وإنما نهاهم لئلا يظنوه سنة ـ أى لكل أحد ـ ويتخذوه عادة، وسيأتى مزيد لذلك فى الكلام على تواضعه فى ذكر شمائله ﷺ.

(وَأَخَذَتْهُ الأَرْيَحِيَّةُ) والأريحى الواسع الخلق المرتاح للندا: أى العطا، فالمراد ارتاح لفعل المعروف معها **(وَبَسَطَ)** نشر **(لَهَا مِنَ رِدَائِهِ الشَّرِيف)** لتجلس عليه، أو وسع عليها فى العطاء كما يدل عليه قوله **(بِسَاطَ بِرِّهِ وَنَدَاهُ)** ولا مانع من وقوع الحالين كما ذكره ابن حجر فى «النعمة الكبرى»: أنه صح عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ـ رضى الله عنه ـ قال: رأيت رسول الله ﷺ يقسم بالجِعْرَانة لحمًا ـ وأنا يومئذ غلام أحمل لحم الجَزُور ـ إذ أقبلت امرأة حتى دنت من النبى ﷺ بسط لها رداءه فجلست عليه. فقلت: من هذه؟ قالوا: هذه أمه التى أرضعته(٢).

قال ابن حجر: له شواهد. قال الشهاب الخفاجى: وهذا الحديث رواه أبو داود فى سننه بسند حسن، قال: وقالوا: وهذه المرأة هى حليمة أمه ﷺ من الرضاع. ونقل الحلبى فى «إنسان العيون» عن الحافظ ابن حجر أنه قال بعد أن أورد عدة آثار فى مجىء أمه ﷺ من الرضاعة إليه فى حُنَيْن: وفى تعدد

---

(١) أخرجه البخارى (٨/ ٧٢)، ومسلم (٣/ ١٣٨٨)، وأبو داود (٥٢١٥)، ومسند الطيالسى (٩/ ١٣٨٨)، والطبرانى فى معجمه الكبير (٥٣٢٣).

(٢) الوفا ص (١١١).

الطرق ما يقتضى أنه له أصلاً أصيلاً. قال: وفى اتفاق الطرق على أنها أمُّه ردٌّ على من زعم أن التى قدمت عليه أخته.

والقائل(١) بأن القادم يوم حُنَين ثُوَيْبَة مردود بأن ثُوَيْبَة توفيت سنة سبع، وحنين كانت سنة ثمان بعد فتح مكة كما تقدم.

* * *

[إسلام السيدة حليمة وزوجها رضى الله تعالى عنهما](٢)

(وَ) قد اختلف العلماء فى إسلامها وعدمه فممن أنكره: الحافظ الدمياطى، وأبو حيان النحوى. و (الصَّحِيحُ) من القولين (أَنَّهَا أَسْلَمَتْ) كما قاله غير واحد (مَعَ زَوْجِهَا) الحارث بن عبد العُزَّى بن رفاعة بن ملان بن ناصرة بن سعد بن بكر، فحليمة تلتقى نسبًا مع زوجها الحارث فى ناصرة فهو الجد الخامس لحليمة. قدم على رسول الله ﷺ حين أنزل عليه القرآن فقالت له قريش: ألا تسمع يا حارث ما يقول ابنك؟ قال: وما يقول؟ قالوا: يزعم أن الله يبعث من فى القبور، وأن لله دارين يعذب فى أحدهما من عصاه، ويكرم فى الأخرى من أطاعه، فقد شتَّت أمرنا، وفرَّق جماعتنا. فأتاه فقال: أى بُنَىّ، مالك ولقومك يشكونك ويزعمون أنك تقول إن الناس يبعثون بعد الموت ثم يصيرون إلى جنة ونار؟!. فقال ﷺ: «نعم. ولو قد كان ذلك اليوم لقد أخذتُ بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم». فأسلم وَحَسُن إسلامه، وكان يقول: لو أخذ ابنى بيدى فعرَّفنى ما قاله لم يرسلنى إن شاء الله تعالى حتى يُدخلنى الجنة(٣).

(وَ) كذا الصحيح من القولين أيضًا إسلام (الْبَنِينَ و) عطف (الذُّرِّيَّةِ) على

(١) ينسب هذا القول للحافظ الذهبى (السيرة الشامية ١/ ٤٦٦).
(٢) انظر: سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٦٥).
(٣) انظر: سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٦٨).

البنين من عطف العام على الخاص لشمولها الإناث، وهم: عبد الله الذى أرضعت حليمة رسول الله ﷺ بلبانه، وأنيسة، وجذامة ـ وهى الشيماء ـ أولاد الحارث بن عبد العزى، كما أشار إليه الحافظ مُغْلَطاى فى «سيرته» **(وَقَدْ عَدَّهُمَا)** أى حليمة وزوجها الحارث **(فِى الصَّحَابَةِ جَمْعٌ مِنْ ثِقَاةِ)** بكسر المثلثة جمع ثقة بمعنى موثوق به لعدالته وضبطه **(الرُّوَاةِ)** بضم الراء جمع راو منهم: الحافظ ابن حجر فى «الفتح». وقال فى «الاستيعاب»: روى زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار قال: جاءت حليمة بنت عبد الله أم النبى ﷺ من الرضاعة يوم حنين فقام إليها وبسط لها رداءه، فجلست عليه[1].

وروت عن النبى ﷺ، وروى عنها عبد الله بن جعفر، وقال الحافظ مُغْلَطاى فى «سيرته» ما نصه: وصحح ابن حبان وغيره حديثًا دل على إسلامها ـ رضى الله عنها.

وقال الحافظ أبو الفرج بن الجوزى بعد كلام له: ثم قدمت ـ أى حليمة ـ عليه ﷺ فأسلمت وبايعت.

ونصر هذا القول: الشهاب الخفاجى فى «نسيم الرياض» قال: وصنف الحافظ مُغْلَطاى جزءًا فى إسلامها سماه «النعمة الجسيمة فى إسلام حليمة» وارتضاه علماء عصره.. انتهى.

وقد ذكرها فى الصحابة ابن أبى خيثمة، وابن عبد البر، وابن الجوزى، والمنذرى، وابن حجر، وغيرهم، وكفى بهم حجة.

ونقل الجلال السيوطى ـ رحمه الله تعالى ـ فى «مسالك الحنفاء» عن بعض العلماء بعد إيراد خبر إرضاع حليمة ـ رضى الله عنها ـ لرسول الله ﷺ، وما نالها من معروفه وإحسانه الذى أسداه إليها حين قدومها عليه أبياتًا حسنة وهى هذه:

هذا جزاء الأم عن إرضاعه   لكن جزاء الله عنه عظيم

---

(١) طبقات ابن سعد (١/١/٧١).

وكذاك أرجو أن يكون لأمه عن ذاك آمنـة يد ونعيم
ويكون أحياها الإله وآمنت بمحمـد فحديثها معلوم
فلربما سعـدت به أيضًا كمـا سعدت به بعد الشقاء حليم

وفى قوله: «سعدت به بعد الشقاء حليم» أى حليمة إشارة إلى ما سبق من ترجيح القول بإسلامها؛ إذ ليست السعادة بعد الشقاء إلا الإسلام بعد الكفر كما هو واضح، والله تعالى أعلم.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْف شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

[وفاة أمه آمنة بنت وهب]

(وَلَمَا بَلَغَ ﷺ) من العمر (أَرْبَعَ سِنِينَ) فيما حكاه العراقى، وصدر به مُغْلَطاى، والقسطلانى فى «المواهب» وتبعه المصنف، وهو لا يظهر إلا على القول بأن رجوع حليمة به ﷺ بعد شق صدره الشريف كان فى السنة الثالثة، ومع ذلك فهو يردّ القول بأن حليمة لما ردته إلى أمه كان عمره خمس أو ست سنين، وقيل: خمسًا، وقيل: ستًا، وقيل: سبعًا، وقيل: تسعًا، وقيل: عشرًا، وقيل: اثنتى عشرة سنة وشهرٍ وعشرة أيام، وقيل: غير ذلك. والقول بالست هو الذى قطع به ابن إسحاق.

(خَرَجَتْ به أُمُّهُ) آمنة بنت وهب ومعها حاضنته أم أيمن الحبشية (إِلَى المَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ) لزيارة قبر والده وأخوال جده عبد المُطَّلب؛ لأن أمه سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداس بن عامر بن عدى بن النجار النجَّارية؛ فهم أخوال النبى ﷺ مجازًا كما تقدم، وقصدت بزيارتها نقل المصطفى إليهم وإراءه لهم، فنزلت به دار التابعة - رجل من بنى عدى بن النجار - وأقامت به عندهم شهرًا.

قال ﷺ: «وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إلىَّ» قالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول: هو نبىّ هذه الأمة، وهذه - أى المدينة - دار هجرته، فوعيتُ ذلك كله من كلامهم.

(ثُمَّ عَادَتْ) أى رجعت هى ومعها النبى ﷺ وأم أيمن قاصدة مكة المشرفة خوفًا عليه من اليهود.

ففى رواية أبى نعيم قال ﷺ: «فنظر إلىَّ رجل من اليهود يختلف ينظر إلىَّ فقال: يا غلام، ما اسمك؟ قلت: أحمد، ونظر إلى ظهرى فأسمعه يقول: هذا نبىُّ هذه الأمة، ثم راح إلى أخوالى فأخبرهم فأخبروا أمى، فخافت علىَّ

فخرجنا من المدينة»[1].

(فَوَافَتْهَا) أتتها وهى (بِالأَبْوَاء) بفتح الهمزة وسكون الموحدة ممدود؛ موضع بين مكة والمدينة قريب من الجُحْفَة[2]، وقال بعضهم: قرية من أعمال الفَرْع على ثلاثين ميلاً من المدينة كما تقدّم، سميت بذلك: لتبوّء السيول بها (أَوْ) بعد أن وصلت مكة وافتها كما قيل (بِشِعْبِ) بكسر المعجمة؛ ما انفرج بين جبلين، أو الطريق فى الجبل (الحَجُونِ) بفتح المهملة وضم الجيم، قال المجد: جبل بمعلاة مكة (الوَفَاه) الموت عن عشرين سنة من العمر تقريبًا كما صححه الحافظ العلائى.

أخرج أبو نعيم فى «دلائل النبوة» من طريق الزهرى، عن أم سماعة بنت أبى رُهْم، عن أمها، قالت: شَهِدتُ آمنة فى عِلَّتها التى ماتت فيها ومحمد ﷺ غلام يَفع له خمس سنين عند رأسها، فنظرت إلى وجهه ثم قالت:

بارَكَ فيكَ اللهُ من غُلامِ ... يا ابن الذى من حَوْمةِ الحمَامِ
نَجا بعون الملكِ المنْعامِ ... فُودِى غَداةَ الضَّرْبِ بالسِّهامِ
بمائةٍ من إبلٍ سَوامِ ... إنْ صحَّ ما أبصرتُ فى المنامِ
فأنتَ مبعوثٌ إلى الأنامِ ... من عند ذى الجلالِ والإكرامِ
تُبعثُ فى الحلالِ والحرامِ ... تُبْعثُ بالتحقيقِ والإسلامِ
دين أبيك البَرِّ إبراهامِ ... فالله أنهاك عن الأصنامِ
أن لا تواليها مع الأقوامِ

ثم قالت: كلُّ حىٍّ ميت، وكلُّ جديد بالٍ، وكلُّ كثير يفنى، وأنا ميتة وذِكْرى باق، وقد تركتُ خيرًا، وولدت طُهرًا. ثم ماتت، فكنا نسمع نوح الجن عليها، فحفظنا من ذلك:

نبكى الفتاة البَرَّةَ الأمينهْ ... ذات الجمال العَفَّةَ الرزينهْ

---

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٩)، وطبقات ابن سعد (١/١١٦).

(٢) الجحفة: موضع بين مكة والمدينة، وهى ميقات أهل مصر والشام إن لم يمرو بالمدينة. (مراصد الاطلاع ١/٣١٥).

زوجة عبد الله والقرينهْ   أم نبيّ الله ذى السَّكينهْ
وصاحب المِنْبر بالمدينهْ   صارت لدى حُفْرتها رهينهْ[1]

والقول بوفاة أمه بالأبواء ودفنها بها هو الصحيح المشهور، وهو قول ابن إسحاق، وجزم به العراقى وتلميذه الحافظ، بل قال الحلبى: هو الأصح كما تقدّم. وفى «الوفا» عن ابن سعد: أن كون قبرها بمكة غلط، وإنما قبرها بالأبواء.

وقد جاء: أنه ﷺ لما مر بالأبواء فى غزوة الحُديبية قال: «إن الله أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه»، فأتاه وأصلحه وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكائه. وقيل له فى ذلك: قال: «أدركتنى رحمتها فبكيت»[2].

ويعارضه ما ورد من الأحاديث من أنها [دفنت] بالحَجُون[3]، وجمع بعضهم ـ كما فى «الخميس» ـ بأنها دفنت أوّلا بالأبواء، ثم نقلت إلى مكة ودفنت بالحَجُون.

وفى «القاموس» فى فصل الراء من باب العين المهملتين: «دارُ رابغة» براء بعد الألف، بمكة فيه مدفن آمنة أم النبى ﷺ، وظاهره أنها مدفونة داخل مكة. وقال الحلبى: لم أقف على محل تلك الدار[4].

* * *

(١) اخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (١٢٠)، وشرح المواهب (١/ ١٦٤)، والسيرة الشامية (٢/ ١٦٤)، والخصائص الكبرى (١/ ١٣٥).

(٢) اخرجه مسلم (كتاب الجنائز: ١٠٨)، والبيهقى فى السنن (٤/ ٧٦)، والطبرانى فى الكبير (٥/ ٨٢)، وابن الجوزى فى الوفا ص (١١٤)، وابن سعد فى الطبقات الكبرى (١/ ١/ ٧٣)، وابن كثير فى البداية والنهاية (٤/ ١٥٩).

(٣) الحديث ضعفه جماعة منهم: الحافظ الجورقانى، وابن الجوزى، والذهبى.

(٤) إنسان العيون (١/ ١٧٢).

[حضانة أم أيمن له]

(وَ) لما ماتت أمه ﷺ في رجوعها إلى مكة (حَمَلَتْهُ) أي استقلت بخدمته (حَاضِنَتُهُ) مربيته وحافظته (أُمُّ) أسامة بن زيد وأم (أَيْمَن) ابن عبيد الخزرجي المستشهد يوم حُنَيْن؛ واسمها: بَرَكَة بنت ثعلبة بن حصن، واشتهرت بكنيتها بابنها هذا، أسلمت قديمًا هي وابنها أيمن، وهاجرت الهجرتين إلى أرض الحبشة وإلى أرض المدينة، وَرِثَها النبي ﷺ من أبيه عبد الله أو من أمه، وأعتقها بعد النبوة وزوّجها مولاه حارثة فأولدها أسامة الذي قال النبي ﷺ فيه: «أسامة أحب الناس إليَّ، وهو الحِب ابن الحِب»[1] بكسر الحاء أي الحبيب ابن الحبيب؛ لأن أباه كان حبيبًا له ﷺ أيضًا.

وقيل: إن الذي أعتقها أبو المصطفى.

ولها مناقب جلية منها:

أنها حضنت المصطفى ﷺ فنشأ في حِجرها، وكان يقول لها: «أنت أمي بعد أمي»[2] أي كأمي في رعايتك لي وتعظيمي والشفقة عليّ، أو في رعايتي لك واحترامك، وقد كانت تدل عليه ﷺ، وكان يزورها في بيتها، وكان العُمَرَان يزورانها بعده، وكانت تبكي وتقول: أنا أبكي لخبر السماء كيف انقطع عنا.

ومن مناقبها الشريفة: ما رواه ابن سعد لما هاجرت إلى المدينة أمست بالمنصرف دون الروحاء[3]، وكانت منفردة في حر شديد فعطشت، فسمعت خفيقا فوق رأسها، فالتفتت فإذا دلو قد أدليت إليها من السماء، فشربت منها

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٩٦)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٩٦)، والطبراني في الكبير (١/ ١٢٢).

(٢) الوفا ص (١١١).

(٣) الروحاء: بلدة على نحو أربعين ميلاً من المدينة، وهو الموضع الذي نزل به «تُبّع» حين رجع من قتال أهل يثرب يريد مكة، فأقام بها وأراح فسماها الروحاء. (مراصد الاطلاع ٢/ ٦٣٧).

حتى رويت، وكانت تقول: ما أصابنى بعد ذلك عطش، ولقد تعرضت للصوم فى الهواجر فما عطشت بعد تلك الشربة[1].

وكانت أول أهله لحوقًا به بعد السيدة فاطمة ـ رضى الله تعالى عنها ـ ففى صحيح مسلم: أنها ماتت بعده ﷺ بخمسة أشهر. وقيل: بستة. قال «البرهان»: وبه يُرد قول الواقدى: أنها ماتت فى خلافة عثمان، لكن أيده فى «الإصابة» بما رواه ابن سعد بسند صحيح عن طارق بن شهاب: لما قُتِل عمر بكت أم أيمن، فقيل لها، فقالت: اليوم وهن الإسلام.

واعتمد ابن منده وغيره قول الواقدى، وجمع ابن السكن بين القولين بأن الاولى هى مولاة النبى ﷺ، وأن الثانية هى مولاة أم حبيبة، واسم كل منهما بَرَكة، وتكنى أم أيمن، وهو محتمل على بعد.

(**الحَبَشِيَّه**) نسبة إلى الحبشة وهم أُمَّةٌ عظيمة مشهورة، مسكنهم بالجانب الغربى من بلاد اليمن،يقال أنهم من ولد حبش بن كوش بن حام (**الَّتِى**) أعتقها و(**زَوَّجَهَا عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَعْدُ**) بالضم لقطعها عن الإضافة، ونية معنى المضاف إليه أى بعد النبوة (**مِنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ مَوْلاَهُ**) أى عتيقه فهو صفة ثانية لزيد وهو أولى مما قيل أنه بدل منه؛ لما فى بدل المشتق من الخلاف، واسم حارثة: شراحيل. وقيل: شرحبيل، كذا وقع فى عبارة بعضهم وهو غلط، والصواب أن شراحيل اسم جده؛ ففى «أسد الغابة» و «الإصابة» فى ترجمته: زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب الكلبى، وأمه سُعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر من بنى معن من طئ.

سُبى فى الجاهلية وذلك أن أمه سُعدى خرجت به تزور قومها بنى معن فأغارت عليهم خيل بنى القين ابن جسر فأخذوا زيدًا، فقدموا به سوق عكاظ بمكة، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم، فلما تزوّجها رسول الله ﷺ وهبته له، وستأتى قصة إتيان أبيه حارثة وعمه

(١) المطالب العالية (٤١٦١) والحديث مرسل.

كعب بن شراحيل إلى رسول الله ﷺ فى طلب فدائه، فخيره النبى ﷺ بين أن يقيم عنده أو يذهب معهما، فقال: ما أنا بالذى اختار عليك أحداً. فأعتقه النبى ﷺ وتبناه.

قال ابن عمر: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى أنزل الله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ (1).

قال فى «أسد الغابة»: ويكنى أبا أسامة. وهو مولى رسول الله ﷺ وأشهر مواليه، وهو حِب رسول الله ﷺ، وستأتى ترجمته مستوفاة عند قول المصنف: «وأول من آمن به من الموالى زيد بن حارثة».

وفى كلام بعضهم: وبقى النبى ﷺ بعد موت أمه بالأبواء حتى انتهى الخبر إلى مكة، وجاءت أم أيمن مولاة أبيه عبد الله لخامسة من موت أمه بالأبواء، وهو خلاف ما عليه الأكثر من أن أم أيمن كانت مصاحبة لأمه فى سفرها ذهابًا وإيابًا، وكون موت أمه فى حياة عبد المُطَّلب هو المشهور الذى لا يكاد يُعرف غيره.

* * *

(1) سورة الأحزاب: ٥.

[كفالة عبد المطلب رسول الله ﷺ ومعرفته بشأنه]

وقول المصنف رحمه الله (وَأَدْخَلَتْهُ) أى بعد خمسة أيام من موت أمه (عَلَى) جده (عَبْدِ الْمُطَّلِب) يرد ما قيل: «مات عبد المُطَّلب قبل موت أمه بسنتين» (فَـ) لما أدخلته عليه (ضَمَّهُ إِلَيْهِ) حبًا وتوددًا (وَرَقَّ لَهُ) من الرقَّة بالكسر؛ التحنن والعطف أى حن عليه وتعطف به (وَأَعْلَى رُقِيَّهُ) بضم الراء وكسر القاف وشد المثناة تحت مصدر رقى أى علوّه؛ أى زاد فى رفعة منزلته ومكانته وقدره الفخيم وشأنه العظيم (وَقَالَ:) مبينًا لتخصيصه بذلك من بين أولاده وغيرهم: (إِنَّ لابْنَى) سماه ابنًا كما سماه النبى ﷺ أبًا فى قوله:

« أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المُطَّلب »[1]

لأن ابن الابن ابن.

(هَذَا لَشَأْنًا) أى حالاً فخيمًا جليلاً (عَظِيمًا) وفى الإتيان بالمؤكدات زيادة معرفة عبد المُطَّلب بشأنه ﷺ، ويدل على ذلك ما فى «الخصائص الكبرى» كما قدمناه أنه كان يوضع لعبد المُطَّلب فراشٌ فى ظل الكعبة وكان لا يُجْلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، وكان ﷺ يأتى حتى يجلس عليه، فيذهب أعمامه يؤخرونه فيقول جدّه: دَعُوا ابنى، فيمسح على ظهره ويقول: إن لابنى هذا لشأنا[2] (فـ) ناسب حينئذ أن يقال: (بَخٍ بَخٍ) الأول ينون والثانى يسكن وبتسكينهما وبتنوينهما وبتشديدهما، وتفرد ساكنة ومكسورة ومنونة مضمومة؛ كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشىء، أو الفخر أو المدح كما فى «القاموس» وتكرر للتأكيد أى عظم الأمر وفخم (لِمَنْ وَقَّرَهُ) بفتح الواو

---

(١) أخرجه البخارى (٤/ ٣٧)، ومسلم (الجهاد: ٧٨)، وأبو داود (٤٨٧)، والترمذى (١٦٨٨)، وأحمد (١/ ٢٦٤)، والدارمى (١/ ١٦٦)، والبيهقى فى السنن (٩/ ١٥٥)، وحلية الأولياء (٧/ ١٣٢)، وكنز العمال (٣٠٢٠٦)، وشرح السنة (١٢/ ٣٧٢)، والبيهقى فى الدلائل (١/ ١٣ و ٥/ ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ١٦٨)، والوفا ص (١١٧).

والقاف مشددة؛ أى عظَّمه (وَوَالاَهُ) الموالاة ضد المعاداة؛ أى اتخذه وليًا وآمن به ونصره.

وعن أم أيمن: كنتُ أحضن النبى ﷺ فغفلت عنه يومًا فلم أدر إلا بعبد المُطَّلب قائمًا على رأسى يقول: يا بركة، قلت: لبيك. قال: أتدرين أين ابنى؟ قلت: لا أدرى. قال: وجدته مع غلمان قريبًا من السِّدْرة، لا تغفلى عن ابنى، فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبىٌّ هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم»[1].

وكان لا يأكل طعامًا إلا يقول: علىَّ بابنى - أى أحضروه -. قالت: وكان عبد المُطَّلب إذا أُتى بطعام أجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه، وربما أقعده على فخذه، فيؤثره بأطيب طعامه، وكان يقول: وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لا يبلغه عربى قبله ولا بعده، وأنه تحدثه نفسه بملك عظيم وسيكون له شأن[2].

(وَلَمْ تَشْكُ) بسكون الشين المعجمة من الشكاية؛ أى لم تذكر لأحد من المخلوقين (فِى) حال (صِبَاهُ) صغر سنه الذى هو مظنة عدم احتمال المشاق فنفيه فى حال كبره أولى (جُوْعًا وَلاَ عَطَشًا قَطُّ) لكمال مشاهدته لجلال ربه تعالى؛ إذ هو ﷺ أولى الخلق بالتنزيه عما فيه أدنى قبح وذم فكيف لا ينزه عما فيه غايتهما. وقوله: «لم تشك إلى آخره» لا يقتضى أنه كان لا يجوع؛ لأن المنفى إنما هو الشكوى منه لا هو، وقد ورد ما يدل على أنه كان يجوع كما فى رواية الترمذى أنه ﷺ قال: «عرض علىَّ ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبًا، فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يومًا، وأجوع يومًا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»[3]. . انتهى.

ولفظ قَطُّ بفتح القاف وضم الطاء المشددة وهذا أشهر لغاته، وقد تخفف

---

(١) الوفا ص (١٧١).

(٢) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٢١)، والوفا ص (١١٧).

(٣) أخرجه الترمذى (٢٣٤٧)، وأحمد فى مسنده (٥/٢٥٤)، والطبرانى فى الكبير (٨/٢٤٥)، ومشكاة المصابيح (٥١٩٠)، وحلية الأولياء (٨/١٣٣)، وطبقات ابن سعد (١/٢)، وأمالى الشجرى (٢/٢٠٨).

الطاء المضمومة، وقد تضم القاف اتباعًا لضمة الطاء المشددة أو المخففة، وجاء قطْ ساكنة الطاء مثل قط الذى هو اسم فعل، فهذه خمس لغات، وهى من الظروف المبنية المستغرقة لتأكيد نفى الماضى لا تفارق الظرفية أصلاً. تقول: ما فعلته قط. وعلة بنائها: تضمنها معنى ابتداء الغاية وانتهائها، وهى مشتقة من قططت الشىء إذا قطعته. فمعنى ما فعلته قط: ما فعلته فيما انقطع عن عمرى؛ لأن الماضى ينقطع عن الحال والاستقبال.

(نَفْسهُ) فاعل تشك **(الأَبِيَّهْ)** بفتح الهمزة وكسر الموحدة وشد التحتية أى المنسوبة للإباء وهو الامتناع مما يستحيا منه؛ أى الممتنعة من كل ما يشين؛ لأنه ﷺ كان على أكمل الأوصاف **(وكَثِيرًا مَا غَدَا)** بالدال: توجه وذهب أول النهار أى إتيانًا كثيرًا وقع منه ﷺ، وما مزيدة مبالغة للتكثير **(فَاغْتَذَى)** بالذال المعجمة بالشرب من **(مَاءِ)** بئر **(زَمْزَمَ)** بنية الشبع والاستغناء به عن أكل الطعام؛ لأنه لما شُرِبَ له كما ورد فى الحديث[1] **(فَكَفَاهُ)** أغناه عن الطعام والشراب. ووقع فى بعض النسخ: «فأشبعه وأرواه» بدل قوله: «فكفاه» وهو بمعناه.

وماء زمزم أفضل مياه الدنيا الموجودة كما أن الكوثر أفضل مياه الآخرة، بل أفضل من ماء الكوثر كما قال به البلقينى أخذًا من إيثار المَلَك له على ماء الكوثر ليلة الإسراء عند غسل قلبه الشريف، صرح به العلامة ابن حجر فى «المنح» كما تقدم. وأفضل منهما الماء النابع من بين أصابعه الشريفة.

وقد صح عنه ﷺ فى ماء زمزم: أنه يروى الظمآن، ويشبع الجيعان، وتقدم أنه يقوى القلب ويسكن الروع. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال رسول الله ﷺ: «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام طُعْم،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٠٦٢)، والطبرانى فى الأوسط (٨٥٣)، وأحمد فى مسنده (٣/ ٢٠٢، ٢٢١)، والحاكم فى المستدرك (١٧٣٩)، والديلمى فى الفردوس (٣١٧١)، والأزرقى (٢/ ٥٢)، والبيهقى فى الشعب (٤١٢٧). انظر الكلام عليه فى: المقاصد الحسنة (٣٥٧)، كشف الخفاء (٢/ ٢٢٩)، التمييز (١١٥٢)، الغماز (٢٣٠)، الشذرة (٧٩٦). وأفرده الحافظ ابن حجر بالتأليف فى جزء لطيف، وهو مطبوع.

وشفاء سُقْم»[1].

وفي الحديث: «اشربوا من شراب الأبرار»[2] يعني زمزم.

ولذلك استحب التضلع منها، وأن يذكر عند شربه ما يحب بأن يقول: اللهم إنه بلغني أن رسولك ﷺ قال: «ماء زمزم لما شرب له»، اللهم وإني أشربه لتغفر لي، ولتفعل بي كذا وكذا، أو: اللهم إني أشربه مستشفيًا به فاشفني. ونحو هذا.

قال في «الأذكار»: وهذا مما عمل به العلماء والأخيار، فشربوه لمطالب لهم جليلة فنالوها.. انتهى.

وقد اقتصر أبو ذر الغفاري - رضي الله عنه - على الشرب منه نحو أربعين يومًا حتى سمن وطاب وانتعش جسمه وظهرت عكن بطنه[3].

وأصل ما ذكره المصنف - رحمه الله تعالى - ما روى عن أم أيمن قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ شكا جوعًا قط ولا عطشًا، وكان يغدو - أي يذهب - إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة،فربما عرضنا عليه الغداء فيقول:«أنا شبعان»[4].

وزَمْزَم هي البئر المعروفة بمكة بفتح أوله وإسكان ثانيه وفتح الزاي الثانية، وبضم أوله وفتح ثانيه بلا تشديد وكسر الزاي الثانية. قيل: سميت بذلك لكثرة مائها، يقال: ماء زمازم وزمزم أي كثير، وقيل: هو اسم علم لها، وقيل: لتزمزم الماء فيها؛ أي حركته. والزمزمة: صوت بعيد يسمع له دوي. وقيل: صوت خفي، ومنه حديث عمر كتب إلى عماله في أمر المجوسي ونهاهم عن الزمزمة، هي كلام يقولونه عند أكلهم بصوت خفي من غير استعمال لسان

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٩٨)، ومجمع الزوائد (٣/ ٢٨٦)، والدر المنثور (٧/ ٢٢١)، والترغيب والترهيب (٢/ ٢٠٩)، وكنز العمال (٣٤٧٧٩).

(٢) أخرجه الفاكهي موقوفًا على كعب (١٠٨٦)، والأزرقي (٢/ ٥٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٤٧٣)، والدلائل لأبي نعيم (١٩٧)، وصحيح ابن حبان (٧١٣٣)، ومسند أحمد (٥/ ١٧٤)، وطبقات ابن سعد (٤/ ٢١٩).

(٤) دلائل النبوة لأبي نعيم ص (١٢٤)، الاكتفا (١/ ١٩٠)، السيرة الشامية (٢/ ١٨٤).

ولا شفة، بل صوت يديرونه فى خياشيمهم وحلوقهم يشبه تراطن العلوج على أكلهم، وهم سموط، فيفهم بعضهم عن بعض. وقيل: لاجتماعها، وقيل: لاشتقاقها، وقيل: لأنها زمّت بالتراب لئلا تأخذ يمينًا وشمالاً.

وفى الحديث: إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما احتمل إسماعيل وأمه هاجر فأنزلهما بالحِجْر، ووضع عندهما سقاء فيه ماء، وجرابًا فيه تمر، فجعلت أم إسماعيل ـ عليه السلام ـ ترضعه وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد عطشت فانقطع لبنها، وعطش إسماعيل ـ عليه السلام ـ وجعلت تنظر إليه يتلوى، وجعل يضرب بعقبه كأنه يَنْشَغ للموت ـ بفتح الياء المثناة تحت والنون الساكنة والشين المعجمة المفتوحة والغين المعجمة ـ أى ينازع، فانطلقت كراهة أن تنظر إليه، وقالت: يموت وأنا غائبة عنه أهون على، وعسى الله أن يجعل فى ممشاى خيراً، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض إليها، فقامت عليها والوادى يومئذ عميق، وجعلت تستغيث ربها وتدعوه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدًا، فهبطت من الصفا حتى جاوزت الوادى إلى المروة، فقامت عليها فنظرت فلم تر أحدًا، فعلت ذلك سبع مرات وهى فى كل مرة تتفقد إسماعيل وتنظر ما حدث له بعدها، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صهْ [1] تريد نفسها، ثم تسمَّعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت، إن كان عندك غَوَاث ـ بفتح الغين المعجمة والواو المخففة آخره ثاء مثلثة ـ أى مغيث، فإذا هى بجبريل ـ عليه السلام ـ فناداها: من أنت؟ قالت: هاجر أم ولد إبراهيم. قال: فإلى من وكلكما؟ قالت: إلى الله تعالى. قال: وكلكما إلى كافٍ، فخرج الصوت بين يديها وهى تؤمه حتى انتهى بها عند رأس إسماعيل، ثم تبدّى لها جبريل فانطلق بها حتى وقف على موضع زمزم، فبحث بِعَقِبه ـ أو قال: بجناحه، وفى لفظ: وغمز بِعَقِبه ـ فى الأرض فنبعت زمزم حتى ظهر الماء فوق الأرض، فذهبت أم إسماعيل فجعلت تحظر الماء

(١) صه: كأنها خاطبت نفسها فقالت لها: اسكتى.

بالتراب ـ وفي رواية: تحوِّضه بالضاد المعجمة وتشديد الواو أي تجعله كالحوض ـ خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بِشَنِّها، وجعلت تغرف الماء في سقائها وهي تفور بعدما تغرف. وقال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ كانت زمزم عينا مَعينا» بفتح الميم؛ أي ظاهرًا جاريًا على وجه الأرض. فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافي الضيعة ـ أي الهلاك ـ فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه[1]. الحديث.

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ: كان ظهور زمزم نعمة من الله محضة بغير عمل، فلما خالطها تحويض هاجر: داخلها كسبُ البشر فقصرت على ذلك.. والله أعلم.

فائدة

ذكر بعضهم لزمزم جملة أسماء[2] منها: البركة، والنافعة، والميمونة، والكافية، والعافية، والشبَّاعة، والمغذية، والمروِّية، والمعونة، وشراب الأبرار، والبشرى، والصافية، وهمزة جبريل، وسقيا إسماعيل، والسيدة، وغير ذلك.

وقد اتفقت الأئمة الأربعة على جواز نقله، بل استحبه الشافعي ومالك ـ رضي الله عنهما.

وفضيلته باقية فيه، وما يقال من أن فضيلته ما دام بمحله فإذا نقل تغير لا أصل له؛ فقد حمله رسول الله ﷺ والحسن والحسين، وكتب النبي ﷺ إلى سهيل بن عمرو: «إن جاءك كتابي ليلاً فلا تصبحن أو نهارًا فلا تمسين حتى تبعث إليَّ بماء زمزم»[3]. وفيه: أنه بعث له بمُزَادتين وكان حينئذ بالمدينة قبل أن تفتح مكة.

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٤٧)، سنن البيهقي (٥/ ٩٩)، مصنف عبد الرزاق (٩١٠٧)، الدر المنثور (١/ ١٢٥)، تفسير القرطبي (٦/ ٣٦٩)، طبقات ابن سعد (١/ ٨٣)، سيرة ابن هشام (١/ ١٤٥)، دلائل النبوة للبيهقي (١/ ٩٣)، مثير الغرام الساكن ص (٣٢٠).

(٢) انظر في أسماء زمزم: سبل الهدى والرشاد (١/ ٢٤١)، الروض الأنف (١/ ٧٩).

(٣) سبل الهدى والرشاد (١/ ٢١٢).

[وفاة جده عبد المطلب وحضانة عمه أبو طالب]

(وَلَمَّا أُنِيخَتْ) بالبناء للمجهول؛ أى بركت (بِفِنَاءِ) بكسر الفاء؛ رحبة الدار (جَدِّهِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ مَطَايَا) جمع مطية؛ وهى الدابة تمط أى تجدّ فى سيرها (الْمَنِيَّةِ) بفتح الميم وشد التحتية؛ الموت: شبه المنية بجهة يحتاج فى التوجه إليها إلى المطايا فهى تخييل، وأنيخت ترشيح، كَنى بذلك عن حضور أجله بظهور علامات الموت (كَفَلَهُ) بفتحات مخففًا؛ أى حضنه (عَمُّهُ أَبُو طَالِب) واسمه عبد مناف عند الجميع، وشذ من قال عمران، بل هو قول باطل نقله ابن تيمية فى كتاب «الرد على الروافض» فقال: زعم الروافض فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾ [1] أن آل عمران هم آل عبد المُطَّلب وأن اسمه عمران.

واشتهر بكنيته بأكبر أولاده الأربعة الذين بين كل واحد منهم وأخيه الذى يليه فى الولادة عشر سنين، والثلاثة الباقون: عقيل، فجعفر، فعلى - رضى الله عنهم - وأما طالب ففقد ببدر، قيل: اختطفته الجن فذهب ولم يعلم إسلامه.

وفى «المواهب»: وكان عبد المُطَّلب أوصاه بذلك أى بكفالته، فعلى هذا يجوز أن يضبط قول المصنف كَفَّله بتشديد الفاء مضعفًا من كفل اللازم، كما ضبطه بعضهم، وعليه فيقرأ ما بعده بالنصب أى جعل أبا طالب كفيلاً عليه ﷺ ووصَّاه بذلك لصغر سنه واحتياجه إلى من يقوم بتربيته والاعتناء بشأنه.

وإنما خصَّ عبد المُطَّلب أبا طالب من بين سائر أعمامه ﷺ؛ لأنه (شَقِيقُ أَبِيهِ عَبْدِ الله) أى أخوه من أبيه وأمه، والقصر إضافى فلا يرد أن الزبير شقيقه أيضًا، وقيل: وشاركه فى كفالته. وخَصَّ أبو طالب بالذكر لامتداد حياته،

(١) سورة آل عمران: ٣٣.

فإن الزبير لم يدرك الإسلام، وقيل: أقرع عبد المُطَّلب بينهما فخرجت القرعة لأبى طالب.

ومات عبد المُطَّلب ودفن بالحَجُون عند جده قُصَىّ عن مائة سنة وعشر أو وعشرين؛ لكن قال الواقدى: لم يثبت ذلك القول. أفاده فى «شرح المواهب»، أو وأربعين، أو وأربع وأربعين سنة، أو عن اثنين وثمانين سنة، أو عن خمس وتسعين سنة. أقوال فى ذلك.

وكان عمره ﷺ إذ ذاك سبع سنين وطعن فى الثامنة، وقيل: ثمان وشهر وعشرة أيام، وقيل: تسع، وقيل: عشر، وقيل: ست، وقيل: ثلاث وفيه نظر؛ لأن أقل ما قيل أنه كان فى موت أمه ابن أربع سنين، واتفقوا على أن جده كفله بعدها فكيف يتأتى أن يكون ابن ثلاث.

* * *

[ما ظهر من الآيات وهو فى كفالة عمه أبى طالب]

(فَقَامَ) أبو طالب (بِكَفَالَتِه) ﷺ (بِعَزْمٍ قَوِىٍّ) والعزم التصميم على فعل الشىء (وَهِمَّةٍ) وهى بكسر الهاء؛ حالة للنفس تبعث على إمضاء الشىء وإنفاذه، ومنه المُهِم بضم الميم؛ وهو الذى يحرك الهمة، والهُمَام هو الذى إذا هم بشىء أمضاه.

و (حَمِيَّةٍ) بفتح الحاء المهملة وكسر الميم؛ أى حماية بالغة عظيمة (وَقَدَّمَهُ) آثره (عَلَى النَّفْسِ) أى على نفسه (وَ) على (البَنِينَ) المنسوبين إليه (وَرَبَّاهُ) تربية بالغة، ودافع عنه، وكان يحبه حبًّا شديدًا، ويوده ودًّا أكيدًا، ويعظم شأنه وقدره، ويعده ذخره وفخره، ويستدفع به بلياته وأذياته، ويتوسل به فى قضاء مهمات حاجاته ويؤثره على أولاده.

ذكر الواقدى: أن عيال أبى طالب كانوا إذا أكلوا جميعًا أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل المصطفى معهم شبعوا؛ فكان أبو طالب إذا أراد أن يغدِّيهم أو يُعشِّيهم يقول: كما أنتم حتى يأتى ابنى، فيأتى فيأكل معهم فيفضل من طعامهم، وإن كان لبنًا شرب أولهم ثم يشربون فيروون كلهم من قَعْب[1] واحد، وإن كان أحدهم ليشرب قعبًا وحده، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك[2].

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: كان بنو أبى طالب يصبحون عمشًا رُمْصًا[3]، ويصبح محمد ﷺ صقيلاً دَهِينًا كحيلاً، وكان أبو طالب يحبه حبًا شديدًا لا يحب أولاده كذلك، ولا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج به متى خرج.

---

(١) القعب: قدح من خشب.

(٢) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٢٣)، الوفا ص (١٢٧)، الاكتفا (١/ ١٩٠)، السيرة الشامية (٢/ ١٨٣).

(٣) الرَّمَص: وسخ يجتمع فى الموق، فإن سال فهو غَمَص، وإن جمد فهو رَمَص.

وذكر ابن قتيبة فى «غريب الحديث»: أنه كان يوضع له الطعام ولصبية أبى طالب، فيتطاولون إليه ويتقاصر هو، وتمتد أيديهم وتنقبض يده تكرمًا منه واستحياء، ونزاهة نفس وقناعة قلب، ويصبحون عمشًا رُمْصًا مصفرة ألوانهم، ويصبح هو ﷺ صقيلاً دهينًا؛ لأنه فى أنعم عيش وأعز كفالة، لطفًا من الله به.

* * *

[استسقاء أبى طالب برسول الله ﷺ]

وأخرج ابن عساكر عن جُلْهمة بن عُرْفُطَة، قال: قدمتُ مكة وقريش فى قحط، فقائل منهم يقول: اعمدوا للَّلات والعُزَّى، وقائل منهم: اعمدوا مَنَاة الثالثة الأخرى، فقال شيخ وسيم حسن الوجه جيد الرأى: أنى تؤفكون وفيكم بقية إبراهيم، وسُلالة إسماعيل. قالوا: كأنك عنيتَ أبا طالب؟ قال: إيهًا. فقاموا بأجمعهم. وقمت فدققنا عليه الباب فخرج إلينا. فقالوا: يا أبا طالب! أقحط الوادى وأجْدَب العيال، فهلم فاستَسْقِ لنا، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجى تجلَّت عنه سحابةٌ قَتْماء - أى مغبرة - وحوله أُغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام بأضبعه[1] وما فى السماء قَزَعَة[2]، فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق واغدودق[3]، وانفجر له الوادى وأخصب النادى والبادى. وفى هذا يقول أبو طالب:

وأبيضُ يُستْسقى الغمامُ بوجهه ثِمَالُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ[4]

والثِمَال بكسر المثلثة وتخفيف الميم؛ الملجأ والغياث، وقيل: المطعم فى

(١) لضبع: العضد كلها أو وسطها، أو الإبط، أو ما بين الإبط إلى نصف العضد.

(٢) القزعة: السحابة.

(٣) أغدق واغدودق: أى كثر.

(٤) لخصائص الكبرى (١/١٤٦)، والسيرة الشامية (٢/١٨٥) عن ابن عساكر.

الشدة، ويصح إرادتهما معًا هنا، وقوله: «عصمة للأرامل» يمنعهم من الضياع والحاجة، والأرامل: المساكين من رجال أو نساء، وهو بالنساء أخص وأكثر استعمالاً، والواحد أرمل، والواحدة أرملة، وهذا البيت من أبيات فى قصيدة لأبى طالب أكثر من ثمانين بيتًا، استوفاها ابن إسحاق، لكنه ذكر أن إنشاءه لها كان بعد المبعث. وقد يجمع بأنه ذكر هذا البيت إثر هذه الواقعة، ثم كمَّلها بعد المبعث.

ونسبته لجده عبد المُطَّلب غَلَطٌ؛ فقد أخرج البيهقى، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الجدب، فقام ﷺ يجر رداءه، حتى صعد المنبر، فرفع يديه إلى السماء ودعا، فما رد يديه حتى التفت السماء بأبراقها، وجاءوا يضجون الغرق، فضحك ﷺ حى بدت نواجذه، ثم قال: «لله دَرُّ أبى طالب، لو كان حيًا لقَرَّت عيناه، من ينشدنا قوله؟». فقال علىٌّ ـ كرم الله وجهه ـ يا رسول الله كأنك تريد قوله: وأبيض يستسقى.. وذكر أبياتًا. فقال ﷺ: «أجل»(١).

فهذا نص صريح من الصادق بأن منشئ البيت أبو طالب، نبه عليه [ابن حجر] فى «شرح الهمزية»، فنسبته لعبد المُطَّلب غلط صريح.

تنبيه

جميع ما ذكر فى أبى طالب من أنه يحب النبى ﷺ، ويمدحه، وأنه ربَّاه صغيرًا، وآواه كبيرًا، وأنه كان يحوطه وينصره، ويعزره ويوقره، ويعينه على تبليغ دينه، ويصدقه فيما يقول، ويذب عنه، ويأمر أولاده: كجعفر، وعلىّ باتباعه ونصره، وينطق بحقية دينه ـ كما تواترت به الأخبار ـ دليل على أنه كان يعرف بنبوة النبى ﷺ.

وقد دلت أحاديث شفاعته ﷺ على أنه يشفع فيمن فى قلبه أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان، وأن الشفاعة لا تنال مشركًا، وقد نالت أبا طالب

(١) البداية والنهاية (٦/ ١٠٤)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ١٥)، طبقات ابن سعد (١/ ٩٠).

بنص الحديث الصحيح.

ونعلم قطعًا أنه كان يُصَدِّق بنبوّة النبى وصدقه وحَقِّية دينه، وكفى بالظاهر دليلاً؛ فلا بد من القول بنجاته، وهو الظن بسعة رحمة الله وكرمه، وإن كان مجرد المعرفة بالنبوَّة لا يستلزم الإسلام.. وبالله التوفيق.

* * *

[سفر النبى ﷺ مع عمه أبى طالب إلى الشام وما ظهر فيه من الآيات]

(وَلَمَّا بَلَغَ) رسول الله ﷺ (اثْنَتَىْ عَشْرَةَ سَنَةً) قاله الأكثر. وقيل: تسع سنين، قاله الطبرى وغيره، ورجحه* الشهاب فى «النسيم». وقيل: إحدى عشرة سنة. وقيل: ثلاث عشرة سنة، حكاه أبو عمر. قال ابن الجوزى: قال أهل السير والتواريخ: لما أتت عليه ﷺ اثنتا عشرة سنة وشهران وعشرة أيام. وفى سيرة مُغْلَطَاى: وشهر. ويمكن حمل القول الأول عليه بأن المراد: ما قاربها (رَحَلَ بِهِ) أى بالنبى ﷺ عمه أبو طالب؛ وسبب ذلك: أن أبا طالب لما تهيأ للرحيل إلى الشام أمسك [النبى ﷺ] بزمام ناقته وقال: «يا عم إلى من تكلنى ولا أب لى ولا أم» فرَقَّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدًا، فخرج به معه ولم يزل سائرًا مع أبى طالب (إِلَى البِلاَدِ الشَّامِيَّةِ) حتى بلغ بُصْرى (وَعَرَفَهُ الرَّاهِبُ) أى الزاهد فى المآكل والمشرب لشدة رهبته أى خوفه (بَحِيْرًا) بفتح الموحدة وكسر الحاء المهملة مقصورا، وقيل: ممدودًا، وقيل: بضم الباء وفتح الحاء، وكان إليه انتهى علم النصرانية واسمه: جرجيس، وفى بعض النسخ: سرجس، وفى بعضها: جرجس، حين رآه (بِمَا حَازَهُ) جمعه (مِنْ وَصْفِ النُّبُوَّةِ) التى فى الكتب المنزلة على أنبيائهم (وَحَوَاهُ) بمعنى حازه، فعطفه على ما قبله عطف تفسير،

وكانت قريش - كما فى رواية ابن إسحاق - كثيراً ما يمرون على بَحِيْرَا فلا يكلمهم ولا يلتفت إلى أحد منهم حتى إذا كان ذلك العام قال: يا معشر قريش إنى صنعت لكم طعامًا فاحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وحركم وعبدكم. فقال رجل منهم: والله يا بَحِيْرَا إن لك اليوم لشأنا، ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟ قال له بَحِيْرَا: صدقت. ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم. فذهبوا واجتمعوا إليه وتركوه ﷺ عند رحالهم لحداثة سنه، فلما نظر بَحِيْرَا فى القوم لم يره ﷺ فقال لهم: هل بقى أحد؟! قالوا: لا، إلا ولد صغير. قال: لا تفعلوا، ادعوه، فليحضر هذا الغلام معكم، فقام الحارث بن عبد المُطَّلب فأتى به.

وفى رواية: فسألوه عن سبب ذلك فقال: إنى رأيت غمامة تظله، ولما نزل تحت الشجرة مالت لجانبه، فإن مثله لا يكون إلا لنبى، وإنا نجد نعته فى كتابنا.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

فلما رآه بَحِيْرَا جعل يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم قام إليه بَحِيْرَا فقال: أسألك باللات والعُزَّى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه -.

قال فى «إنسان العيون»: وإنما قال له بَحِيْرَا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما وليس بشىء بل لأنه كان منعوتًا عندهم بأنه لا يحلف بهما، ويؤيده ما يأتى من قول اليهودى لمَيْسَرة فى سوق بُصْرى: والذى نفسى بيده إنه هو الذى تجده أحبارنا منعوتًا - أى بهذه الصفة - فى كتبهم.

وفى «الشفاء» - فقال له رسول الله ﷺ: «لا تسألنى باللات والعُزَّى شيئًا، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما» فقال بَحِيْرَا: فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه. فقال رسول الله ﷺ: «سلنى عما بدا لك». فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره، ويخبره رسول الله ﷺ، فوافق ذلك

ما عند بَحِيْرَا من صفته ـ أى صفة النبى المبعوث آخر الزمان ـ التى عنده، ثم كشف عن ظهره فرأى خَاتَم النبوة على الصفة التى عنده، فقبَّل موضع الخَاتَم. فقالت قريش: إن لمحمد عند الراهب لقدراً. فلما فرغ أخذ بيده ﷺ (وقال) مخاطبًا أبا طالب ومن معه: (إِنِّى أَرَاهُ) أتيقنه (سَيِّدَ العَالَمِينَ) أى أشرف المخلوقين، تقدم الكلام عليه عند قوله: إنك حملت بسيد العالمين فراجعه إن شئت.

* * *

[معنى النبى والرسول والنبوة والرسالة]

(وَرَسُولُ اللهِ وَنَبِيُّهُ) والرسول من البشر ذَكَرٌ حُرٌّ، أكمل معاصريه ـ غير الأنبياء ـ عقلا وفطنة وقوة رأى وخَلْقًا بالفتح، وعقدة موسى أزيلت بدعوته عند الإرسال ـ كما فى الآية ـ معصوم ولو من صغيرة سهواً ولو قبل النبوة ـ على الأصح ـ، سليم من دناءة أب وخنا أم وإن عليا، ومن منفر: كعمى، وبرص، وجذام، ولا يرد بلاء أيوب، وعمى يعقوب بناء على أنه حقيقى لطروئه بعد الأنباء، والكلام فيما قارنه، والفرق أن هذا منفر بخلافه فيمن استقرت نبوته، ومن قلة مروءة: كأكل بطريق، ومن دناءة صنعة: كحِجَامة، أُوحى إليه بشرع وأُمر بتبليغه.

وإن لم يكن له كتاب ولا نسخ كيوشع فإنه بعث مؤكداً لشريعة موسى ـ عليه السلام ـ فإن لم يؤمر فنبى، فهو أخص من مطلق النبى لزيادته عليه بالأمر بالتبليغ.

قال فى «التحفة»: وهو أفضل من النبى إجماعًا لتميزه بالرسالة التى هى ـ على الأصح خلافًا لابن عبد السلام ـ أفضل من النبوة فيه، وزعم تعلقها بالحق يرده أن الرسالة فيها ذلك مع التعلق بالخلق فهو زيادة كمال فيها.

وبين النبوة والرسالة من النسب العموم والخصوص الوجهى يجتمعان فيمن كان رسولاً نبيًا، وتنفرد النبوة فيمن كان نبيًا فقط كالخضر - على أحد الأقوال فيه - وتنفرد الرسالة فيمن كان رسولاً لا نبيًا كجبريل، وهذا إن لم ينظر إلى النبوة والرسالة المتعلقتين بالآدميين وإلا فبينهما من النسب عموم وخصوص مطلق، إذ كل رسول نبى ولا عكس.

وما ذكرناه فى تعريف الرسول يجرى أيضًا فى تعريف النبى غير أنه لم يؤمر بالتبليغ، فيخرج بالبشر: بقية الحيوانات. وكفر من قال: فى كل أمة نذير بمعنى: أنه فى كل جماعة من الحيوانات رسول، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (١) فهو فى أمم البشر الماضية.

ويخرج بالذكر: الأنثى، والقول بنبّوة مريم، وآسية، وحواء، وأم موسى، وهاجر، وسارة؛ مرجوح، وتقدم أن بعضهم نقل الإجماع على عدم نبوة النساء وأنه الصحيح.

ويخرج بالحر: الرقيق، ولا يرد لقمان؛ لأنه لم يكن نبيًا بل كان تلميذ الأنبياء.

ثم النبى والرسول إذا أطلقا فى القرآن والسنة فإنما المراد بهما نبينا محمد ﷺ، وهو الرسول المطلق لكافة الخلق من الأولين والآخرين؛ فرسالته عامة، ودعوته تامة، ورحمته شاملة، وإمداداته فى الخلق عاملة، وكل من تقدم من الأنبياء والرسل قبله فعلى حسب النيابة عنه؛ فهو الرسول على الإطلاق، وهو المخبر فى الخلق، فاتجه وجه اختصاصه ﷺ بهما.

هذا ولم يقع فى كلام بَحِيْرا التصريح بلفظ النبى، وإنما الذى وقع فى كلامه كما فى رواية: هذا سيد العالمين، ورسول الله إلى الناس أجمعين.

وفى رواية الترمذى: هذا سيد المرسلين، هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله

---

(١) سورة فاطر: ٢٤.

رحمة للعالمين[1].

وإنما تضمنه لفظ الرسول؛ لأن الرسالة المتعلقة بالآدميين تستلزم النبوة، فحكى المؤلف عنه ما تضمنه كلامه رعاية للسجع.

ثم إنهم سألوه عن سبب ذلك فقال: (قَدْ) رأيت حين أشرفتم على العقبة (سَجَدَ لَهُ الشَّجَرُ والحَجَرُ) ولما نزل تحت الشجرة مال إليه فيؤها. ولفظ رواية الترمذى الآتية: لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجداً. وفى رواية: لم يبق شجرة ولا حجر. وعلى كل فالرواية بالمعنى جائزة.

(ولاَ يَسْجُدَانِ) إذا مر بهما، أو نزل عندهما (إِلاَّ لِنَبِيٍّ) من الأنبياء تعظيمًا له.

(أَوَّاه) بفتح الهمزة فواو مشددة فألف بعدها هاء؛ كثير التأوّه أى التوبة والاستغفار، كذا فى كلام بعضهم، وفى كلام غيره: التوجع والتأسف من الذنوب على الناس. وفى «القاموس»: الأوّاه: الموقن والرحيم الرقيق، أو المؤمن. وقيل: هو الكثير البكاء، وقيل: الكثير الدعاء، والكل لائق بمقامه ﷺ.

وبالجملة فقد كان ﷺ أشد الناس خشية وخوفًا من الله، ومن ثم كان ﷺ يقول: «أنا أتقاكم لله وأخوفكم منه»[2]. وكان ﷺ يقول: «أوّاه من عذاب الله قبل أن لا ينفع أوّاه»[3].

وعن أبى موسى الاشعرى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال: «أول من صنعت له النورة ودخل الحمام: سليمان بن داود ـ عليهما الصلاة والسلام

---

(1) أخرجه الترمذى (٣٦٢٠) وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٢٤) وقال: إن القصة مشهورة عند أهل المغازى. والحاكم فى المستدرك (٢/ ٦١٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الذهبى: اظنه موضوعاً، وبعضه باطل. والخبر أورده أبو نعيم فى الدلائل ص (١٢٥)، وابن هشام فى السيرة (١/ ٢٠٣)، وابن الجوزى فى الوفا ص (١٢٨).

(2) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٣٤).

(3) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

ـ فلما دخله وجد حَرَّه وغَمّه قال: أوّاه من عذاب الله أوَّاه أوَّاه قبل أن لا يكون أوَّاه»[1].

فائدة

لم يثبت أنه ﷺ دخل الحمام، بل ولا رآه كما قاله ابن القيم، قال: وما وقع لبعضهم مما يوهم خلاف ذلك وَهْمٌ. انتهى.

وأما الحمام الموجود الآن بمكة المشرفة المشهور بحمام النبى ﷺ فقد قال فى «سفر السعادة»: لعله بنى فى موضع اغتسل فيه ﷺ مرة. قلت: والحمام المذكور بيدنا الآن لكونه موقوفًا على والد المؤلف وذريته رحمهما الله تعالى.

قال المُناوى فى «الشرح الكبير على الجامع الصغير» ما حاصله: وقد اختلف السلف والخلف فى حكم دخول الحمام على أقوال كثيرة، والأصح: أنه مباح للرجال بشرط الستر والغض عمن يحرم نظره إليه وجوبًا، وعن غيره ندبًا، مكروه فى حق النساء إلا لحاجة، وهو مذهب الشافعى رضى الله عنه. انتهى.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

فدخوله مع الستر جائز، لكن الأولى تركه إلا لعذر؛ للحديث الصحيح: «اتقوا بيتا يقال له الحمام فمن دخله فليستتر»[2].

هذا وكان بَحِيرًا قد عرف ذلك من الأحجار والأشجار بالتجربة مع علمه ذلك من الكتب كما قال: (وإنَّا نَجِدُ نَعْتَهُ) وصفه بما ذكر من سجود الأشجار والأحجار، وأنهما لا يسجدان لغير نبى من المخلوقات مبينًا (فِى الكُتُبِ القَدِيمَةِ السَّمَاوِيَّهْ) وفى رواية: وإنا لنجده فى كتابنا، بالإفراد، والنسبة إليهم مع زيادة لام التأكيد فى خبر إن (و) نجد فيها من صفته أيضًا: أنه يكون (بَيْنَ

---

(1) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (٨٨١٣) لابن أبى شيبة وابن السُّنى فى عمل اليوم والليلة وابن عدى فى الكامل وابن عساكر فى تاريخه. وضعفه فى الجامع الصغير (٢٨٣٩) وكذلك المناوى. وانظر: كشف الخفا (١/ ٣١٣)، ومجمع الزوائد (٨/ ٢٠٧).

(2) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٢٨٨) وصححه وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبى. والطبرانى فى الكبير (١١/ ٢٧)، وعزاه السيوطى فى الجامع الكبير (٤٥٤) للبيهقى فى الشعب والحكيم الترمذى.

كَتِفَيْه خَاتَمُ النُّبُوة) مر تفسيره (قَدْ عَمَّهُ النُّورُ وَعَلَاهُ) البهاء (وَأَمَرَ) بَحِيْرَا الراهب (عَمَّهُ) أبا طالب (بِرَدِّه) ﷺ (إِلَى مكة) بعد أن قال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابنى. قال: ما هو ابنك، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا. قال: فإنه ابن أخى. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به. قال: قد صدقت، ثم قال: ما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريبًا. قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلاده.

وإنما أمره بذلك (تَخَوُّفًا) أى لأجل الخوف (عَلَيْه مِنْ) أعدائه (أَهْلِ دِينِ) الملة (اليَهُودِيَّه) ففى الرواية: واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه عرفوا منه ما عرفت لتبغينه شرًا؛ فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده فى كتبنا، ورويناه عن آبائنا، واعلم أنى قد أديت لك النصيحة. فأسرع به إلى بلاده.

وأخرج ابن سعد، وابن عساكر، عن أبى مجلز: أن أبا طالب سافر إلى الشام فأخذ معه النبى ﷺ فنزل منزلاً، فأتاه فيه راهب فقال: إن فيكم رجلاً صالحًا، وقال: أين ولىّ هذا الغلام؟ قال أبو طالب: ها أنا ذا. قال: احتفظ بهذا الغلام، ولا تذهب به إلى الشام، إن اليهود حُسُدٌ، وإنى أخشاهم عليه.

ولفظ رواية الترمذى والبيهقى فى «الدلائل» والخرائطى وابن أبى شيبة، عن أبى موسى [الأشعرى]، قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبى ﷺ فى أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب - يعنى بَحِيْرَا - هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم وكان قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت إليهم، فجعل وهم يحلون رحالهم يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبى ﷺ ثم قال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال الأشياخ من قريش: ما أعلمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم على العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خرَّ ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبى، وإنى لأعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع وصنع لهم طعامًا، فلما أتاهم به كان النبى ﷺ فى رعية الإبل - وتقدم فى

رواية ابن إسحاق: أنه أحضرهم للطعام وأن المصطفى تخلف لحداثته - ويُجْمَع على بُعْدٍ أنه صنع لهم الطعام مرتين - فقال: أرسلوا إليه، فأقبل ﷺ وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوا إلى فيئ الشجرة، فلما جلس مال فيئ الشجرة عليه، فقال الراهب: انظروا إلى فيئ الشجرة مال، فبينما هو قائم عليهم وهو يعاهدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم - أى داخل الشام - فإنهم إن عرفوه قتلوه، فالتفت فإذا سبعة من الروم قد أقبلوا، فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا إلى هذا النبى الذى هو خارج فى هذا الشهر - أى مسافر فيه - فلم يبق طريق إلا وبعث إليه بأناس، وإنا قد أخبرنا خبره بطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. فبايعوه - أى بايعوا بَحيرًا - على مسالمة النبى ﷺ وعدم أخذه. وقال بَحيرًا لقريش: أيكم وليّه؟ قالوا: أبو طالب (فَـ) لم يزل يناشده حتى (رَجَعَ) أبو طالب (بِهِ) ﷺ سريعًا وأقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

ولفظ رواية الحديث بعد قوله: فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوده الراهب من الكعك والزيت

وضعف الحافظ الذهبى الحديث؛ لقوله: وبعث معه أبو بكر بلالاً؛ فإن أبا بكر إذ ذاك لم يكن متأهلاً، ولا اشترى بلالا. قال ابن سيد الناس: لأنه حينئذ لم يبلغ عشر سنين فإن المصطفى أزيد منه بعامين وكان له يومئذ تسعة أعوام على ما قاله الطبرى وغيره، واثنا عشر عامًا على ما قاله آخرون، ولا اشترى بلالا. قال اليعمرى: لأنه لم ينتقل لأبى بكر إلا بعد ذلك بأزيد من ثلاثين عامًا؛ فإنه كان لبنى خلف الجُمَحيين، وعندما عذب فى الله اشتراه أبو بكر رحمة له واستنقاذًا له من أيديهم. وخبره بذلك مشهور.. انتهى. وسيأتى فى كلام المصنف.

قال الحافظ ابن حجر فى «الإصابة»: الحديث رجاله ثقاة من رواة

الصحيح، وليس فيه منكر سوى هذه اللفظة، فتحصل على أنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر وهمًا من أحد رواته.. انتهى.

وما روى: أن النبى ﷺ سأل أبا بكر، فقال له: «من الأكبر منا أنا أو أنت؟» فقال له أبو بكر: أنت أكبر وأكرم وأنا أسن. قيل فيه: أنه وهم، وأن ذلك إنما يعرف لعمه العباس. وكون بلال أصغر من أبى بكر ينازعه قول أبى حيان ـ رحمه الله تعالى ـ بلال كان تِربًا لأبى بكر؛ أى قرينه فى السن، وبه يرد قول الذهبى بلال لم يكن خلق.

(وَلَمْ يُجَاوِزْ مِنِ) أرض **(الشَّامِ المَقْدِسِ)** المطهر لأنه قرار الأنبياء، ومسكن المؤمنين، وما من نبى إلا وهو فيه أو هاجر إليه أو هو منه. وأول من هاجر إليه من الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبه ينزل عيسى ـ عليه السلام ـ وستأتى قصة نزوله، وهو أرض المحشر والمنشر. وقال ﷺ: «عليكم بالشام فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبى إليها خيرته من عباده»(1).

وجاء: «طوبى للشام؛ لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها»(2) أخرجه الترمذى بإسناد صحيح.

وجاء: «طوبى للشام إن الرحمن لباسط رحمته عليه»(3) أخرجه الطبرانى.

وفى آخر الزمان يستقر العلم والأمان بالشام.

وفى «الدر المنظم فى تاريخ الأمم»: قال كعب الأحبار: وجد فى كتاب الله تعالى ـ يعنى التوراة ـ أن الأرض على صفة النسر، فالرأس الشام، والجناحان المشرق والمغرب، والذنب اليمن، ولا تزال الناس بخير ما لم يقرع الرأس، فإذا قرع الرأس هلك الناس كلهم.

---

(1) أخرجه أبو داود (الجهاد: باب ٣)، وأحمد فى مسنده (٢/ ٨)، والطبرانى فى الكبير (٦٩/ ٤٢٠)، والترمذى (٢٢١٧)، وابن عساكر (١/ ٣٠).

(2) أخرجه الترمذى (٣٩٥٤)، وأحمد فى مسنده (٥/ ١٨٤)، وانظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٦٠)، والترغيب والترهيب (٤/ ٦٣).

(3) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٥/ ١٧٦)، وأحمد فى مسنده (٥/ ١٨٥).

وسمى شامًا باسم شام بن نوح ـ بالشين ـ أو لأنه من المشامة: القبلة، أو لأن أرضه شامات بيض وحمر وسود، وقد لا يهمز.

(بُصْرَاه) بضم الموحدة وسكون الصاد المهملة فألف مقصور، مدينة بالشام تسمى حَوْرَان بفتح الحاء والراء المهملتين بينهما واو ساكنة، فتحت صلحًا لخمس يقين من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة فى خلافة أبى بكر الصديق ـ رضى الله تعالى عنه ـ وبها مبرك الناقة التى يقال أن ناقته ﷺ بركت فيه فأثر ذلك فيه، وبها قبر سعد بن عبادة ـ رضى الله عنه ـ، وهى أول بقعة من أرض الشام خلص إليها نور النبّوة ـ.

وعلى أنه كان ذلك مرتين كما فى «إنسان العيون»، ناسب قدومه ﷺ إليها مرتين: مرة مع عمه أبى طالب ـ كما هنا ـ ومرة مع مَيْسَرة غلام خديجة ـ رضى الله عنها ـ كما يأتى، وسبق فى الكلام على قول المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام... إلخ. فى حكمة تخصيصها من أرض الشام بما ذكر لذلك، أو لأنها أول مدينة فتحت من أرض الشام فى الإسلام.

وقيل: إنها مدينة أخرى بين المدينة ودمشق.

وجاء فى بعض الروايات بسند ضعيف: أنه لما بلغ عشرين سنة عاد إلى الشام فى تجارة ومعه أبو بكر، فسأل بَحِيرًا عنه، فأقسم أنه نبى آخر الزمان، وكان ذلك سبب إيمان أبى بكر لما بُعث[1]. قال بعضهم: وعلى هذا فيكون قد سافر إلى الشام ثلاث مرات.

لكن قال فى «إنسان العيون»: لم يثبت أنه ﷺ سافر إلى الشام أكثر من مرتين. ويؤيده ما تقدم من قول الراوى: عاد إلى الشام فى تجارة؛ لأن النبى ﷺ لم يخرج تاجرًا إلى الشام إلا فى تلك السفرة، وسيأتى أن هذا القول

(١) عزاه السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٤٥)، والشامى فى سيرته (٢/ ١٩٣) لابن منده (١/ ١٤٥) وقالا: إسناده ضعيف.

قاله الراهب نَسْطُورَا لا بَحِيْرَا، قاله لمَيْسَرة لا لأبى بكر.

تنبيه

قال فى «نسيم الرياض»: بَحِيْرَا أول من آمن به ﷺ، وعُدَّ من الصحابة إن قلنا أن من اجتمع به ﷺ مؤمنًا مطلقًا يعد من الصحابة. قال الذهبى: رأى - يعنى بَحِيْرَا - رسول الله ﷺ وآمن به. وذكره ابن منده وأبو نعيم فى الصحابة. وقال ابن حجر - رحمه الله تعالى - فى «المنح»: ذكره جمع فى الصحابة بناء على أن الشرط رؤيته ﷺ والإيمان به ولو قبل المبعث.. انتهى.

قلت: فعلى هذا ليس هذا بَحِيْرَا الراهب الصحابى الذى هو أحد الثمانية الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب، فعنه - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا شرب الرجل كأسًا من خمر...»[1] الحديث.

ومن قال أن هذا الحديث منكر ظنَّ أنَّ بَحِيْرَا هذا هو المذكور هنا الذى لقى النبى ﷺ قبل البعثة.. والله أعلم.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

(١) انظر: ميزان الاعتدال (٣٢٤٣)، لسان الميزان (٣/ ١٤٢)، الكامل فى الضعفاء (٣/ ١٣٤٨). والحديث منكر.

[سفره ﷺ مرة ثانية إلى الشام][1]

(وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ خَمْسًا وَعِشْرِيْنَ سَنَةً) على الراجح من أقوال ستة وعليه جمهور العلماء وتلك أقوال ضعيفة لم تقم لها حجة على ساق (سَافَرَ) مرة ثانية لأربع عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة(إِلَى بُصْرَى) المتقدم ذكرها (فِى) شأن (تِجَارَةِ لِخَدِيجَةَ) بنت خويلد بن أسد (الفَتِيَّةِ) الشابة الكريمة. قال الواقدى وغيره: وكانت خديجة تاجرة ذات شرف ومال كثير، وتجارة تبعث بها إلى الشام، فيكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم المال مضاربةً، وكانت قريش قومًا تجارًا، ومن لم يكن عندهم تاجرًا فليس عندهم بشىء (وَمَعَهُ) ﷺ (غُلَامُهَا) مملوكها (مَيْسَرَةَ) بفتح الميم وسكون المثناة التحتية وفتح السين المهملة وضمها وبعد رائه هاء التأنيث اللفظى، لم تعلم له صحبة كما فى «النور». قال: والظاهر أنه مات قبل البعثة، ولو أدركها لأسلم. وفى «الإصابة» ما نصه: لم أقف على رواية صحيحة صريحة فى أنه بقى بعد البعثة (يَخْدُمُهُ) ﷺ بضم الدال المهملة وكسرها (وَيَقُومُ بِمَا عَنَاهُ) بفتح العين المهملة؛ أى قصده، وأراد مباشرته والاشتغال به مما فيه تعبه إراحة له ﷺ حسبما أمرته به خديجة ـ رضى الله عنها ـ «لا تَعْصِ له أمرًا، ولا تخالف له رأيًا». وقد ألقى الله محبة رسول الله ﷺ فى قلب مَيْسَرة فكان كأنه عبده.

وسبب ذلك أن عمه أبا طالب قال له: يا ابن أخى، أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علينا وألَحَّتْ بنا سنون الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك فى عيرها يتَّجرون لها فى مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضَّلتك

(١) السيرة الشامية (٢/ ٢١٤)، طبقات ابن سعد (١/ ١/ ٨٣)، دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١١٣)، الوفا ص (١٤٠)، تاريخ ابن عساكر (١/ ٢٧٤).

على غيرك، لما يبلغها من طهارتك، وإن كنت أكره أن تأتى الشام، وأخاف عليك من اليهود، ولكن لا نجد من ذلك بُدًا، فقال ﷺ: «لعلها ترسل إلىَّ فى ذلك». فقال أبو طالب: إنى أخاف أن تولَّى غيرك فتطلب أمرًا مُدْبرًا.

فلما بلغها ذلك قالت: ما علمت أنه يريد هذا، وأرسلت إليه وقالت: إنى دعانى إلى البعث إليك ما بلغنى من صِدْق حديثك، وعِظَم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضِعْف ما أعطى رجلاً من قومك. ففعل ﷺ، ولقى عمه فذكر له ذلك، فقال: إن هذا لرزقٌ ساقه الله إليك.

(وَ) لما قدم ﷺ إلى أرض بُصْرَى (نَزَلَ تَحْتَ) أغصان (شَجَرَةٍ) عظيمة يابسة نخر عودها لكن إلى غير جهة الظل لما يأتى (لَدَى صَوْمَعَةٍ) ما يتعبد فيها الرهبان من الأماكن المرتفعة (نَسْطُور) بفتح النون وسكون السين المهملة بعدها طاء مهملة وواو ساكنة آخره راء، كذا فى سيرة مُغْلَطاى، وقال فى «النور»: وألف مقصورة كذا نحفظه، ولم أر أحدًا تعرض لعده فى الصحابة، وينبغى أن يكون الكلام فيه كالكلام فى بَحِيْرا.

قال فى «إنسان العيون»: ولعل نَسْطور هذا هو الذى نسب إليه النَّسْطُورية من النصارى؛ فإن النصارى افترقت ثلاث فرق: نَسْطُورية قالوا: عيسى ابن الله، ويعقوبية قالوا: عيسى هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء، وملكانية قالوا: عيسى عبد الله ونبيه، زاد بعضهم فرقة رابعة وهم إسرائيلية قالوا: هو إله وأمه إله والله إله.

هذا وفى «القاموس» النُّسطورية ـ بالضم وتفتح ـ أمَّة من النصارى تخالف بقيتهم، وأصحاب نُسطور الحكيم الذى ظهر فى أيام المأمون، وتصرف فى الإنجيل برأيه وقال: إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة. وهو بالرومية نسطورس.. انتهى.

كما افترقت اليهود ثلاث فرق؛ فإنها افترقت إلى قرابية، وربانية، وسامرة.

(رَاهِبُ) الملة (النَّصْرَانِيَّه) ففى بعض الروايات: ونزل رسول الله ﷺ تحت

شجرة يابسة نخر عودها، فلما اطمأن تحتها، اخضرت ونورت، واعشوشب ما حولها، وأينع ثمرها، وتدلت أغصانها ترفرف عليه، وتحول الظل إلى جهته ﷺ **(فَعَرَفَهُ)** بذلك حتى وصفه بالنبوة قبل ظهورها وانجلاء كمال نورها **(إذ)** حين اخضرت ونورت واعشوشب ما حولها و **(مَالَ)** تحوّل **(إِلَيْهِ)** خصوصية له ﷺ **(ظِلُّهَا الوَارِفُ)** بكسر الراء المهملة بعدها فاء؛ الواسع الممتد الطويل، وفى بعض النسخ: الوارق بالقاف اسم فاعل ورق يرق، قال فى «القاموس»: وشجرة كثيرة الورق، والوارقة: الخضراء الورق الحسنة. وعليه فالشجرة كانت خضراء، ولا منافاة لأنها كانت يابسة فاخضرت وأورقت بنزوله ﷺ تحتها كما علمت مما مر. ولعل المصنف استعمله لعلاقة اللزوم.

(وآواهُ) أى ستره من حر الشمس فصار مأوى ومنزلاً له ﷺ **(وقَالَ)** نَسْطور لِمَيْسَرة ـ وكان يعرفه ـ: من هذا الذى نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال مَيْسَرة: رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له ولغيره مبينًا لهم: **(مَا نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ قَطُّ)** منذ خلقت وإلى ذلك الآن أحد **(إِلاَّ)** من هو **(نَبِيٌّ)** مر تفسيره كالرسول، أى صانها الله تعالى عن أن ينزل تحتها غير نبى ـ كما قاله فى «إنسان العيون» ـ متصف بالنبوة. ولا يخفى أن ميلان تلك الشجرة وبقاءها زمنًا طويلاً قبل عيسى وبعده إلى زمن نبينا على خلاف العادة، وصرف غير الأنبياء عن النزول تحتها، وكذا صرف الأنبياء الذين وُجِدوا بعد عيسى والذى دلت عليه هذه الرواية والرواية الآتية ممكن خصوصية له ﷺ، وإن كانت الشجرة لا تبقى فى العادة هذا الزمن الطويل، وإن كان يبعد فى العادة ـ أيضًا ـ أن تكون شجرة تخلو عن أن ينزل تحتها أحد غير الأنبياء؛ لأن هذا الأمر ممكن خرقًا للعادة، والأنبياء لهم خرق العوائد سيّما نبينا ﷺ.

وبهذا يردّ قول السهيلى: يريد ما نزل تحتها ـ أى هذه الساعة ـ إلا نبى، ولم يرد ما نزل تحتها قط إلا نبى لبعد العهد بالأنبياء، قيل ذلك، وإن كان فى لفظه قط فقد تكلم بها على جهة التوكيد للنفى، والشجرة لا تعمر فى العادة

هذا العمر الطويل حتى يدرى أنه لم ينزل تحتها إلا عيسى أو غيره من الأنبياء، ويبعد فى العادة ـ أيضًا ـ أن تخلو شجرة من نزول أحد تحتها حتى يجىء نبى إلا أن تصح الرواية عمن قال فى هذا الحديث: لم ينزل تحتها أحد بعد عيسى ـ عليه السلام ـ فتكون تلك الشجرة على هذا مخصوصة بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

وقد تعقبه العز بن جَماعة بأنه مجرد استبعاد لا دلالة فيه على امتناع ولا استحالة، وبأنه استبعاد يعارضة ظاهر الخبر، وكون متعلقات الأنبياء مظنة خَرْق العادة، فلا يكون ذلك حينئذ من طول البقاء، وصرف غير الأنبياء عن النزول تحتها بعيداً، وذلك واضح. . انتهى. ويؤيده ما يأتى ذكره قريبًا عن أبى سعيد فى «الشّرف».

وقد يقال: يجوز أن تكون تلك الشجرة كانت شجرة زيتون؛ فقد ذكر أن شجرة الزيتون تُعَمّر ثلاثة آلاف سنة. على أن فى بعض الروايات: أن الشجرة كانت يابسة، كما تقدم، وقولنا: خصوصية، أو خرقًا للعادة يبعد ما قيل.

وقوله: ما نزل تحت هذه الشجرة. . . إلخ، يفيد أن كل من نزل تحتها فهو نبى مع أن النبوة لا تتوقف على ذلك، فكأنه فهم أن النزول سبب للنبوة وهذا لا يتوهمه عاقل.

(ذُو) صاحب **(صِفَاتٍ نَقِيَّه)** منتقاة **(وَرَسُولٌ قَدْ خَصَّهُ اللهُ)** دون غيره من سائر المخلوقين **(بِالفَضَائِلِ)** المراد بها هنا: الكمالات الشاملة للمزايا القاصرة والمتعدية وإن كانت عرفًا إنما يقال للمزايا القاصرة، والفرق بين القاصرة والمتعدية مما لا يخفى عليك **(وَحَبَاهُ)** بها أعطاها إياه تفضلاً منه تعالى **(ثُمَّ قَالَ لِمَيْسَرَةَ)** سائلاً له عن علامة ذاتية فيه ﷺ: **(أَفِى عَيْنَيْه)** بالتثنية، وفى رواية بالإفراد على إرادة الجنس **(حُمْرَةٌ)** وإنما سأله عن ذلك **(اسْتِظْهَاراً لِلعَلَامَةِ الخَفِيَّةِ)** طلبًا لإظهار هذه العلامة الخفية؛ إذ هى أظهر من الأولى فى الاستدلال بها على نبوته ﷺ؛ إذ هى ذاتية وتلك عرضية، وفى بعض النسخ

«الحَقيَّة» نسبة للحق ضد الباطل وهو أظهر من الأوّل وأليق بالمقام.

(فَأَجَابَهُ بِـ) قوله: (نَعَمْ) لا تفارقه أى لا تنفك عنهما. فقال الراهب: هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويااليتنى أدركه حين يؤمر بالخروج ـ أى يبعث ـ فوعى ذلك مَيْسَرة.

والحُمرة كانت فى بياض عينيه، وهى الشُّكل، ومن ثم قيل فى صفته ﷺ: أشْكَل العينين. فهذه الشُّكلة من علامات نبوته فى الكتب القديمة (فحَقَّ) بفتح الحاء المهملة أى ثبت وتحقق (لَدَيْهِ) عنده (مَا ظَنَّهُ فِيْهِ) ﷺ (وَتَوَخَّاهُ) تحراه وقصد إظهاره.

وفى «الشَّرف» لأبى سعيد النيسابورى: فلما رأى الراهب الغمامة تظله فَزِع وقال: ما أنتم عليه؟ ـ أى: أى شىء أنتم عليه ـ قال مَيْسَرة غلام خديجة: فَدَنَا إلى النبى ﷺ سراً من مَيْسرة وقَبَّل رأسه وقَدَمه وقال: آمنت بك، وأنا أشهد أنك الذى ذكره الله تعالى فى التوراة، ثم قال: يا محمد، قد عرفت فيك العلامات كلها ـ أى العلامات الدالة على نبّوتك المذكورة فى الكتب القديمة ـ خلا خصلة واحدة، فأوضح لى عن كتفك، فأوضح له، فإذا هو بخاتم النبّوة يتلألأ، فأقبل عليه يقبله ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك ر سول الله النبى الأمى الذى بشَّر بك عيسى بن مريم فإنه قال: لا ينزل بعدى تحت هذه الشجرة إلا النبى الأمى الهاشمى العربى، صاحب الحوض المورود، والشفاعة العظمى، وصاحب لواء الحمد. . انتهى.

وبهذا يُرَدّ على من توقف فى صحبته بناء على ما نقل عن ابن حجر فيما تقدم من عدم اشتراط الرؤية بعد البعثة.

(ثُمَّ قَالَ لِمَيْسَرَةَ لاَ تُفَارِقْهُ وَ) المعنى (كُنْ مَعَهُ) أى الزم صحبته (بِصِدْقٍ وَعَزْمٍ) منك، والعزم التصميم، وإضافة الصدق إليه من إضافة الصفة للموصوف، وكذا قوله (وَحُسْنَ طَوِيَّةٍ) بفتح الطاء المهملة وكسر الواو وشد المثناة تحت فعيلة بمعنى مفعولة؛ أى مطوية. والمراد: ما انطوى عليه الإنسان

فى باطنه من حسن النية (فَإِنَّهُ مِمَّنْ أَكْرَمَهُ اللهُ بِالنُّبُوَّةِ وَاجْتَبَاهُ) واختاره واصطفاه، وكان مَيْسَرة يرى إذا اشتد الحر ملكين يظلان عليه ﷺ.

(ثُمَّ) بعد ما تقدم وبعد أن حضر سوق بُصْرى وباع سلعته واشترى، وقال له خصمه: احلف باللات والعُزَّى، فقال: «لم أحلف بهما قط» فقال الرجل: القولُ قولك، ثم قال لِمَيْسَرة وقد خلا به: هذا نبيٌّ [هذه الأمة]، والذى نفسى بيده لهو الذى تجده أحبارنا منعوتا فى كتبهم.

(عاد) ﷺ هو ومَيْسَرة فى أهل العير من بُصْرى (إِلَى مَكَّةَ فَـ) لما دنوا منها (رَأَتْهُ) ﷺ (خَدِيجَةَ) بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ حال كونه (مُقْبِلاً) بضم الميم وسكون القاف وكسر الموحدة؛ أى قادمًا وآتيًا راكبًا على بعير فى ساعة الظهيرة (وهى) مُشرفة (بَيْنَ) جماعة (نِسْوَةٍ) كائنات معها (فِى عُلِّيَّةٍ) بضم العين وكسرها مع تشديد اللام المكسورة، أو بضم العين وفتح اللام مع شد التحتية، ويأتى بكسر العين وسكون اللام لغة؛ أى غرفة، والجمع العلالى بالتشديد والتخفيف.

(وَمَلَكَانِ) تثنية ملك من الألوكة بمعنى الرسالة، وهم عند جمهور المتكلمين أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، وعند الحكماء جواهر مجردة علوية مخالفة للنفوس الإنسانية بالذات، ورؤية المصطفى ﷺ تدل للأول (عَلَى رَأْسِهِ الشَّرِيفِ مِنْ ضِحٍّ) بكسر الضاد المعجمة وتشديد الحاء المهملة؛ الشمس وضوئها، فإضافته إلى (الشَّمْسِ) للبيان والمراد (قَدْ أَظَلاَّهُ) من ضوء الشمس وحرها، وفيه جواز رؤية الملائكة، وبه وبرؤية الجن صرح فى هذا الحديث الصحيح، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ (1) فمحمول على ما إذا كانوا على صورتهم الأصلية، أما إذا خرجوا عنها بالتمثل فى أى صورة فلا مانع من رؤيتهم حينئذ، كما يؤخذ ذلك من البيضاوى وحواشيه لزاده فى سورة الأعراف.

(1) سورة الأعراف: ٢٧.

وقال بعضهم: نفى الرؤية فى الآية محمول على الغالب، ولو كانت رؤيتهم محالة ـ أى على صورتهم الأصلية ـ لما قال ﷺ فى الشيطان: «لقد هممت أن أربطه حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم»[1].

ولما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لابن مسعود: «هؤلاء جن نصيبين» حين قال له: رأيت رجالا كذا وكذا[2].

وقال القاضى عياض: قيل رؤية الجن على صورتهم الأصلية ممتنعة إلا للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومن خرقت له العادة، وإنما يراهم بنو آدم على غير صورتهم الأصلية. ورده النووى بأنه دعوى مجردة لا مستند لها.

ومر غير مرة أن الجن أجسام نارية تقدر على التشكل فى الصور المختلفة؛ أى بأن يعلمهم الله تعالى قولاً أو فعلاً إذا أتى به نقله من صورة إلى أخرى؛ لأن تصويره لنفسه محال، وكذا يقال فى الملائكة.

قال العلامة ابن حجر فى «شرح المنهاج»: ونوزع فى قدرتهم على التشكل باستلزام رفع الثقه بشىء، فإن من رأى ولو ولده يحتمل أنه جنى تشكل به. ويُرَدُّ بأن الله تعالى تكفل لهذه الأمة بعصمتها عن أن يقع فيها ما يؤدى لمثل ذلك المرتب عليه الريبة فى الدين، ورفع الثقة بعالم وغيره، فاستحال شرعًا الاستلزام المذكور.. انتهى.

فأرته النساء اللاتى كن معها فى الغرفة فعجبن من ذلك كما ورد، وتقدم أن مَيْسَرة رأى ذلك أيضًا، وروى: أن خديجة رأت تظليل الملائكة، ومَيْسَرة رأى تظليل الغمام.

وقد روى: أنه من حين سيره من مكة صارت الغمامة تظله؛ فإن كانت الغمامة غير المَلَكين فالغمامة كانت تظله فى الذهاب والمَلَكان يظلانه فى

(1) أخرجه البخارى (1/124، 6/156)، البغوى فى شرح السنة (3/269)، أحمد فى مسنده (2/298)، مسلم فى صحيحه (المساجد: 39).

(2) أخرجه أحمد فى مسنده (1/458)، الطبرانى فى الكبير (10/18)، أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (291)، ابن الجوزى فى الوفا ص (185)، ابن سعد فى الطبقات الكبرى (1/1/128).

العود، ويحتمل أن الغمامة كانت تسوقها الملائكة فجعلت مظلة كحامل الظلة يسمى مظللا. قال فى «إنسان العيون»: وفى كلام صاحب الهمزية ما يدل على أن المراد بالملكين الغمامة مجاز.. انتهى.

قال بعض المحققين: قلت فيه نظر لا يخفى؛ إذ كون الغمامة تظله فى الذهاب والملكان فى العود تخصيص بلا مخصص، وإرادة الغمامة بالمَلَكين عدول عن الحقيقة بلا احتياج إليه؛ إذ لا مانع من تظليلهما معًا له ﷺ ليحصل بمجموع ذلك شدة الحفظ من حر الشمس؛ إذ الغمامة لبعدها عن الأرض لا تمنع إلا سلطنة الشمس، ولا تدفع الحر من أصله كما هو واضح فى بعض أزمنة الصيف عند عدم ظهور الشمس لوجود غمام ونحوه، فتأمل. وحينئذ فيكون مرأى مَيْسَرة ومرأى خديجة واحدًا وهو تظليل الملائكة على ما تقدم.

(وأَخْبَرَهَا مَيْسَرَةُ بِأَنَّهُ رَأَى ذَلك) وهو تظليل الملائكة له ﷺ (فِيْ) هذا (السَّفَرِ كُلِّه) ذهابًا وإيابًا، وإلى ذلك أشار الإمام السبكى ـ رحمه الله تعالى ـ فى «تائيته» بقوله:

ومَيْسَرة قد عاينَ الملكانِ إذ … أظلاّك لَمّا سرتَ ثانى سفرةِ

وهذا هو المعنى بقول «الخصائص الصغرى»: وخص بإظلال الملائكة له فى سفره. ويحتمل أن المراد فى كل سفر سافره، لكن قال فى «إنسان العيون»: لم أقف على تظليل الملائكة له فى غير هذه السفرة.

وأما تظليل الغمامة له ﷺ فقد وقع مرارًا متعددة منها: فى السفرة الأولى مع عمه أبى طالب، وقبل ذلك لما كان ﷺ عند السيدة حليمة.

وقد أشار غير واحد ـ كما قال ابن حجر رحمه الله تعالى ـ: أنه إنما كان قبل النبوة إرهاصًا وتأسيسًا لنبوته، وإعلامًا له ﷺ بما سيؤول إليه أمره، وأن أمته أكثر الأمم وأنهم قرون متفاوتون، وأن كل قرن مستمد من القرن الذى قبله، وأن الكل مستمدون من ظله ﷺ.. انتهى.

قال فى «شرح المواهب»: قال ابن جماعة: من ذهب إلى أن حديث إظلال الغمامة لم يصح، باطل، بل لم يكن كما قال السخاوى دائمًا. انتهى.

فمما يدل على انقطاع ذلك ما فى حديث الهجرة: أن الشمس أصابته ﷺ حين قدم المدينة، فظله أبو بكر بردائه، وكذلك ظلّل عليه وهو يرمى الجمرة، ومرة أخرى بالجِعْرَانة، ومعه ثوب قد أظل عليه، وأنهم كانوا فى أسفارهم إذا نزلوا على شجرة ظليلة تركوها له ﷺ وغير ذلك.

قال فى «النعمة الكبرى»: وفائدة تظليل الغمامة - بتقدير صحة ما قيل أنه ﷺ لا يحس بالحر والبرد - إظهار عظيم قدره وتمييزه بباهر حفظ الله له وعنايته به.

(وَ) أخبرها مَيْسَرة بما وقع للذى تنازع مع النبى ﷺ فى البيع، وأخبرها **(بِمَا قَالَهُ الرَّاهِبُ)** نَسْطُور مما تقدّم بسطه (وَ) أخبرها بما **(أَوْدَعَهُ لَدَيْهِ)** عنده **(مِنَ الوَصِيَّهْ)** به ﷺ فى قوله: لا تفارقه هو نبى، وهو آخر الأنبياء **(وَضَاعَفَ اللهُ فِى تِلْكَ التِّجَارَةِ رِبْحَهَا وَنَمَّاه)** بتشديد الميم، ببركته ﷺ، فروى أنهم استفادوا أضعاف ما كانوا يربحون، ولما ضوعف الربح أضعفت خديجة ما سمّت له ﷺ، وما سمّته له ضِعْف ما كانت تعطيه لرجل من قومه كما تقدم.

وفى بعض الروايات: فلما كانوا بمرّ الظهران - وهو واد بين مكة والمدينة المعروف الآن بوادى فاطمة - قال مَيْسَرة للنبى ﷺ: هل لك أن تسبقنى إلى خديجة فتخبرها بالذى جرى لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك، وتخبرها بما صنع الله تعالى لها على وجهك؟.

فركب النبى ﷺ وتقدم حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة وخديجة فى عُلِّية مع نساء، فرأت رسول الله ﷺ حين دخل وهو راكب على بعيره وَمَلَكان يظلاّن عليه، فأرته نساءها فعجبن لذلك، ودخل عليها رسول الله ﷺ فخبرها بما ربحوا - وهو ضعف ما كانت تربح - فسرّت بذلك وقالت: أين مَيْسَرة؟

قال: خلَّفته فى البادية. قالت: عجّل إليه ليعجل إليَّ الإقبال.

قال فى «إنسان العيون»: وإنما أرادت أن تعلم أهو الذى رأت أم غيره؟.

فركب ﷺ وصعدت خديجة تنظر فرأته على الحالة الأولى فاستيقنت أنه هو، فلما دخل عليها مَيْسَرة أخبرته بما رأت. فقال لها مَيْسَرة: قد رأيتُ هذا مذ خرجنا من الشام.. انتهى.

وقول مَيْسَرة له ﷺ: لعلها تزيدك بكرة إلى بكرَتيك. يدل على أنها سمَّت له بكرَتين، وكانت تسمى لغيره بكرة. وفى كلام بعضهم وفى «الروض الباسم»: استأجرته ﷺ على أربع بكرَات.

وقد جاء فى بعض الروايات: أن أبا طالب جاء لخديجة وقال لها: هل لك أن تستأجرى محمداً فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببكرتين وليس نرضى لمحمد دون أربع بكرات، فقالت خديجة: لو سألت لبعيد بغيض! فكيف وقد سألت لحبيب قريب؟.

***

[زواجه ﷺ من السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها][1]

(فَبَانَ) وضح وظهر (لِخَدِيجَةَ بِمَا) أى بسبب ما (رَأَتْ) أى شاهدت من تظليل الملائكة (وَ) بما (سَمِعَتْ) من أخبار مَيْسَرة خادمها لها بما سبق، والعائد محذوف منه ومما قبله، وهذا من الكثير كما قاله فى «الخلاصة»:

والحذف عندهم كثير منجلى فى عائد متصل إن انتصب
بفعل أو وصف كمن نرجو يهب

(أَنَّهُ) ﷺ (رَسُولُ اللهِ إِلَى) كافة (الْبَرِيَّهْ) الخلق (وَخَطَبَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا) أى عرضت نفسها عليه بأن طَلبت منه أن يتزوّجها تشرفًا به، ورغبة صادقة فى الاتصاف بمزيد حبه وكمال قربه، بلا واسطة؛ فعند ابن إسحاق: فعرضت نفسها عليه، فقالت: يا ابن عم، إنى قد رغبت فيك لقرابتك، وسلطنتك فى قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك. أو بواسطة؛ كما رواه ابن سعد من طريق الواقدى، عن نفيسة بنت مُنْيَة، قالت: كانت خديجة امرأة حازمة جَلْدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهى يومئذ أوسط قريش نسبًا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصًا على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتنى دَسِيسًا إلى محمد ﷺ بعد أن رجع فى عيرها من الشام. فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: «ما بيدى ما أتزوج به». قلت: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: «فمن هى؟» قلت: خديجة. قال: «وكيف لى بذلك؟» فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ائت لى ساعة كذا.

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقى (٢/٦٨)، السيرة الشامية (٢/٢٢٢)، الوفا ص (١٤٢)، الطبقات الكبرى (١/١/٨٤).

والجمع ممكن بأنها بعثت نفيسة أوّلا لتعلم هل يرضى، فلما علمت ذلك كلمته بنفسها.

قال الشامى: وسبب عرضها: ما حدّثها به غلامها مَيْسَرة مع ما رأته من الآيات.

وما ذكره ابن إسحاق فى «المبتدأ» قال: كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه، فاجتمعن يومًا فيه فجاءهن يهودىّ فقال: يا معشر نساء قريش، إنه يوشك فيكن نبىّ فأيتكن استطاعت أن تكون فراشًا له فلتفعل، فحصّبنه وقبّحنه وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله ولم تَعْرِض فيما عرض فيه النساء، ووقر فى نفسها عليه لتفوز بالسبق إليه دون سائر نساء قومها.

و (لتِشُمَّ) بفتح الشين المعجمة أو بضمها من باب ردّ أى تستروح (مِنَ الإِيْمَانِ بِهِ) ﷺ (طِيبَ رَيَّاهُ) بفتح الراء وتشديد المثناة التحتية؛ الرائحة الذكية الطيبة، وفى كلامه تشبيه الإيمان بمسك ونحوه على سبيل المكنية، والريَّا تخييل، والشم ترشيح، وخديجة - رضى الله تعالى عنها - من أكمل العقلاء، وأعقل الكملاء، فلذا تفرست فيه ﷺ ما لم يهتد إليه غيرها من نساء قومها، وخصته بشديد محبتها وأكيد مودتها.

وقد نقل بعضهم عن بعض العارفين أن الإنسان لا يمتزج بشىء كامتزاجه بزوجته، وأن المرأة أقرب شىء إلى الرجل من حيث أنها خلقت منه فهى جزؤه؛ فإذا شم رائحتها إنما شم نفسه، وهذا غاية القرب.

قال مُغْلَطاى: وكانت أولاً تحت عتيق بن عائذ المخزومى فولدت له عبد الله - وقيل: عبد مناف - وهندًا؛ ثم خلف عليها أبا هالة النباش بن زرارة، فولدت له هندًا، والحارث، وزينب، فكانت تكنى أم هند، وتدعى: الطاهرة.

وقال غيره: إن عتيقًا تزوجها بعد أبى هالة. ونسبه ابن عبد البر للأكثر وصححه، وبه جزم فى «المواهب». وعلى الأول اقتصر فى «العيون» و«الفتح»

وحكاهما فى «الإصابة».

(فَأَخْبَرَ) النبى ﷺ (أَعْمَامَهُ بِمَا دَعَتْهُ إِلَيْهِ هَذِهِ البَرَّةُ) بفتح الموحدة وشد الراء؛ الجامعة لصفات الكمال من البر وهو اسم جامع لأنواع الخير (التَّقِيَّةُ) بالمثناة الفوقية من التقوى وهى البراءة من كل شىء سوى الله تعالى، وهذا غايتها ومبدؤها اتقاء الشرك، وأوسطها اتقاء المحارم، وضبطها بعضهم بالنون: أى التاركة للمنهيات، والفاعلة للمأمورات (فَرَغِبُوا فِيهَا) والرغبة فى الشىء: حبه والميل إليه (لِفَضْلٍ) زيادة فضائل وفواصل، والفضل لغة: الزيادة، وعرفًا: الاتصاف بالفضائل والفواصل.

وقد روى البزار والطبرانى من حديث عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ رفعه: «لقد فُضّلت خديجة على نساء أمتى ما عدا فاطمة ـ رضى الله عنها ـ كما فضلت مريم على نساء العالمين»[1]. قال فى «الفتح»: وهو حسن الإسناد.

وذكر فى «الفتح»: أنه ﷺ كان يصف خديجة لعائشة ـ رضى الله عنهما ـ فيقول: «كانت وكانت» ـ أى كانت فاضلة وكانت عاقلة ـ ونحو ذلك. وظهر أن وصف خديجة ـ رضى الله تعالى عنها ـ بالفضل وما يليه من الصفات الحميدة الآتى ذكرها بعد وصفها آنفًا بالكمال الشامل لجميع ما يأتى من جميل الخصال من باب الإطناب والتفكه بتكرار أوصاف الممدوح مع دخولها جميعها فى وصف سابق يعمها.

(وَ) محافظة على (دِينٍ) إذ هو أكبر الخصال المرغبة فى تزويج المرأة لقوله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك»[2] يعنى إن لم تفعل.

(١) مجمع الزوائد (٣/ ٢٣٣)، كنز العمال (٣٤٣٤٧)، فتح البارى (٧/ ١٣٥).

(٢) أخرجه البخارى (٥٠٩٠)، مسلم (الرضاع: ٥٣)، أحمد فى مسنده (٢/ ٤٢٨)، أبو داود (٢٠٤٧)، النسائى (النكاح: باب ١٣)، البيهقى فى السنن (٧/ ٧٩)، الدارقطنى فى السنن (٣/ ٣٠٣).

والمعنى: أن المرغب فى نكاح المرأة إحدى هذه الخصال الأربع، لكن اللائق بذوى المروءات وأرباب الديانات أن يكون الدين هو مطمح نظرهم فيما يأتون ويذرون، سيما فيما يدوم أمره ويعظم خطره، الذى يراد منه دوام الألفة بين المتناكحين.

(وَ) مزيد (جَمَالٍ) وهو الحسن الكثير، وهو يقع على الصور والمعانى (وَ) كثرة (مَالٍ) أى كثرة ما تملكه من نقد أو عرض، وهو عند العرب يختص بالإبل، وفى العرف العام بالنقدين، وقال بعضهم: هو ما تحويه اليد من نقد وغيره، مأخوذ من الميل لميل النفوس إليه.

(وَ) ظهور (حَسَبٍ) بفتح المهملتين آخره موحدة؛ أى شرف ثابت فى الآباء، مأخوذ من الحساب؛ لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدوا مناقب ومآثر آبائهم وحسبوها. قال بعضهم: يمكن أن يراد هنا فعالها الحسنة الجميلة، ولقد كانت - رضى الله عنها - فى المعنيين بالمحل الأرفع.

(كُلٌّ مِنَ القَوْمِ) أى كل أحد من رجال قومها وعشيرتها (يَهْوَاهُ) أى يهوى ذلك المذكور ويحبه ويميل إليه بالطبع. وخرج معه منهم: حمزة - رضى الله عنه - حتى دخل على أبيها خويلد فخطبها إليه فأجاب، كذا عند ابن إسحاق.

وعند المبرد: أن أبا طالب هو الذى نهض معه وهو الذى خطب خطبة النكاح.

قال فى «النور»: ولعلهما خرجا معه جميعًا. (وَ) الذى (خَطَبَ) منهم عمه ﷺ (أَبُو طَالِب) لأنه كان أسن من حمزة فلا منافاة، قال بعضهم: وحضر أبو بكر، وذكره فى «المنح» وقال الزرقانى فى «شرح المواهب»: وفى نسخ: أبو بكر لا أصل له.. انتهى. والحافظ حجة على من لم يحفظ.

وزاد ابن إسحاق من طريق آخر: وحضر أبو طالب ورؤساء مُضَر، فخطب أبو طالب (وَأَثْنَى عَلَيْهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللهِ) تعالى (بِمَحَامِدَ سَنِيَّهْ) النيرة المضيئة، والمراد: الشريفة الجليلة، فقال أبو طالب فى خطبته - كما فى

«المنح» ـ: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ ـ أى أصل ـ مَعدّ، وعنصر مُضَر، وجعلنا حَضنة بيته ـ أى الكافلين له ـ، وسُوَّاس حَرَمه ـ أى المتولين لأمره ـ، وجعل لنا بيتًا محجوجًا، وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يُوزن برجل إلا رجح به، وإن كان فى المال [قِلاً] فإن المال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد ممن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالى كذا. . . إشارة إلى ما يأتى[1].

(وَقَالَ) أبو طالب فى أثناء هذه الخطبة: (وَهُوَ) أى محمد بن أخى أقسم (وَالله بَعْدُ) بالضم لما مر؛ أى بعد هذا سيكون (لَهُ نَبأٌ) خبر (عَظِيمٌ) وخطر جليل ـ فيه إشارة إلى ما شاهده من بركته عليه فى أكله مع عياله وما أخبر به بَحِيرًا ـ وغير ذلك مما سبق (يُحْمَدُ) بالبناء للمفعول (فِيْه) ذلك النبأ وهو النبوة والدعوة إلى الله (سُرَاهُ) بضم السين؛ أى سيره، والمراد: سعيه فى ذلك النبأ الذى هو النبوة والدعوة إلى الله. وفى بعض النسخ: «مَسْرَاه» بفتح الميم وهو بمعناه، يقال: سرى يسرى، وأسرى يسرى إسراء لغتان، ومنه الحديث: «يا جابر ما السرى؟ السرى السير بالليل»[2]. وإطلاقه هنا على السير المطلق من باب المجاز المرسل، أو فى كلامه استعارة تصريحية أصلية.

(فَزَوَّجَهَا مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ) أى تولى عقد نكاحها به ﷺ (أَبُوهَا) خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصَىّ، فهى من أقرب نسائه ﷺ إليه فى النسب، ولم يتزوج من ذرية قُصَىّ غيرها إلا أم حبيبة. كذا قاله الحافظ ابن حجر.

وفى «سيرة الزهرى» ـ وهى أول سيرة ألفت فى الإسلام ـ: أنه ﷺ قال لشريكه الذى كان يتجر معه فى مال خديجة: «هلم فلنتحدث عند خديجة ـ

(١) الوفا ص (١٤٢).
(٢) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

وكانت تكرمهما وتتحفهما - فلما قاما من عندها جاءت امرأة فقالت له: جئت خاطبًا يا محمد؟ فقال: «كلا»، فقالت: ولم؟! فوالله ما فى قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كفؤا لها. فرجع ﷺ خاطبًا لخديجة مستحييًا منها، وكان أبوها خُوَيْلد سكرانًا من الخمر، فلما كُلم فى ذلك أنكحها، فألقت عليه خديجة حُلَّة وضمَّخته بخَلُوق، فلما صحا من سُكره قال: ما هذه الحُلةَّ والطيب؟ فقيل له: لأنك أنكحت محمداً خديجة، وقد ابتنى بها، فأنكر ذلك ثم رضى وأمضاه. فقالت له خديجة: ألا تستحى؟ تريد أن تسفه نفسك عند قريش وتخبرهم أنك كنت سكرانًا؟ فلم تزل به حتى رضى[1].

لأن شرب الخمر كان عندهم مما يتنزه عنه، ويدل له أن جماعة حرموها على أنفسهم[2] فى الجاهلية منهم من تقدم ذكره.

وكان ذلك بعد قدومه ﷺ من الشام بشهرين وخمسة وعشرين يومًا عقب سفره، وعمره يومئذ خمس وعشرون سنة على ما هو الصحيح الذى عليه الجمهور، وقيل: ست وعشرون سنة، وقيل: إحدى وعشرون، وقيل: ثلاثون، وقيل: سبع وثلاثون، وقيل: تسع وعشرون وقد راهق الثلاثين، وقيل: غير ذلك.

وأما عمرها فكان أربعين سنة وهو الصحيح كما فى «الغرر»، وقيل: خمسا وأربعين، وقيل: ثلاثين، وقيل: ثمانية وعشرين.

والقول بأنها زوّجها أبوها هو الذى جزم به ابن إسحاق، وفى «الفتح»: زوّجه إياها أبوها خويلد ذكره البيهقى من حديث الزهرى بإسناده عن عمار ابن ياسر.

(وَقِيلَ): تولاه (عَمُّهَا) عمرو بن أسد، ذكره الكلبى والشامى، ونسبه لأكثر علماء السير. قال السهيلى: وهو الصحيح لما روى الطبرانى: أن عمراً

---

(١) سيرة ابن كثير (١/ ٢٦٦، ٢٦٧)، السيرة الشامية (٢/ ٢٢٥)، مسند أحمد (١/ ٣١٢) بإسناد ضعيف، وانظر: مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٠).

(٢) انظر أسماءهم فى «المحبر» لابن حبيب ص (٢٣٧).

ابن أسد هو الذى أنكح خديجة رسول الله ﷺ، وأن خُوَيْلدًا كان قد مات قبل حرب الفِجَار[1]، ورجحه الواقدى وغَلَّط من قال بخلافه، وحكى عليه المؤمّليّ الاتفاق.

(وَقِيلَ:) تولّاه (أَخُوهَا) عمرو بن خويلد؛ ذكره ابن إسحاق. قال فى «النور»: ولعل الثلاثة أى أباها وأخاها وعمها حضروا ذلك فنسب ذلك إلى كل واحد منهم.

وفى «المنتقى»: فلما أتم أبو طالب الخطبة، تكلم ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليَّ يا معشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وشهد على ذلك صناديد قريش. . انتهى.

(لِسَابِقِ سَعَادَتِهَا) أى لسعادتها السابقة فهى من إضافة الصفة للموصوف (الأَزَلِيَّةْ) أى المنسوبة للأزل؛ لتقدير الله لها فيه.

وأصدقها ﷺ اثنتى عشرة أوقية ذهبًا ونَشًا ـ بفتح النون والشين المعجمة نصف أوقية ـ من مال أبى طالب ـ على ما مر ـ فنسب إليه لوقوع النكاح له. قالوا: وكل أوقية أربعون درهمًا أى دينارًا؛ فيكون جملة الصداق خمسمائة درهم شرعى.

قال المحب الطبرى فى «السمط السمين فى أزواج الأمين»: أصدقها المصطفى عشرين بكْرة. ولا تضادّ بين هذا، وبين ما يقال [أن] أبا طالب أصدقها؛ لجواز أنه ﷺ زاد فى صداقها فكان الكل صداقًا. . انتهى. ولما مر قريبًا.

ولا منافاة أيضًا بين قوله: اثنتى عشرة أوقية، وبين قوله: عشرين بكْرة؛

(١) الوفا ص (١٤٢).

لجواز أن تكون البكرات عوضًا عن الصداق المذكور، أشار إليه في «إنسان العيون».

وفي بعض السير: أنه ﷺ لما تزوجها ذهب ليخرج، فقالت له: إلى أين يا محمد؟ اذهب وانحر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس. ففعل وهو أوّل وليمة أولمها رسول الله ﷺ.

وفي «المنتقى»: فأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف، وقالت: مر عمك ينحر بكْرة من بكْراتك وأطعم الناس، وهلمَ فَقِلْ مع أهلك. فأطْعَمَ الناس ودخل ﷺ فَقَالَ معها، فقرَّ الله عينه، وأقامت معه ﷺ خمسًا وعشرين سنة، أو أربعًا وعشرين سنة تقريبا.

* * *

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

[أولاده ﷺ]

(وَأَوْلَدَهَا كُلَّ أَوْلَادِه) جمع ولد يشمل الذكر والأنثى، واختلف فى عدهم، والأصح ما قاله أكثر أهل النسب من أنهم كانوا سبعة، فلنذكرهم على ترتيبهم فى الولادة: فأولهم قاسم، فزينب، فرقية، ففاطمة، فأم كلثوم، فعبد الله الملقب بالطيب والمطيب والطاهر والمطهر، فإبراهيم ـ رضى الله عنهم ـ والذكور منهم ماتوا صغاراً.

ثم استثنى المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ من جملة أولاده ﷺ إبراهيم فقال: (إِلاَّ) ولده (الَّذِى بِاسْمِ) أبيه (الخَلِيلِ) إبراهيم قد (سَمَّاهُ) فإن أمه السيدة مارية القبطية التى أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية ـ كما يأتى ـ وكانت ولادته فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة بالمدينة، قيل: ولد بالعالية. . انتهى. وتوفى وله سبعة عشر شهراً على الراجح من الأقوال التسعة المحكية فيه، وحمل على سرير ودفن بالبقيع. قاله المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ فى «فيض الواهب اللطيف».

* * *

[أزواج رسول الله ﷺ]

وأما أزواجه ﷺ فقد اختلف في عدتهن وترتيب تزوّجه ﷺ بهن، وعدة من مات منهن قبله، ومن مات ﷺ عنهن، ومن دخل بها، ومن لم يدخل بها، ومن خطبها ولم ينكحها، ومن عرضت نفسها عليه، وأوصلهن بعضهم إلى ثلاثين.

والمتفق عليه أن المدخول بهن إحدى عشرة امرأة:

فستة من قريش: خديجة بنت خويلد. وسودة بنت زمعة زوّجها سنة عشر من النبوة، وقيل: سنة ثمان. وعائشة بنت أبي بكر الصديق، ولم يتزوج بكرًا غيرها. وحفصة بنت عمر بن الخطاب. وأم سلمة، واسمها هند، وقيل: رملة بنت أبي أمية واسمه حذيفة أو زهير أو سهل بن المغيرة. وأم حبيبة واسمها رَمْلَة بفتح الراء ـ وقيل: هند ـ بنت أبي سفيان: صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وزينب بنت جحش ـ بعد زيد مولاه ـ زوجه الله بها فدخل عليها بغير عقد كما دلت عليه الآية، وكانت تفتخر بذلك على أمهات المؤمنين، وهي أول من مات منهن بعده. وزينب أم المساكين بنت خُزيمة الهلالية. وميمونة بنت الحارث الهلالية. وجويرية بنت الحارث الخُزَاعية.

وواحدة من بني اسرائيل: صفية بنت حُيَيّ ـ بضم الحاء المهملة وتكسر وتحتيتين الأولى مخففة والثانية مشددة ـ ابن أَخْطَب بفتح الهمزة وسكون المعجمة وفتح المهملة وموحدة، من نسل هارون بن عمران أخا موسى، وهي من سبي خَيْبَر أعتقها ﷺ وتزوج بها.

ومات عنده ﷺ اثنتان: خديجة بنت خويلد بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين على الصحيح لعشر خلون من شهر رمضان، وقيل: بأربع، وقيل: بخمس،

وقيل: بست سنين. ودفنت بالحَجُون وهى ابنة خمس وستين سنة، أو أربع وستين وستة أشهر. وزينب بنت خُزَيمة بالمدينة سنة أربع ولها نحو ثلاثين سنة، ودفنت بالبقيع.

ومات ﷺ عن تسع، نظم أسماءهن الحافظ المقدسى المالكى ـ رحمه الله تعالى ـ فقال:

توفى رسول الله عن تسعِ نسوة إليهن تُعزى المكرماتُ وتُنْسَبُ
فعائشةٌ ميمونةٌ وصفيةٌ وحفصةٌ تتلوهنّ هندٌ وزينبُ
جويريةٌ مع رَمْلةٌ ثم سودةٌ ثلاثٌ وستٌ ذكرهن مهذبُ

وأراد بهند: أم سلمة، وبرملة: أم حبيبة على الأصح.

ولا خلاف فى أن أول امرأة تزوج بها خديجة، وأنه ﷺ لم يتزوج عليها حتى ماتت.

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

[سراريه ﷺ]

وأما سراريه ﷺ، فأربع على ما جزم به أبو عبيدة: مارية بنت شَمْعون ـ بفتح الشين المعجمة وسكون الميم وبالعين المهملة ـ القبطية الصعيدية من حَفْن[1] بفتح المهملة وسكون الفاء ونون من أعمال أَنْصِنا[2] بفتح فسكون فصاد مهملة مكسورة فنون مقصوراً؛ مدينة أزلية بصعيد مصر، أهداها له المُقَوْقِس كما تقدّم بضم الميم وفتح القاف وسكون الواو وكسر القاف الثانية آخره مهملة؛ لقب معناه المطوّل البناء، واسمه جُرَيج ـ بضم الجيم الأولى ـ بن مينا ابن قرقوب القبطى النصرانى صاحب مصر والإسكندرية بكسر الهمزة وتفتح، مات على نصرانيته، وغلط من ذكره من الصحابة.

وكان أهداها فى سنة سبع من الهجرة وأهدى معها أختها سِيْرِين بكسر السين المهملة وسكون المثناة التحتية وكسر الراء وبالنون آخرها، وخَصِيًّا يقال له: مأبور، وألف مثقال ذهبًا، وعشرين ثوبًا لينًا من قباطى مصر، وبغلة شهباء وهى دُلْدُل، وحماراً أشهب وهو عفير، وقيل: يَعْفُور، وعسلاً من عسل بِنْهَا، فأعجب النبى ﷺ ودعا فى عسل بِنْهَا بالبركة.

قال ابن الأثير: وبِنْها بكسر الباء وسكون النون: قرية من قرى مصر بارك النبى ﷺ فى عسلها، والناس اليوم يفتحون الباء.

ووهب ﷺ سيرين لحسان بن ثابت، وهى أم عبد الرحمن بن حسان.

وريحانة بنت شمعون ـ بمعجمتين ـ بن زيد بن عمرو من بنى قريظة، أو من بنى النَّضير، وتزوّجت رجلاً من قُرَيظة وسبيت إذ سبوا، وقيل: اسمها ربيحة بالتصغير، واصطفاها ﷺ لنفسه، وكان يطؤها بملك اليمين، وقيل: أعتقها وتزوجها وضرب عليها الحجاب.

---

(١) حفن: قرية من قرى صعيد مصر. (مراصد الاطلاع ١/ ٤١٣).

(٢) أنصِنا: مدينة بصعيد مصر بها برابى وآبار كثيرة. (مراصد الاطلاع ١/ ١٢٤).

فائدة: أمواله ﷺ كانت من ثلاثة أوجه: من الصفى: كولى وهو ما يصطفيه ﷺ من الغنيمة لنفسه. ومن الهدية تهدى إليه وهو فى بيته لا فى الغزو من بلاد الحرب. ومن خمس الخمس.. انتهى.

ونفيسة جارية أم المؤمنين زينب بنت جحش وهبتها له ﷺ لما رضى عليها بعد أن هجرها مدة. قال فى «الإصابة»: شهرًا، وفى «شرح المواهب»: بعد أن هجرها ذا الحجة، والمحرم، وصفر، ودخل عليها فى شهر ربيع الأول الذى قبض فيه.. انتهى. وسبب هجره ﷺ [أنه] كان فى سفر فاعتلّ بعير صفية، وفى إبل زينب بنت جحش فضل، فقال لها: «إن بعير صفية اعتلّ فلو أعطيتها بعيرًا» فقالت: أنا أُعطِى تلك اليهودية؟ فتركها ﷺ(1) المدّة المذكورة.

واما الرابعة: فقال البرهان فى «النور»: لا أعرف اسمها، أصابها فى بعض السبى. وسماها الحلبى فى «سيرته»: رُبَيْحة القرظية.

قال الحافظ فى الإصابة: رُبَيْحة بالتصغير والمهملة مولاة رسول الله ﷺ ذكرها ابن سعد.. انتهى.

وأخرج ابن أبى خيثمة من طريق سعيد عن قتادة قال فى ذكر سرارى رسول الله ﷺ: وكانت رُبَيْحة القرظية تكون فى نخل العالية، وكان النبى ﷺ يقيل عندها أحيانًا، وزعم بعضهم أن وجعه ﷺ الذى مات فيه ابتدأه عندها. وقال قتادة: وبعضهم يقول: ريحانة. وذكر أبو عبيدة نحوه، والحاصل أنهم اختلفوا فى اسم ريحانة بنت شمعون؛ فمنهم من يقول اسمها ريحانة، ومنهم من يقول: رُبَيْحة. ومقتضى كلام الحلبى فى «إنسان العيون» أن رُبَيْحة غير ريحانة وأنها هى الرابعة.. والله أعلم.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

---

(1) أخرجه أبو داود (٤٦٠٢)، أحمد فى مسنده (٢٥٧١٨).

[قصة بناء الكعبة][1]

(وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ) من عمره الشريف (خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً) فيما جزم به ابن إسحاق وغير واحد من العلماء، وقيل: خمسًا وعشرين سنة، وبه جزم موسى بن عقبة ويعقوب بن سفيان. قال الحافظ: والأول أشهر. وقال الحلبي: هو الصحيح. بل قال غيره: هو الأصح. وغلَّط الشامى القائل بالثانى، ورده الزرقانى فى «شرح المواهب»، وقال: إنه قوى. وقيل: خمس عشرة سنة. قال الزرقانى: ولعله غلط قائله.

وأما القول بأنه كان شابًا فقد قال الزرقانى: إنه يأتى على جميع الأقوال، وهو لا يظهر إلا على القول بأن زمن الكهولية ما بعد الأربعين كما نقله الفاسى فى «مطالع المسرات». وأما على ما صرح به صاحب «القاموس» وغيره: أن زمن الكهولية بعد الثلاثين، أو بعد الأربعة والثلاثين فلا يظهر على القول بأن عمره ﷺ خمس وثلاثون؛ لأنه حينئذ يكون كهلاً لا شابًا.

(بَنَتْ قُرَيْشٌ الكَعْبَةَ لانصِدَاعِهَا) أى تشقق جدرانها بعد توهينها (بِـ) سبب ما دخلها من (السُّيُولِ) جمع سَيل (الأَبْطُحِيَّةْ) المنسوبة إلى أبطح، داخل مكة وهو فى الأصل المسيل الواسع المشتمل على دقاق الحصا كما تقدّم، ففى «العيون»، و «الفتح» عن موسى بن عقبة قال: إن ما حمل قريشًا على بنائها: أن السيل أتى من فوق الردم الذى صنعوه بأعلى مكة لمنع السيل فأخربه، فخافوا أن يدخلها الماء.

وقيل: سبب بنائها أن امرأة أجمرت[2] الكعبة، فطارت شَرَارة[3] فى ثيابها

(١) انظر: السيرة الشامية (١/ ١٧٠، ٢/ ٢٢٨)، مثير الغرام الساكن ص (٢٤٧)، السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٢٧٦)، شفاء الغرام (١/ ١٤٧)، أخبار مكة للأزرقى (١/ ٣٥)، الروض الأنف (١/ ٢٢١).

(٢) جمَّرت: بخّرت.

(٣) شَرَارة: واحدة الشَّرار وهو ما يتطاير من النار.

فأحرقتها.

وقيل: أن نفرًا سرقوا حلى الكعبة وغزالين من ذهب. وقيل: غزالاً واحدًا مرصّعًا بدرّ وجوهر كان فى بئر فى جوف الكعبة عند بابها على يمين الداخل أعدت للحلى والمتاع والطيب؛ أعدها إبراهيم - عليه السلام - لذلك - كما يأتى - وكان يقال لها: خزانة، فأرادوا أن يشيدوا بنيانها ويرفعوه حتى لا يدخلها إلا من شاءوا.

ولا مانع أن يكون السبب هو الثلاث، فالحريق أوهاها، ثم انصدعت بالسيول وخيف انهدامها، ثم سُرِقَ ما ذكر بعد ذلك.

وقيل: تبخير المرأة لها كان فى زمن عبد الله بن الزبير، ولا مانع من التعدد. كما قد قيل بجواز تكرار السرقة فى أيام جُرْهم، وفى زمن قريش؛ فقد نقل فى «إنسان العيون»: أن شخصًا فى أيام جُرْهم أراد أن يسرق من ذلك الحلى شيئًا، فوقع على رأسه وانهار البئر عليه فهلك، وفى كلام بعضهم: فسقط عليه حجر فحبسه حتى أخرج منها. قال: وقد يقال - على بعد -: جاز أن يكون هذا الرجل تكرر منه السرقة، وكان هلاكه فى المرة الثانية. فعند ذلك بعث الله حية بيضاء، سوداء الرأس والذنب، رأسها كرأس الجَدْى، فأسكنها تلك البئر لحفظ تلك الأمتعة، وكانت تخرج منها إلى ظاهر البيت فتشرَّقُ - بالقاف أى تبرز - للشمس على جدار الكعبة، فيبرق لونها، وربما التفت عليها فتصير رأسها عند ذنبها فلا يدنو منها أحد إلا كشت - أى صوتت - وفتحت فاها، فحرست بئرها وخزانتها خمسمائة عام لا يقربها أحد - أى لا يقرب بئرها وخزانتها - إلا أهلكته.

ولعل المراد: لو قرب منها أحد أهلكته؛ إذ لو أهلكت أحدا قَرُبَ من تلك البئر لنقل.

فلم تزل كذلك حتى كان زمن قريش، ووجد هذا السيل والحريق والسرقة، فأرادوا هدمها وإعادة بنائها، وأن يشيدوا بنيانها - أى يرفعوه - ويرفعوا بابها

حتى لا يدخلها إلا من شاءوا. واجتمعت القبائل من قريش تجمع الحجارة، كل قبيلة تجمع على حدة، وأعدوا لذلك نفقة طيبة ليس فيها مهر بغى، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

وفى رواية أخرى غير ذلك ـ وستأتى قريبًا ـ: فأمرت قريش باقوم ـ وقيل: باقول باللام ـ الصحابى كما فى «الإصابة» ـ وكان روميًا، وكان فى سفينة ألقاها الريح بجدة، وكان قبل ذلك يقال له ـ أى لجدة ـ: الشُعَيْبِيَة بضم الشين المعجمة، ساحل مكة ـ فلا يخالف قول غير واحد: «فلما كانت السفينة بالشُعَيْبِيَة ساحل مكة». وقيل: كانت السفينة لباقوم. وقيل: لقيصر ملك الروم يَحمل له فيها الرخام والخشب والحديد سرحها مع باقوم إلى الكنيسة التى أحرقها الفرس بالحبشة، فلما بلغت مرساها من جدة بعث الله ريحًا فحطمها ـ أى كسرها ـ فخرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش إلى السفينة فابتاعوا خشبها، وكلموا باقوم ـ المذكور ـ فى بنائها، وكان نجارًا بناءً، فقدم معهم فأعدوا الخشب لسقفها. وقيل: كان قبطيًا من نصارى مصر، وهو مولى سعيد بن العاص بن أمية، فيحتمل أنهما اشتركا جميعًا فى بنائها أو أحدهما بنى والآخر سقف، أو أنهما واحد وهو رومى فى الأصل، ونسب إلى القبط خلفًا، وهو الذى صنع المنبر المدنى النبوى.

وفى «الشامى»: أن الناس هابوا هدمها فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم به، فأخذ المعْول وقام عليها وهو يقول: اللهم لم تُرَعْ ـ بمثناة فوقية مضمومة فراء مفتوحة، أى لم تفزع الكعبة، فأضمرها لتقدم ذكرها، وفى رواية: لم نَزِغْ ـ بفتح النون وكسر الزاى وغين معجمة ـ أى لم نمل عن دينك، ولا خرجنا عنه ـ يقال: زاغ عن كذا خرج عنه ـ اللهم لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين الأسود واليمانى، وتربَّص الناسُ تلك الليلة، وقالوا: ننتظر فإن أصيب لم نهدم شيئًا ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شىء هدمنا فقد رضى الله ما صنعنا. فأصبح الوليد من ليلته عائدًا إلى عمله، فهدم وهدم

الناسُ معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس - أساس إبراهيم عليه السلام - فأفضَوا إلى حجارة خُضْر كالأسنمة - جمع سنام وهو أعلى الظهر للبعير - آخذ بعضها ببعض، فأدخل رجل ممن كان يهدم عَتَلته بين حَجرين منها ليقلع بها بعضها، فلما تحرك الحَجَرُ تنقَّضت - أى تحركت - مكة بأسرها، وأبصر القوم بَرْقة خرجت من تحت الحجر كادت تخطف بصر القوم، فانتهوا عن ذلك الأساس وبنوا عليه.

وهذا هو البناء الثامن لها، ولم يبنوها على قواعد إبراهيم - أى أساسه - بل نقصوا من طولها وعرضها أذرعًا ستة أو سبعة أدخلوها فى الحِجْر لضيق النفقة - أى الحلال - لما تقدم.

وفى لفظ: أخرجوا من عرضها أذرعا من الحِجْر وبنوا عليه جدارا قصيراً؛ علامة على أنه كان من الكعبة.

ووجدت قريش فى الركن كتابًا بالسريانية فلم يدر ما هو حتى قرأه لهم رجل من يهود فإذا هو: أنا الله ذو بكَّة، خلقتها يوم خلقتُ السموات والأرض وصورت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حُنفاء، لا يزول أخشباها - أى جبلاها وهما أبو قُبَيْس وقُعَيْقَعان - يبارك لأهلها فى الماء واللبن.

ووجدوا فى المقام - أى فى محله - كتابًا آخر مكتوب فيه: بكَّة بلد الله الحرام يأتيها رزقها من ثلاث سبل.

ووجدوا كتابًا آخر مكتوب فيه: من يزرع خيرًا يحصد غِبْطة(1)، ومن يزرع شرًا يحصد ندامة، تعملون السيئات وتخسرون الحسنات أجل كما يجىء من الشوك العنب. أى الثمر.

وفى «الإصابة» عن الأسود بن عبد يغوث، عن أبيه: أنهم وجدوا كتابًا أسفل المقام، فدعت قريش رجلاً من حِمْيَر فقال: إن فيه لحرفًا لو أحدثكموه

(1) الغبطة: تمنى حصول مثل الخير الذى عند غيرك.

لقتلتمونى. قال: وظننا أن فيه ذكر محمد ﷺ فكتمناه[١].

وفى رواية: لما شرعوا فى نقض البناء، خرجت عليهم الحية التى كانت فى بطنها، سوداء البطن، فمنعتهم من ذلك، فاعتزلوا عند مقام إبراهيم، فتشاوروا فقال لهم الوليد أو أبو وهب عمرو بن عائذ بن عمران المخزومى خال عبد الله والد النبى ﷺ: ألستم تريدون بها الإصلاح؟ قالوا: بلى. قال: فإن الله لا يهلك المصلحين، ولكن لا تُدْخِلُوا فى بيت ربكم إلا طَيِّبَ أموالكم، وتجنبوا الخبيث؛ فإن الله طيب لا يقبل إلا طَيِّبًا، ولا تجعلوا فيها مالاً أُخذ غصبًا، ولا قطعت فيه رحم، ولا انتهكت فيه حرمة. ففعلوا ودعوا وقالوا: اللهم إن كان لك فى هدمها رضًا فأتمه واشغل عنا هذا الثعبان، فأقبل طائر من جوّ السماء كهيئة العُقَاب ظهره أسود وبطنه أبيض ورجلاه صفراوان، والحية على جدار البيت، فأخذها ثم طار بها[٢].

وفى بعض الروايات: فبعث الله طيرًا أعظم من النسر، فغرس مخالبه فيها فألقاها نحو أجياد ـ أى فى الحَجُون ـ فابتلعتها الأرض. فقالت قريش: إنا لنرجو أن الله قبل عملكم ونفقتكم.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أنها الدابة التى تخرج آخر الزمان تكلم الناس. وقد جاء أن الدابة تخرج من شِعْب أجياد، وقيل: الخارجة فصيل ناقة صالح وهما غريبان.

وقد حضر ﷺ هذا البناء مع قريش، وكان ينقل معهم الحجارة من الوادى. روى الشيخان عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال: لما بنت قريش الكعبة ذهب رسول الله ﷺ والعباس ـ رضى الله عنه ـ ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبى ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك تقيك الحجارة ـ أى كبقية القوم فإنهم كانوا يضعون أُزُرَهُم على عواتقهم، ويحملون الحجارة ـ

(١) التاريخ الكبير للبخارى (١/ ٤٤٥)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٦١).

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٥٩).